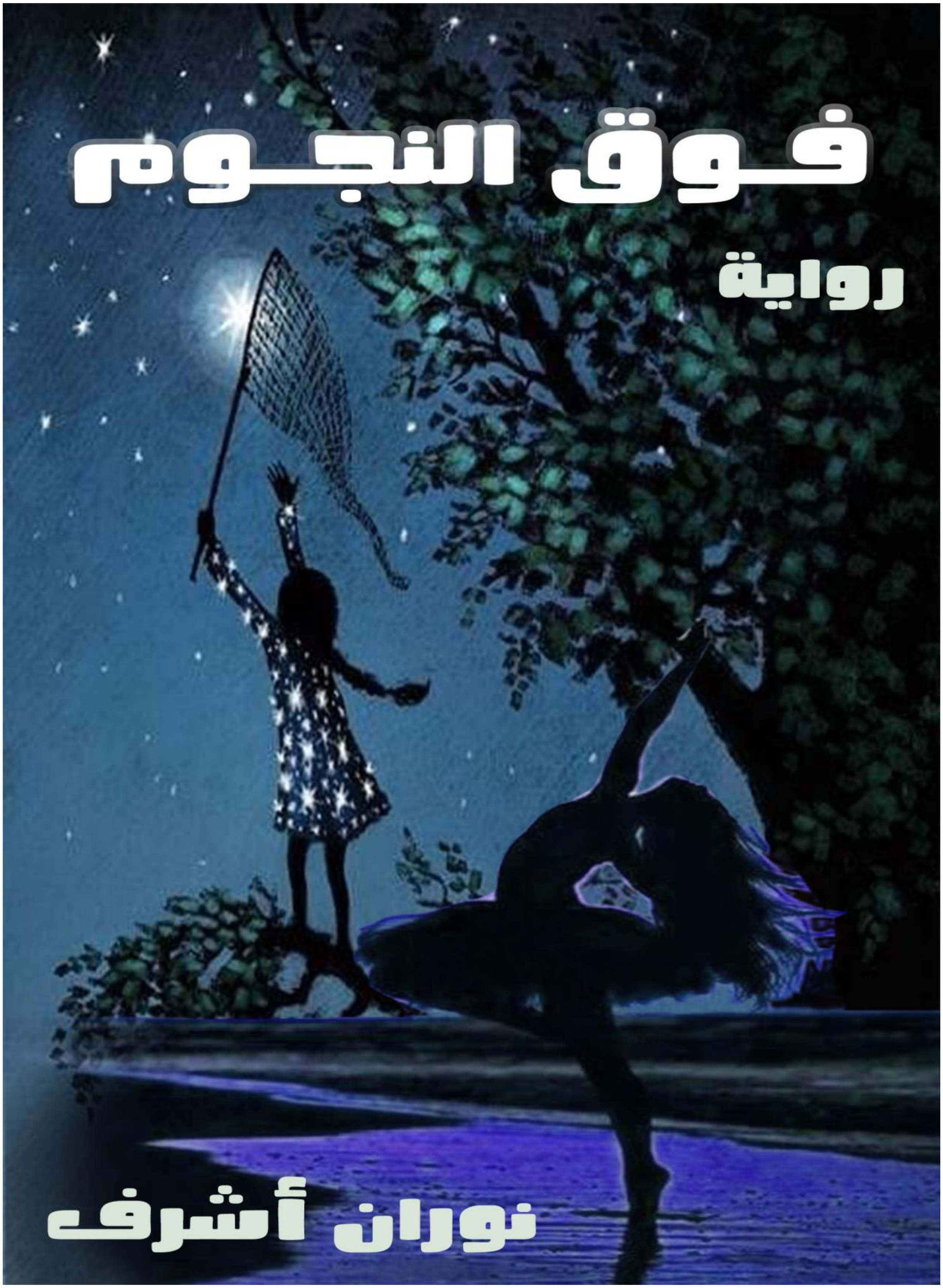
فوق النجوم
رواية
نوران أشرف

المقدمة

أصوات صخبة تخرج من هؤلاء الأطفال أثناء ركضهم بفناء المدرسة الفسيح، فمنهم من يلهو بالكُرة بقدمه ومنهم من يركض وراء زميل له بابتسامة عريضة على ثغره رغم أنه يُريد أن يضرب صديقه مُدعيًا المزاح...

وبين هذا وذاك، كانت تلك الفتاة الصغيرة ذات التسعة أعوامٍ تقف بمُنتصف الفناة تزيح خصلاتها السوداء عن عينها العسلية التي تناسقت مع جسدها الرشيق رغم صِغر سنها، كانت الابتسامة تشق ثغرها البريء وعيناه مُنصبتان على صورة متوسطة الحجم تندثر بين كُتبها ليظهر بداخلها عارضة في إحدى الاستعراضات ترتدي تنورة قصيرة أسفلها سروال ضيقٌ غطا ساقيها بالكامل، كما كانت قدمها ترتفع لأعلى برشاقة أعربت عن مهارة تلك العارضة بهذه الرياضة المُسماة بالبالية ...

-بتعملي إيه يا سما ؟

قطع هذا الصوت شرودها وجعلها تغلق الدفتر وتدثره بين أغراضها، التفتت بعدها نحو صديقاتها لترسم ابتسامة أخرى على ثغرها تبدو ودودة لكن الحقيقة أنها ابتسامة زائفة أخفت معها بعضًا من توترها...

التفت الفتيات حولها لتُحيطها واحدة منهن بذراعها وتسألها عن أحوالها فتجُيبهن بصوتٍ ودود وإجابات مُختصرة، بعد برهة من الحديث أردفت إحدى الفتيات بصوتٍ واثق:

-أنا لما أخلص تعليم هروح أشتغل مع بابي في الشركة ... دي شركة كبيرة أوي ...

بقيت تتحدث عن مستقبلها وتشاركها الفتيات الحديث بمرح حتى أردفت واحدة منهن بثقة:

-أنا لما أكبر هبقى دكتورة...

-وأنا هبقى مهندسة ديكور..

وهكذا أخذ الحديث يدور بينهن عن مستقبلهن الذي يُخططن له من الآن، ويزدادن حماسًا كلما تحدثن عنه وكأن تحقيق تلك الأحلام بهذه السهولة، فهما لم ينزلا على أرض الواقع بعد...

قطعت إحدى الفتيات هذا الحديث لتوجه سؤالًا لسما التي كانت في حالة من الصمت تشرد في عالمها الوردي الذي حققت فيه حُلمها بالفعل دون أن تنبس ببنت شفة وتُخبرهن عما بداخل ذهنها...

-وإنتِ بقى يا سما ... عايزة تطلعي إيه لما تكبري ؟

خرجت سما من شرودها على هذا السؤال الذي جعلها تشعر بالحيرة وبعض الارتباك، فكيف تُخبرهن أنها تُريد أن تُصبح ماهرة بالعروض والرقصات الاستعراضية ؟... لكنها بعد فترة من الصمت والالحاح عليها أردفت ببعض التردد:

-عايزة أبقى .... عايزة أبقى باليرينا

لاحت الحيرة على وجوههن من حديثها الذي لم يبدو مفهومًا بالنسبة لهن، فهن لا يعلمن شيئًا عن تلك الرياضة التي تتحدث عنها، أو ربما يعلمن القليل ولا يعلمن هذا المُصطلح الذي قالته من قبل...

-يعني إيه ؟

سألتها إحدى رفيقاتها ففسرت سما مقصدها بلهفة تخيلت معها هذا الحُلم الذي لطالما تمنت تحقيقه:

-يعني أكون برقص بالية كويس جدًا، وأبقى مشهورة

أنهت حديثها ببسمة عريضة لكن واحدة منهن سخرت منها بقولها:

-عايزة تبقي رقاصة ؟

أنهت حديثها بقهقهة ساخرة جعلت بقيتهن يُقهقهن وراءها مما جعل بسمة سما تتلاشى ويحل محلها إحساسٌ بالخجل؛ أنكست رأسها لأسفل وكادت الدموع تتقاطر على وجنتيها حتى....

عادت من تلك الذكرى وهي تمسك بتلك الصورة التي تحمل تلك الفتاة الاستعراضية، ظهر انعكاس وجهها الذي لم يتغير كثيرًا رغم مرور السنوات، فهي الآن فتاة يافعة ربما بمُنتصف العشرين من عُمرها لكنها لاتزال تحتفظ بملامح وجهها الصافية وجسدها الرشيق المتناسق، بقيت ترمق تلك الصورة التي أضحت باهتة بفعل الأيام وداخلها عزيمة تزداد يومًا بعد يومٍ على تحقيق هذا الحُلم رغم عدم إعتراف المُجتمع به، ورغم صعوبة تحقيقه ... فهي عازمة على تخطي تلك الصِعاب مهما كانت....

الفصل الأول (آمال مُحطمة)

"إن أكبر التحديات التي تواجهها يوميًا، تتمحور حول ضبط نظرتك لذاتك، فإذا كانت دونية، فستهدر قُدراتك، وإذا كنت مُعتدًا بنفسك إلى درجة كبيرة جدًا، فستهدر قدرات الآخرين"

ــ

سماء صافية تلطخت باللون الأزرق وبعض السُحب التي تُعادل القُطن في كثافتها، وفي تلك الأجواء الربيعية الساحرة، نجد فتاة تتربع على فراشها بمنامتها التي تحمل بعض الرسوم المُتحركة، تتحسس أناملها تلك الصورة التي تحتوي على صورتها وهي بعُمر الثامنة عشر وجوارها كلًا من والدها الذي كان يبتسم ابتسامة واسعة ويضم والدتها التي كانت تحمل شقيقتها الرضيعة...

مسدت برقة على وجه كلًا منهما بدموع مكبوتة حاولت إخفاءها قدر الإمكان، فهي تُحارب وحش الاشتياق بجسارة منذ تركاها في هذا العالم ورحلا...

تنهدت تنهيدة حارة استرجعت معها بعض الذكريات المُحببة إلى قلبها والتي كانت بهم طفلة صغيرة تلهو مع والدها بالكُرة المطاطية، بل وتتذكر كذلك مشاكستها مع شقيقها الأكبر حتى تأتي والدتهما كي تحاول التدخل لكن الوضع ينقلب بالنهاية إلى مزاح يتشارك فيه ثلاثتهم ... بقيت الذكريات تتدفق بذهنها حتى...

-يلا يا سما عشان الفطار

قطع شرودها هذا الصوت الذي أتى من بدور ابنة عمها بعد أن اقتحمت الحجرة باندفاعٍ جعل أوصالها ترتعد وجسدها ينتفض..

-إيه يا بنتي ... حد يدخل كدة ؟

هتفت سما بتلك الجملة والتذمر يلوح على جنباتها لكن بدور آجابتها بلامبالاة وبعض الاستخفاف:

-أسفين يا ستي ... يلا بقى قومي عشان الفطار، تيتا بتناديكي

تنهدت سما بخيبة أملٍ ثم وضعت تلك الصورة على منضدة صغيرة خشبية تجاور هذا الفراش العريض الذي يتوسط الحُجرة، هرعت بعدها نحو البهو لترى منضدة عريضة تتوسط إحدى الأركان وعليها بعض أصناف الطعام الذي يتم تناوله بالفطور، حيث كان يوجد بعض الصحون التي تحتوي على البيض المخفوق والبعض يحتوي على الجُبن والمزيد من الأكلات الشعبية التي تم تقسيمها بين الأطباق...

توسطت جدتهم الطاولة والتي تُدعى زُهرة، فهي سيدة مُسنة لاتزال تحتفظ بإشراقة وجهها وحنانها الذي تغدق به على أحفادها، تقدمت سما نحوها لتُعانقها بحبورٍ طبعت معه قُبلة على وجنتيها أثناء قولها:

-صباح الخير يا تيتا..

ابتسمت زهرة وهي ترد عليها بحُب:

-صباح الخير يا حبيبتي .. يلا بقى أقعدي عشان نفطر

استجابت سما لطلبها واستقلت مقعدًا بالقُرب من بدور التي جلست بدورها بجوار جدتهم، أما أمامهما فكان يجلس زكريا شقيق بدور والبالغ من العُمر عشرة أعوام، وجواره تجلس سارة شقيقة سما والتي تبلغ من العُمر ثمانية وكان كلًا منهما يرتدي ثيابًا مدرسية موحدة استعدادًا للذهاب للمدرسة...

تلفتت سما حولها لتُلاحظ أن شخصًا ما ينقصهم، لذلك وجهت حديثها نحو بدور كي تسألها:

-أومل يارا فين ؟؟

كانت يارا هي شقيقة بدور الصُغرى، لكنها لم تكن تتناول معهم الفطور، فدائمًا ما تتهرب من تلك التجمعات لأسباب لا يعرفونها...

-يارا في الجامعة

قالتها بدور وهي تنتشل شريحة من الخُبز وتدثرها داخل خليط من العسل الأسود والطحينة، همهمت سما بتفهمٍ ثم بدأت تناول الطعام حتى استمعا إلى صوت حافلة المدرسة يصدح أسفل بنايتهم، انتبهت سارة إلى ذاك الصوت فتركت طعامها بسرعة لتنتشل حقيبتها وتردف:

-دا باص المدرسة ... يلا يا زيكا

واصل زكريا تناول الطعام ببرودٍ آجابها معه:

-ماشي جاي ... هخلص أكل وأنزلهم

قالها وهو يضع قطعة من القثاء داخل فمه ويلوّكها ببرودٍ جعل بدور تشعر ببعض الغضب وتهتف بوجهه:

-ما تقوم يا زيكا عشان باص المدرسة ... محدش هيستناك

وضع قطعة أخرى من القثاء داخل فمه ليواصل حديثه ببرودٍ ولامبالاة أمام بدور التي كادت تنفجر من تصرفاته:

-مش مهم ... إللي ميعوزنيش ... ميخصنيش

أطبقت بدور على شفتيها بغضب، فهذه ليست أول مرة تتشاجر مع شقيقها من أجل الذهاب للمدرسة، وليست أول مرة يُحادثها بتلك الطريقة التي تُصيبها بالغيظ...

وثبت من مقعدها لتتجه نحو زكريا ثم توجه حديثها نحو سارة كي تُخبرها بتحذير:

-إنزلي يا سارة للباص وأنا هتصرف معاه

استجابت سارة لحديثها ثم ودعت شقيقتها وجدتها قبل أن تنصرف عن المنزل، اما عن بدور فكانت تمسك بتلابيب زكريا وتدفعه خارج المنزل بلامبالاة لتذمره ومحاولاته للتفهم معها...

-إنت هتروح المدرسة ... ومش عايزة أسمع أي اعتراض

قالتها وهي تدفعه للخارج وتُغلق الباب وراءه لتُتمتم بعدها بحنقٍ:

-ناس مبيجيش معاها غير العين الحمرا...

ـــ

حديقة واسعة احتوت على حفنة من الأزهار التي ذبل بعضها من قلة الإعتناء، كذلك تحتوي على أرائك خشبية تترامى في الأطراف ويجلس عليها الشباب بوضيعات مختلفة، فمنهم من يقرأ كتابًا ومنهم من يتصفح هاتفه أو ينصت إلى الأغاني، ومنهم من يتحدث مع الفتاة التي يُواعدها أو يتحدث مع رفاقه بمرحٍ ومُزاح...

وبين هذا وذاك كانت تلك الفتاة ذات الجسد الرشيق الذي تعتني به جيدًا هو وشعرها البني المموج الذي تناسق مع عينيها الخضراء الواسعة، فكانت شديدة الجمال والجاذبية خاصة بتلك الملابس التي أبرزت بعضًا من تعرجات جسدها، تربط ذراعها بذراع شابٍ طويل القامة رياضي الجسد يرتدي كنزة بيضاء أسفلها سروال من الجينز الأسود...

يتجول كلاهما بين ممرات الجامعة وتلك الأحاديث المرحة تدور بينهما، فكانت تلك الفتاة المدعوة بيارا تقول بدلال:

-مش هتيجي بقى تطلبني ؟؟ ... الناس بقيت تبصلنا بصات غريبة

قبض على كف يدها وهو يُجيبها بتحججٍ أخفاه جيدًا:

-متقلقيش يا حبيبتي ... أول ما السنة تخلص هروح أتقدملك ... أصلك عارفة بقى، السنادي صعبة

همهمت يارا بموافقة على الرغم من أنه أخبرها هذا بالعام الماضي، ولاتزال علاقتهما حتى الآن غير شرعية، لهذا السبب تخفيها عن أهلها تمامًا خاصة شقيقتها التي لن تسمح أبدًا بما تفعله ... تداركت وعوده الباطلة باقتناع تامٍ بأنه سيُنفذها هذه المرة، فهي متأكدة أنه يهيم بها عشقًا كما تفعل هي بالضبط...

واصلت السير بجواره إلى أنه وجدت صديقاتها المقربات يجتمعن عند بقعة ويلوّحن لها من بعيد، بادلتهن التلويح بابتسامة عريضة استأذنت بعدها من الشاب الذي تسير معه والذي يُدعى تيمور:

-هروح أشوفهم وآجي .. باي

لوّحت له قبل أن تُهرول نحو صديقاتها وتُصافحهن بمرحٍ ومكامعاتٍ متبادلة، بعد وصلة التِرحاب هذه أردفت دانه إحدى صديقاتها بتساؤل:

-عملتي إيه في الـ " CEIقضايا إقتصادية معاصرة _ اسم مادة " ؟ ... نجحتي فيها إزاي، دا الدكتور مسقط الدفعة كلها

داعبت يارا خصلة متدلية من شعرها وهي تُجيب بثقة:

-كله بالحُب ... إنتِ فاكراني أي حد ولا إيه ؟؟

لاحت بسمة خبيثة على ثغرها وهي تتذكر ما الذي فعلته مع ذاك الأستاذ الذي يترصد لطُلابه ويتزعم تدمير مستقبلهم حتى يدفعون له المزيد من المال، تذكرت وهي تتدلل أمام هذا الأستاذ حتى جعلته يرفع من علاماتها ويجعلها تتخطى هذه المادة بسهولة...

عادت من ذكرياتها على حديث زميلاتها الذي استمر برهة من الوقت قطعتها يارا وهي ترمق ساعتها وتكتشف أن الوقت يُداهمها، ويجب أن تعود إلى المنزل حتى لا تتأخر على تمرينها:

-هستأذن أنا بقى عشان عندي تمرين ولازم أروّح..

قالتها قبل أن تلوّح لهن وتتحرك بخطواتٍ واثقة اتجاه البوابة حتى تهرع من تلك الجامعة، كانت تضع الهاتف داخل حقيبتها وتتحرك أمامها دون أن تنتبه لهذا الصوت الذي طفق يناديها مع تلك الخطوات التي بدأت تركض نحوها...

-أنسة يارا .. أنسة يارا..

توقفت يارا ما إن انتبهت إلى ذاك النداء لتلتف وراءها وتجد أمامها يونس، زميلها بالجامعة، فقد كان يلهث من كثرة الركض، ويُعدل من وضع نظراته التي تنزلق بفعل حُبيبات العرق التي غمرت وجهه، كان يقف أمامها بقميصٍ أزرق تناسب مع جسده النحيل وقامته المتوسطة وكذلك شعره الكثيف الأسود، مدّ أمامها حفنة من الأوراق مع ابتسامة ودودة لاحت على ثغره وهو يقول ببعض الارتباك:

-أنا عملتلك ملخص للمحاضرة بتاعت انهاردة ... أصل أنا ملقتكيش

رمقته يارا بمعالم جامدة انتشلت معها الأوراق من يده دون أن تنبس ببنت شفة، كادت تتحرك لولا اعتراض يونس للمرة الثانية رغبة بسماع أي إطراء على ما يفعله من أجلها...

-أنا .. أنا شرحتلك المنهج أحسن من الدكتور كمان ... ولو عايزة أي حاجة أنا_

قطعته يارا بحدة وفظاظة:

-ماشي يا يونس ... ممكن تسبني أمشي بقى عشان متأخرش ؟؟

تلاشت ابتسامته المتلهفة وهو يوميء برأسه ببعض الخُذلان ثم يتركها ويرحل بخيبة أملٍ طاغية، فهي لا تُعيره أي انتباهٍ مهما فعل..

ما إن إبتعد عن أمامها حتى زفرت الهواء من فمها بضيق رمقت معه تلك الأوراق بتقزز ثم تحركت نحو سلة المُهملات وألقت بهم تلك الأوراق لتتحرك بعدها إلى منزلها وكأن شيئًا لم يكن...

____

تدور بأطراف أقدامها على أرضية لامعة تجعلها تتحرك بانسيابية ورشاقة، كانت ترتدي تنورة قصيرة وتحمل معها حبلًا من الحرير ترسم به في الهواء بطريقة ساحرة، رفعت قدمها لأعلى حتى وصلت إلى رأسها لتمسكها بيدها الأخرى وتدور بهم ببراعة جعلت بدور تُصفق لها ما إن رأت هذا العرض أمامها...

-برافووو...

كانت تُشجعها بتلك الكلمات وهي ترتدي مثلها بالضبط، فهي كذلك تمارس تلك الرياضة كما تفعل يارا وسارة، فجميعهن ترعرعن على ممارستها حتى جعلنها جزءًا من حياتهن، فيما عدا سما التي تعتبر هذه الرياضة حياتها كلها...

استندت سما على مِسندٍ خشبي بجوار بدور التي كانت تقوم ببعض الإطالات بعد أن أدت رقصتها، فكانت سما تتحدث بلهفة:

-مش قادرة استنى بجد اليوم إللي هنسافر فيه ... مش مصدقة إننا هنشارك في إفتتاحية كبيرة كدة

كانت تتحدث عن إفتتاحية إحدى المتاحف بالأقصر، لأن فريقها سيذهب لتأدية العرض الرئيسي بتلك الافتتاحية والذي سيتم عرضة بالتلفاز، وهذا ما تتحمس له سما، فهذه أول مرة يُشارك فريقهن بحدثٍ جليلٍ كهذا...

شاركتها بدور حماسها بحديثها:

-أنا كمان متحمسة أوي ... أخيرًا هسافر الأقصر، أنا كان نفسي أوي أروحها من زمان

واصلت الحديث مع سما عن تلك الرحلة التي ستُقام بعد يومين من الآن، أي في هذه الليلة سيُخبروهن عن تفاصيل الرحلة، قطع حديثهن صوت الهاتف الخاص ببدور والذي كان يصدح من داخل حقيبتها الملقية على الأرض؛ استأذنت بدور لتنتشل هاتفها وتُجيب على مُعتصم خطيبها الذي كان يتصل بها...

أنهت معه المكالمة لتُخبر سما بلهفة:

-عن إذنِك بقى ... صاصا عايزني

قالتها ثم هرولت إلى حُجرة تبديل الملابس كي تُبدل ثيابها قبل أن تذهب لمقابلته، فكانت سما تتابعها بسخرية قالت معها:

-ماشي يا بتاعة صاصا....

____

كانت الساعة قد تخطت الثالثة عصرًا، وها هم يجتمعون مجددًا داخل المنزل بعد أن انتهت كلًا من بدور وسما من تدريبهما وانتهت بدور كذلك من الحديث مع معتصم والذي استأذنت منه كي تتناول الغداء برفقة عائلتها...

كانت تحمل سما طنجرة كبيرة الحجم تحتوي بداخلها على نوع من أنواع اللحوم الذي تم طهوه بمهارة...

-عملتلكم بقى شوية شاورما لحمة هتاكلو صوابعكم وراها

ترأست جدتهم الطاولة وهي تشكرها بحبور:

-تسلم إيدِك يا حبيبتي

جلست بدور على الطاولة وهي تردف ببعض المرح:

-مش ناوية بقى تكملي جميلِك وتعمللنا كنافة

جلست سما جوارها وهي توافقها بنفس مرحها:

-وماله ... شوية كدة وهعملِك أحلى كنافة بالمانجا

بادلتها بدور بابتسامة ودودة وبعض الأحاديث المرحة والتي قطعتها جدتهما لتسأل:

-هو فين زكريا وسارة ... مش ده معاد رجوعهم ؟

طمأنتها بدور بحديثها:

-هتلاقيهم جايين دلوقتي يا تيتا

ما إن أنهت حديثها حتى إستمعوا إلى جرس المنزل يصدح عاليًا لتستنتج بدور أن الطارق هو زكريا وسارة؛ وثبت من مقعدها لتفتح لهما الباب وتُدخلهما إلى الداخل وهي تسأل عن أحوالهما، فكانت سارة كالعادة تحمل السعادة على وجهها مع بعض الإرهاق، أما عن زكريا فلم تكن تخلو عوالمه من الأريحية والتذمر...

-ها عملتو إيه ؟؟

كانت تسألهما بدور هذا السؤال لتطمئن على حالهما، لكن زكريا آجابها ببرود كعادته :

-ولا حاجة ... زي كل يوم

اغتاظت بدور منه لوهلة لكنها تداركت غيظها لتُفسر مقصدها أكثر:

-قصدي عملتو إيه في نتيجة الترم الأول ... مش المفروض تكونو جبتوها ؟

آجابتها سارة بمرحِ وهي تُخرج الشهادة المدرسية من حقيبتها وتوجهها نحو بدور كي تُخبرها ببراءة ولهفة:

-أيوة جبناها ... وأنا جبت الـ full markوطلعت من الأوائل

شقت البسمة الواسعة ثغر بدور وسما كذلك وهي تُهنيء سارة وتُعانقها عناقًا دافئًا، أما جدتهم فقد استأذنت في تلك اللحظة كي تدلف المرحاض ثم تأتي لهم ليبدأو تناول الطعام ... بعد برهة من التهنئات وجهت بدور حديثها نحو زكريا كي تسأله:

-وإنت يا زيكا ... فين النتيجة ؟؟

لاح الارتباك على وجهه وهو يتلتف حوله بتيهٍ حاول معه التهرب بأي شكلٍ من الأشكال...

-النتيجة !!! ... إيـــه...

ترك حقيبته على إحدى المقاعد المجاورة لطاولة الطعام ثم هرع نحو اللائحة التي يدوٌن بداخلها الأيام، أمسك هذه اللائحة وأعطاها لشقيقته بدور وهو يقول ببلاهة:

-أهي النتيجة أهي

أمسكت بدور تلك اللائحة عنوة ثم أردفت بصوتٍ مُرتفعٍ أعرب عن غضبها:

-إنت هتستعبط يا زيكا ... فين نتيجة المدرسة ؟

لم يُجبها زكريا وبقي يُتهته حتى اتجهت بدور نحو حقيبته المدرسية لتفتحها وتُخرج شهادته كي تتفحصها أمام عوالم الارتباك التي تلوح على وجهه ... ما هي إلا بضع ثوانٍ حتى خرجت شهقة مدوية من جوفها قالت معها:

75 -في المية !! ... وإنت لسة في خامسة ابتدائي!

حاول زكريا التبرير لها قبل أن تنفجر بوجهه :

-بُصي أنا هفهمِك بس_

قطعته بدور بصوتٍ مُرتفع أعرب عن مدى غضبها، فهي من تتولى كل ما يخص مذاكرته بعد أن تركهما والداهما هنا لأسبابٍ سنعرفها مع الأيام:

-هتفهمني إيه !! ... يعني المذاكرة وحرقة الدم طول الأيام إللي فاتت دي عشان في الآخر تجبلي 75 في المية !! ... وبعدين..

وجهت بصرها مجددًا نحو شهادته لتعاتبه بعدها بحديثها:

-جايبلي خمسة من عشرين في الدراسات يا جاحد ... خمسة من عشرين!!

جلس زكريا على إحدى المقاعد ثم وضع قدمًا فوق الأخرى وهو يُجيبها ببرود:

-أيوة أصلي بخاف من الحسد

استشاطت بدور أكثر من إجابته وحاولت التهجم عليه لكن سما أوقفتها لتحاول التهدئة من روعها:

-هدي نفسِك يا بدور .. هدي نفسِك يا حبيبتي

بينما كانت بدور لاتزال تهتف بوجهه:

-إنت كمان ليك عين تهزر

آجابها زكريا ببرودٍ للمرة الثانية وهو يضع يده خلف عُنقه:

-أنا عندي اتنين عين مش عين واحدة .. شوفتي بقى

وصل غضبها إلى ذروته في تلك اللحظة فخفضت جذعها لتلتقط نعلها وتحاول قذفه عليه لولا سما التي كانت تُحاول ايقافها:

-خلاص يا بدور سيبِك منه ... ما تسكت بقى إنت كمان

وجهت آخر جملة نحو زكريا كي يتوقف عن استفزازها لكنها أدت نتيجة عكسية وجعلته يردف بتبرير:

-إنتو متعصبين على إيه ... أنا أساسًا مكنتش عايز أجيب تقدير ... كفاية تقديري لنفسي

أنهى حديثه بغرورٍ جعل بدور تهتف بوجهه بوعيد:

-وربنا لاجيب الواد ده من شعره

حاولت سما تهدئة الموقف للمرة التي لا تعلم عددها:

-خلاص بقى يا بنتي... هو هيعوض آخر السنة ... مش كدة يا زيكا ؟؟

وجهت حديثها نحو زكريا الذي هز رأسه وهو يؤيد حديثها، فما هي إلا برهة حتى هدأت بدور وجلست أمامه على الطاولة تريد أن تتأكد مما قاله:

-يعني الترم ده ... هتجيب درجة أحسن ؟؟

آجابها زكريا بثقة:

-أه ... إن شاء الله الترم إللي جاي هجيب 76 .. إيه رأيك بقى ؟

هتفت بدور بوجهه بتلقائية نمت بسبب غضبها:

-وحياة أمــك!!

حاول زكريا التهدئة من روعها بقوله:

-إهدي بس إنتِ متعصبة ليه ... بعدين أنا ضامن مستقبلي

أنهى حديثه بثقة فسألته سما بفضول:

-ضمنه إزاي بقى ان شاء الله ؟

أرخى زكريا ظهره للوراء وهو يُجيبها بثقة:

-عم رضا الحلاق قالي لما تكبر هخليك تشتغل معايا كوافير

هتفت بدور بغير تصديق:

-كوافيـر !! ... أخرتها هتبقى كوافير!!

دافع زكريا عن تلك المهنة باستماتة قال معها:

-وماله يعني الكوافير !! ... مش احسن ما أبقى ميكانيكي

سألته سما مجددًا ولايزال الفضول يلوح على صوتها:

-واشمعنا كوافير ؟؟ ... ليه مش حلاق ؟؟

أمسك زكريا واحدة من المثلثات المحشوة الموضوعة على الطاولة وأخذ قضمة منها ليقوم بتلويكها أثناء الإجابة:

-عشان ألعب في دماغ الستات ... أصل الرجالة دماغهم ناشفة ... والستات بقى دماغهم مهلبية و_

بتر حديثه ما إن لمح نظرات بدور المتوّعدة التي كادت تضربه في مقتلٍ فهي تعلم ما الذي سيقوله هذا الذي لم يحظى بأي نوع من التربية، فغياب الأسرة بالطبع له أثر بتلك الشخصية التي أمامها...

حمحم زكريا قبل أن ينتشل قطعة أخرى من المثلثات المحشوة ويتدارك الموقف بسؤاله:

-هي تيتا فين صحيح ؟؟

ما هي إلا بضع لحظاتٍ حتى أتت جدتهم ورحٌبت بهم بحرارة ثم ترأست الطاولة كي تبدأ بتناول الغداء معهم...

دق جرس المنزل مجددًا تبعه دلوف يارا إلى الداخل بحقيبة صغيرة تضع بداخلها بعض الأمتعة الخاصة بالجامعة، ما إن إقتربت نحوهم حتى أخبرتها بدور بوٌد:

-تعالي يا يارا اتغدي معانا ... دا سما عاملة شاورما حلوة أوي

ابتسمت سما إثر إطراءاتها لكن يارا واصلت تحركها داخل المنزل بنظراتٍ مُستحقرة تغمر وجهها أثناء إجابتها:

-مش عايزة...

ثم تمتمت بقرارة نفسها بعوالم مشمئزة حاقدة:

-مش ناقصة تسمم هي

وصل حديثها إلى مسامع سما التي أحست بالضيق لوهلة، فدائمًا ما تلقى تلك المعاملة الفظة من يارا وهي لا تعلم السبب في ذلك...

تنهدت تنهيدة قصيرة رمقت معها صحنها الذي كان شبه خالٍ ثم وثبت بعدها لتردف بهدوءٍ أبرز بعضًا من ضيقها:

-أنا شبعت الحمد لله...

اتجهت بعدها إلى حُجرتها بعد أن قامت بغسل يديها واتبعتها بدور بعد أن ساعدت جدتها على إزالة الصحون وجليها...

ـــ

ها هي الآن تجلس على فراشها تتفحص هاتفها بلامبالاة وظهرها يستند على الحائط، إرتمت بدور جوارها تحاول تلطيف الأجواء بحديثها:

-متضايقيش من يارا ... هي مش قصدها

بقيت عينا سما تُحدقان بالهاتف الخاص بها وهي تُحادث بدور بلامبالاة:

-أنا مش متضايقة أصلًا...

لم تُصدقها بدور وحاولت دفعها عن الفِراش بمرح قررت معه:

-طب يلا قومي بقى عشان نحضر شنطة السفر

قطبت سما حاجبيها وهي تسألها:

-سفر إيه يا بنتي هما أساسًا لسة مبعتوش التفاصيل

اندفعت بدور قليلًا وهي تُخبرها بلهفة:

-لأ بعتولي ... وبعتو لسارة ويارا كمان ... تلاقيهم هيبعتولِك كمان شوية

في تلك اللحظة وجدا سارة تقتحم الحجرة وتنقض على سما لتشاركهن الفراش بقولها المُقرر:

-يلا يا سما عشان نحضر الشنطة

أزاحتها سما قليلًا حتى تلتقط بعضًا من أنفاسها لأن الفراش لا يسع ثلاثتهن، كذلك أرادت أن تتصفح هاتفها وترى سبب عدم إرسالهم لتلك الرسالة؛ أخرجت هاتفها وتصفحته جيدًا لكنها لم تجد أي من الرسائل مما آصابها بالحيرة...

-إزاي محدش بعتلي لغاية دلوقتي ؟

قالتها ببعض التذمر فحاولت بدور التبرير لهم بقولها:

-تلاقيهم نسيو، إنتِ عارفة بقى تلاقيهم مضغوطين

لم تنصت سما لتبريراتها ووضعت الهاتف على أذنها وهي تردف بتقرير:

-أنا هكلمهم أشوف في إيه ؟؟

مرٌت برهة من الوقت كانت دهورًا بالنسبة لها، فشيطانها قد بدأ بالعبث داخل ذهنها وإخبارها أن هناك خبرٌ سيءٌ ستستمع إليه بعد هذه المكالمة ... فما هي إلا برهة من الوقت وقد استمعت إلى صوتٍ تعرفه جيدًا يأتيها من الجهة الأخرى، فردت هي عليه بدورها:

-أيوة يا كابتن شذى ... أنا عايزة أسأل بس عن تفاصيل حفلة الأقصر ... وليه مفيش حاجة اتبعتتلي ؟

كان حديثها مُهذبًا رغم الارتباك الذي بدأ يطغي عليها، أكملت بعدها المكالمة بقولها:

-أه أنا سما ممدوح ... إيه!!

لاح عدم التصديق على وجهها مع آخر كلمة تقولها بعد أن شعرت بصاعقة تضرب أوصالها:

-يعني إيه مش فاهمة ؟؟..

بدأت الدموع تترقرق على وجنتيها وأنفاسها تتسارع مع لهيثها الذي حاولت كبحه بجسارة، أغلقت بعدها المكالمة لتلقى عوالم القلق من بدور وسارة التي استشعرت شيئًا ما حدث لشقيقتها...

-في إيه يا سما ؟؟

سألتها بدور بقلقٍ فأجابت سما وهي في حالة من الصدمة وعدم التصديق:

-استبعدوني من الفريق!!

الفصل الثاني (شُعلة الطموح)

"إذا وجدت العديد من العقبات بطريقِك فجرب أن تُغير المسار، فبإمكانك الوصول إلى هدفك من عدة طُرقاتٍ مختلفة"

ـــ

ليلة شتوية كاحلة زيُنتها نجوم متلألئة تتراقص في الفضاء بجوار القمر البازغ بنوره الخلاب، وفي تلك الليلة الهادئة كان يثب شابٌ متوسط القامة أمام الباب الخاص بمنزله أمامه فتاة تبدو بمُنتصف العشرين من عُمرها، فقد كانت ترتدي ثيابًا بسيطة زينها حجابها الرياضي الذي ترتديه بكثرة، فهو يتماشى مع بشرتها المائلة للسُمرة وعينيها الداكنتين المُكحلتين والتي جعلت جمالها جمالًا فرعونيًا...

رسمت بسمة هادئة على ثغرها وهي تتحدث أمام هذا الشاب:

-إبقى طمني على خالو

أومأ الشاب رأسه بوعدٍ قاطع بأنه سيُخبرها بأن والده تعافى من تلك النوبة التي تأتيه بكثرة، أغلق بعدها باب المنزل ليتحرك داخل منزله البسيط المكون من بعض الأثاث العتيق، وثب حُجرة صغيرة يرقد على فراشها رجلُ يبدو بمنتصف الخمسين من عُمره، لكن حالته الصحية السيئة جعلته قعيدًا على هذا الفراش لا يستطيع تحريك قدميه...

ما إن رآى ابنه مراد يتقدم نحوه حتى حاول الاعتدال في جلسته لكن مراد أوقف حركته وأمره بالاسترخاء مجددًا...

-تعتبك معايا يا بني معلش

قالها والده يعقوب بأسفٍ قابله مراد بحبورٍ ربت معه على كتفه كي يرد عليه:

-تعب إيه بس يا حُج ... وأنا ليا مين غيرَك

رسم يعقوب بسمة هادئة على ثغره أعربت عن مدى امتنانه لابنه الذي لم يتخلّى عنه طيلة هذه الفترة، فهو يُكرس حياته لرعايته حتى ولو على حِساب مستقبله وتحقيق أحلامه...

أمسك مراد صندوق الأدوية ليُقربه نحو والده ويبدأ العبث به بحثًا عن الدواء الذي من المُفترض أن يأخذه والده في هذا الوقت:

-إيه ده !! ... مقولتش ليه يا بابا إن دوا الضغط خِلص ؟؟

قالها مراد بعِتابٍ حمل معه الرقة، قابله يعقوب بصوتٍ خافت مُتعب:

-مكنتش عايزك تشغل بالِك

تنهد مراد بخيبة أملٍ من والده الذي دائمًا ما يرى نفسه حِملًا على قرة عينه، وضع مراد صندوق الأدوية مكانه داخل الخُزانة الصغيرة ليثب بعدها ويردف بتقرير:

-أشغل بالي إيه بس ... أنا هنزل أجيبه من تحت وآجي ... مش هتأخر....

____

كانت الصدمة تنطلي على ملامحها ما إن استمعت لهذا الخبر الأشبه بالصاعقة، فما الذي قالته هذه الفتاة ؟ أيمكن أن يقوموا باستقصائها بهذه البساطة ؟ ولما يفعلون ذلك ؟ ما الذي فعلته لهم ؟ فهي كانت من المُتمرسين بتلك الرياضة، كيف يفعلون ذلك بها .... !!

تشعر أنها ستهوي على الأرض من هول الصدمة، فالإحتفال الذي لطالما استعدت من أجله لن تتمكن من حضوره، وهي حتى لا تعلم السبب وهذا ما يزيدها جنونًا...

-يــ... يعني إيه استبعدوكي ؟ ... أكيد في حاجة غلط

قالتها بدور بنبرة هجومية أمام سما التي كانت مُتغيبة عن العالم تكبت الدموع بداخلها، فما هي إلا لحظاتٍ حتى إنفجرت تلك الدموع لتخلق شلالًا من الدموع المنهمرة على وجنتيها، وثبت من الفراش لتُحاول الابتعاد عنهم حتى لا يطالهم ضيقها ... فقد كانت تنبس بصوتٍ مرتفع غير مصدق وسط شهقاتها:

-بقولِك استبعدوني ... يعني مش هاجي معاكم...

بصقت تلك الجملة ثم انتشلت سترتها التي ارتدتها بسرعة كي تهرع من المنزل بأكمله رغم اعتراض بدور على رحيلها، فدائمًا ما تفعل سما هذه الحركة، عندما تشعر بالضيق تُقرر الهرب إلى مكانٍ سحيقٍ حتى لا تستشعر نظرات الشفقة من الذين يعرفون سبب ضيقها...

وجدت نفسها تهرول بأركان المنزل بلامبالاة لهم حتى فتحت الباب وطفقت تركض على الدرج حتى تركت البناية بأكملها...

كانت الشوارع مُظلمة إلا من بعض الأضواء الُمنبعثة من بعيد ناهيك عن ضوء القمر الذي كان مُشعًا، كذلك الطُرقات كانت مُهدمة نظرًا لبقائهم داخل إحدى الأحياء البسيطة التي تتسم بالقليل من العشوائية...

تحركت بين هذه الطرقات غير مبالية لرهبة الليلة ولا بالأخطار التي من الممُكن أن تحدث لفتاة مثلها....

تهدمت حصونها عند إحدى البقاع لتجلس على أحد الأرصفة بجوار بناية أخرى ومتجرٍ صغير للبقالة على بُعد بضعة أمتار، قوصت ظهرها لتُغطي وجهها وتنخرط بالبكاء حتى كادت دموعها تخلق أنهارًا...

لاتزال غير مُصدقة أن حُلمها يتدمر بين ليلة وضحاها، وكل ما كانت تفعله طيلة هذه السنوات سيذهب هباءًا لسببٍ لا تعلمه...

ارتفعت شهقاتها في تلك اللحظة وكانت عينيها حمراوتين من كثرة الدموع، لكن فجأة ...

صدح صوت جوارها انتشلها من غياهب حزنها، وجعلها تنتفض مكانها:

-الجميل زعلان من إيه ؟؟

رفعت وجهها لأعلى لتجد مجموعة من الرجال يقتربون نحوها بنظرات وقحة تتفحص كل إنشٍ بها؛ إرتجف جسدها ووثبت عن الأرض بسرعة لعلها تحاول الهرب من نظراتهم...

وبالفعل وثبت مكانها وما كادت ترحل حتى شعرت بيد أحدهم تقبض على ذراعها يليها صوت هذا الرجل الذي أردف بوقاحة:

-في إيه بس يا قطة ده الكلام أخد وعطا

حاولت سما جذب ذراعها وهي تهتف بوجهه رغم أن نبضات قلبها كانت تدق بسرعة:

-إبعد إيدك عني

لم تستطع سما جذب ذراعها من قبضته القاسية وكذلك أصدقاءه الاثنين اللذان آحاطاها من كل جانب، واصلت هي تحرير نفسها حتى أنها أطلقت صرخة مستنجدة قطعها هذا الوغد وهو يُحاوطها ويُكمم فمها مما جعل دموعها تنهمر بدلًا من صرخاتها، بخلاف جسدها الذي لم يتوقف عن المقاومة حتى....

استشعرت صوت لكمة قوية تهوي على هذا الرجل الذي يُكبلها مما جعله يبتعد عنها وتتحرر هي من قبضته...

وجدت أمامها شخصٌ متوسط القامة أطول منها ببضعة إنشات، لكن جسده يبدو عليه الصلابة، وملابسه تبدو بسيطة، فربما هو قاطني هذه المُنطقة ... وجدته يلتحم مع هذا الرجل ويُسدد له عدة لكمات، كما حاول الاثنين إبعاده ليكتنفونه ويبدأا بلكمه حتى سالت الدماء من أنفه...

استعادت سما قواها في تلك اللحظة وانحنت بجذعها كي تنتشل صخرة كبيرة من الأرض وتبدأ برميها على هؤلاء الرجال والصُراخ بوجوههم حتى يبتعدوا .... تفاقم الموقف وقتها وكاد الأمر يصل إلى مسامع الشُرطة، لهذا السبب ابتعد الرجال عنهم بعد أن قام زعيمهم بدفع مراد_ الرجل الذي جاء لإنقاذها _ حتى سقط على الأرض وأسفل عينه اليُسرى برزت كدمة حملت اللون الأحمر المائل للبنفسجي...

تحامل على نفسه حتى وثب عن الأرض يتفقد حوله بحثًا عن حقيبة الدواء التي كان يحملها لكنه ألقاها على الأرض كي يتعارك معهم، وجد الحقيبة ملقية على الأرض فانتشلها ثم إلتفت نحو سما التي كانت تُطالعه بارتباك وداخلها رغبة جامحة بشُكره لكن حرجها يمنعها ... وجدته يقترب منها ويسألها بصوتٍ هاديء:

-حد عملِك حاجة ؟؟

نفت سما رأسها في صمتٍ ولازال قلبها يرتعد من هوّل الموقف ولسانها يمنعها عن الحديث، واصل هو حديثه بفضول:

-إنتِ بتعملي إيه في الشارع في وقت زي ده ؟... إنتِ عارفة إن الدنيا مش آمان

حاول إرشادها بحديثه ولازالت هي تتحلّى بالصمت حتى أردفت بالنهاية والأسف يلتهمها:

-أنا ... أنا أسفة

أنكست رأسها بخجلٍ حتى لا تُقابل نظراته التي استشعرت الراحة بداخلهم، فكان مُحافظًا على الأمتار التي بينهما وهو يُحادثها بهدوءٍ بث الاطمئنان بها:

-مفيش داعي تتأسفي ... تحبي أوصلِك البيت ؟؟

عرض عليها بوٌدٍ حتى لا يتكرر الأمر مجددًا، لكنها رفضت عرضه بنبرة مرتبكة:

-لأ ...أنا بيتي قُريب

آرادت أن تفر من أمامه إلى أن فضول مراد جعله يحاول التعرف عليها خاصة بعد أن رآاها من بعيد وهي مُجهشة بالبُكاء، فقد ظن أنها تعاني من أمرٍ ما وعليه مساعدتها كما يفعل دائمًا...

-طب استني طيب...

توقفت سما عن السير لتلتفت له وتنصت لحديثه الودود:

-أنا اسمي مراد ... و ...بصراحة شوفتِك وإنتِ متضايقة ... هو في حاجة حصلتلِك ؟

كان حديثه غير مرتبٍ يخرج منه عنوة، فهو لا يعلم ماذا يقول ولما يقوله، وما دخله بها من الأساس...

وجدها تُحاول التهرب من الإجابة وتتدارك الموقف بحديثها:

-لأ ...مفيش حاجة ... أنا لازم أرجع البيت

بصقت تلك الجملة ثم ركضت باتجاه منزلها بأقصى سرعة لها حتى لا يُقابلها شيءُ آخر، لم تكن البناية التي تقطن بها بعيدة عن تلك البناية، فربما كانت تسكن بنفس الشارع الذي يسكن به مراد، لهذا السبب كان مُتيقنًا أنه سيراها مجددًا، وهذه المرة، ربما سيفهم ما تُخبئه من أسرار....

____

دلفت المنزل بأكتافٍ متهدلة ووجه شاحبٍ انمحت ألوانه، لايزال أثر البكاء على وجهها وعلى عينيها المنتفختين، واصلت التحرك بأركان المنزل غير مبالية لأسئلة بدور التي كان القلق ينهش قلبها كما كانت سارة بالضبط، فجميعهم يعلمون كم كان هذا حُلمًا بالنسبة لسما، وكم كان من الظُلم أن يتم استقصاءها دون أية أسباب...

تحركت بخطواتٍ هادئة حتى وصلت إلى الحُجرة لترتمي على الفراش بإنهاك بدا جليًا بسبب ركضها وإضطراب قلبها خاصة بعد ما حدث، استلقت على الفراش بظهرها لترمق السقف المُتشقق كما حياتها التي بدأت تتشقق حتى تتفتت إلى قطع متفرقة....

قطع شرودها خطوات تعرفها جيدًا تدلف الحجرة بتروٍ وإذا أنها تجد جدتها تجلس بجوارها على الفراش لعلها تطمئن على حفيدتها وتُحاول مواساتها، خاصة بعد أن فشلت محاولات كلًا من سارة وبدور...

وضعت زُهرة يدها بحنانٍ على ظهر سما التي اعتدلت لتجلس قبالة جدتها وتنصت إلى أحاديثها الهادئة:

-إيه يا سما ... معقولة هتقعي من أول ضربة كدة ؟

أنكست سما رأسها وهي تتحدث بضيقٍ جامح:

-الضربة قوية المرادي .... أنا وعدت ماما الله يرحمها إني هحقق حلمي، وهدخل مسابقات وحفلات عالمية ... بس شكلي مش هعرف أحقق حاجة...

كادت الدموع تخرج من هودجها مجددًا لكن زُهرة وضعت يدها على رسغ سما كي تبث بها بعض الاطمئنان:

-ومين قال إن طريقِك وقف هنا ؟؟ ...

حاولت جعلها تُحدق بعينيها وتستمع إلى نصائحها وإرشاداتها التي خرجت من جوفها بطريقة حنونة:

-سيدنا أيوب عليه السلام ربنا أنعم عليه بالمال والعبيد والمواشي والزوجة والأولاد ... بس فجأة اتصاب بمرض خطير ملهوش علاج... ومع ذلك صِبر وفِضل يذكر ربنا ليل نهار ... حتى بعد ما خسر كل حاجة والناس بعدت عنه وأولاده ماتو واحد ورا التاني ومتبقاش غير مراته إللي فضلت ترعاه.... فِضل صبور حتى بعد

ما الحال بقى أسوأ ومراته اضطرت تبيع شعرها عشان تجبله أكل .... ولما عرف إللي مراته عملته لجأ لربنا وقاله : رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ... فربنا سُبحانه وتعالى رد عليه بآية (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ*فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ).... وبعدها ربنا استجاب لدعائه وأوحاله أنه يضرب برجله على الأرض لغاية ما الماية الباردة تُخرج منها فيقوم يغتسل بالماية دي ويشرب منها فيُشفى من الأمراض إللي عنده ... وده كان في قول الله تعالى (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ* ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ*وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ* وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

توقفت عن الحديث لترمق نظرات سما المُترقبة التي ركزت معها على كل كلمة تخرج من جوف جدتها كي تتخذها ذريعة لتواصل حياتها ولا تستسلم مهما كانت الصعوبات، أنهت جدتها الحديث كما بدأته ولكن إجمالًا لما تريد قوله:

-إصبري يا سما .... وأوعي تستسلمي، وخليكي فاكرة إن ربنا موجود ... وهو في إيده مفتاح الفرج

إرتمت سما بأحضانها لتعانقها عناقًا دافئًا وداخلها بحور من الامتنان على تلك الكلمات التي أعادت الشغف بداخلها، مسدت جدتها على خُصلات شعرها المُنسابة في نفس اللحظة التي دلفت فيها كلًا من بدور وسارة وكذلك زكريا كي يُهدئا من روعها ويُذكراها أنها قادرة على تخطي العقبات مهما كانت....

____

انتهى هذا اليوم الطويل وبدأ يوم آخر تجدد معه الحيوية والنشاط، فكان هذا هو يوم سفرهم، فمن المُفترض أن يتحرك القطار بالرابعة فجر هذا اليوم حتى يصلوا إلى وجهتهم بسرعة....

كانت حقيبة السفر تفترش الفراش وأمامها تقف بدور تضع أوعيتها داخل الحقيبة بمعالم حزينة خاصة وهي ترى سما تدعي اللامبالاة كي تساعدها على ضب أمتعتها، فلازال بداخلها غصة تُخبرها أن ما تفعله ليس صوابًا وأنها بتلك الطريقة ستجرح قلب ابنة عمها التي تعتبرها أكثر من شقيقتها...

-متأكدة إنِك مش متضايقة ؟؟ .... والله أنا ممكن أقعد معاكي وبلاها سفر من أساسه

اعترضت سما حديثها بإصرار:

-لأ إنتِ هتسافري ... بعدين أنا قولتلك خلاص مش متضايقة ... الموضوع خلاص مبقاش فارق معايا

قالتها من وراء قلبها لأن إحساس الغيرة يأكلها وهي لا تُريد إظهار ذلك خاصة أمام بدور التي كانت متيقنة أن سما لا تقول الحقيقة، ومع ذلك وجدت يدها تُغلق حقيبة السفر وتهرع بها من الحُجرة لتضعها أمام الباب ثم تعود مجددًا لتتحدث مع سما وُتحاول التبرير لفعلتهم الشنعاء:

-سما متضايقيش ... أكيد في الحفلات التانية هياخدوكي معانا ... إنتِ أحسن واحدة في الفريق ... أكيد هما هيخلوكي في حفلة تانية_

أوقفت سما حديثها بجمود ادعت معه اللامبالاة:

-يا بدور والله مش متضايقة ... يلا بقى كملي تحضير الشُنط

لازال الضيق يطفو على وجه بدور وهي تبتعد عن سما كي تُخبرها بتقرير:

-أنا هروح أقابل مُعتصم الأول قبل ما نسافر ... فسلام بقى عشان هطلع من برة برة

عانقتها للمرة الأخيرة بحُبٍ ثم أتت سارة لتوّدع سما هي الأخرى وتنصت إلى أحاديث سما المليئة بالإرشاد والمرح رغم الضيق والغيرة التي بدأت تتكون بداخلها، ما إن رحلت كلتاهما عن الحُجرة ودقت الساعة الرابعة فجرًا، إرتمت سما على فراشها وكادت الدموع تترقرق على وجنتيها لكنها جففتهم بسرعة حتى لا تخضع مجددًا لضيقها...

وثبت بعدها عن فراشها ترمق المرآة التي تعكس ضيقها والذي بدلته هي بملامح جامدة أخبرت معها تلك المرآة أنها لن تسمح بتلك النهاية لطريقها، بل أن مشوارها لم يبدأ بعد....

____

أشرقت شمس يومٍ آخر وكانت السماء زرقاء مُلبدة بالغيوم الكثيفة والأجواء الربيعية التي تحمل معها الأزهار وأصوات العصافير، كانت تجلس بدور داخل قطارٍ عريضٍ تسترخي بظهرها للوراء وكأنها للتو آفاقت من نومة طويلة، فهي بذاك القطار لأربع ساعاتٍ حتى الآن، ولازال يتبقى الكثير من الوقت حتى يصلوا الوجهة المرادة....

اعتدلت بجلستها ما إن استشعرت صديقتها هيام التي أتت للتو من المرحاض وجلست على المقعد المجاور لها:

-هو سما مجاتش ليه ؟؟

سألتها هيام ما إن انتبهت إلى عدم مجيء سما، فهي لا تعلم حقيقة الأمر، ولا تعلم بدور كيف تُخبرها بما حدث، فجميع أفراد الفرقة يعرفون مهارة سما وبراعتها في تأدية الاستعراضات....

تهتهت بدور قبل أن تحجب الحقيقة بحُجة:

-أصلها تعبانة شوية ... ومقدرتش تيجي

همهمت هيام ثم أردفت:

-ألف سلامة عليها ... أصل أنا لما شوفت أسماء معانا في الأتوبيس استغربت أوي ... أصلها لسة في المدارس، إزاي يجيبوها معانا الحفلة

قطبت بدور حاجبيها بحيرة من هذا الحديث الذي جعلها تعتدل بجلستها كي تسأل هيام بغير تصديق، فهل تم استقصاء سما من أجل فتاة مستجدة لا تفقه إلا القليل عن تلك الاستعراضات ؟!

-هي أسماء جاية معانا ؟!

أكدت هيام على حديثها وهي تُشير على إحدى الفتيات والتي هي أسماء:

-أيوة يا بنتي .. أهي قاعد هناك أهي

آعادت بدور ظهرها للوراء بحاجبين معقودين يغمرهما الحيرة، فهي متيقنة أن هناك شيءٌ خاطيءٌ بهذا الأمر...

"لم تتوقف حياتي عند هذه اللحظة ... فمنذ ما حدث وأنا قد قررت ألا أقف أمام الصعاب بُحجة عدم مقدرتي على تخطيها ... بل قررت أن أدعسها بقدمي كما لو كانت كثبة من الرمال ... فلا شيء سيوقفني مهما كان، لا شيء سيمنعني من تحقيق حُلمي وحُلم والدتي"....

"مرّت عدة أيامٍ منذ رحيلهم، وللحق كانت أيامًا صعبة ... لكنها لم تزدني سوى مقدرة على الصبر والتحمل ... حتى أنني قُمت بقص شعري لأجعله يصل إلى أول عُنقي ... لا أعلم لما فعلت هذا، لكن ربما أريد تغييرًا بحياتي، حتى ولو كان بسيطًا ... وبالنسبة لذاك التغيير ... فقد قررت أيضًا أن أتبع نظامًا غذائية متوازنًا، فجسدي هو هدية من الله عزوجل ويجب أن أحافظ عليه ... كذلك لم أتوقف عن ممارسة التمرينات ... لم أتوقف عن ممارسة البالية وتعليم ذاتي مهارات جديدة ...... وأهم ما حدث بتلك الأيام، هو أنني لم أشعر بالضيق ولو ليومٍ واحد ... فقد تناسيت الأمر

تمامًا، حتى أنني ألهو كل ليلة مع زكريا وجدتي حتى تصل قهقهاتنا عنان السماء ... فأهم ما في الحياة السليمة ... هي الشعور بالسعادة مهما كان العالم قاسيًا" ...

أغلقت دفتر مذكراتها ما إن دوّنت تلك الكلمات، ثم وضعت دفترها داخل الخزانة التي أغلقتها لترمق نفسها بالمرآة، فكانت ملامحها مُشرقة وشعرها قصير مموج لكنه لا يزال يتناسق مع جسدها الذي أضحى شديد الرشاقة بفعل تلك التمرينات التي تُمارسها بكثرة، ناهيك عن رياضة البالية التي تمارسها منذ نعومة أظافرها...

أخذت نفسًا عميقًا ثم أطلقته لتُغلق سُترتها الرياضية التي تناسبت مع ملابسها التي تذهب بها إلى المركز الرياضي، انتشلت زجاجة المياه البلاستيكية خاصتها لتتحرك بهدوء اتجاه الباب وتهرع من المنزل قبل أن تستيقظ جدتها وزكريا، فاليوم كان إجازة رسمية، وكذلك الساعة كانت تُشير إلى السادسة والنصف صباحًا....

____

قطرات من العرق تنسل على وجهها وهي تهرول بساحة عريضة بملابس رياضية أبرزت رشاقة جسدها ومرونة حركتها، كانت تحاول تنظيم أنفاسها حتى تستطيع مواصلة الركض دون أن تخونها أنفاسها وتجبرها على التوقف، فهي قد اتخذت من الركض عادة تفعلها كل صباحٍ لعل أفكارها السلبية تنزاح عن عقلها وتجعل رأسها خالٍ من الشوائب....

بعد فترة من الركض استشعرت خطواتٍ تقترب نحوها مهرولة حتى وجدت أمامها ما لم تتوقع رؤيته بعد هذه الأيام ... فها هو يظهر أمامها مجددًا بسُترة رياضية رمادية اللون أسفلها سروال رياضي يحمل اللون الأسود...

-إيه ده !! ... إنتِ!!

قالها بذهول جعلها تتوقف عن الركض لتحادثه بجمودٍ رغم الصدمة التي كانت تعتمرها:

-إنت ... إنت بتعمل إيه هنا ؟؟

آشار على نفسه بعد أن توقف عن الركض ووقف بإحدى الأركان كي لايُعيق الذين يهرولون، آجابها بصدقٍ وسُبابة مُشارة على ذاته:

-أنا بجري كل يوم جمعة قبل الصلاة عشان مبيبقاش عندي شُغل ... بس دي أول مرة أشوفِك فيها

لم تكن تريد التحدث معه أكثر من هذا رغم أن لسانها يُرغمها على إجابته رغبة بالحديث مع أحدهم، فهي منذ رحيل بدور وهي لا تجد سوى الجُدران لتشكي لها همومها، خاصة وأنها لا تمتلك أية أصدقاء، أو بالمعنى الأدق، لا أحد من أصدقاءها يفهمها، وجدت لسانها يُجيبه ببعض الارتباك والصدق:

-أه ...ما أنا بقيت أنزل أجري من فترة قُصيرة

همهم بتفهمٍ ونظراتٍ ترمق الأرض كمحاولة لتجنب النظر إلى عينيها حتى لا يزيدها ارتباكًا، كان سيهم بالرحيل إلى أن رغبة جامحة بداخله جعلته يقترح ببعض التردد:

-طب ... تيجي نشرب حاجة ؟

آجابته بصوتٍ هاديء يطوف حوله لمحاتٍ من الحرج:

-ماشي ... بس مش هنطلع من النادي

أومأ رأسه بموافقة وهو يُشير على إحدى الأماكن التي تبيع العصائر الطازجة:

-أه أكيد ... المحل هناك أساسًا...

لا تعلم كيف حدث هذا، ولكنها الآن أمامه تحمل معها عصير من البُرتقال الطازج الذي أثلج حمم صدرها بعد أن نشب فيه حريقًا بعد هذه الهرولة وبعد ما يحدث بهذه الأيام من تعثراتٍ وإحباطات ... لم يكن الحديث شاغرًا بينهما، فقد كان الصمت هو سيد الموقف حتى أوشكا على الإنتهاء من مشروباتهما، لكن مراد قطع هذا الصمت باللحظة الأخيرة عندما سأل بتردد:

-إنتِ اسمِك إيه بقى ؟؟ ... أنا والله مش هعملِك حاجة

رفعت سما وجهها لتُقابله بعوالم مغتابة سألت معها:

-إنت ليه عايز تعرفني ؟

تنهد مراد بعُمقٍ وهو يُفكر بإجابة لسؤالها، فهو حتى الآن لا يعلم لما هناك رغبة تدفعه بالحديث معها، ربما لأنه أحس بأن عليه مساعدتها، أو أنه يشعر بالفضول حيالها ... ومع كل تلك الأفكار التي تدور حول رأسه وجد نفسه يُجيب بتلقائية:

-معرفش ... يمكن حاسس إن في حاجة مضيقاكي

قالها بناءًا على ما شاهده منذ بضعة أيام، فهو لم يستطع محو منظرها وهي ترتعد من الخوف ووجهها أحمر من كثرة البكاء، فبالطبع كانت تمر بضائقة بهذا اليوم ... وما أكد ظنونه، هو عندما وجدها تنكس رأسها لأسفل حتى لا يستشعر حُزنها وهي تردف بكلماتٍ مبهمة آرادت من خلالهم التخلص من أعباءها دون أن يعرف حقيقة الأمر...

-تعرف لما الواحد يكون مهيأ نفسه على حاجة ... وفجأة كل حاجة تدمر ؟

تنهدت بعد حديثها الذي اخترق أوصاله وكأنه يفهم ما تتحدث عنه بالضبط، أكملت حديثها بنفس ذات النبرة:

-أهو ده بقى إللي حاسة بيه دلوقتي

بقيت عيناها مُرتكزتان بالأرضية حتى وجدته يردف بصوتٍ يحمل الإرشاد والنُصح في طياته:

-مفيش حاجة بتدمر إلا لما في حاجة تانية بتتبني بعدها .... زي المُهندس إللي بيهدم عمارة عشان يبني عمارة أحسن منها

لا تعلم كيف إنفجرت بهذه الطريقة لكنها وجدت لسانها يهتف باندفاع حمل ما تكنيه من إحساسٍ بالظُلم:

-بس أنا مهدمتش أي عمارة ... بالعكس، أنا كنت بتدرب صُبح وليل عشان أبقى أحسن، ولما بقيت أحسن واحدة في الفريق قررو يستغنو عني ولا كأني لسة مبتدئة...

أفرغت ما بجعبتها دون أن تنتبه لكونها قد أفصحت عن الحقيقة أمام رجلٍ بالكاد تعرفه، فكانت تشعر بالخجل من نفسها وآرادت الهرب بأية طريقة، لكن نظراته المُطمئنة جعلتها تهدأ وتنصت لحديثه الحكيم الذي اخترق لُب قلبها:

-لو كانو هما الغلطانين ... يبقى مش المفروض تفكري فيهم، مش المفروض إنك تفضلي عايشة دور الضحية حتى لو إنتِ كدة فعلًا ... لأنِ عُمرِك ما هتتحركي .... لازم تثبتلهم إنهم خسروكي

حدق بمُنتصف عينيها مع آخر كلماته التي حملت كمًا من العزيمة قد يجعلها تبدأ التخطيط لما ستفعله الآن...

بعد بُرهة من الصمت آعادت رأسها لأسفل كي تردف بُخذلان:

-ما المُشكلة إني مش عارفة أعمل إيه ... حاسة إني عايزة أعمل فريق كبير أوي وانافسهم بيه، عشان يعرفو قيمتي ... بس مش عارفة هعمل كدة إزاي...

صمت لبُرهة كي يُفكر في حديثها الذي جعل الأفكار تتدفق داخل ذهنه، وربما التقت أفكاره بفكرة قد تساعدها في محنتها، خرج من قوقعة صمته ليرمق عينيها البُنيتين بإصرارٍ جامحٍ أردف معه:

-طب ما تعملي فريق ... إعملي الفريق إللي إنتِ عايزاه ... وأنا هساعدِك...

الفصل الثالث (العقبة الأولى)

"عندما لا تعرف ماذا تفعل، يبدأ عملك الحقيقي، وعندما لا تعرف أي طريق تسلك، تبدأ رحلتك الحقيقية"

سماء صافية تلفحها أشعة الشمس الساطعة والهواء النقي الذي يخلو من الشوائب، وفي إحدى الحُجر التي بداخلها تُبدل الفتيات أوعيتهن استعدادًا للتمرن على العُرض الذي سيُقام بالغد، فكانت بعض الفتيات ترتدين ملابس رياضية وأحذية خفيفة الوزن لتُساعدهن على الحركة بسهولة ويُسر، ما إن انتهت الفتيات من إرتداء ملابسهن، هرعن من الحُجرة ليتجهن بعدها إلى ساحة التدريبات...

ما إن تركن الحُجرة حتى ظهرت يارا من مخبأها تتلفت يمينًا ويسارًا حتى لا يرها أحد، فما إن تأكدت من خلو المكان حتى يسنح لها تنفيذ ما تنتوي فعله، هرعت عند الرُكن الذي يوضع بداخله الملابس والأحذية لتستلقي على الأرض بجوار إحدى الحقائب التي تعرفها جيدًا، قامت بفتح تلك الحقيبة كي تُخرج منها حذاءًا أنيقًا قليل الوزن، أخرجت المُشرط من جيبها وطفقت تنزع نعل الحذاء حتى ظهرت الطبقة التي أسفلها والتي تمتاز بالنعومة مما قد يتسبب بالانزلاق لمن يرتديه...

لاحظت صوت قهقهاتٍ تقترب من الحجرة فقررت الوثوب عن الأرض بسرعة وإعادة كل شيءٍ كما كان قبل أن يرها أحد، ألقت نعل الحذاء بسلة المُهملات ثم هرعت من الحُجرة دون أن ينتبه أي شخصٍ لما فعلته....

بدأت التمرينات بنهجٍ جيدٍ حيث كانت الفتيات تؤدين دورها ببراعة وتتناغم حركاتهن مع تلك الموسيقى التي تحمل لمحة فرعونية تتناسب مع الإحتفال، كانت تقف يارا بالصفوف الأخيرة يبدو على عينيها الغل وهي تُشاهد بدور بالصف المُقابل لها تؤدي دورها ببراعة ثم تعود مجددًا إلى البقية كي تُنفذ معهن حركة جماعية....

كان الوضع يسير بصورة جيدة حتى تقدمت فتاة تبدو بكامل رشاقتها ومهارتها التي لفتت الأنظار، تمايلت بجسدها الرشيق مع الأغنية بحركاتٍ متناسقة ليست لافتة

للأنظار ولا الشهوات، فقط حركات عشوائية تُشبه الرقص في قديم الأزمان ... وما كادت تلتف بجسدها حتى....

انزلقت قدمها فجأة مما عركل حركتها وجعلها تسقط على الأرض وصوت طقطقة تُصدر من قدمها اليُسرى مما جعلها تصرخ بصوتٍ مُرتفع وهي تمسك بكاحلها الذي تضخم وأصبح لونه أحمرًا...

لم تتوقف عن الصُراخ حتى هرع نحوها المُدربون وبقية زملاءها ليطمئنوا عليها، ركع المُدرب الذي يُدعى بيشوي، وهو رجلٌ يافعٌ شديد المرونة يتوّلى تمريناتهن بمساعدة من شُذى التي تساعدهن بتنفيذ الحركات منعًا لاخطلاته بهن...

كانت شذى تنحني أمام الفتاة تحاول تهدئتها بينما كان بيشوي يساعدها على تحريك كاحلها حركاتٍ دائرية ليتأكد من سلامته، لكن مع الأسف، كلما إزدادت حركتها كلما إزداد ألمها وجعلها تهم بالصُراخ والبكاء...

وثب بيشوي من الأرض ليأمر شذى بصرامة:

-خُديها على المستشفى بسرعة ... إحتمال يبقى عندها خدش

وثبت شذى من الأرض لتسأل بيشوي عما سيفعله بتلك الكارثة:

-هنعمل إيه يا كابتن ؟ .. دي من الأساسيين

وجه بيشوي بصره نحو الفتيات ليتفحصهن بعناية حتى وقع نظره على يارا فآشار عليها وهو يردف بأمر:

-يارا هتاخد مكانها ... ويلا كله يكمل البروفة

أنهى حديثه بصرامة لتستكمل الفتيات تمرينهن بينما كانت السعادة تنطلي على وجه يارا، فهي تعلم أنها البديلة لتلك التي تُدعى هنا، لذلك أوقعتها حتى تتصدر هي الصفوف الأولى...

بدأت التمرينات بعدها ولم تكن أعين بدور تنزاح عن يارا بعد أن استشعرت السعادة على وجهها وظنت أن لديها يدٌ بما حدث....

كان الهاتف بين يديها تشاهد من خلاله إحدى الاستعراضات المشهورة باستمتاع ينجلي على وجهها، فذهنها كان شاردًا بعالمٍ آخرٍ تتخيل فيه نفسها بعد أن حققت مرادها وتوّلت هي قيادة فريقٍ حتى يصل إلى القمة، لا تدري ما الذي ستشعر به وقتها، لكنها تعلم أنه سيضحى إحساسًا رائعًا يجعل الدوبامين يتدفق بداخلها ويُحفز طاقتها الحماسية حتى تُنفذ هذا المشروع الذي لم يكن بالحُسبان، فما كانت تتحدث فيه أمام مراد لم يكن إلا كلماتٍ عابرة خرجت من فمها عنوة، فمتى أصبحت تلك الكلمات العابرة قرار ستسعى لتنفيذه فيما بعد ؟!

قطع حبل أفكارها صوت زكريا الذي اقتحم حجرتها فجأة ليطلب منها:

-سما ... سما أنا عايز آكل وتيتا نايمة

ما إن انتبهت لحديثه حتى أغلقت هاتفها لتتنهد بعدها وهي تعتدل بجلستها كي تسأله:

-ماشي يا زيكا ... عايز تاكل إيه ؟

فكر زكريا هنيهة ليخرج صوت الهمهمة من جوفه حتى أردف بلهفة:

-عايز فتة

لاح عدم التصديق الذي امتزج مع التذمر من طلبه الذي يبدو صعبًا مما جعلها تهتف باعتراض:

-فتة إيه دلوقتي الساعة عشرة الصُبح .... هتفطر فتة ؟

ربط زكريا ذراعيه وهو يحاول إقناعها بإلحاح:

-ما إحنا في العيد الكبير بنفطر فتة ... فمفيهاش حاجة...

واصل إلحاحه حتى استسلمت سما ووثبت من فراشها لتتحرك أمامه نحو المطبخ وهي تشترط عليه مساعدتها في إعداد الطعام...

تحرك كلاهما اتجاه المطبخ فأخرجت سما قطع اللحم من البراد لتتجه به نحو الحوض كي تقوم بغسله جيدًا وإغراقه بالتوابل حتى يضحى مِزاقه شهيًا، أخرجت بعدها الطنجرة وأعطتها إلى زكريا كي يضعها على شُعلة النيران ويضع قطعة من الزُبد داخلها...

أعطته سما الصحن الذي يحتوي على قُطع اللحم داخله وطفقت تُخبره بلكنة آمرة:

-خُد اللحمة دي إدلها صدمة على النار على بال ما أقطع الطماطم

أمسك زكريا الصحن وهو يوميء رأسه ببلاهة لأنه لم يكن يعلم ما الذي سيفعله، وثب أمام شُعلة النيران ليرمق قطع اللحم لبُرهة إلى أن أردف بصوتٍ وصل صديده إلى سما:

-الإمتحانات قرّبت يا لحمة

تركت سما ما تفعله لتنتبه إلى ذاك الذي يُنفذ تعليماتها بشكلٍ قد يُصيبها بالجنون، تحركت نحوه كي تسأله ببعض الحدة:

-إنت بتعمل إيه ؟

إلتفت زكريا لينظر لها ببلاهة وكأنه كان يُنفذ تعليماتها:

-مش إنتِ قولتيلي أدلها صدمة ... هو في صدمة أكبر من كدة ؟

أطبقت على شفتيها بغضبٍ كبتته بداخلها وهي تنتشل الوعاء الذي يحتوي على قطع اللحم وتضعه داخل الطنجرة مع كلماتها التي خرجت متهكمة:

-دا بدور يتكتبلها الجنة عشان بتستحمل واحد زيِك

استمع زكريا لتهكمها فهتف بتذمر:

-ليه يعني وأنا معيوب ولا إيه ؟

دفعته سما بتروٍ حتى تتخلص من لسانه الذي يمتد لمترين وكي يُساعدها بالطهي كما إتفق معها:

-إمشي يا زيكا روح إضرب الطماطم...

لم يتحرك زكريا من مكانه وخرجت كلماته مازحة كعادته التي ستُصيبهم بالشلل الجُثماني عما قريب:

-وأضربها ليه هي ضايقتِك في حاجة

تبع حديثه بقهقهة ساخرة جعلتها تزداد غضبًا وكادت ترحل عن المطبخ مع هتافها المُتذمر:

-تصدق أنا إللي غلطانة عشان بتعب نفسي عشانك

كادت ترحل من أمامه إلى أنه تشبث بذراعها وألح عليها مجددًا بمساعدته وإلا سيتسبب بحريقٍ جثيمٍ بالمطبخ، فهو لم يكد يتم الحادية عشر من عُمره وربما يتسبب بأذية لنفسه، وهذا ما جعل سما تتحامل على نفسها وتتحمل حديثه ومزاحه لأنها الأكبر والأكثر مسئولية، فعادت تواصل الطهي حتى استمعت إلى صوت هاتفها يصدح بصوتٍ جعلها تخفض النيران وتنتبه للهاتف حيث كان مُراد هو من يتصل بها...

فمنذ آخر لقاءٍ بينهما وهو قد وعدها بمساعدتها في تحقيق حلمها لسبب لا تعلمه هي، فهو لا يزال غريبًا بالنسبة لها، هو فقط يعرف اسمها ومحل إقامتها وبعض التفاصيل السطحية عنها، وهي كذلك لا تعرف سوى اسمه وأنه وحيدٌ يقطن مع والده في بناية

قريبة عنها، لكنها لا تعلم سبب شعورها بالألفة اتجاهه وكأنها تعرفه منذ قديم الأذل ...

وضعت الهاتف على أذنها بعد أن آجابت مكالمته بصوتٍ هاديء أخفى حرجها، وجدته يردف من الجهة الآخرى بإصرارٍ حمل معه اللهفة وهو يُخبرها أنه يُريد مقابلتها لشيءٍ شديد الضرورة، هذا ما جعلها تغلق المكالمة بقلبٍ يضرب من القلق بعد أن أخبرته أنها ستأتي ما إن تنتهي من إعداد الطعام، فربما هو يحمل لها أخبارًا سارٌة...

____

كان يثب أسفل بنايتها بعد أن أوشكت الشمس على المغيب، كان قد عاد لتوه من العمل وقرر أن يُقابلها ليُخبرها بتلك الأخبار التي لديه والتي تخص الوعد الذي قطعه عليها، فها هي تنسل درجات السُلم بلهفة حتى وصلت أمامه بملامح مرتبكة قطعها هو بابتسامة هادئة على ثغره وبعض الترحيبات التي إفتتح بها الحديث إلى أن أردف وهو يُخرج بعض الأوراق من جعبته...

-أنا عملتلك دراسة جدوى للمشروع ... وقدمتلك على طلب الإعتماد ... كدة إحنا محتاجين شوية مستندات عشان نقدمهم...

أمسكت منه الأوراق وطفقت تتفحصها لتعلم كم من الأموال ستحتاج لهذا المشروع حتى يكتمل، كانت أذنيها تنصتان لحديثه الذي كان في غاية الأهمية:

-هنحتاج صورة للبطاقة الضريبية، وصورة استمارة تأمين، وصورة إقرار ضريبي، وصورة لعقد الإيجار أو الملكية، والسيرة الذاتية للمركز ونموذج من شهادة التدريب للمُدرب، إللي هو إنتِ ... وهنعوز كمان...

أدلى أمامها المزيد من الطلبات التي جعلتها تشعر ببعض الإحباط، فالأمر أصعب مما تتخيل على الرغم من أنه يتحدث معها ببساطة ويُعطيها المزيد من الحلول كذلك:

-كل حاجة تقريبًا موجودة ماعدا أهم حاجة وهي المكان .... بس متقلقيش، أنا كلمت واحد معرفة وقالٌي إن في مكان كويس ينفع يبقى سنتر تدريب، هو بس يبعتلي عنوانه وهخليكي تيجي تشوفيه...

قطبت حاجبيها باستفسارٍ سألت بعده:

-وبعدين هنعمل إيه ؟؟

آجابها ببساطة وثقة:

-هنقدم المُستندات للجنة الاعتماد وهم هييجو يفحصو المكان، وبعدها هيدولنا توصية فهنقدر نفتح المركز وكل حاجة تبقى قانوني

أنهى حديثه ببسمة مُطمئنة جعلتها تبتسم هي الأخرى بامتنانٍ كاد يمتزج مع حرجها وهي تقول:

-ميرسي أوي يا مراد ... أنااا ... مش عارفة أشكرك إزاي بجد_

بتر حديثها بكلماتٍ جعلت اطمئنانها يزداد أكثر :

-مفيش داعي للشُكر ...

بدأ يتجوّل بجوارها على الطريق وداخله رغبة جامحة بمعرفتها أكثر:

-إشمعنا البالية ؟

كان هذا السؤال بداخله منذ تعرف عليها ولم يجد فرصة لسؤالها، فانتهز تلك الفرصة حتى يفصح عما بداخله ويعلم لما تصِر على تلك الرياضة دون غيرها...

كانت هي تسير بجواره على بُعد بضعة أمتارٍ وعينيها ترمقا الأرض بعقلٍ شاردٍ في سؤاله لعله يعثر على الإجابة الصحيحة، لكنها بالنهاية استخدمت قلبها وهي تُجيب على ذاك السؤال:

-عشان ... عشان البالية ده حياتي ... أنا بلعب من وأنا عندي تلات سنين، اشتركت الأول أنا وبنت عمي بدور، وبعدها يارا أخت بدور.... أنا من ساعة ما بدأت ألعب اللعبة دي وأنا حياتي بقى ليها طعم ... كنت بستنى اليوم الدراسي يخلص عشان أروح التمرين وأخرج طاقتي

توقفت عن السير كي ترمق السماء وتطلق العنان لخيالها أن ينسج لها ما تشعر به حينما تتحرك بانسيابية كالفراشة التي تُحلق بين الأزهار، تتخيل الهدوء الداخلي الذي تشعر به كلما قررت ممارسة البالية والرقص على تلك النغمات الهادئة التي تخترق حصون قلبها، وجدت نفسها تُجيبه ببسمة هادئة على ثغرها ممزوجة بلمحة من اللهفة والإحساس بالراحة:

-وأنا بلعب بالية بحس إني طايره ... بحس إني فوق السحاب ... لأ مش فوق السحاب، أعلى ... بحس إني طايرة فوق النجوم...

لا يعلم لما البسمة انتقلت إليه فجأة وهو يتخيل حديثها داخل ذهنه ليُدرك مدى تعلقها بتلك الرياضة التي ربما تكون شديدة المهارة بها، وهذا ما يجعل عزيمته تتفاقم ويزداد رغبة لمساعدتها، فهو لم يجد من يساعده بحياته، ولن يسمح لها أن تُعاني مثله...

مرّت بضعة أيامٍ أخرى لم تتغير فيهم الأحوال، فما حدث أن الإحتفالية التي أقيمت بالأقصر قد تمت أخيرًا وعادت الفرقة إلى موقعها لتستكمل تمريناتها كما تفعل دائمًا، فكانت تلك الأمسية هي موعد عودتهم من السفر واستقبالهم بالمنزل، فما إن فُتح الباب حتى هرولت سارة إلى داخل لترتمي بأحضان سما التي عانقتها بشوقٍ كبير...

بادلتها سما العناق وكانت في تلك اللحظة تقوم بإعداد وجبة العشاء مع جدتها لأنها تعلم أنهن سيأتين مُنهكين وسيرغبن بتناول الطعام...

تبادل التُرحاب بينهم لبرهة لا هي بالقصيرة ولا بالكبيرة، فكانت سارة تتحدث بحماس عما فعلته بتلك الإحتفالية أمام زكريا وجدتها التي كانت تنصت لها بإهتمام، أما عن سما فكانت تُرحب ببدور بعيدًا عنهم وتستمع إلى ما حدث بتلك الإحتفالية، لكن بدور كانت تُخبرها أنها لم تكن سوى إحتفالية عادية لا يوجد بها ما هو مُبهر، فهي لا تُريدها أن تشعر بالضيق لأنها لم تأتي معهن...

أدركت سما للوهلة الأولى أن بدور تحجب الحقيقة عنها، ومع ذلك لم تسألها المزيد من الأسئلة وقررت تدارك الموقف ودعوتهم على طاولة العشاء حتى لا تنفجر مجددًا بالبكاء حسرة على حالها...

ما إن اجتمعوا حول المائدة حتى قررت سما الرحيل والإعتكاف بحُجرتها حتى يتحدثوا على راحتهم ولا يخشوا شعورها بالضيق خاصة بدور، لذلك استأذنت بقولها :

-أنا مش قادرة آكل فهدخل أقعد جوة

ألحت عليها بدور حتى لا تتركهم:

-ما تتعشي معانا

تحججت سما حتى تهرب من أمامهم:

-لا أنا تعبانة ومش قادرة

في تلك اللحظة تدخلت يارا بسخرية حملت الاحتقار في طياتها:

-تعبانة من إيه هو إنتِ عملتي حاجة ؟... أومل إحنا نعمل إيه وإحنا جايين من سفر وحفلة

تعمدت إغاظتها بتلك الكلمات التي بالفعل أدت مفعولها، فملامح سما قد تحوَّلت للضجر إلى أن أردفت بجمودٍ وتقرير:

-أنا هدخل جوة...

بصقت تلك الكلمات ثم تركتهم ودلفت حجرتها أمام نظرات جدتهم زُهرة المصوَّبة نحو يارا بعِتاب، تلك النظرات التي صوَّبت بعدها نحور بدور كي تذهب إلى سما وتحاول استمالتها لتناول العشاء معهم...

استجابت بدور لنظرات جدتها فهرعت وراء سما إلى داخل الحُجرة بعد أن رمقت يارا بنظراتٍ عابرة مفادها أن ما فعلته كان خاطئًا...

وجدت سما على الفراش تُغطي جسدها بالملأة وكأنها على وشك الخلود للنوم لكن بدور سبقتها وإرتمت جوارها على الفراش كي تبدأ بمشاكستها لعلها بتلك الطريقة تُطيب خاطرها...

-سما ... يلا يا سما قومي وتعالي اتعشي معانا ... متاخديش على كلام يارا، هي علطول بتهلفط في الكلام وإنتِ عارفة

آجابتها سما وهي لاتزال قابعة أسفل ملآتها تزيح وجهها عن أنظار بدور:

-مش عايز آكل وسبيني بقى عشان عايزة أنام

دفعتها بدور بتروٍ كي تترك الفراش:

-تنامي إيه الساعة لسة تمانية، من إمتى بتنامي الساعة تمانية_

قطعت سما حديثها كي تهتف بحدة واعتراض:

-من دلوقتي ... واتفضلي بقى عشان متعصبش عليكي

كانت تصب غضبها على بدور حتى تتركها تنزوي إلى نفسها وتبدأ البكاء دون أن يرها أحد، فهي لا تُحب البُكاء أمام أحد...

لم تستسلم بدور أمام غضب سما الذي ظهر جليًا لأنها تعلم أن ما تقوله سما ليس بمحض إرادتها، فضيقها هو ما يجعلها تهتف بتلك الكلمات، ولهذا السبب عاندت أكثر وانتشلت إحدى الروايات التي تقرأها لتفتحها على الصفحة التي توقفت عندها ثم تردف بِعِناد:

-مش هطلع برة ... أنا أساسًا عايزة أقرا

حادثتها سما بأمرٍ وهي لاتزال مستلقية:

-خلاص إقفلي النور

عاندتها بدور مجددًا وهي تدعي القراءة:

-لأ مش هعرف أقرا والنور مقفول ومفيش مكان تاني أقرا فيه

غضبت سما من عنادها فاعتدلت بجلستها بملامح غاضبة تحاول معها دفع بدور بعيدًا حتى تغلق الضوء بنفسها، أما عن بدور فلم تتوقف عند هذا الحد وبقيت تتعارك معها عراكًا جعل سما تزداد غضبًا حتى سبتها وبقيت تزفر الهواء من جوفها بزمجرة....

رسمت بدور بسمة على ثغرها لتتدارك الموقف بقولها:

-بس شعرِك حلو وهو قصير ... وإيه التغيير ده كله ... دا الكابتن لما يشوفِك مش هيعرفِك

تلاشى غضب سما لوهلة ليحل محله عوالم الضيق وهي تهتف بتقريرٍ أرغمت عليه:

-ده لو شافني أصلًا

قطبت بدور حاجبيها من حديثها المُبهم الذي جعلها تشعر ببعض القلق:

-مش هيشوفِك ليه ؟ ... هو إنتِ مش هتيجي التمرين ؟

أنهت حديثها باستنتاجٍ أكدت عليه سما بعد تفكيرٍ طويل، حيث قررت أن تتبع نصيحة مراد وتهدم تلك البناية التي بنتها مُسبقًا حتى تشرع ببناء بناية جديدة أفضل من القديمة، ورغم أن هذا القرار مصيري وشديد الخطورة إلى أنها رأت أنه القرار الأفضل، وبعد هذا التفكير الطويل أردفت بالنهاية بثقة:

-أه مش هاجي_

قطعت بدور حديثها بغير تصديقٍ ونبرة مندفعة:

-إيه !! ... هتسيبي التمرين بعد كل ده !! ... مش معقول عشان مروحتيش حفلة يبقى_

قطعت سما حديثها بحدة:

-مش عشان الحفلة...

توقفت لبُرهة تستجمع حديثها حتى أردفت بعزيمة رمقت معها الحائط الذي يقبع أمامها:

-عشان عايزة أعمل حاجة كبيرة ... مش هفضل أتمرن عند حد لآخر يوم في عُمري ... عايزة يبقى ليا فرقتي الخاصة، الفرقة إللي هكبر بيها وأدخل بيها بطولات ... مش عايزة أفضل سما إللي بتلعب في فريق مفيش حد فيه بيقدرها

أنهت حديثها بنظرة موجهة صوِّب بدور جعلتها تتراجع عن حديثها وتتكون بداخلها رغبة بمساعدتها بهذا الحُلم الذي يبدو مُستحيلًا، لكن في هذه الحياة يا عزيزي، نحن لا نرى المستحيلات ... بل نفعلها...

أردفت بدور بصوتٍ هاديءٍ قطع هذا الصمت الذي كان بينهما:

-ماشي يا سما ... إعملي إلي تعمليه، وخليكي فاكرة إني جنبِك، ولو احتاجتي حاجة أنا ممكن أساعدِك

أنهت الحديث ببسمة هادئة جعلت سما تبتسم هي الأخرى وتتشكرها بامتنان قطعه صوت الهاتف الخاص ببدور فأمسكته واللهفة تعتمر قلبها:

-دا صاصا ... أنا لازم أنزله ... قوليلهم إني هشوف مُعتصم وهاجي

قالتها وهي تهرول خارج الحُجرة ومن ثم خارج المنزل حتى التقت بمُعتصم الذي كان يقف أسفل البناية ومعه عُلبة مليئة بالحلوة المطاطية التي تعشقها بدور، فقد كانت العُلبة مُزينة بطريقة ساحرة جعلت السعادة تنطلي على وجهها وهي تلتقط منه تلك الهدية وتتشكره ببراءة تُشبه براءة الأطفال، فكان يُراقب سعادتها بانتشاءٍ سرقه من هذا العالم...

بعد العديد من الشُكر والأحاديث اللطيفة بينهما سألت بدور بلهفة:

-عايزني في إيه بقى ؟

اتسعت بسمة معتصم حتى ظهرت أسنانه البيضاء التي تناسقت مع خُصلات شعره الداكنة المائلة للون البُني وكذلك عينيه البُنيتين وطوله الفارع الذي يجعل مظهره جذابًا، ولأنه يعمل كمدربٍ بإحدى المراكز الرياضية فقد كان جسده ممشوق أبرز بعض العضلات نتيجة اعتناءه بجسده، فهو قد تعرف على بدور عندما كانت تذهب إلى المركز الرياضي الذي يُدرب به حتى يُساعدها على الحفاظ على جسدها الرشيق من أجل تمريناتها، ومن هناك بدأت قصتهما حتى تقدم لخُطبتها وعما قريب سيتم عقد القِران...

-أنا عاملِك مفاجأة مش هتشوفي زيها بعد كدة

قالها بنبرة واثقة جعلتها تزداد حماسًا وهي تتحرك أمامه بسعادة حتى استقل كلاهما سيارة الأجرة بعد أن رفضت هي أن تستقل سيارته الخاصة، فلاتزال تحافظ على الحدود بين علاقتهما حتى يتم عقد القران...

____

أشرقت شمس يومٍ جديد ليبدأ معها يومًا دراسيًا آخرًا في تلك المدرسة حديثة الصيحة على الرغم من أنها تتبع النظام العادي الذي تتبعه بقية المدارس والمنشآت التعليمية، كان زكريا يجلس بهدوءٍ على مقعدٍ خشبي بآخر صف بالفصل كما هو المُعتاد...

فأول صف لا يمتطيه سوى الذين يهتمون بالمذاكرة ويُمعنون التركيز مع مُعلميهم، أما بالصفوف التي بالوسط، فهي تشمل جميع الطُلاب متوسطي الذكاء والمستوى التعليمي، أما بالصفوف الأخيرة فهي تشمل كلًا من يتسم الانطوائية أو من يتأخر بشكلٍ دائمٍ أو الذين لا يكترثون للدراسة من الأساس ويأتون المدرسة رغمًا عنهم ... وهذا بالضبط هو زكريا...

كان يخط القلم على ورقة بيضاء ليؤدي فروضه قبل الذهاب إلى المنزل لعله بتلك الطريقة سينعم بمزيدٍ من أوقات الراحة، قطع انغماسه بتأدية الفروض صوت الباب وهو ينفتح ليدلف منه فتى بنفس عُمرهم يحمل الحقيبة على إحدى كتفيه وعلى وجهه معالم الاحتقار وبعض القسوة، كانت هذه أول مرة يرى فيها هذا الصبي، فربما انتقل من مدرسة أخرى بعد أن تسبب بها بمشاكل جثيمة، فلا أحد يأتي المدرسة بمُنتصف العام الدراسي، بل وبآخر الأيام الدراسية...

لم يكترث زكريا لذاك الصبي وواصل ما كان يفعله حتى استشعر صوتًا يأتيه من الجهة الأخرى بطريقة آمره:

-قوم من هنا عايز أقعد

وجد هذا الصبي يدفعه كي يجلس على المقعد الذي يعتليه زكريا رغمًا عنه، فهذا الصبي معروف بوقاحته وقساوته مع أقرانه، فمن لا يعرف سليط اللسان هذا الذي يُدعى عبده...

-ما تقوم يلا من هنا مش بكلمك

رفع عبده من صوته ما إن وجد زكريا لا ينتبه له ويواصل ما يفعله وكأن عبده لا يتحدث من الأساس، دفعه عبده مع حديثه الذي تفاقم فيه الغضب:

-إنت يلا مش بتكلم معاك ؟

حافظ زكريا على ثباته وهو يُجيب بأعين تُحدق بما يفعله ولكنة مستفزة:

-بدور أختي قالتلي قبل كدة.... لما تلاقي كلب بيهوهو... إمشي وسيبه

بصق تلك الجملة ثم عاود ما كان يفعله دون الإكتراث لعبده الذي تفاقم غضبه ما إن استشعر فظاظة هذا الذي يجلس أمامه، فلا أحد يستطيع التحدث معه بتلك الطريقة الوقحة...

انقض على زكريا ليمسكه من تلابيه ويرميه بنظراتٍ نارية صرخ معها:

-إنت قصدك إيه يلا هاا...

دفع زكريا دفعة قوية جعلت جسده يرتطم بقوة على المقعد الخشبي، اعتدل زكريا في جلسته لكن الغضب قد طاله هو الآخر وانقض على عبده ليمسكه هو الآخر من تلابيبه ويبدأ العراك بينهما وجميع الطُلاب يحاولون إحلالهما حتى عمت الفوضى أركان المكان...

-بـــس إنت وهو...

هتفت بها المُعلمة التي دلفت الفصل بصوتٍ جهوري جعل جميع الطلاب يعودون إلى مجالسهم ليعم الهدوء مجددًا، آشارت بعدها المعلمة على عبده كي يجلس بجوار زكريا من الناحية الأخرى لعدم وجود أماكن أخرى شاغرة، فكانت النظرات بينهما تتبادل في حدة وداخلهما العديد من السبابات التي يُريدان بصقها بوجه الآخر ... لكن ما حدث أنهما جلسا وفتحا إحدى الكُتب كما طلبت منهم المُعلمة...

كان عبده يفتح كتابه ويردف بصوتٍ هامسٍ حمل معه الوعيد:

-إللي حصل ده مش هعديلهولك...

رد عليه زكريا بصوتٍ هامسٍ لا يخلو من السخرية والتهديد:

-متعملش فيها دكر ... عشان بتطلع في الآخر دكر بط

كاد يرد عليه عبده إلى أن المُعلمة تدخلت بحديثهما بصوتٍ حاد:

-زكريـــا ... قوم أقف إنت وعبده

تبادلت النظرات بينهما حتى استجابا لحديث المُعلمة ووثبا مكانهما ينصتا لأوامرها التي كانت غاضبة لأنهما لا ينتبها إلى ما تقوله:

-كنت بقول إيه ؟؟ .... إتفضل يا عبده قول

تهته عبده بالحديث ولم يكن يعلم ماذا يقول، فهو لا يُريد أن يُحدث المتاعب ويتم تغيير فصله للمرة الثانية، بل للمرة العاشرة، لهذا السبب قرر التحدث بإحترامٍ يُنافي طبيعته حتى لا تضجر المُعملة منه:

-أنا آسف يا أبلة مش هتتكرر

قالها بعد أن رمق زكريا نظرة عابرة مُحملة بالتهديد ثم أحنى رأسه أمام المُعلمة لعلها تستشعر آسفه ردت عليه المُعلمة بصوتٍ غاضب مُهدد:

-ماشي يا عبده ... لو مركزتش في إللي بقوله هنقصك في أعمال السنة

بعد أن أدلى اعتذاره التفتت المُعلمة نحو زكريا كي تسأله بدورها:

-وإنت يا زكريا ... كنت بقول إيه ؟؟

كانت نبرتها حادة آمرة لم تُحرك بزكريا قيد أنملة، فقد كان يرمقها بهدوءٍ تبعه بنظرة مُستعطفة أردف معها محاولًا استقطاب عقلها ببراءة زائفة ودموع تكاد تنبثق من محجريها:

-وأنا هركز في الحصة إزاي في العذاب إللي أنا عايش فيه ؟... دا أنا طول اليوم بسمع زعيق ماما وبابا وبشوفهم بيتخانقو بعنيا...

رمقه عبده بنظرة مليئة بعلامات التيه بينما كانت المُعلمة تُحدق به ببعض الشفقة خاصة بتلك النبرة الحزينة التي أجاد تمثيلها..

-تعرفي بقى يا ميس .... أنا طول الليل معرفتش أنام من صوت زعيقهم ... أه والله، مكنتش عارف أنام عشان كدة مش عارف أركز في الحصة...

أنكس رأسه لأسفل ليواصل الحديث بنبرة تحمل براءة وحسرة تكاد تجعلها تبكي:

-بس أعمل إيه بقى ... هما علطول كدة، مش عارفين إحنا بنعاني قد إيه بسببهم

أنهى حديثه ببعض الدرامية التي جعلت المعلمة تطالعه باستعطافٍ شديدٍ وقد صدقته في تلك اللحظة، نظرًا لأنها تعلم أن هناك خلافات بين والديه، لكنها لا تعلم أنه يبيت مع جدته ولا يعلم حتى بتلك الخلافات، فهو يُمثل أمامها تلك المسرحية حتى ينال استعطافها ليس إلا...

-معلش يا حبيبي أنا أسفة ... لو في حاجة مش فاهمها أنا هشرحالك تاني

قالتها بحنانٍ جارفٍ جعلت بسمة زكريا تتسع وهو يبادلها الشُكر ثم يجلس مكانه مجددًا أمام نظرات عبده الحائرة والذي كان متأكدًا أن ما يقوله زكريا هو محضٌ من الهُراء...

إرتكن زكريا على مقعده يصب تركيزه على الكتاب أمامه ويهتف بهمسٍ نحو عبده ليزيده غيظًا:

-الصياغة فن مش عن عن...

قالها ثم واصل التركيز بكتابه أمام نظرات عبده المتعجبة نحو هذا الصبي المخادع سليط اللسان....

ـــ

انتهت محاضرتها أخيرًا لتذهب بعدها لتناول الفطور برفقة تيمور الذي كان يجلس بجوارها على أريكة خشبية وكل منهما يحمل بين يديه شطيرة من الدجاج المُقرمش يتناولها أثناء الحديث، فكانت هي تتناول الطعام ببطءٍ شديدٍ حتى تُظهر أمامه كم أنها فتاة مُدللة لا تتناول سوى القليل من الطعام..

كانت بين الفينة والأخرى تبتسم إثر مغازلاته وتحديقه بتفاصيلها التي غرق بها كما تغرق السفينة في المحيط العميق، بعد بُرهة من الأحاديث بينهما وجدا راندا صديقة يارا المُقربة تقترب نحوهما وتبادلهما التُرحاب لبرهة ثم إقتربت من يارا لتهمس بأذنها:

-عايزاكي في حوار

انتبه تيمور إلى همساتهما فقرر أن يتركهما على راحتهما مستئذنًا:

-ماشي يا يويو ... هروِّح أنا بقى ونبقى نتكلم بليل

لوّح لها بابتسامة ودودة بادلتها يارا بابتسامة أخرى ويدها تلوّح له قبل أن يرحل، فما إن رحل حتى جلست راندا قبالتها كي تُخبرها بجدية:

-البت سمر عاملة حفلة عيد ميلادها وعازمة كل الدُفعة

ارتسمت الغيرة والاستحقار على وجهها وهي تقول:

-أه ... ما هي معاها بقى .... تعزم براحتها

كانت تقصد بحديثها سمر والتي كانت تتسم بأنها الأكثر شعبية بالجامعة نظرًا لكونها تنحضر من عائلة مرموقة لديها العديد من الشركات، فكانت يارا تشعر بالغيظ لأنها تنعم بحياة مثالية لن تسنح لها فرصة أن تحيا مثلها...

قطعت راندا شرودها باستفسار:

-هتروحي الحفلة ؟

فكرٌت يارا قليلًا بحديثها ولم تكن ترغب بالمجيء حتى لا تلتهمها نيران الغيرة، لكنها في أقل من ثانية خطرت ببالها فكرة ماكرة ربما تشفي غليلها من تلك الفتاة المُتنعنتة، لهذا السبب أدلت قرارها بنبرة خبيثة:

-وماله ... خلينا نشوف الحفلة هتبقى عاملة إزاي...

____

تتحرك أقدامهم على طريقٍ مُكفهرٍ مليءٍ بالتشققات، لكن بنهاية هذا الطريق كان يوجد بناية أنيقة ربما كانت إحدى المطاعم سابقًا، لكنها الآن خالية يتم عرضها للبيع، لهذا السبب كانت سما تتجول حول البناية من الداخل تتخيل نفسها وهي تقوم بتدريب الأطفال على حركاتٍ عديدة تساعدهم على إقامة استعراضٍ يُبهر الأعين...

أما عن مراد، فكان معها ولكنه يتحدث مع مالك البناية ويتفق معه على سعرٍ مناسب للإيجار، فقد وجد هذا المكان بعد عناءٍ ورآى أنه مناسب للمركز الرياضي الذي تريده سما، خاصة وهو يتكون من عدة طوابق ويمتاز بالوسع الذي يضفي شعورًا بالراحة...

كانت سما تقتحم حديثهما لتستفسر عن ثمن الإيجار حتى لا يتدخل مراد بالأمر مرة أخرى، فيكفي ما يفعله معها وهو بالكاد يعرفها...

-هو الإيجار بكام ؟

وجهت سؤالها نحو مراد بعد أن رحل مالك البناية وطفقا يتجوّلان بالقُرب من البناية ويتحدثا عن مناسبتها حتى سألت سما هذا السؤال، لم يكن يرغب بالإجابة لكنه أمام إلحاحها أردف بصدقٍ:

-الإيجار بــ... مية وخمسين ألف في السنة ... بس لازم ندفع مقدم خمسين ألف

لاح الضيق على ملامح سما بعد أن استمعت إلى هذا المبلغ البسيط الذي لا تمتلك نصفه حتى، أنكست رأسها لأسفل وهي تردف بخيبة أمل:

-خمسين ألف !! ... أنا هجبهم منين دول ؟

حاول مساعدتها بقوله:

-أنا ممكن أ_

قطعت حديثه الذي كانت تعلمه بنبرة صارمة:

-لأ ...أنا إللي هدفعهم، كفاية أوي لحد كدة، إنت ساعدتني كتير، وأنا إللي المفروض أكمل الباقي

رمقها بخيبة أملٍ لأنه لا يعلم ماذا يفعل، فهو يعلم من البداية أنها سترفض مساعدته ومع ذلك آراد المحاولة...

بعد بُرهة من الصمت سألها باستفسار:

-طب إنتِ هتعملي إيه ؟؟

تنهدت بيأسٍ وهي لا تزال تنكس رأسها لأسفل وتُجيبه بيأسٍ:

-مش عارفة ... هحاول اشتغل وأجيب فلوس، بس مش عارفة هلاقي شُغل إزاي أصلًا...

بقيت تتحدث عن معاناة البحث عن الوظائف وكيف أن تجميع مبلغ كهذا سيستغرق منها سنواتٍ طويلة ومن الممكن في تلك السنوات أن يتم بيع هذا المكان ولن يعثروا على مكانٍ مثله، أي أن حُلمها لن يتحقق أبدًا...

لم يكن مراد منتبهًا لحديثها وكان ذهنه شاردًا في شيءٍ آخر حتى توقف عن السير ليُحدق بسما ويُخبرها بلهفة:

-أنا عرفت هنعمل إيه....

الفصل الرابع (لم تكن تعرفها)

"كلما ضاقت بك الحياة، وانغلقت الطُرق أمامك ... تذكر أن تتقرب من الله لعل سبحانه يحمل لك مفتاح الفرج"

____

كانت على شفة جرفة من أن تتخلى عن حُلمها، فكلما خطت خطوة للأمام تجد أمامها صخرة عملاقة تجعلها تتراجع مئات الخطوات حتى أصبحت الآن عالقة بمُنتصف الطريق لا تعلم أي اتجاه تسلك، حتى أنها فكرت في الاستسلام والتخلُّي عن أحلامها المستحيلة...

وفي خِضم شرودها واستسلامها تجده يردف بلهفة أخرجتها من قوقعة يأسها كي تنصت إلى حديثه بإمعان:

-أنا عرفت طريقة ممكن تساعدنا نجيب بيها فلوس

قطبت حاجبيها وهي تسأله بحيرة:

-هناخد قرض ؟؟

نفى حديثها بتفسيرٍ:

-لأ ... القرض هيحتاج ضمانات وممكن ميتوافقش عليه ... بس أنا عندي فكرة تانية

إزدادت حيرتها حتى جعلها عقلها يظن لوهلة أنهما سيسرقا أحدهم، فنبرته الواثقة وحديثه الذي يُشعرك وكأن الحل معه جعلها تُفكر بتلك الطريقة، لكنها تحلُّت بالصمت حتى وجدته يُسرع الخُطى للأمام ويحثها على السير وراءه بحماس:

-تعالي ورايا...

لم تكن تعلم إلى أين يذهب لكنها وجدت أقدامها تتبع خطواته السريعة إلى أن توقفا عند بقعة حملت معها المفاجأة...

____

بنفس ذاك الصباح الذي لم ينتهي بعد كان يجلس زكريا بفناء المدرسة على أحد الأرصفة التي يُقابلها جدارٌ يحمل بعض اللوحات التوعوية التي لا يكترث لها الطُلاب...

كان يجلس بوجه مكلومٍ ونظراتٍ حزينة استرفدها حمزة زميله بالمدرسة ومن أصدقاءه المُقربين، جلس جواره بحقيبته التي تحمل شطائره المدرسية كي يتشاركها مع رفاقه كما يفعل دائمًا، حيث كان يُخرج شطيرة من حقيبته و يُقربها اتجاه زكريا لكنه ولأول مرة يرى ملامح الرفض على وجه زكريا والتي إجتمعت مع نظرات الحُزن التي لم تنفك تترك وجهه بعد آخر حصة تلقاها بالمدرسة والتي كانت تتحدث عن أهمية العائلة...

-هو في حاجة مضايقاك ؟؟

سأله حمزة بنبرته البريئة التي تختلف تمام الإختلاف عن رفاقه بالصف، فهو معروف بطيبته الزائده وعطاءه السخي، ولكنه كذلك يمتاز ببعض الحماقة التي تجعله مؤهلًا ليضحى عضوًا بفريقهم...

لم ينظر له زكريا وبقي يُحدق أمامه ويردف بضيق:

-الميس إنهاردة قالتلنا نطلع نتكلم عن أهلنا ونقول هما بيشتغلو إيه ... ولما جيه عليا الدور معرفتش أقول حاجة

أنهى حديثه بتنهيدة عميقة كاد يُذرف معها الدموع بسبب إحساس الغيرة الذي بدأ يُفتك به، فلما لا يعيش حياة طبيعية مع أسرة متكاملة تهتم لأجله، لا هذين الأبوين اللذان تركاه هو وأشقاءه عند جدته لأنهما لا يمتلكا وقتًا لرعياتهم...

حاول حمزة مواساته بصوت حنونٍ صادق:

-أنا كمان مامتي وبابايا متطلقين... وبابي مكنتش عارف عنه أي حاجة

كان حديثه صادقًا لأن والديه متفرقان وهو يعيش مع والدته التي تزوجت من رجلٍ آخر يعتبره كأبيه بالضبط، آراد فقط من ذاك الحديث أن يُخبر زكريا أنه ليس الوحيد الذي يُعاني من تفرق الأهل، فهناك العديد من الأطفال تحيا وسط أسرة مُفككة لا تهتم لأجلهم ... ومع ذلك لم تتغير نبرة الحُزن داخل زكريا وهو يهتف بصدقٍ حمل بعض الغيرة:

-بس على الأقل مامتك وباباك بيحبوك .... أنا مامتي وبابايا ميعرفوش أنا في سنة كام أصلًا

ربت عليه حمزة وواصل مواساته ومحاولة استمالته لتناول الشطائر معه إلى أن اقتحم جلستهما عضو آخر من فريقهم، بل وكان حتى العضو الأكثر مُكرًا وارتكابًا للكوارث، فجميع من بالمدرسة يعلم خبير المقالب والخِدع المدعو بـ" شهاب"

-مسا يا رجالة

بدأ شهاب الحديث بتلك الجملة التي خرجت منه بصورة مرحة قابلها حمزة بابتسامة ودودة وقابله زكريا بجمودٍ تحوّل إلى الغضب ما إن لمح عبده يقف خلف شهاب وكأنهما رفاق...

وثب زكريا من موضعه يرمق عبده بنظراتٍ متحدية قابلها عبده بنظرات نارية أردف معها بصُخب:

-إنت بتعمل إيه هنا ؟؟

تقدم نحو زكريا وكاد يمسكه من تلابيبه ويتعارك معه كما فعل زكريا بالضبط، لكن شهاب تدخل بينهما وأبعدهما عن بعضهما بقوله:

-إهدوا يا جدعان ... مينفعش كدة

آشار زكريا على عبده وهو يسأل بغضب:

-إنت تعرف الواد ده منين ؟

هدأه شهاب وآعاده ليجلس مكانه على الرصيف، بقي على هذا الوضع حتى هدأ زكريا تمامًا فانتهزها شهاب فرصة كي يُعرفهما على بعضهما ويُعرفهم أولًا على عبده الذي سيضحى عضوًا بفريقهم مُرتكز المصائب والكوارث بالمدرسة...

آشار شهاب أولًا على حمزة الذي ابتسم ببلاهة وهو يلوِّح بيده لعبده:

-ده حمزة .... أمه عندها سلسلة مطاعم، وجوز أمه بقى عنده شركة كبيرة أوي ... يعني من الآخر الواد ده متريِش " غني " ... وبنعتبره الـ ATM بتاع الشلة، بس في نفس الوقت طيب وغلبان ... عشان كدة محدش بيشك فيه...

آمال على أذن عبده كي يهمس له دون أن ينصت أي من حمزة وزكريا:

-بس خُد بالك عشان هو غبي وساعات بيوِّدينا في داهية

آشار بعدها على زكريا الذي ابتسم ابتسامة ماكرة وهو ينصت إلى ما سيتحدث به شهاب:

-ده بقى زكريا ... بس كلنا بنقوله يا زيكا ... أمه وأبوه متطلقين وهو عايش عند جدته ... وإحنا بقى بنعتبره لسان الشلة، دايمًا عنده رد لكل حاجة .... وبيعرف يقنع أي حد بأي حاجة...

وجه بصره نحو زكريا ليواصل الحديث بصوتٍ وصل لمسامعه:

-بس عيبه إنه بارد ومستفز ... فمتحاولش تتخانق معاه

اتسعت بسمة زكريا ما إن أدلى شهاب بتلك الجملة وكأنه كان يمدحه، كذلك تعجب عبده من ذكره لعيوب صديقه بتلك الطريقة المباشرة والصوت المرتفع:

-هو ليه تحس إنه مبسوط ؟؟

برر له شهاب ببساطة:

-منا بقولك بارد ومستفز

أومأ عبده متفهمًا ليُشير عليه شهاب كي يُعرفه عليهم:

-ده بقى عبده ... بلطجي العُمارة بتاعتنا، وأخو واحدة صاحبة أختي ... بس إحنا نقدر نعتبره دراع الشلة، يعني لو حد ضايقنا ووقف في وشنا عبده هيصده علطول

عدّل عبده من وقفته بشموخٍ تباهى معه بما يستطيع فعله وما يشرحه شهاب...

إلتفت شهاب بعدها نحو عبده ليُعرفه على ذاته بنبرة متعالية:

-وأنا بقى شهاب ... راس المصايب كلها ... والعقل المدبر للشلة

همهم عبده بلامبالاة لتمر برهة من الصمت جلس فيها أربعتهم على الرصيف يلتفون بنصف دائرة كي يتفقوا على الكارثة التالية التي سيفعلونها، فكان زكريا يسأل بفضول:

-طب إحنا هنعمل إيه ؟ ... إحنا بقالنا كتير مريحين وده مينفعش، كدة سُمعتنا هتروح

أنهى حديثه بتذمر لاقاه شهاب بنبرة واثقة:

-لأ خلاص ... وقت الراحة انتهى ... عشان أنا محضرلكم حتة مقلب هيتكتب في التاريخ...

____

ترتشف من فنجان القهوة رشفاتٍ قليلة أعربت عن مدى ارتباكها بتلك الزيارة، فهي تجلس بالقُرب من معتصم على أريكة حديثة الصيحة داخل منزلٍ بسيطٍ لكنه يتكون من أثاثٍ عصري يجعلك تعتقد أن من يقطن هذا المنزل أما فنانًا أو غنيًا أو يمتلك ذوقًا رفيعًا...

كان يبدو على وجهها التوتر والذي لاحظه معتصم وحدق بعينيها لعله بتلك النظرات الحانية قد يجعل ارتباكها يخف وطأته...

-إهدي يا بدور مش هيحصل حاجة...

تنهدت بدور تنهيدة قلقة وضعت معها فنجان القهوة أعلى الطاولة كي تُبرر له سبب خوفها:

-أنا قلقانة قوي ... آخر مرة جيت فيها هنا ... مامتك اتخانقت معايا وقالتلي مجيش هنا تاني

أنهت حديثها ببعض الغِل الدفين لأنها تذكرت والدته التي تمقتها بسبب أنها تُمارس رياضة البالية والتي تجعلها ترتدي ثيابًا ضيقة وتقوم بالاستعراضات أمام أعين الجميع، ورغم أنها لا تتمايل ولا ترتدي ثيابًا كاشفة تُحرك الشهوات، إلى أن والدته لا تزال تعتقد أنها راقصة ولا يجب أن تبقى هكذا بعد زواجهما .... بل حتى تُسمعها أحاديث قاسية تتعلق بتربيتها وعائلتها المُفككة التي دائمًا ما تُعايرها بهما رغم أن هذا ليس ذنبها....

أتت والدته في تلك اللحظة لتجعل ارتباكها يزداد أكثر ونظراتها تبتعد عن أعينها رغم محاولات معتصم المستميتة لطمأنتها مُخبرًا إياها بأن كل شيءٍ سيسير على ما يُرام وأن والدته قد تغيرت للأفضل...

-إزيِك يا ماما

افتتح معتصم الحديث ببسمة هادئة رحّب معها بوالدته التي لاقته بابتسامة مماثلة وترحيباتٍ مليئة بالحبور...

دارت بضعة أحاديث بينهم لم تُشارك بدور بها وبقيت تجوّل بعينيها في كل مكانٍ وداخلها يدعو بانتهاء تلك الزيارة على خير، فهي لم تكن تُريد أن تأتي إلى هنا من الأساس، لكن معتصم ألح عليها متعللًا بأن والدته تُريد رؤيتها والاعتذار منها عما حدث آخر مرة...

-إيه يا بدور ... ساكتة ليه ؟؟

سألتها والدة معتصم التي تُدعى رباب، كانت نبرتها تحمل بعض الدهاء مما جعل ارتباك بدور يزداد وطأة وحديثها يبدأ بالتلعثم:

-عـ.. عادي ... مــ... مفيش حاجة أقولها

كان العرق يتصبب من جبينها والسخونة تجتاح جسدها رغم أن الجو ليس بهذه الحرارة، رفعت رباب رأسها بشموخٍ وهي تردف بلكنة خبيثة:

-لأ إزاي بقى ... ما تكلمينا عن الرقص والمسخرة إللي بتعمليهم

أطبقت بدور على شفتيها بحنقٍ لكنها كبتت غضبها مراعاة لمُعتصم الذي كان يرمق والدته بنظرات ساخطة كاد يرد عليها بقوله:

-إيه يا ماما إللي بتقوليه ده_

علِمت بدور لوهلة أن العِراك سينشب الآن لذلك قررت بتر حديث معتصم بنبرة جامدة وثبت معها استعدادًا للرحيل:

-سيبها يا مُعتصم ... سيبها تتكلم براحتها

وثبت رباب لتقابلها بنظراتٍ جامدة تحمل كمًا من الحِقد:

-أيوة أتكلم براحتي ... عشان أنا مش هسمح لإبني إنه يتجوز رقاصة زيِك

كانت نبرتها حادة على وشك أن تجعل بدور تنفجر بالبكاء، لكنها كبتت دموعها وهرولت خارج المنزل بنيرانٍ تنبعث من أذنيها، طفقت تهرول على الدرجات ويُهرول معتصم وراءها بعد أن عنف والدته بنظراته لأنها وعدته أنها ستُصلح العلاقة بينهما، لكن يبدو أن والدته لن تتغير أبدًا....

-بدور استني ... يا بدور...

ردد هذه الكلمات وهو يهرول وراءها يحاول إيقافها قبل أن تستقل سيارة الأجرة وتعود إلى منزلها ... ما إن أضحت تقف على الطريق حتى وقف هو قبالتها لعله يعتذر منها عما تسببت به والدته:

-بدور ممكن تسمعيني

إنفجرت بوجهه في تلك اللحظة بدموعٍ تكاد تُذرف من عينيها:

-أسمع إيه ؟؟ ... قولتلي إنها هتعتذر وهي عُمرها ما هتفكر تعتذر في حياتها

إرتفعت نبرة صوتها وهذا ما جعله يُقابلها بصوتٍ هاديء لعله يمتص غضبها:

-والله قالتلي إنها هتعتذر ... صدقيني

بقي يرمقها بنظراتٍ متوّسلة كادت تجعل كبرياءها يتفكك وتسامحه، لكنها لن تخضع مجددًا لقلبها ولن تسقط صريعة أمام نظراته الحانية ... إكتفت بالتحديق به في صمتٍ ونظراتٍ جامدة جعلته يبتسم ابتسامة هادئة تحمل سحرًا يُصيبها بالإنتشاء:

-خلاص بقى قلبِك أبيض ... بعدين حتى لو إنتِ رقاصة .. إيه المشكلة ؟ أنا أساسًا راجل شرقي وهخلي مراتي ترقصلي في البيت

عِلمت أنه يُشاكسها بذاك الحديث غير الحقيقي، فهو يعلم تمام العِلم أنها تؤدي حركاتٍ متناسقة لا يوجد به سوى الإنبهار والليونة، ويعلم كذلك كم تُحب هي تلك الرياضة التي تعتقدها والدته نوعًا من الرقص والمجون....

كادت الابتسامة تشق ثغرها مما جعلها تهرب بعينيها حتى لا يستشعر ضعفها وسذاجتها، ورغم أنها كانت تحاول الهرب إلا أن محاولاتها باتت بالفشل بعد أن لمِح ابتسامتها التي تُريد إخفاءها...

-يلا بقى ورينا ضحكتِك إللي بترشق في قلبي

وضع يده على قلبه مع آخر جملة مع عينيه التي بقيتا تُحدقا بها إلى أن ارضخت بالنهاية وتهدمت حصون كبرياءها لتواجه نظراته اللعوبة بنظراتها الرقيقة المستسلمة والتي ابتسمت معها ابتسامة هادئة طمأنته وجعلته يردف بلهفة:

-أيوة كدة ... هي دي الضحكة إللي أنا عايزها

رفعت قامتها لتردف بكبرياءٍ حتى لا يعتقد أن الأمر بهذه السهولة:

-متعتقدش إني هعدي الموضوع بسهولة ... أنا لسة متضايقة على فكرة

أنهت حديثها بدلالٍ ليسألها هو بنبرة رخيمة:

-طب قوليلي أعملِك إيه وأنا تحت أمرِك

خرجت همهمة من جوفها وهي تُفكر لوهلة حتى أردفت بدلال:

-تجبلي كنافة

قالتها بلهفة وبراءة تُشبه براءة الأطفال، قابل هو حديثها بحبورٍ وافق معه ببسمة واسعة قال معها:

-بس كدة ؟؟ .... دا أنا هجبلِك أحلى كنافة فيكي يا مصر...

____

يتحرك بخطواتٍ سريعة متلهفة وتتحرك هي وراءه على بُعد أمتارٍ بخطواتٍ تعادل سُرعة خطواته حتى ترى إلى أين يذهب، فما إن توقف حتى لاحظت وجودهما داخل بقعة كبيرة تشبه تلك البقعة التي تصطف السيارات داخلها، لكنها كانت خالية من جميع السيارات فيما عدا مُجسمٌ ضخمٌ مغطا بملآة مليئة بالأتربة، وقفت سما أمام هذا المُجسم بأعينٍ تُحدق به بحيرة، بينما إقترب مراد من هذا المُجسم لينزع الملآة عنه أثناء قوله:

-هو أنا قولتلك قبل كدة بابا كان بيشتغل إيه ؟؟

لم تنبس ببنت شفة وإكتفت بتحريك رأسها نفيًا ولازالت الحيرة تطفو على جنباتها، فما إن انزاح الغطاء عن هذا المُجسم حتى ظهر أمامها عربة كبيرة تُشبه حافلة صغيرة يخرج من نافذتها نصف طاولة ويظهر بداخلها مطبخ صغير مليء بالأتربة كما كانت العربة بالضبط، تحركت سما بخطواتٍ بطيئة قُرب هذه العربة التي طفقت تتفحصها بعينيها .... بينما كان مراد يقول بلهفة:

-العربية دي بتاعت بابا، كان بيبيع عليها أكلات سريعة، بس بعد ما تعب ساب الشُغل، والعربية فضلت معانا..

تقدم خطوتين قُرب سما ليُحادثها بنفس لهفته وعينيه اللتان تتبادلا ما بينها وبين سما:

-إحنا ممكن نشغل العربية دي ونكسب من وراها قرشين حلويين ... وبقيت المبلغ نبقى نشوف هنتصرف فيه إزاي

لا زالت عوالم التيه والتبلم على وجهها لأنها لا تعلم ماذا تفعل بالخطوة التالية، فهي تشعر وكأنها بمتاهة لا نهاية لها...

قطعها من شرودها صوت مراد وهو يبتعد عنها ليُجري مكالمة هاتفية أنهاها بسرعة ليُخبر سما بتقرير:

-العربية محتاجة تتنضف عشان تبقى جاهزة ... أنا إتصلت بحد هييجي يساعدنا دلوقتي...

لم تكن تعرف عمن يتحدث لكنها تحلُّت بالصمت وبقيت تلتف حول العربة كي تتفحصها وتُفكر بكيفية تشغيلها وما الذي سيُباع داخلها، ما هي إلا بضع دقائق حتى استمعت إلى صوتٍ أنثويٍ يقترب نحوهما ويبدو أنها فتاة تتحدث مع مراد بحبور...

لا تعلم لما شعرت ببعض الغيرة وقتها لكنها وجدت نفسها تعود أدراجها نحو مراد لترى مع من يتحدث، ومن تلك الفتاة التي يبدو وكأن مراد يعرفها...

لاحظ مراد تساؤلاتها فإختصر المسافات بينهما وهو يُشير على تلك الفتاة ذات الملامح الفرعونية والأعين المُكحلة التي جملتها بشرتها المائلة للسُمرة وجسدها الصلب المُزين بملابس رياضية بسيطة مع حِجاب رياضي إجتمع مع القليل من مستحضرات التجميل، فكانت هيئتها تدل على أنها لا تهتم بجمالها ولا تكترث لنظرات من حولها، وهذا ما أشعر سما ببعض الراحة، وما زاد راحتها أيضًا هو عندما عرفها مراد بقوله:

-دي يقين ... بنت عمتي وأختي في الرضاعة ... وهي إللي هتساعدنا

اتسعت بسمة سما وهي تُرحب بيقين وتأخذها في عِناقٍ أخوي، كانت الحماسة تطغي على ملامح يقين وهي تقول بتقرير:

-يلا بقى نشتغل ... مش عايزين نضيع وقت...

اتجهت بعدها نحو العربة ليتبعهما ومراد الذي كان على وشك مساعدتهما لولا تدخل يقين بإصرار:

-لأ .. إنت رايح فين ؟ ... إحنا مش هنقدر ننضف لوحدنا ولا إيه ؟... روح إنت عند خالو متسبهوش لوحده

دفعته بتروٍ كي يترك المرآب بعد أن أصرّت سما هي الأخرى برحيله، فوالده المريض يحتاجه أكثر منهما...

استجاب لهما مراد بالنهاية وتركهما وحدهما يهما بتنظيف السيارة وإزالة الأتربة عنها، تناثرت الأتربة في الأجواء وجعلتهما يسعلان لوهلة لكن هذا لم يوقفهما من استكمال التنظيف مع صوت يقين التي كانت تُدندن مع الأغنية التي انبعثت من هاتفها والتي كانت تدفعهما للمواصلة...

كانت سما داخل السيارة تقوم بتلميع المقتنيات بينما كانت يقين بالخارج تحاول إصلاح المقود مما أدى إلى تلطخ ثيابها باللون الأسود نتيجة الأدخنة السوداء التي انبعثت من المُحرك، توّلت هي إصلاح جميع المُعدات بمهارة جعلت سما تراقبها بحيرة، فيبدو وكأن هذه الفتاة تتمتع بالنشاط والحيوية ومهارة عالية بتصليح السيارات ... كانت ترغب بمعرفة المزيد عنها لكن انشغالها بالتنظيف جعلها تكبت أسئلتها داخلها حتى ينتهيا من هذا الأمر...

بعد مرور أكثر من ثلاث ساعاتٍ متواصلة من التنظيف تهالكت أجسادهما وإرتميا أمام السيارة بجسدٍ يكاد يحملهما من كثرة الإرهاق، ناهيك عن ثيابهما التي تلطخت كليًا....

تنهدت سما براحة كما تنهدت يقين هي الأخرى وهي تجلس جوارها على الأرض وتردف بفخرٍ مما فعلاه:

-والله إحنا جدعان ... أنجزنا في وقت قصير ... فاضل بس شوية حاجات بسيطة

أمسكت سما ظهرها بألمٍ هتفت معه بأنين:

-أنا ضهري بيتقطع

قهقهت يقين بخفة ثم أردفت ببعض السخرية:

-إنتِ لحقتي تتعبي، أومل رياضة إيه دي إللي بتلعبيها ؟

تعجبت سما من حديثها ومعرفتها بأنها تمارس إحدى الرياضات، فواصلت يقين الحديث بتبرير:

-مراد قالُي على كل حاجة ... وقالُي إنِك بتلعبي بالية ... بس مش عارفة الصراحة هو عايز يساعدِك ليه، شكلِك مهمة بالنسباله

أنهت حديثها بمشاكسة جعلت الحرج يتدفق داخل سما وقطرات من العرق تبدأ بالإنسياب على وجهها، حمحمت وهي تحاول تدارك الأمر بقولها:

-شكلك بتفهمي في الميكانيكا ... أصلِك صلحتي العربية بسهولة

شق ثغرها بسمة فخورة أردفت معها بصدقٍ:

-أيوة ... منا خريجة هندسة ميكانيكية ... وبشتغل في ورشة صيانة عربيات، بس إنهاردة كنت أجازة ... إنتِ بقى بتشتغلي إيه ؟

ابتسمت ابتسامة هادئة وهي تُجيبها ببعض الحرج:

-لأ ... أنا مش بشتغل

أنكست رأسها لأسفل وهي تدلي كلماتها مما جعل يقين ترمقها بحيرة وتحاول الاستفسار بفضول:

-ليه ؟

-أصل أنا بعد ما اتخرجت من كلية التجارة، اشتغلت في بنك، بس مكنتش عارفة أوفق بين الشُغل والتمرين، فالمدير اتخانق معايا واضطريت أسيب الشُغل ... ومن ساعتها مشتغلتش تاني

أنهت حديثها بحُزنٍ وما كادت ترد عليها يقين حتى وجد كلاهما صوت مراد يقترب نحوهما ومعه حقائب بلاستيكية ينبعث منها رائحة شهية داعبت حواسهما خاصة وهما يتضوران جوعًا...

-الله ينور...

قالها بمرح وهو يجلس قبالتهما ويضع أمامهما حقائب الطعام التي انقضت عليهم يقين بقولها:

-جيت في وقتك

بدأت بتقسيم الطعام على ثلاثتهم بعفوية رغم الحرج الذي لايزال ينطلي على وجه سما بعد أن لاحظت نظراته المصوَّبة نحوها والتي كانت مليئة بالسعادة وتبثها الاطمئنان ... إنتهى اليوم على هذا المنوال وهم يتشاركون تناول الطعام على أمل أن ينتهيا من وضع اللمسات الأخيرة بالعربة غدًا...

أصوات صخبة تتغلغل هذا المنزل الفاخر الذي يتراقص العديد من الأجساد بداخله، فكانت الأجواء مُزينة بشتى أنواع الزينة، وكذلك يوجد العديد من الطاولات المستديرة التي امتلأت ببعض المقبلات والمشروبات المُسكرة، فكانت رائحة المجون تفوح من هذه الحفلة المليئة بالشباب والفتيات من نفس العُمر، جميع الفتيات ترتدين فساتينًا كاشفة، وبعضهن يرتدين فساتينًا عادية ولا يتشاركن الرقص، فقط يشاهدن ما يحدث من بعيدٍ وكأنهن يشاهدن عرضًا سينمائيًا...

كانت يارا من بين أولئك الفتيات المشاهدات، ترتدي رداءًا بنفسجي اللون يكشف عن ساعديها ويلتصق بجسدها الرشيق بطريقة تلفت الأنظار، كانت تستند على الطاولة

المستديرة وأمامها كلًا من راندا ورنا وتسنيم صديقاتها المُقربات يرتدين ثيابًا لا تختلف عن ثيابها ويشاركنها مشاهدة الإحتفال والتدخين وتناول المقبلات...

فكانت رنا تتناول المسليات بينما تسنيم تحتسي النبيذ بشراهة، أما عن راندا ويارا فكلتاهما كانتا يستنشقا الهواء من لفافة التبغ التي معهما وينفثا بعدها الأدخنة من أجوافهما...

-هتعملي إيه بقى ؟؟ ... أكيد مجتيش الحفلة ترقصي زيهم

قالتها راندا ببعض المُكر لأنها تعلم سبب مجيء يارا لحفلة كهذه، فهي متأكدة أن يارا تغلي من داخلها بسبب تلك الحياة المُترفة التي تحياها تلك التي تُدعى سمر...

نفثت يارا الأدخنة من جوفها ثم أطفأت لفافتها أثناء إجابتها التي لم تخلو من المُكر والدهاء:

-كلها شوية والعرض هيبدأ...

وبالفعل وجدوا الأضواء تُغلق مرة واحدة ليبدأ الإحتفال بعيد الميلاد وتشغيل الموسيقى والمقاطع المرئية التي تعرض صورًا متفرقة لسمر بمراحل عُمرها المختلفة، فهذا ما تفعله بكل عام...

لكن الجديد أن المقطع الذي تم تشغيله لم يكن مجرد مقطع عادي، بل كان تجميع لصور فاضحة كانت سمر بطلتهم...

شهق الجميع في الصدمة من تلك الصور التي يتم عرضها للجميع، فجميعهم يُشاهدون الآن عشيق سمر السابق والذي كانت تقترب منه ويلتقط هو لها صورًا بأوضاعٍ مُخلة...

تدفقت الدماء بعروق سمر وهي تتابع نظرات الجميع المصوبة نحوها ودموعها تكاد تنحدر، فلا أحد يعلم عن تلك العلاقة السامة التي كانت بينها وبين أحد الرجال سرًا ... فهي قد أنهت تلك العلاقة منذ مدة طويلة ولم تُخبر أحدًا بهذا الماضي، كما أنها أتمت

خطبتها من رجلٍ آخر وكانا على وشك الزفاف، لكنه ما إن رآى تلك الصور تُعرض أمامه حتى رماها بنظراتٍ نارية ترك بعدها الإحتفال بأكمله، وهرولت سمر وراءه ودموعها تنحدر على وجنتيها مع توُسلاتها التي إزدادت حتى يُسامحها...

إنتشرت الهمسات بالقاعة وبدأ المعازيم يرحلون واحدًا تلو الآخر ... وبين هذا كله كانت يارا تطلق قهقهات خافتة شيطانية تبعتها راندا بسؤالها المذهول:

-يا بنت الإيه ... عملتي كدة إزاي ؟

آجابتها يارا بفخرٍ وهي تُحدق بما يحدث أمامها:

-عادي ... مكنش صعب عليا إني أجيب رقم حبيبها القديم وآخد منه الصور ... بس إيه رأيكم في الحفلة ؟

أنهت حديثها ببسمة خبيثة لتجد رنا تُحاوطها وتثني عليها بقولها:

-جامد ...

ثم واصلن السير خارج المنزل بعد أن شفت غليلها ودمٌرت تلك الحفلة بسبب غيرتها التي تجعلها تدمر حياة أي شخصٍ أمامها....

____

أسدلت السماء ستارها وكانت تلك الليلة هادئة والقمر بازغٌ ينثر شعاعه بالأجواء، وفي خِضم تلك الليلة بديجورها، كانت تترأس بدور الطاولة وعلى يمينها يجلس كلًا من زكريا وأمامه كتابًا مدرسيًا ومن الناحية الأخرى تجلس سارة تخط بقلمها على بعض الأوراق...

لم تتوقف بدور عن الصياح والجدال مع زكريا الذي كاد يُصيبها بالشلل كالعادة، فهذه المرة الثامنة التي تشرح له ما سيكتبه وهو لا يزال يرميها بأسئلة غبية لا إجابة لها...

-هو إيه الصعب في إللي أنا بقوله ... بقولك إكتب رسالة إعتذار لواحد اتخانق معاك ... والرسالة بالإنجليزي .... الموضوع بسيط جدًا

آجابها زكريا وهو يرمق الكتاب الذي أمامه:

-ماشي خلاص فهمت

تنهدت بدور بأريحية لأنه لم يسألها المزيد من الأسئلة، فكانت تُتمتم بالحمد في قرارة نفسها ثم التفتت نحو سارة لتتفقد ما تفعله بقولها:

-ها يا سارة ... حليتي إللي قولتلِك عليه ؟

آجابتها سارة بصدقٍ حمل معه بعض البراءة:

-لأ لسة مخلصتش ... بس أنا عايزة أسأل سؤال

سمحت لها بدور بإلقاء سؤالها فأردفت سارة وهي تُحرك القلم أمام وجهها:

-هو مش مُثني قرد ... قردان ؟

أومأت بدور إيجابًا فواصلت سارة أسئلتها التي لا تنتهي:

-طب إزاي أبو قردان .. خلف قردان وهو طائر ؟

فتحت بدور فمها ببلاهة أمام هذا السؤال الذي لا تعرف إجابته، وكذلك هي متيقنة أن هذا السؤال ليست له علاقة بما تدرسه الآن...

-معرفش والله يا سارة

قالتها بجهلٍ فسألتها سارة مجددًا:

-طب هي مرات أبو قردان ... اسمها أم قردان ؟؟

كاد كيلها يفيض من تلك الأسئلة الحمقاء والتي حاولت إنهاءها بنفاد صبرٍ:

-أبو قردان وأم قردان إيه يا سارة ... هو إحنا في إيه ولا في إيه ؟ ... ركزي يا حبيبتي في إللي بتعمليه ... قال أبو قردان قال

قالت آخر جملة بصوتٍ منخفض بينما كانت سارة تُتمتم بتذمر لعدم إيجادها لأية إجابات لأسئلتها، ولكنها مع ذلك طفقت تخط بالقلم على الأوراق أمامها بينما عادت بدور نحو زكريا لتتفقد ما يفعله، مدُّت يدها أمامه كي تقرأ ما قام بكتابته:

-وريني يا زيكا عملت إيه ؟

ترك زكريا القلم وأعطاها الكتاب كي تقرأ بدور ما قام بكتابته، فما هي إلا لحظاتٍ حتى فتحت فمها بصدمة أمام تلك الكلمات الأجنبية التي قرأتها بصوتٍ مرتفع:

- !! don t make yourself a ghost because we are all sons of nine

وجهت الحديث نحو زكريا كي يُخبرها معنى تلك الكلمات فوجدته بردف بثقة:

-متعملش فيها شبح .. عشان إحنا كلنا ولاد تسعة

قالها بطريقة جعلتها تعتقد وكأنه مجرم أو تم ترعرعه في الشوارع...

لازالت الصدمة تنجلي على وجهها وهي تواصل قراءة ما كتبه بصوتٍ مرتفع:

- !! I will blow you

-يعني أنا هنفخك

قالها ببساطة لتنفجر هي بوجهه بطريقة أفزعته:

-دا أنا إللي هنفخك .... هي دي رسالة الإعتذار ؟

أرخى ظهره للوراء وهو يرد عليها بتعالٍ:

-أنا مش بعتذر لحد

بدأ الجدال بينهما حتى إرتفعت أصواتهما وكانت بدور على وشك تركه وشأنه حتى لا يتم احتجازها بإحدى المصحات ...

قطع عراكهما صوت الباب الذي تم فتحه لتتوّغل منه سما بملابسها التي كانت مليئة بالأتربة نظرًا لكونها كانت تُنظف تلك العربة...

-في إيه يا جماعة صوتكم واصل لتحت ؟

قالتها سما باستفسار فإنفجرت بدور بوجهها مستنجدة:

-إلحقيني يا سما عشان الاتنين دول هيجبولي شلل

ربتت عليها سما وحاولت تهدئتها وهي تجلس بجوارها على الأريكة:

-طب إهدي طيب ... يلا يا زيكا .. يلا سارة ... ريّحو شوية عشان عايزة بدور في كلمتين

هللت سارة بسعادة كما فعل زكريا هو الآخر ليتركا بعدها كتبهما المدرسية ويلهوان بالبهو بجوار جدتهما التي كانت تشاهد التلفاز، ما إن رحلا حتى لاحت عوالم الحيرة على وجه بدور خاصة وهي ترى حالة سما المزرية وكأنها خرجت للتو من عِراكٍ كبير:

-إيه يا سما ... مال هدومِك عاملة كدة ليه ؟

رسمت سما بسمة واسعة على ثغرها وهي تُدلي الخبر بلهفة:

-أنا قررت أشتغل

زادت كلماتها من حيرة بدور خاصة وهي تعلم كم تمقت سما العمل، وما زادها حيرة أكثر هي تلك اللهفة التي تُلطخ ملامحها:

-غريبة يعني ... إنتِ قولتي مش هتشتغلي تاني بعد آخر مرة

اعتدلت سما بجلستها وهي تُفسر بسعادة:

-لأ ما خلاص ... مراد هيخليني أشتغل على عربية أكل لغاية ما أحوِّش تمن إيجار المركز

همهمت بدور بتفهمٍ لتستند بعدها على باطن يدها فوق الطاولة، ثم تقول بصوتٍ منخفض:

-مراد !! .... ممم ... الموضوع فيه مراد بقى، وأنا إللي فكراكي مبسوطة عشان هتشتغلي

لاحظت سما مشاكستها فضربتها على كتفها كي تنهرها:

-إيه إللي بتقوليه ده ... أنا مبسوطة عشان هشتغل فعلًا...

لم تُصدقها بدور فواصلت استدراجها بقولها:

-وماله بقى سي مراد ده كمان ... يقربلِك إيه هو عشان يساعدِك أساسًا ؟

قالتها ببعض التهكم مما جعل سما تشعر بالحرج الشديد، فمهما كان ما يفعله من أجلها، لا يجب أن تجعله يتقرب منها بتلك الطريقة، فركت عُنقها من الخلف لعلها

تحجب توترها الذي ظهر جليًا عليها، فهي لا تعلم الإجابة المناسبة لتلك الأسئلة التي تسألها بدور:

-عــ... عادي يعني ... هو مجرد واحد بيساعدني مش أكتر...

____

بنفس ذاك التوقيت كانت تستند يارا على سور النافذة تضع الهاتف على أذنها وتتحدث بدلالٍ مع تيمور الذي تطورت علاقتهما بالفترة الأخيرة، فأصبح يُهاتفها باستمرار ويتقابل معها دائمًا وهي تُرحب بهذا ولا تُعطي بالًا لعلاقتهما الخاطئة والتي بالتأكيد سيضحى نهايتها سيئة...

كانت تنفث الأدخنة من فمها وتحاول قدر الإمكان إحجاب حقيقة أنها تُقابل الفتيان وتُدخن السجائر عن شقيقتها خاصة، فمنذ تفرق والديهما وبدور هي من تتوّلى كل ما يخصها هي وشقيقها زكريا ....

-خلاص بقى بتكسف

قالتها بدلالٍ تبعه قهقهة رقيعة ووجه أحمرٍ من الخجل...

-طب خلاص بقى إقفل عشان ورايا حاجات ... ماشي باي..

أنهت الحديث بابتسامة واسعة عضت معها شفتها السُفلية، ألقت بعدها لفافة التبغ من النافذة ثم تركت عُلبة اللفافات على الطاولة كي تذهب إلى المرحاض...

____

-أنا هروح أجيب الموبيل من جوة عشان تصورني...

قالتها سارة لزكريا الذي وعدها بأنه سيلتقط لها مقطعًا وهي تقوم بتلك الحركة الجديدة التي تعلمتها... فما إن وافق بصدرٍ رحبٍ حتى هرعت هي نحو الحجرة التي تتشاركها مع يارا كي تبحث عن هاتفها....

فكان بتلك الحُجرة فراشٌ كبير يحفه خزانتين صغيرتين من الخشب بكلتا الأركان، هرعت سارة نحو إحدى هذين الخزانتين لعلها تجد هاتفها ... لكن ما لفت انتباهها هي علبة اللفافات البارزة أمامها...

التقطت تلك العلبة بأعين تتفحصها بفضولٍ شديد، فلطالما كانت سارة فضولية ودائمًا ما تستفسر عما يحدث حولها، ولأنها لم تكن تعلم ماهية تلك العلبة أخذتها بسرعة لتهرول نحو بدور لعلها تُخبرها وترضي فضولها...

-بدور .. بدور...

التفت بدور نحو سارة التي كانت تهرول نحوها إلى أن توقفت أمامها مباشرة تمد نحوها علبة اللفائف كي تسألها:

-هي إيه العلبة دي ؟

لاحت عوالم الصدمة على وجه بدور وهي تلتقط منها تلك العلبة وتسألها:

-إيه ده !! ... إنتِ جبتي العلبة دي منين ؟

آجابتها سارة بصدقٍ:

-لقيتها في الأوضة بتاعتي أنا ويارا

ما إن أدلت تلك الكلمات حتى عاودت بدور التحديق بعلبة اللفائف وأنفاسها تتلاحق بسرعة لا تُصدق أن يارا من الممكن أن تفعل ذلك... !!

الفصل الخامس (جرح الحبيب صعب التطبيب)

"العقل الواعي هو القادر على إحترام الفكرة، حتى ولو لم يؤمن بها"

____

لازالت تلك العلبة تقبع بين يديها لتجعل عقلها يكاد ينفجر من الحيرة والغضب، فما الذي أتى بتلك العلبة إلى ذاك المنزل؟ وما الذي تفعله يارا من وراءها ؟ كل تلك الأسئلة كانت تدور داخل ذهنها حتى وجدت أقدامها تتحرك صوب الرواق وصوتها يُنادي على يارا ببحة غاضبة...

هرعت يارا من المرحاض لتلتقي ببدور التي كانت تقف قبالتها وتمد نحوها علبة اللفائف كي تسألها بحدة:

-ممكن أفهم إيه ده ؟

حدقت يارا بتلك العلبة بأعينٍ جاحظة مُحملة بالارتباك، فكيف عثرت عليها شقيقتها ؟ وكيف تغفل عن تخبأتها كما تفعل كل مرة ؟

انتشلت العلبة من أصابع بدور وهي تُجيبها بتلعثمٍ:

-إنتِ لقتيها فين ؟_

قطعت بدور سؤالها بنبرة مرتفعة:

-العلبة دي بتعمل إيه معاكي ؟؟

اتكأت على حروفها لتُبرز مدى غضبها وتلك النيران المُشتعلة من أذنيها والتي أدت إلى تشابك الحروف داخل جوف يارا وهي تحاول الثبات كي تحجب الحقيقة:

-الـ.. العلبة دي مش بتاعتي، دي ... بتاعت واحدة صاحبتي وهي كانت شيلاها معايا

لم يبدو أن بدور صدقتها، فكان صوتها مُهددًا لا يزال محملًا بنيران الغضب:

-يارا قولِّي الحقيقة ... إنتِ بتشربي سجاير من إمتى ؟

دافعت يارا عن نفسها وهي تهتف بصوتٍ مرتفع:

-قولتلِك مش بتاعتي ... أنا واحدة رياضية ومش بشرب الحاجات دي ... ولو مش عايزة تصدقيني إنتِ حُرة

لم تكن تقول الحقيقة بالطبع، لكنها بتلك الكلمات ظهرت أمام بدور كالضحية التي يتلبسها تُهمًا باطلة، أما عن بدور، فلم تكن تدري ما الذي تفعله، أتهاجمها مجددًا وتُكذب حديثها، أم تقنع ذاتها أن ما تقوله حقيقيًا وأنها هي التي أخطأت بحقها، فهي لا تعلم ما الذي تفعله يارا بسبب انشغالها الدائم بشقيقها كثير المتاعب وكذلك ببقية من يقطن المنزل، وكلما حاولت التقرب منها تجد يارا تصدها كما لو كانت هي ستقوم بأذيتها...

انتهى الأمر عند هذه النقطة لتدلف بدور حجرتها بأكتافٍ متهدلة وعقلٍ لا يتوقف عن التفكير فيما حدث....

____

مرّت بضعة أيامٍ لم تخلو من الجد والإجتهاد، فها قد انتهوا من تنظيف العربة لتُصبح جاهزة للعمل عليها، كما حصل مراد على بعض الترخيصات لتضحى العربة واثبة عند رُكنٍ يُقابله الشارع مباشرة وأمامه بضعة طاولات صغيرة، أما بالنسبة لما كان يبعيه، فقد قررت سما أن تعمل بالحلوة لكونها بارعة في طهيها...

-ألــف مبرووك...

قالتها بدور بمرحٍ وهي تتقدم من العربة ومُعتصم بجوراها يبتسم لهم ابتسامة هادئة مدٌ معها هدية بسيطة نحو سما ليُبارك لها على هذا الإنجاز، فكانت الهدية من إختياره هو وبدور حتى يفاجآها ويُهنئاها على تلك الوظيفة الجديدة...

استقبلت سما الهدية بصدرٍ رحبٍ لتُعانق بعدها بدور ثم تواصل الطهي حتى تُجهز الطلبات قبل أن يتكاثر الزبائن، كان اليوم هو بداية الأسبوع لذلك لم تكن الزبائن مكتظة لكونهم في وظائفهم أو مدارسهم، قررت بدور أن تهم بمساعدة سما لأن معتصم على وشك تركها والذهاب إلى عمله، لكنه قبل أن يتركها وثب أمام بدور ليرميها بابتسامته الساحرة والتي أخرج معها عُلبة صغيرة ومدٌها نحو بدور...

أخذت منه العُلبة بابتسامة وذهول خاصة وهي ترى هذا الخاتم الرقيق ذي الوردات المُنمقة وحُبيبات الألماظ، أخرجت ذاك الخاتم من العُلبة وهي تُطيل الإعجاب به ويتأمل هو ابتسامتها البريئة مع كلماته:

-لما شوفت الخاتم ده حسيته لايق عليكي ... رقيق زيِك بالظبط

عضت شفتها السُفلية بحرج وما كادت تُجيبه حتى هتفت سما بتذمر:

-يا بدور إنتِ جاية تساعديني ولا جاية تتنحنحي ؟

انتبهت بدور لحديثها الذي انتشلها من غياهب الهيام التي كانت غارقة بها، وضعت الخاتم مجددًا داخل العُلبة ثم وضعت العلبة داخل حقيبتها كي تستأذن من مُعتصم:

-أنا هروح بقى أساعدها...

لوٌحت له قبل أن تدلف العربة كما استأذن هو الآخر حتى يذهب إلى وظيفته، وتبدأ سما بالعمل الدؤوب داخل العربة بمساعدة من بدور التي طفقت تُسلم الطلبات للزبائن، بقيا على هذا الحال حتى أوشكت الشمس على المغيب واستأذنت بدور كي تذهب إلى تمرينها بينما بقيت سما كما هي تُفكر في مستقبلها وبالأموال التي ستجنيها وتُحقق بهم حُلمها، فهي لن تنغمس بهذا العمل سوى لفترة مؤقتة عليها أن تُكثفها حتى تستطيع جمع الأموال بسرعة....

قطع شرودها وانغماسها في أحلامها صوت يقين التي أتت ما إن انتهت من عملها لتُساعد سما كما وعدتها، فكانت تقول بنبرة تشجيعية:

-الله ينور ... شايفة الزباين ماليين التربيزات

وضعت سما قطعتين من أقراص الحلوى التي بالقرفة على صحنين من الورق المقوى لتضع فوقهما سائل من الشوكولاة والفانيلا ثم تمدٌهم بعدها نحو يقين وهي تُخبرها:

-قولٌي ما شاء الله ... ويلا بقى إدي دول للزباين مش عايزين نتأخر

أومأت يقين بموافقة ثم أمسكت منها الصحنين لتوٌصلهما نحو الرجل الذي يجلس مع زوجته بإحدى الأركان، في تلك اللحظة أتى مُراد وهو يجُر مقعدًا متحركًا يجلس عليه والده والسعادة تنطلي على وجهه....

-شوفت بقى يا بابا العربية بقيت إزاي ؟

قالها مراد بفخرٍ وبصوتٍ مرتفع تعمد معه أن يصل إلى مسامع سما لعله بتلك الطريقة يشكرها ويُشجعها على العمل، فكانت تبتسم سما بإحراجِ ظهر جليًا على وجنتيها الحمراوتين...

توقف مراد خلف والده الجالس على مقعده المُتحرك وطفق يُعرفهما على بعضهما بقوله:

-دا بابا يعقوب إللي حكيتلِك عنه

رسمت سما بسمة خجولة وهي تُرحب بوالده:

-إزاي حضرتك يا عمو ؟

بادلها يعقوب ببسمة أخرى أردف معها بامتنان:

-إزيِك يا بنتي ... واضح عليكي إنك شاطرة زي ما مراد قالٌي بالظبط

إزداد حرجها من حديثه ولم تكن تعلم ماذا تقول، لكنها كانت تشعر بالسعادة وهي ترى كم أنه يُحب والده ويسعى لسعادته دائمًا، فتلك العلاقة الحميمة التي بينهما تُشعرها بالدفء وتُذكرها بعائلتها التي فقدتهما منذ عدة أيام...

وجدت مُراد يُحيط يعقوب من ظهره ليهتف بمرحٍ حمل معه الإطراء:

-لأ ومش بس كدة ... دي بتعمل كنافة عظمة، أنا جايبك عشان تدوقها

لاحت الدهشة التي امتزجت بالمرح على ملامح يعقوب وهو يهتف:

-طالما كنافة ... يبقى خلينا ندوق بقى

وافقت سما بحرجٍ شديد وخوفٍ من تحطيم آماله إذا لم يُعجبه طعامها لكنها تشجعت بنظرات مراد الواثقة والتي زادتها ثقة ما إن أعطت قطعة صغيرة من الحلوة ليعقوب الذي التهمها بنهمٍ أعرب معه عن حُسن مِذاقها، كذلك آراد قطعة أخرى لكن مراد لم يسمح له بسبب حالته المرضية، أكملوا بعدها الحديث في مرح يشوبه العمل بجدٍ والمزاح أحيانًا .... فدائمًا عندمل ننغمس بالأعمال الشاقة يجب أن نبحث عن ما يُسعدنا ويجعلنا نتشجع لنواصل العمل....

____

في صباح اليوم التالي كان زكريا يتجول بالفناء رفقة عبده الذي تطورت علاقتهما قليلًا بالأيام السابقة، لكنها مع ذلك لم تخلو من بعض الخلافات بسبب شخصيتيهما صعبة المِراس، فكل منهما لديه شخصية تحكمية ترغب بالقيادة ولهذا السبب يتعاركا بشكلٍ دائمٍ، على الرغم من أن من يتخذ القرار بالنهاية هو شهاب، ولهذا السبب يقعون بالمصائب دائمًا....

كانوا قد اتفقوا على جمع الأموال من الُطلاب حتى يبتاعوا بعض المنتجات الغذائية والحلوة بأسعار بخيثة كي يقوموا ببيعها للطُلاب ويكسبون أموالًا طائلة، كانت فكرة

شيطانية هدفها كسب المال من أجل الكارثة الكُبرى التي سيفعلونها عما قريب، فتلك الأشياء الكارثية هي ما تجعلهم يعتقدون أن حياتهم مليئة بالمغامرة، ففي ذاك العُمر دائمًا ما يسعون للمغامرة نظرًا لتأثرهم بالأفلام والرسوم المتحركة التي لا تخلو من الكوارث والمغامرات....

يتجوّل زكريا بالقُرب عن عبده، وكلاهما يُفكران في طريقة يستطيعا من خلالها جني المال، فكان عبده يتحدث بثقة أظهرت حدته:

-الموضوع ده سهل عليا ... أنا أصلًا قلبت ناس كتير

رمقه زكريا باستخفافٍ أظهر عدم تصديقه، فهو لا يعلم أن عبده يقوم بأخذ أموالًا من شقيقته وزوجها والعديد من الأشخاص بعد أن يقوم بتهديدهم أولًا...

ابتعد عبده عن زكريا ليتجه نحو اثنين بنفس عُمرهما يتناولان غداءهما في صمتٍ إلى أن انقض عبده على واحد منهما يمسكه من تلابيبه ويدفعه نحو الحائط بحدة:

-هات الفلوس إللي معاك يلا...

كاد يصرخ الفتى بأعلى ما لديه لكن عبده أسكته بنظراته النارية والخنجر الذي كان يُدثره داخل سرواله حتى لا تعثر عليه المُعلمة وتقوم بفصله، أظهر هذا الخِنجر أمام الفتى الذي إرتعد من الخوف هو وصديقه الذي ما إن رآى الخنجر حتى كاد يهم بالهرب لولا يد عبده التي أمسكته هو الآخر ودفعته بقوة حتى سقط أرضًا...

-هات الفلوس بدل ما أقطعلك وشك

ترقرقت دموع الفتى وهو يُخرج ما أعطته والدته من مالٍ ليمده نحو عبده بأصابع مرتجفة، ما إن أخذ منه عبده النقود حتى أمسك صديقه وأجبره هو الآخر على إعطاءه ما معه من مال، وضع بعدها ما أخذه منهما داخل جيبه ثم أدلى آخر كلماته بتهديد:

-لو بوقكم ده اتفتح وقال لحد على إللي حصل ... إنتو عارفين كويس أوي هيحصلكم إيه

إزدردا ريقهما في خوف ثم هرولا بعيدًا عنه أمام نظرات زكريا الذي كان يُراقب ما يحدث من بعيد، اتجه عبده بعدها نحو زكريا ليُريه ما جمعه من أموال ويُخبره بنبرة فخورة:

-مش قولتلك الموضوع سهل

واصل بعدها السير بجوار زكريا الذي لم يُعجب بتلك الطريقة العنيفة فكان يُبرر بقوله:

-إنت لو عملت كدة تاني هيروحو يشتكوك ... ومتقوليش هتهددهم عشان ساعتها هتبقى برة المدرسة ... وممكن تروح الأحداث

كان حديثه واقعيًا لكن عبده لم يهتز ولم يقتنع حتى بحديثه، فهو يعتقد أن ما يفعله أمرًا عاديًا وهذا بسبب والده الذي يُشجعه على التقليل من الأخرين، واصلا السير بعدها إلى أن توقف زكريا عندما سأله عبده باستخفافٍ:

-على الأقل جبت الفلوس ... ورينا إنت بقى هتجيب فلوس إزاي ؟

ربت زكريا على كتفه مردفًا بثقة:

-إتفرج وإتعلم..

تركه بعدها ليتجه صوب مجموعة من الفتيات يجلسن في حلقة ويتناولن الشطائر مع أحاديثهن المتبادلة، قطع زكريا تلك الأحاديث وهو يجثو قبالتهن على الأرض كي يبدأ الحديث بنبرة ودودة:

-ازيكم يا بنات عاملين إيه...

ردوا عليه ببعض الغرابة فواصل الحديث بسرعة كي يدلف صُلب الموضوع بنبرة حزينة زائفة:

-في واحد معانا في الفصل عنده مرض خطير ... وأهله مش معاهم فلوس عشان يعالجوه، عشان كدة إحنا قررنا نجمع فلوس عشان نعمله العملية ويرجع المدرسة تاني ... تحبو تشتركو معانا وتعملو خير ؟؟

رمقهن بنظراتٍ متوّسلة بدت حزينة لهن خاصة وهو يواصل الحديث عن ذاك الفتى الوهمي وكم أنه يُعاني من المرض ويريد أن يواصل حياته والاستمتاع مع رفاقه، ولأنهن فتيات، فكانت كلماته تخترق نُياط قلبهن الرقيق وتجعلهن يُخرجن ما يملكن من أموال ويُعطونها لزكريا بصدرٍ رحبٍ يظنن أن ما يفعلنه له ثواب عظيم...

أخذ زكريا أموالهن ليثب بعدها عن الأرض بابتسامة خبيثة توجه بعدها نحو عبده مُفتخرًا بما فعله رغم أنه إرتكب خطأً كبيرًا وسيُعاقب عليه مع الأيام، فهو لا يزال صغيرًا لا يستطيع التفرقة بين الخطأ والصواب خاصة مع غياب أسرته...

لوّح بالأموال أمام عبده ليُخبره بانتصار:

-مش قولتلك قبل كدة الصياعة مش بالدراع

رمقه عبده بحيرة من ذاك المُخادع الصغير، فهو يجزم أن ذاك الفُتى سيُصبح نصابًا بالمستقبل، فهو بارع بالتمثيل والخداع...

واصلا السير بالفناء إلى أن توقف زكريا فجأة ما إن لمح من بعيد إنزواء سارة بإحدى الأركان ودموعها المُنهمرة بغزارة، بقي يُحدق بذاك المنظر وداخله يشتعل، فهو قد ظن أن هناك من قام بمضايقتها وجعلها تبكي بتلك الطريقة، فمن هذا الذي يُضايقها بالمدرسة وهو معها ؟

ترك عبده وهرول نحوها بسرعة حتى وثب قبالتها يركع على ركبتيه ويسألها بنبرة حنونة:

-في إيه يا سارة ؟... في حد ضايقك ؟

واصلت سارة البُكاء وهي تنفي برأسها مما أشعره بالراحة، فلا أحد قام بأذيتها، لكن ما سبب دموعها هذه ؟ بقي قبالتها يحاول الاستفسار عما حدث بسؤاله:

-طب إيه إللي حصل ؟... بتعيطي ليه ؟

لم تتوقف عن البكاء حتى أخرجت من جيبها سامعات للأذن حديثة الصيحة لكنها كانت مُهشمة ولا يُمكن تصليحها، كانت تتحدث بين شهقاتها:

-أنا كسرت السماعات بتاعة سما ... وهي هتزعل مني ... أنا مكنش قصدي أكسرها

اطمأن لأن سبب بكاءها لم يكن كبيرًا، فهو يعلم كم أنها تمتلك قلبًا هشًا رقيقًا يجعلها تبكي من أتفه الأسباب، ومع ذلك حاول تهدئتها ومواساتها بقوله:

-طب خلاص متعيطيش ... أنا هجبلِك واحدة غيرها قبل ما سما تعرف

نظرت له بأعينٍ غير مصدقة قالت معهما:

-بس هي بفلوس كتير

طمأنها مجددًا بنبرة واثقة:

-متقلقيش ... أنا هتصرف في الفلوس... المهم متزعليش...

رسم بسمة هادئة على ثغره حتى يُطمئنها على الرغم من أنه لا يعلم من أين يأتيها بتلك الأموال، فالأموال التي أخذها من الفتيات لن تكفي لشراء تلك السامعات الباهظة، كذلك رفاقه سيحتاجون تلك الأموال وسيسألونه عنها، ولهذا السبب فكر بأن يأتي بتلك الأموال بطريقة أخرى ربما سيستخدم فيها الخداع مجددًا، لكنه سيساعدها

حتى لا يرى دموعها مرة أخرى .... فهو يعتبرها شقيقته الصغيرة وعليه أن يقوم برعايتها ومساعدتها...

____

أظلمت السماء لتتنحى الشمس جانبًا ويأتي مكانها القمر والنجوم التي تصحبه، تجلس بدور على أريكة البهو أمام جدتها التي علِمت ما حدث بينها وبين شقيقتها وآرادت أن تتحدث معها بدور لعلها تعثر لها على حلٍ تستطيع من خلاله التقرب أكثر من شقيقتها، فكان حديثها متوسِّلًا حمل معه حُزنها:

-والله يا تيتا أنا زعقتلها غصب عني ... أنا كنت عايزة أقولها إن إللي بتعمله ده غلط بس التعبير خاني ولقيت نفسي بزعقلها

حاولت جدتها إرشادها بنبرتها الحكيمة الهادئة:

-يا حبيبتي الرسول صل الله عليه وسلم قال " إذا أحبَّ أحدُكم أخاه فليُعْلمَه إيّاه "... يعني لازم تبنيلها إنِك بتحبيها وبتخافي عليها، لازم تتكلمي معاها بهدوء وتنصيحها كأنك والدتها...

وضعت يدها المليئة بالتجاعيد على يد بدور الجالسة جوارها لتجعلها تُحدق بمُنتصف عينيها وتستمع إلى نصيحتها:

-يارا محتجاكي يا بدور ... محتاجة حد قُريب منها، وبما إن مامتكم مش موجودة يبقى لازم إنتِ تكوني جنبها وتتصاحبي عليها...

حادثتها بدور بنبرة مكلومة:

-يا تيتا والله أنا بحاول ... بس كل ما آجي أتكلم معاها مش بترضى ... ده غير إنها طول اليوم أصلًا برة البيت، ولما بتيجي يإما بتقعد في أوضتها يإما بتنام ... أنا بجد مبقتش عارفة أعمل إيه..

ضمتها جدتها لترتكن داخل كنفها كي تبدأ التمسيد على خُصلات شعرها بحنانٍ بالغ واستها معه:

-معلش يا حبيبتي، قرّبي منها واحدة واحدة وهي إن شاء الله هتتكلم معاكي وتفتحلِك قلبها ... خليكي إنتِ الكبيرة إللي قلبها على إخواتها...

ابتسمت بدور ابتسامة هادئة لمدح جدتها الصادق، فهي من تتوّلى رعايتهم جميعهم لأنها الأكبر سِنًا والأكثر شعورًا بالمسئولية، فهي حتى أكبر عُمرًا من سما وتتولّى رعايتها ومساعدتها كما لو كانت ابنتها مثلهم بالضبط، وبوجود جدتها جوارهم خفف عنها بعض الحِمل، فجدتهم هي من تتولّى إرشادهم ونُصحهم وكذلك الإنفاق عليهم دون اعتراضٍ أو تذمر، فأحفادها هم كل ما لديها بهذه الحياة...

____

بنفس تلك الأمسية كانت تقف سما داخل العربة تضب أمتعتها استعدادًا للرحيل، فالزبائن قد رحلوا وأوشكت الساعة على أن تدق العاشرة مساءًا، مما يعني أنها يجب أن تعود إلى المنزل قبل أن تقلق عليها جدتها وبدور وكذلك سارة وزكريا...

كان مراد أمامها ينتظرها حتى تنتهي من ضب أمتعتها حتى يقلها بالمنزل كما يفعل بالفترة الأخيرة حِرصًا على سلامتها، دائمًا ما كانت تذهب معهما يقين، لكن هذا اليوم وجدوها تستأذن باكرًا لأن والدتها مريضة وعليها مراعاتها حتى تُشفى...

يمسك معه حفنة من الأموال يقوم بحصيها وكتابة بعض الأرقام على دفترٍ أمامه وكأنه يقوم ببعض الحسابات، ما إن انتهى من الكتابة حتى أردف بعملية:

-كدة إحنا معانا 12 ألف جنيه ... لو خصمنا الضريبة والبضاعة إللي العربية هتحتاجها ...

فكر هنيهة ثم واصل بنفس ذات النبرة:

-كدة هيتبقى تمن تلاف جنيه ... وكل ده في تلات أربع أسابيع ... يعني لو كملنا كدة هنجمع المبلغ في تلات أربع شهور .... كمان أنا اتكلمت مع صاحب المحل وخليته يستنى شوية لغاية ما نجمع المبلغ

أنهى حديثه ببسمة مُطمئنة جعلتها تبتسم هي الأخرى بامتنانٍ حاولت معها تشكُره ببعض الحرج:

-أنا بجد متشكرة أوي ... مش عارفة أشكرك إزاي على إللي بتعمله معايا

اتسعت بسمته وهو يستقبل حديثها بسعادة، فهذه تُعتبر المرة المئة التي تتشكره بها رغبة بمعرفة السبب وراء مساعدته إياها ولا تعلمه بالنهاية، فهو لا يُريد الإفصاح عن الحقيقة الآن، يريد لعلاقتهما أن تتوطد أكثر حتى تسنح له الفرصة عن الكشف عما بداخله وإخبارها بأسراره التي لا يعرفها أي شخصٍ آخر، فحتى يقين شقيقته لا تعرفها...

بعد برهة من الوقت أغلقت سما العربة تمامًا وتحركت صوٌب مراد كي تنبئه:

-خلاص قفلت .. يلا بقى نروٌح عشان اتأخرت...

أوقفها مراد وهو يضع يده داخل جعبته كي يُخرج منها كيسًا بلاستيكيًا صغيرًا يحتوي على شيءٍ بداخله...

-طب استني طيب...

أوقفها عن الحِراك بتلك الكلمات ثم أعطاها ذاك الكيس البلاستيكي مع ابتسامته الهادئة وحديثه:

-كل سنة وإنتِ طيبة

اتسعت بسمتها وإزداد حرجها وهي تلتقط منه ذاك الكيس الذي يحتوي على قلادة رقيقة تحمل فراشة رقيقة منمقة بحُبيباتٍ صغيرة من الألماظ، أمسكت تلك الهدية

بإعجابٍ وتعجبٍ من معرفته بأن اليوم عيد ميلادها وهي لم تُخبر أحدًا بهذا فيما عدا هو الذي علِم بالصدفة وقرر مفاجآتها بتلك الهدية الصغيرة...

-عرفت منين إن إنهاردة عيد ميلادي ؟

آجابها بصدقٍ ونبرة هادئة:

-بدور قالتلي ... وقالتلي كمان إنِك مش بتحبي اليوم ده..

أنكست سما رأسها لأسفل بسبب بعض الذكريات التي بدأت تُهاجمها وتجعلها تتحدث بضيقٍ:

-أه ... أنا فعلًا مش بحب اليوم ده

وجد نفسه يسألها بفضول:

-ليه ؟

تنهدت سما بعُمق ثم طفقت تسير جواره على الطريق لتُجيبه بعد فترة بأعين تُحدق بالأرضية كي لا يستشعر حُزنها:

-عشان ... عشان ده اليوم إللي ماما وبابا ماتو فيه...

أنهت حديثها بأعينٍ تكاد تُذرف شلالاتٍ من الدموع، لم يُرد سؤالها عن المزيد من التفاصيل لكنه وجدها تحكي وحدها وكأنها انتهزت الفُرصة حتى تُخرج ما بجعبتها ...

-كُنت وقتها في آخر سنة ليا في الجامعة ... وكُنت راجعة من المحاضرة على أساس هلاقي ماما وبابا عملينلي مفاجأة زي كل سنة في يوم عيد ميلادي ... بس للأسف ملقيتش حاجة

تنهدت مجددًا كي تكبت دموعها وهي تواصل الحديث:

-ساعتها كنت متضايقة أوي ... وإفتكرت إنهم نسيوني، ومع ذلك مبينتش قدامهم وفضلت ساكتة .... بس سارة بقى قالتلهم إني متضايقة مع إني قولتلهم متصدقوهاش وهما بردو أصرو يجيبولي تورتة عشان نحتفل مع بعض بعيد ميلادي...

لم تستطع كبح دموعها عند تلك النقطة ووجدتها تنهمر بغزارة حتى إتخذ وجهها من اللون الأحمر وشاحًا...

-كنت قاعدة مستنياهم أنا وسارة عشان ييجو ونحتفل ... فضلنا مستنيين كتير لدرجة إن سارة راحت في النوم .... فجأة لقينا الباب بيخبط ... فـ ... جريت على الباب عشان أفتحلهم وأعاتبهم عشان اتأخرو ... بس لقيت...

توقفت عن الحديث لتجهش بالبكاء أكثر وهي تتذكر تلك الذكرى التي لا تزال تؤرقها وتخترق عقلها حتى يومها هذا، واصلت الحديث بين شهقاتها بصعوبة بالغة:

-لقيت ظابط قدامي ... بيقولي إنهم عملو حادثة و... وماتو

تعالت شهقاتها في تلك اللحظة مما جعل قلبه ينفطر من أجلها وآراد أن يحتضنها ويُربت على ظهرها لكنه منع نفسه بقوة، إكتفى بالتحديق بها بنظراتٍ حزينة كادت تُذرف معها بعض الدموع ... تركها لتُفرغ ما بجعبتها ثم أردف بمواساة:

-ربنا يرحمهم ... هما أكيد في مكان أحسن من هنا ... وأكيد هيكونو متضايقين لو شافوكي بتعيطي بالمنظر ده

وجدها تردف بين شهقاتها بنبرة مُشتاقة:

-وحشوني أوي، حاسة إن أنا السبب في موتهم

نفى حديثها بإصرارٍ بثها بعض الثقة:

-لأ إنتِ مش السبب، ده قضاء وقدر ... وإنتِ لو بتحبيهم وعيزاهم فخورين بيكي يبقى لازم تشتغلي على نفسِك وتحققي حلمِك ... خليكي فاكرة إنهم شايفينِك ... وهيكونو مبسوطين وإنتِ ناجحة

هدأت وتيرة بكاءها وحلّ محلها ابتسامة هادئة طغت على حُزنها وملاءتها بالإصرار والمثابرة من أجل أبويها، فهذه كانت أول مرة تشعر وكأنها إحتفلت بعيد ميلادها الذي مقتته لسنواتٍ عديدة ... ورغم أن الإحتفال كان في غاية البساطة، إلى أنه آعاد لها سعادتها وابتسامتها التي تندثر تمامًا في هذا اليوم رغم أنه من المُفترض أن يضحى يومًا مميزًا، فكيف تحتفل بنفس اليوم الذي تُوفي فيه والديها، هي بالطبع لن تفعل ذلك، لكن على الأقل، ستتسامح مع هذا اليوم وتُذكر نفسها أنه اليوم الذي وٌلدت به منذ عدة سنوات...

____

دلفت الحُجرة بابتسامة هادئة وفم يُدندن بإحدى الأغاني السعيدة والتي أعربت من خلالها عن سعادتها، التقطتها عينا بدور التي كانت تجلس على الفراش استعدادًا للنوم، لكنها ما إن رآت الابتسامة تُزين ثغر سما حتى شعرت بالحيرة تكتنفها، فمنذ متى وسما تبتسم في هذا اليوم بالأخص ؟

-ده إيه الابتسامة دي ؟

تنهدت سما بأريحية وهي تُجيبها بسعادة ارتمت معها على الفِراش بإنهاك:

-أصلي إفتكرت بابا وماما الله يرحمهم

أنهت حديثها ببسمة هادئة أرخت معها ظهرها للوراء أمام نظرات بدور التي إزدادت حيرتها...

أرخت بدور ظهرها للوراء لتجلس بالقُرب من سما لعلها تستفسر أكثر عن سبب سعادتها:

-إفتكرتي إيه ؟ ... دا إنتِ كُل ما تفتكريهم بتعيطي

تنهدت سما مجددًا وهي تضع ذراعها خلف رأسها وتهتف براحةٍ وسلامٍ داخليٍ لا تعلم من أين أتاها:

-لأ ... منا خلاص، من هنا ورايح كل ما هفتكرهم هبقى مبسوطة وبضحك ... عشان أنا كُنت بحبهم أوي ... ومش منطقي إني أفتكر حد بحبه وأقعد أعيط...

بدلت نبرتها إلى أخرى متلهفة قالت معها:

-ده غير بقى إنهم هيكونو مبسوطين وهُما شايفيني ناجحة والناس كلها بتتصور معايا

لازالت الحيرة تطغي على ملامح بدور حتى آعادت سما إلى أرض الواقع بقولها:

-مين ده إللي يتصور معاكي يا سما هو في حد يعرفِك أصلًا ؟

شعرت سما بالغيظ من حديثها فدفعت بدور بعيدًا عنها دفعة بسيطة تبعتها بحديثٍ واثقٍ حمل معه بعض التبهنس:

-بُكرة تشوفوني في التلفزيون بحكي لمُنى الشاذلي قصة حياتي...

أنهت حديثها بثقة فمازحتها بدور ببعض الكلمات إلى أن قطعهما صوت زكريا الذي اقتحم الحُجرة مستأذنًا...

-بدور بدور .... أنا عايز فلوس

قالها بتهذيبٍ يتنافى مع شخصيته فاعتدلت بدور بجلستها كي تسأله باستفسار:

-عايز كام ؟ ... وعايز فلوس ليه ؟

فكرٌ زكريا هنيهة ثم أردف بثباتٍ يشوبه بعض الارتباك الطفيف:

-عايز 500 جنيه عشان أروح حفلة شرموفرز

إزدادت حيرة بدور وهي تسأله:

-حفلة إيه !! ... ومن إمتى بتروح حفلات ؟

تلعثم قليلًا قبل أن يتحجج بقوله:

-لأ ما هو ... الحفلة دي عليها درجات في أعمال السنة

تدخلت سما بتلك اللحظة كي تسأله بغير تصديق:

-حفلة شارموفرز عليها درجات في أعمال السنة !! ... ده ليه إن شاء الله ؟

حافظ على ثباته وهو يشرح لهما بحديثه الذي بدا مُقنعًا:

-ما هو شارموفرز بيعملو إيه ؟

آجابت كلتاهما بصوتٍ واحد:

-بيغنو

-والغُنى دا إيه ؟؟

آجابا مجددًا بصوتٍ واحدٍ وكأنهما يتحدثا أمام معلمهما الذي يشرح لهما الدرس ويسألهما بعض الأسئلة:

-فن

رفع يديه حتى يُفسر لهما:

-بس أديكم قولتو أهو ... إحنا بناخد في العربي درس عن الفن المُعاصر ... فالميس قالتلنا روحو الحفلة دي عشان تطبقو عملي

أنهى حديثه بثقة لكنه لم يخلو من نظرات السُخرية وعدم التصديق التي تُقذف من كليهما، فبعد فترة وجيزة من الصمت دفعته بدور خارج الحُجرة وهي تقول بتقرير:

-قولتلي فن معاصر !! .... طب إمشي يلا من هنا مفيش حفلات

لم يتحرك ساكنًا وبقي على موقفه يصر على قراره بأعين متوّسلة ورغبة مُلحة في الحصول على المال بأية طريقة:

-يا بدور بقى أنا عايز أروح الحفلة ... يعني يرضيكي يعني أتأذي وأروح المستشفى عشان إنتِ مش عايزة توّديني الحفلة

كانت نبرته مُستعطفة لكن بدور ترجمتها باستخفافٍ لأنها تعلم تمثيله جيدًا:

-وإيه إللي هيخليك تروح المستشفى ؟

سألته ببعض الحدة فوجدته بُفسر لها بعملية:

-ما هو أنا لو مروحتش الحفلة هتضايق ... ولو اتضايقت هكتأب... ولو اكتأبت هفكر في الإنتحار ... ولو فكرت في الإنتحار هتوّدوني مُستشفى المجانين ... ولو ودوتوني مستشفى المجانين هـ_

قطعته سما في تلك اللحظة بنفاد صبرٍ:

-بس بس ... كل ده عشان حفلة ؟...

تحركت بجذعها لتنتشل حافظة النقود خاصتها وتُعطيه ما يُريده من تلك الأموال التي جنتهم من وظيفتها بخِلاف الأموال التي تدخرهم من أجل المبلغ المُراد، أعطته الأموال وهي تشترط بقولها:

-الفلوس أهي ... بس تذاكر الأول وتجيب مجموع حلو وتاخد بالك من نفسك في الحفلة... اتفقنا

أومأ رأسه موافقًا وهو ينتشل منها الأموال بسعادة بالغة، فها قد تحقق مراده أخيرًا وسيبتاع تلك السامعات لسارة دون أن تعرف سما حقيقة ما فعلته، ترك بعدها الحُجرة بعد أن عاتب بدور ببعض الكلمات المازحة وتشاجرت هي معه كالعادة قبل أن تخلد إلى النوم بجوار سما...

ما إن ترك زكريا الحُجرة حتى ارتخت سما على الفِراش لتُغطي جسدها بالغطاء راغبة في الغرق بسُباتٍ عميقٍ لعل جسدها يستريح من عناء هذا اليوم، كانت بدور جوارها تمسك بهاتفها رغبة بملئه ببعض الطاقة قبل أن تخلد للنوم، لكنها لمِحت إحدى الرسائل المُرسلة إليها مما دفعها لفتح تلك الرسالة وإرضاء فضولها....

فتحت الهاتف بفضولٍ انقلب مرة واحدة إلى الصدمة وعدم التصديق...

فهي ترى أمامها فتاة بمُقتبل العُمر تلتقط صورة لها برداءٍ أنيقٍ يتم إرتداءه بالخُطبة خاصة وهي ترى كؤوس الشربات ترتص بالقُرب من تلك الفتاة ... وما زاد صدمتها هو ما كتبته أعلى تلك الصورة والذي كان...

"اليوم .. من أسعد أيام حياتي برفقة زوجي المُستقبلي وخطيبي الحالي ... مُعتصم !! "

الفصل السادس (قوة الحِقد !!)

"لا تكن كالورقة وتترك الجميع يترك أثره عليك، بل كُن كالقلم وإترك أثرك على الجميع"

____

تلاحقت أنفاسها بحرارة لتخلق أعاصير بداخلها حتى بدأت دموعها بالانزلاق، فلا يُمكن أن تضحى تلك الصورة حقيقية، لا يُمكن أن يطعنها بتلك الطريقة، فقد كان يتحدث معها صباح اليوم ولم يبدو عليه آثار الخيانة، بل حتى كان يُحادثها عن مستقبلهما دون أن يتطرق لكونه سيتركها في جميع الأحوال...

لاحت بوادر النفي على وجهها وكادت تتعالى شهقاتها لكنها كبحتهم داخلها بصعوبة حتى لا تستشعر سما ما يحدث، فربما تلك الصورة ليست حقيقية، أو ربما والدته تتعمد الإيقاع بينهما كما تفعل دائمًا....

إكتفت بالاستلقاء مجددًا على الفراش وتدارك الأمر رغم أنها متأكدة أن النوم لن يأتيها دون أن تعلم حقيقة ما حدث...

____

أشرقت شمس يومٍ جديد وانتشرت أصوات العصافير حولها لتخلق نغمة عذبة تُشجعها على العمل بجدٍ داخل العربة وجوارها يقين تقوم بمساعدتها بعدما استأذنت بدور لسبب لا تفقهه، فهي قد لاحظت تغيُّر حالتها لكنها لم تفهم السبب لأن بدور رفضت الحديث عما يؤرقها...

كانت تُفرق الصحون الورقية أمامها دون أن تنتبه إلى تلك النظرات الحاقدة الموجهة من عربة الطعام الأخرى التي خسرت العديد من زبائنها منذ أتت عربتهم، فهي كذلك تتخصص ببيع الحلوة لكن الحلوة التي تطهوها سما تمتاز بلمحة بيتية تُشعر من يتذوقها بالدفء والحنين للعائلة ... ولهذا السبب يقبل الزبائن على سيارتهم بكثرة، ناهيك عن الخطة التسويقية البارعة التي قاموا بها بمساعدة من سما نظرًا لكونها

بارعة بالتسويق وما يخص الدعاية، فهذا كان مجال دراستها قبل أن تتجه إلى تلك الرياضة...

لم تُلقي سما بالًا لنظراته ومراقبته لها طيلة الوقت، وحافظت على طبيعتها وهي تواصل العمل وتلبية رغبات الزبائن، لكن مع مرور الوقت كاد صاحب العربة الأخرى ينفجر من الغيظ، فلا أحد يأتيه من الزبائن وسيخسر ما يمتلكه بسبب عربتهم ... هذا ما جعله يترك عمله ويتجه نحو سما ليرميها بابتسامة سمجة أردف معها بوقاحة:

-ويا ترى بقى معاكم ترخيص عشان تقفو بالعربية دي هنا ؟

رمقته سما بحيرة من طريقة حديثه الوقحة، أما عن يقين فبطبيعتها الحادة ردت عليه بثقة:

-وحضرتك مين إن شاء الله عشان تسألنا ؟ ... مش شايفة نجوم على كتفك يعني

لاحت بوادر الحقد على وجه الرجل وهو يهتف بهما:

-المكان ده بتاعي ... وعربيتكم دي بتسرق الزباين مني

أنهى حديثه بنبرة مرتفعة كادت تُصيب سما بالارتباك، إلى أن يقين تدخلت بنظراتٍ حادة أردفت معها بصُخبٍ:

-والله شطارتنا هي إللي بتخطف الزباين ... ولو حضرتك مش عاجبك يبقى تقفل عربيتك ومتقرفناش

أطبق الرجل على شفتيه بغضبٍ ضم معه قبضته وأظهرها أمامهما، لم تهتز يقين قيد أنملة بينما كانت سما ترتجف بتوتر، فهي لم تعتد بعد على المنافسة والهجوم خاصة بما يخص عملها...

وجداه يقترب أكثر نحو العربة كي ينصتا إلى تهديده الذي كان:

-هي كلمة ومش هكررها ... لو المخروبة بتاعتكم دي متشليتش إنهاردة قسمًا بالله لأهدهالكم

بصق تلك الكلمات بطريقة بثت الرُعب داخل سما بالأخص، فبعد كلماته لم تعد قادرة على مواصلة العمل خوفًا من أن يُنفذ هذا الرجل تهديداته، أما عن يقين فلم تخلو ملامحها من السُخرية والاستخفاف بحديثه، حتى أنها التفتت نحو سما كي تُطمئنها بثقة:

-فُكك منه ... الأشكال دي أنا عرفاها كويس ... متخليش حد يأثر عليكي

أومأت سما برأسها ومازال الرُعب يطفو على جنباتها، لكنها اتبعت ما قالته يقين وواصلت العمل وكأن شيئًا لم يكن، فعليها أن تتحلّى بالصلابة حتى تواجه هذا العالم ...

بعد بُرهة من العمل صدح صوت الهاتف الخاص بسما مما جعلها تترك ما تفعله لوهلة كي تُجيب هذه المكالمة، وضعت الهاتف على أذنها لتُجري مكالمة سريعة أنهتها بعوالم شديدة القلق مما جعل يقين تنتبه لها وتسألها بفضول:

-في إيه ؟؟

خلعت سما مريولها كي تترك العربة بسرعة أثناء إجابتها:

-دي المدرسة بتاعت زكريا ... شكله عمل مُصيبة..

آشارت ليقين كي تنتبه لحديثها:

-خلّي بالِك من الشُغل لغاية ما آجي، إن شاء الله مش هتأخر ... ولو بدور جات إوعي تقوليلها على أي حاجة

أنهت حديثها بتحذيرٍ حتى لاينزلق لسان يقين وتُخبر بدور أن شقيقها إفتعل كارثة ما وذهبت سما كي تنقذ الموقف، فسما تُريد أن تُخفف عنها بعضًا من عبء رعاية أشقاءها خاصة زكريا كثير المتاعب...

____

تتحرك أقدامها بخطواتٍ سريعة وكأن النيران تشتعل وراءها وتتساقط من قدميها، واصلت التحرك حتى دلفت بناية حديثة الصيحة تقبع بإحدى الأحياء البسيطة التي تمتاز ببعض الرُقي والطابع الإنجليزي الذي يطغي على أغلب المباني...

توقفت أقدامها عند إحدى المنازل بالطابق الرابع لتضع يدها على الباب وتبدأ الطرق عليه بقوة وكأنها ستنتزعه بين يديها...

ما هي إلا برهة حتى ظهر معتصم أمامها يرمقها بحيرة ونظراتٍ تتعجب هيئتها وغضبها الذي لا يدري سببه...

-مالِك يا بدور .... بتخبطي على الباب كدة ليه ؟

كانت نبرته هادئة لكنها عنفته بالحديث وهي تُخرج هاتفها وتُريه تلك الصورة التي أرسلت لها كي يُصارحها بالحقيقة:

-ممكن أفهم إيه ده ؟؟

صرخت بتلك الكلمات صرخة جعلت كلماتها تتغلغل عقله وتُصيبه الارتباك، أمسك الهاتف من يدها وعيناه تُحدقان بتلك الصورة بأعينٍ جاحظة لا تُصدق أنها علِمت الحقيقة، حقيقة لم يُرد أبدًا إخبارها إياها...

-إ.. إنـ .. إنتِ جبتي الصور دي منين ؟

انتشلت منه الهاتف وواصلت الصُراخ بوجهه بأعينٍ حمراء تحمل أطنانًا من الغضب:

-هو ده إللي فارق معاك ؟؟ ... مش فارق معاك إحساسي إيه وأنا بشوف الصورة دي .. إحساسي إيه وأنا بتفرج على خطيبي وهو بيخطب واحدة تانية

حاولت تنظيم أنفاسها بعد تلك الكلمات حتى تحوّلت نبرتها إلى الخُذلان عندما واصلت الحديث ببحة كادت تُمتزج بدموعها:

-أنا عُمري ما تخيلت إنك ممكن تعمل كدة ... أنا كنت فاكرة إنك بتحبني_

قطعها مُعتصم بتلك اللحظة ليُبرر لذاته بأعينٍ كادت تُذرف الدموع بسبب شعوره بأنها ستتركه، فكيف تغفر له هذا الخطأ الذي حاول بكل جُهدٍ تخبأته حتى لا تعلم حقيقة الأمر، وجد نفسه يُعارضها بصدقٍ لعلها تفهم حقيقة ما حدث:

-أنا فعلًا بحبِك يا بدور ... وعُمري ما حبيت غيرِك_

قطعته بصراخ جعل الجيران يفتحون أبوابهم ليروا هذا الجدال:

-كدااب .... لو بتحبني مكنتش عملت كدة

إقترب منها خطوة بسيطة كي تنصت إلى تبريره:

-يا بدور إللي حصل ده كان غصبٍ عني ... البنت دي كنت بقرّب منها عشان ورث عمي ... غير كدة أنا كنت هسيبها ... صدقيني يا بدور أنا مش بحب حد غيرِك

حادثته بنبرة أهدأ اختلطت بشهقاتها:

-لو بتحبني يبقى تسيبها دلوقتي

فسر لها بسرعة وبنبرة مستعطفة:

-ما هو مش هينفع دلوقتي .. ماما قالتلي_

عند تلك النُقطة وقد إنفجرت بوجهه، فهي تعلم أن والدته هي سبب ما حدث ودائمًا ما يتخذ صفها ويُنفذ ما تقوله مهما كان خاطئًا، فقد كانت تصرخ بوجهه بنفادٍ صبرٍ ووجه يكاد ينفجر من كثرة الغضب:

-بردو هتقولي ماما .... مامتك طول عُمرها بتكرهني، وإنت عُمرك ما وقفتلها ودايمًا بتدافع عنها_

قطعها ليُبرر لها بدموع تكاد تُذرف من عينيه:

-الكلام ده مش حقيقي ... أنا والله كنت_

قطعته مجددًا وهذه المرة قد طفح كيلها وقررت أن تُنهي الموضوع من جذوره:

-أنا مش عايزة أسمع حاجة تانية ... أنا خلاص تعبت ومبقتش قادرة على مامتك .... والبنت إللي بتلعب عليها عشان الورث دي هتتكسر بسببك ... وأنا مش هقبل إني أكون سبب في كسرتها

اضطربت خواصله وشعر بأن القادم لن يكن هينًا، لذلك آراد التأكد من شكوكه لعلها كانت خاطئة وستُسامحه كما تفعل كل مرة:

-قصدِك إيه بالكلام ده ؟...

اختصرت المسافات بينهما وهي تخلع خاتمها وتضعه بين راحتيه لتردف آخر كلماتها بنبرة مبحوحة باكية:

-قصدي إن كل شيء قسمة ونصيب....

ـــ

كان الصباح كما أي صباح بتلك المدرسة، فالطُلاب والطالبات يصطفون بصفٍ لينصتوا إلى حديث زُملاءهم بالإذاعة المدرسية، فهذا ما يفعلونه بكل صباح، وهذا

أيضًا ما يُصيب جميع الطُلاب والطالبات بالملل، فلما يتحملون حرارة الطقس ومشقة الوقوف لبضعة ساعاتٍ من أجل الإنصات إلى معلوماتٍ ليست بهذه الأهمية، بل والقيام بحركاتٍ من المُفترض أن تضحى رياضية، لكن الحقيقة أنها استعراضًا مبتذلًا يفعله الطُلاب بعشوائية...

يقف زكريا بين هذه الصفوف وأمامه عبده مباشرة لايكترث لما يُتلى على مسامعه، كانا في حالة من الصمت قطعها إحدى الزُملاء والذي يُدعى كرم، فهو معروف بمشاغبته وحُبه الشديد لمضايقة الآخرين..

أحس عبده بشيءٍ صغيرٍ يُلقى على ظهره مما جعل الغضب يتدفق بداخله وهو يلتفت وراءه ليرمق هذا السمج كما يُطلق عليه عبده، كان يُقهقه كرم هو وبعضًا من رفاقه ما إن انتبه عبده لحديثهم وإشاراتهم الموجهة نحوه:

-إيه يا بواب ... مش المفروض تكون واقف على البوابة

قالها كرم بسُخرية من اسم عبده المسُجل ببطاقة ميلاده، فوالده قد سجله باسم " عبده البواب " كنوع من المُزاح ليس إلا، ولا يعلم أن مزاحه الثقيل سيتسبب بالعديد من المتاعب لعبده.

أطبق عبده على شفتيه بغضبٍ جامح كوٌر معه قبضته، فهو ليس من أولئك الضُعفاء الذين يستقبلون القذائف والسخرية بضعفٍ وهوان، بل إنه يريد أن يلكم هذا السمج لكمة تجعله يبصق أسنانه، لكنه بالنهاية إكتفى بتهديده أولًا كمحاولة جاهدة للإبتعاد عن المتاعب...

-بُص قدامك يلا بدل ما آجي أضربك

قالها عبده بصوتٍ غاضب جعل قهقهات كرم تزداد سخرية واستخفافًا ليهتف بعدها:

-تعالي إضربني إنت خايف من إيه ... أه صحيح ... البوابين مش بيضربو

قالها وواصل قهقهته مما جعل غضب عبده يتفاقم وكذلك زكريا الذي كان يُتابع ما يحدث ويرغب بلكمه هو الآخر...

كاد يترك عبده صفه ويهم بلكمه إلا أن زكريا أوقفه حتى لا يُجن ويتسبب له بالمتاعب، آعاده زكريا إلى الصف ليتجه نحو ذاك السمج ويحاول إسكاته بصوتٍ مُهدد:

-إسكت يا كرم بدل ما نعملك مشكلة

وجه كرم حديثه نحو زكريا ليُخبره بحدة:

-وإنت بتدخل ليه ؟ ... هو حد وجهلك كلام ؟

آجابه زكريا بثباتٍ ونبرة واثقة:

-أه ... أصل أنا بحب الهدوء وصوتكم بيصدعني

أنهى حديثه بتعابير مشمئزة لم تجعل كرم يتوقف عن استفزازهما الذي طال زكريا هو الآخر:

-خلاص خُدلك برشامة وريّحنا ....ومتبقاش قِفل زي قريبتك الهبلة إللى اسمها سارة

آثار حنقه بتلك الكلمات التي جعلت النيران تتدفق من أذنيه، فهو لن يسمح لأولئك الحمقى بأن يتحدثوا عن ابنة عمه بتلك الطريقة، كذلك لم يعد يتحمل عبده هذا الفتى أكثر من هذا وانقض عليه ليلكمه لكمة قوية جعلت بقية من بالصف يصرخون ويحاولون إبعاد عبده عن تلابيب هذا السمج، لكن الأمر لم يتوقف هنا ... بل انقض عليه زكريا هو الآخر لينتقم مما قاله عن سارة والذي يُشعره بالغضب...
فما هي إلا بضع لحظاتٍ حتى انتشر الصُراخ بالأرجاء وانقض رفاق كرم على كلٍ من عبده وزكريا اللذان واصلا ضربهمها بكل ما أوتيا من قوة....

على جهة أخرى وقبل هذا العِراك ببضع دقائق، كان يثب شهاب على إحدى الشُرف قبالة نافذة متوسطة الحجم أسفلها مُدير المدرسة الذي يقوم بإلقاء خُطبته ما إن انتهت فقرة الإذاعة المدرسية مباشرة، كان شهاب برفقة حمزة الذي يُشاركه الفصل ويُشاركه كذلك خططه الماكرة ... فقد فرَّ كلاهما من طابور المدرسة حتى يُنفذا تلك الكارثة التي يُخططا لها منذ فترة طويلة...

ركع شهاب على رُكبتيه ليُخرج من حقيبته كيسًا بلاستيكيًا يحتوي على بودرة رمادية اللون، كما انتشل حمزة وعاءًا بلاستيكيًا كان يُدثره بالخفاء بتلك البُقعة كي يضحيا على أتم الاستعداد، فكان يسكب حمزة زجاجة المياه خاصته داخل هذا الوعاء ثم يقوم شهاب بسكب البودرة الرمادية ومزجها جيدًا حتى تضحى متناسقة مع المياه لتخلق سائلًا لزجًا بالسُمك الذي يُريدانه بالضبط...

أنهى شهاب ما يفعله ببسمة خبيثة ثم حمل هذا الوعاء بمساعدة من حمزة حتى إقتربا به من حافة النافذة...

ثانية ... اثنتان ... ثلاثة ... وها هو الوعاء يُفرغ محتوايته فوق رأس المدير مما جعل صوت القهقهات ينتشر في الأجواء ليُخلق حالة من الفوضى في بضع ثوان، فكان المدير ممتليء بالأسمنت والنيران تنبعث من جوفه، بينما كان شهاب يتابع ما يحدث بقهقهات حارة شاركه إياها شهاب...

لكن ما هي إلا لحظاتٍ حتى أحسا بأقدامٍ تقترب نحوهما مما أكد لهما أن بعض المعلمين سيكتشفون فعلتهما وسيتم معاقبتهما أشد عقاب...

-هنعمل إيه ؟؟

همس حمزة بذاك السؤال بقلبٍ يكاد يضطرب من القلق، لكن شهاب جذبه بسرعة كي يتركا تلك البُقعة ويهرولا بُسرعة فائقة فوق درجات السُلم...

-إجري بُسرعة

هتف شهاب بتلك الكلمات وهو ينسل الدرجات بسرعة كادت تجعله يتعركل هو وحمزة الذي يحاول أن يركض بنفس سُرعته، لكن الرياح تأتي بما لا تشتهيه السُفن، فسُرعان ما تكاثر المعلمون عازمون على الإمساك بهما والانتقام منهما عما تسببا به من فوضى...

واصل شهاب الركض هو وحمزة برواق المدرسة حتى اقتحما المرحاض ليختبأا عن الأنظار ويستعيدا أنفاسهما، فكان كلاهما يلهث بقوة ويحني جذعه للأسفل كي يلتقط أنفاسه...

-هنهرب منهم إزاي ؟

سأله حمزة بين لهيثه ففكر شهاب هنيهة وهو يتلتف بعينيه في كل مكانٍ بالمرحاض إلى أن أتته فكرة، ربما تضحى شيطانية ولكنها ستنجدهما من تلك الورطة، ربت على كتف حمزة كي يُطمئنه بحديثه:

-جاتلي فكرة

أدلى تلك الكلمات الواثقة ليهرع بعدها نحو الصابون السائل ويُفرغ القليل منه داخل كوبٍ يتم وضعه للشُرب، ما إن إمتلأ نصف الكوب حتى ملأ نصفه الآخر بالمياه ليترك بعدها المرحاض ويتبعه حمزة بخوفٍ من مجيء المعلمون...

سكب شهاب ما يحتويه الكوب على الممر ما إن وجدا المعلمين يقتربون منهم بنظرات ساخطة وأقدامٍ مهرولة، لكن فجأة...

تساقط المعلمون واحدًا تلو الآخر فوق بعضهم نتيجة هذا السائل اللزج الذي جعلهم ينزلقون ولا يستطيعون المشي، لم يمنع شهاب قهقهاته التي فلتت من جوفه عنوة وهو يشاهد مظهرهم المُضحك بشماتة، وما كاد يواصل الضحك حتى شعر بيد حمزة تجذبه كي يتحرك بسرعة لعلهما يصلا الفناء ويغوصا بين بقية الطُلاب حتى لا يستطيع المعلمون تفرقتهما...

هذا ما كانا يظنانه قبل أن يجدا المزيد من المعلمين أمامهما بنظراتٍ غاضبة تُعرب عن شدة العقاب الذي سينالاه، فربما سيتم فصلهما من المدرسة بأكملها...

توقفا عن الحراك ما إن اشتد الحِصار حولهما ليزدرد حمزة ريقه برُعبٍ بينما كان يتراجع شهاب خطواتٍ للوراء حتى لمح جهاز الإنذار الخاص بالحريق، وفي أقل من ثانية كان يضرب هذا الجهاز بعد أن حطم زجاجه واستطاع إحداث الفوضى بالمدرسة ... فما إن أطلق جهاز الإنذار حتى إرتعد بقية المعلمين والطلاب من الأعمار الكبيرة اللذين يمكثون بفصولهم بهذا الوقت...

تدهورت الأوضاع أكثر وطفق يركض الجميع برُعبٍ في كل مكان حتى تهدم اليوم الدراسي بأكمله بسبب هذين الصبيين وغيرهما، لكنهم جميعهم سينالون العقاب عاجلًا أم آجلًا....

———————————————————

تهرول بسُرعة داخل رواق المدرسة إلى أن اقتحمت مكتب الناظرة لتجد المكان معتجًا بمجموعة من الطُلاب من بينهم زكريا الذي كانت حالته يرثى لها، فهناك كدمة تعتلي أسفل عينه ودماءًا تنبثق من شفتيه ناهيك عن سترته الممزقة، كان هناك ثلاثة صِبيانٍ بنفس تلك الحالة الرثة بإضافة المزيد من الكدمات على وجوههم، أما عن عبده، فكان الأقل تضررًا من هذا العِراك، حيث كان وجهه يختلي من الجروح والكدمات لكن ثيابه كانت ممزقة وفي حالة يُرثى لها....

تقدمت سما نحو زكريا بأعين تنضب قلقًا وهي تتفحص حالته وتسأله عما حدث، وفي نفس تلك اللحظة اقتحمت قمر شقيقة شهاب الحجرة لتجده قابعًا بإحدى الاتجاهات وجواره حمزة بحالة طبيعية مع أن ما اقترفه كان جثيمًا...

-في إيه يا شهاب ؟ ... عملت إيه ؟؟

سألته شقيقته بحدة فآجابها شهاب ببساطة وكأنه لم يقترف أي من المشاكل:

-معملتش حاجة ... كل الحكاية إني دلقت أسمنت على مُدير المدرسة

-بس كدة!!

سألته بتعجبٍ فنفى حديثها كي يواصل إدلاء الحقيقة:

-لأ ... ما المدرسين جريو ورانا فاضطريت أزحلقهم بالصابون ... بعدها كسرت جرس الإنذار بتاع الحريق

حادثته ببساطة سخرت بها من دهشتها:

-بس كدة!!

واصل إدلاء الحقيقة ببساطة:

-لأ ما قبل ده كله ... كنا بنشتري منتجات بير سلم ونبيعها للطلبة عشان نكسب فلوس

همهمت شقيقته قمر بتفهمٍ ثم أردفت بسخرية على لكنته:

-طب ما الموضوع بسيط أهو أومل مكبرين الموضوع على إيه ؟

رفع شهاب كتفيه بجهل قال معه:

-معرفش والله ... مكبرين الموضوع على إيه

عادت قمر من استخفافها لتردف بنبرة جامدة:

-دا لو بابا جيه كان هيعملك مشكلة

لاقاها شهاب باستخفاف لأنه يعلم والده جيدًا ويعلم أنها تُمثل عليه، فكان يُقهقه قهقهة ساخرة قصيرة أردف بعدها:

-دا تلاقيه عارف وقالِك تيجي بداله عشان يكمل ليالي الحلمية ... أبوية وأنا عارفة كويس

أدركت قمر أنه كشف كذبتها لأن والدهما شديد الكسل ولا يُعطي بالًا لكل ما حوله، لكنها فقط أرادت أن تُظهر أمام الناظرة أن عائلتهما المجنونة هي عائلة صارمة وحازمة، لكن يبدو أنها لن تستطيع أبدًا....

كانت مايا والدة حمزة تقف بالجهة الآخر تحادث حمزة بنبرة حنونة معاتبة:

-ليه يا حمزة عملت كدة ؟ ... مش أنا قولتلك متمشيش ورا صاحبك ده ؟

قالتها ببعض الحدة لكن حمزة آجابها ببلاهة وفخرٍ يتوافق مع غباءه الفطري:

-أنا ممشيتش ورا صاحبي ... أنا مشيت جنبه

أتت داليا شقيقة عبده لتهرع نحوه بعوالم قلقة سألت معها عمَ إرتكبه من مصائب، لكنها وجدته يتنهد بأريحية ويُخبرها:

-الحمد لله إنك جيتي ... ده لو بابا جيه كان هيخليهم يشطبو اسمي من الوزارة

بررت له شقيقته داليا بصدقٍ:

-أيوة ... ما أنا إللي قولت لبابا ميجيش ... هو إيه إللي حصل ؟؟

سألته بفضولٍ فآجابتها نائبة الناظر نيابة عنهم بلكنة حادة صارمة:

-إللي حصل إن الطلبة إللي قدامي دول عملو فوضى في المدرسة

آشارت أولًا على كرم وأصدقاءه لتُخبر والديهم عما يرتكبونه دائمًا:

-الأخ كرم عاملي فيها زعيم وبيتنمر على إللي رايح وإللي جاي هو وصحابه

أنكس كرم وأصدقاءه رأسهم بخذي ما إن التقطا نظرات والديهم المحملة باللوم والعِتاب، آشارت بعدها الناظرة نحو عبده لتردف بنبرة حادة:

-والأستاذ عملي فيها بلطجي ومخوف العيال إللي في سنه

بقي عبده يطالعها بنظراتٍ جامدة لا تكترث لما تقول، فهو لا يخشى عقابها من الأساس، هو فقط يخشى تدهور مستقبله وعدم مقدرته على مواصلة تعليمه بسبب مشاكله الدائمة...

-أما بقى الأستاذ شهاب ... فده لوحده حكاية .... شغال مقالب على المدرسين والطلبة وكل مقلب أنقح من إللي قبله

قالت تلك الجملة وهي تُشير على شُهاب، ثم آشارت بعدها على حمزة لتواصل حديثها:

-وحمزة إللي كنت فكراه عاقل بيمشي وراهم في أي حاجة....

وجهت بعدها الحديث نحو زكريا الذي كان يرمقها ببرود ونظرة مستفزة:

-ولا الأستاذ زكريا إللي بيرد الكلمة بعشرة وشغال نصب على المدرسين والطلبة ...

وجهت بعدها الحديث نحو أربعتهم لتُنهي إدلاء ما يفعلونه بنبرة غاضبة:

-ده غير موضوع منتجات بير السلم إللي بيشتروها بسعر التراب ويبوعوها للطلبة ... ولا إنتو فاكرني معرفش إللي بتعملوه ؟

أنهت حديثها بحدة لكنها لم تتلقى أي من الإجابات أو أية تبريرات لما يفعلونه، فكيف يُخبرونها أن ما يرتكبونه كان من أجل المرح ليس إلا، وكيف يُخبرها زكريا عن سبب شجاره وهو يعلم تمام العلم أن الأمور ستزداد تعقيدًا وسيتشاجر مع ذاك الحُثالة

مجددًا إلى أن يتم تدمير مكتب الناظرة، لذلك تحلوا جميعهم بالصمت إلى أن أدلت الناظرة قرارها بإصرار:

-كرم وصحابه هياخدو رفد أسبوع على إللي حصل...

قالتها وهي توجه الحديث نحو كرم ورفاقه، ثم وجهت بعدها حديثها نحو زكريا ورفاقه كي تُخبرهم عقابهم بنفس ذات النبرة الصارمة:

-وبالنسبة لحمزة وزكريا وعبده ... هياخدو رفد شهر ... وشهاب رفد لآخر السنة، يعني هييجي على الإمتحانات عشان إللي بيعمله في المدرسين ... وأتمنى بعد الفترة دي تتعدلو...

كان يتحرك على الطريق وجواره سما تسير بجواره وداخلها تريد معاتبته والصياح به، فرغم أن زكريا مشاغب ويرتكب العديد من المشاكل إلا أنها متأكدة أن بداخله شخصًا آخر شهمُ ويُدافع عن الحق، ومع ذلك لم تستطع البوح بما داخلها وإكتفت بالصمت حتى كاد زكريا يضيق ذرعًا فحاول التبرير لها بنبرة متوّسلة:

-أنا مكنتش عايز أضرب كرم ... بس هو إللي كان بيغلس على عبده، وكمان كان بيشتم سارة ويقول عليها هبلة ... والله عملت كدة عشان كنت متعصب

لاحت طفرات من الغضب على وجه سما، ولكن ليس غضبًا مما فعله زكريا، بل غضبًا مما قاله هذا الأحمق عن شقيقتها البريئة، لكنها مع ذلك لم تنبس ببنت شفة لتُبرز له أن تلك الطريقة التي سلكها طريقة خاطئة في استرداد الحقوق وعليه أن يعرف ذلك...

ما إن طال صمتها حتى عاود زكريا الحديث بنفس تلك النبرة المتوّسلة:

-طب ممكن متقوليش لبدور ؟؟

رمقها بنظرة مستعطفة كادت تجعلها تنفطر من أجله، فهي لأول مرة ترى حُزنًا وقلقًا حقيقيان على وجهه...

توقفت عن السير لتُخبره بنبرة حنونة وعدته معها:

-مش هقولها يا زيكا ... بس أنا عايزة أعرف إنت عملت كدة ليه ؟... ليه بتضحك على الناس وتبيعلهم حاجات مش كويسة... إفرض واحد منهم بطنه وجعته وراح المستشفى بسببكم ... هتبقى مبسوط ساعتها ؟؟

أنكس رأسه بخجل وهو يُحركها نفيًا في صمت، تابعت هي الحديث قبل أن تأتي الحافلة وتقلهما من تلك البُقعة:

-طب ليه بتعمل كدة ؟ ... ليه عايز تعمل مشاكل علطول ؟ ليه بتخلي بدور تزعل منك مع إنك مش بتبقى عايز تزعلها ؟

تحلّى بالصمت لوهلة حتى أردف بصوتٍ متلجلج لا يعرف كيف يُخرج ما بجعبته من خلاله:

-عشان ... عشان ببقى عايزهم يعرفوني

أحنت جذعها لتضحى قبالته كي تسأله بهدوء:

-يعرفوك ليه ؟ مش كفاية صحابك ؟

تنهد تنهيدة بسيطة قبل أن يُجيبها بدموعٍ تكاد تُذرف من عينيه:

-عايزهم يفتكرو إني قوي وبعرف أعمل كل حاجة لوحدي ... عشان كلهم بيقولولي إنت مش بتعرف تعمل حاجة .... وإن باباهم ومامتهم علموهم كل حاجة وأنا لأ...

انهمرت دموعه في تلك اللحظة فعناقته سما بحُب لتُهديء من روعه على الرغم من أنها انفطرت لأجله، فهو لا يتلقى تعليمه وتنشأته سوى من محيطه الملوث ووسائل التواصل الإجتماعي التي تضحى أكثر تلوثًا، وليس ذنبه بأن يحيا دون والدين على الرغم من أنهما على قيد الحياة ... فهذا الشعور فقط يجعله يعتقد أنهما يمقتانه

ولايُريدانه في حياتهما، ولهذا السبب يبذل ما بوٌسعه حتى يُبرهن أمام الجميع أنه لا يحتاجهما...

-بس إنت بتعرف تعمل كل حاجة ... صحيح بتغلبنا كلنا معاك، بس إحنا كلنا بنحبك ...

أبعدته عنها لتُحدق بعينيه بإمعانٍ حاولت معه إرشاده:

-إوعدني إنك مش هتأذي حد تاني معملكش حاجة ... ولو في أي مشكلة واجهتك تعالى وقولنا ... حتى لو إنت بتعرف تحلها بنفسك ... تعالى وإتكلم معانا ... ومتنساش إننا جنبك وبنحبك ... تمام ؟؟

أومأ رأسه بموافقة جفف معها دموعه لترفع سما جذعها عنه كي تُحاوطه بذراعها وكأنها والدته، رسمت بسمة هادئة على ثغرها كي تُغير مجرى الحديث بمرح:

-إيه رأيك تيجي العربية وأكلك حاجة حلوة ؟..

رسم بسمة هادئة وهو يوافقها ويسير جوارها بمرحِ طفيفٍ غطا على شذرات حُزنه وما ارتكبه في هذا اليوم الشاق...

____

تحتضن قدميها كالجنين داخل أمه ودموعها تنسل بغزارة لتخلق سديمًا شديد الإنحدار بين ركبتيها، كانت عينيها حمراء كجمرة من اللهب وأنفها منتفخة شديدة الإحمرار بسبب دموعها وبكاءها الذي لم يتوقف، فهي حتى الآن لا تُصدق ما حدث، لا تُصدق أن حياتها ستنقلب بتلك الطريقة، بعد أن ظنٌت أنها عثٌرت على مرادها وستواصل حياتها باستقرار، فيبدو أن للقدر رأي آخر، يبدو أنه يجبرها على تحمل المزيد من الشقاء والعذاب...

كانت أصابعها المُبللة تُمرر على هاتفها المفتوح على تلك الصور التي تجمع بينها وبين معتصم، فكل صورة منهم تُذكرها بذكرى حميمة تجعل غصة تتكون داخل

صدرها وتزداد كلما محت صورة من تلك الصور كي تمحي معها تلك الذكريات وتحاول نسيانها حتى ولو رفض قلبها....

أحست بيدٍ ناعمة تُحيطها وصوتٍ حنون داعب مسامعها:

-إهدي يا بدور ... إهدي يا حبيبتي ... هو مش آخر راجل في الدنيا عشان تعملي في نفسِك كدة

آرادت جدتها مواساتها بتلك الكلمات الحنونة، لكنها أدت نتيجة عكسية حالما انخرطت بدور بالبكاء لترتمي بعدها داخل كنف جدتها لتنقل دموعها المنهمرة على صدر جدتها الدافيء...

-مش قادرة يا تيتا ... مش قادرة ... مش قادرة أصدق إنه عمل كدة

قالتها بين شهقاتها لتواصل زُهرة مواساتها ومداعبة خُصلات شعرها حتى تهدأ وتتوقف عن البُكاء، فلا يجب أن توقف حياتها على شخصٍ لا يستحقها ... ولا يجب أن تبكي على اللبن المسكوب حتى بعد أن يتم إزالته عن الأرض، يجب أن تواصل حياتها مهما كانت صعوبة الإختبار....

____

دقت الساعة التاسعة مساءًا وكانت الأجواء مُعتمة والزبائن مكتظون حول تلك العربة يتمتعون بأطيب أنواع الحلوة وأفضل معاملة، فكانت تقوم يقين بتوزيع الطلبات، وكانت هذا اليوم تُداوم من الصباح حتى المساء خاصة بعد أن أعلمت سما أنها تركت عملها بورشة السيارات بعد أن اختلفت مع المدير بعدة أمور، أي أنها الآن متفرغة لأي عملٍ تقوم به وفي أي وقتٍ لحاجتها الشديدة للمال، فهى تتلقى راتبًا نظير مساعدتها لسما بتلك العربة، كما أن ربحهما يزداد يوميًا لذلك كان من السهل عليهم إدخار الأموال بُسرعة، لكن هل سيظل الوضع هكذا ... أم أن الحياة تحمل لهم العديد من الصدمات ؟؟

أتى مراد في تلك اللحظة بابتسامته المعتادة ورغبته بإقالتهما للمنزل كما يفعل يوميًا، فعلى الرغم من أنه يترك لهما التصرف بتلك العربة، إلى أنه يأتي يوميًا ليتفقد أحوالهما ويُساعدهما بكل ما أوتي من قوة، فهو لديه وظيفة خاصة ولا يجب أن يتركها بسبب حاجته للمال، وكذلك لا يُريد أن يقتني الأموال من تلك العربة حتى يُساعد سما بالأموال التي تدخرها....

-محتاجين مساعدة ؟...

قالها ببسمة هادئة لتُجيبه يقين بمرحٍ خلعت معه مريولها:

-لسة فاكر ... إحنا خلاص بنقفل...

دارت بينهم بعض الأحاديث المرحة والتي قطعها قطيع من الرجال الغليظة تقترب نحوهم يبدو عليهم الضغينة، خاصة بملابسهم المليئة بالأتربة وتلك العِصي الخشبية التي يحملونها بأيديهم وكأنهم أتوا للعراك...

تأهب مراد لهم بأعينٍ حادة أردف معها:

-إنتو مين ؟؟

تجاهله زعيمهم وهو يُشير على العربة ويهتف بصوتٍ مرتفعٍ مُهدد:

-مش أنا قولتلكم تشيلو المخروبة دي من هنا ؟

ازدردت سما ريقها في خوف وأخذت تُبادل نظراتها مع يقين وتُعاتبها لأنها رفضت إخبار مراد بالأمر واستخفت بهم وبما سيفعلونه، فيبدو أن القادم لا يُنذر بالخير أبدًا ...

إحتد مراد من حديث ذاك الرجل وتقدم نحوه بخطواتٍ واثقة أردف معها بصرامة:

-إحنا مش هنتحرك من هنا ... وإتفضل لم رجالتك بدل ما أبلغ البوليس

رماه الرجل بقهقهة مستخفة أشعلت نيران الغضب داخل مراد وكادت تجعله يهم بلكمه، لكن الرجل سبقه وهو يرفع عصاته ويهوي بها على رأس مراد بقوة مع كلماته الحاقدة:

-دا لو لحقت يا حيلتها...

وما هي إلا لحظاتٍ حتى تناثرت الدماء من رأس مراد وجعلته يهوي على الأرض مغشيًا عليه، كما بدأ الرجال بتحطيم العربة بغلٍ أدى إلى فِرار ما تبقى من الزبائن وتعالي الصرخات بكل مكان...

أحنت سما جذعها بخوفٍ ودموعها تنهمر على وجنتيها بغزارة، حاوطتها يقين حتى ابتعدا عن تهشم الزجاج قبل أن يتأذيا من تلك الضربات، أما عن مراد، فبقي مغشيًا عليه والدماء تنبعث من رأسه بغزارة، فما كان يسمعه فقط هو صوت سما التي كانت تصرخ باسمه....

الفصل السابع (سامح !!)

"الشجاعة ليست أن تمتلك القوة للاستمرار، ولكن الشجاعة هي أن تستمر عندما لا تمتلك قوة"

____

لم تكن حياته ذات أهمية قُسوة فلطالما كان يتخذ دور المُضحي الذي يقف أمام المدفع حتى لا تُصيب قذيفاته أصدقاءه وأحباءه، لطالما يتخلُى عن أحلامه من أجل سعادة الآخرين رغم أن لا أحد يهتم لأجله، لكن هذه المرة لا يشعر وكأنه الضحية، يشعر وكأن ما يفعله يُصيبه بطفرات السعادة رغم كونه لا يزال يُساعد الآخرين لسببٍ لا يعلمه....

فتح عينيه بوهنٍ لتضحى الرؤية مشوشة أمامه، ورأسه ثقيل كثِقل بنايةٍ شاهقة، لم يتبين سوى اللون الأبيض الذي غمر أركان الحُجرة وصوت الصافرة الذي يخترق مسامعه، بدأت الرؤية تتضح رويدًا رويدًا ليُحاول الاعتدال في جلسته لكن رأسه الثقيل يجعله يزحر بتألمٍ..

جاهد نفسه كي يرفع رأسه عن الفراش القابع بإحدى حُجرات المشفى، استمع إلى صوتٍ قلقٍ اختلط ببكاءٍ مزق نُياط قلبه، فما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى أدرك أن صوت البكاء يُصدر من سما الجالسة جواره تضع لاصقًا على جبهتها بسبب إحدى الجروح التي تلقتها بفعل شظايا الزجاج وحُطام العربة...

كفكفت دموعها ما إن رأته يحاول الاستيقاظ والاطمئنان عليها، فكان الشاش الأبيض يلتف حول رأسه وعليه بقعة كبيرة من الدماء، ومع ذلك أردف بصوتٍ مُجهدٍ حتى تطمئن:

-متعيطيش يا سما ... أنا كويس

لم تتوقف عن البُكاء وهي تهتف بين شهقاتها:

-كل حاجة باظت ... كل حاجة اتدمرت...

حاول مواساتها بكلماته الحنونة التي دائمًا ما تُطمئنها:

-مش مهم ... هنحاول مرة تانية

نفت برأسها تلك المرة وهي تقول:

-لأ ... إنت مش مجبور تساعدني ... أنا هحاول أتصرف في الفلوس_

قطعها مراد بإصرار:

-أنا هساعدِك يا سما .... هساعدِك لغاية ما تحققي حلمِك

بقيت تتطلع إليه بعوالم باهتة لا تعلم ماذا تقول، فهي لا تعلم من الأساس ما الدافع وراء ما يفعله، ولما يُساعدها وهو لا يجني سوى الكوارث والمصائب فقط...

-ليه ؟؟ ... إنت عايز تساعدني ليه ؟؟

خرج هذا السؤال من جوفها بصورة خافتة جعلته يتحلّى بالصمت لفترة ثم يتجه بعينيه نحو السقف ليُجيبها بما يعتمر فؤاده:

-عشان كُنت عايز حد يعمل معايا كدة...

كانت إجابته مبهمة بالنسبة لها وهو قد لاحظ ذلك لهذا السبب فسرٌ إجابته بقوله:

-أنا خريج ألسن فرنساوي ... وكان نفسي أسافر باريس واشتغل هناك ... وفعلًا قدمت على المنحة بس....

تلاشت عوالم اللهفة التي كانت تُغطي بداية حديثه ليحل محلها حوالم الحُزن وهو يتذكر ما حدث بعد ذلك...

ما إن طالت فترة صمته حتى أردفت هي باستنتاج:

-متقبلتش في المنحة ؟؟

نفى برأسه مُجيبًا:

-لأ اتقابلت ... وكنت خلاص هسافر ... بس بابا تِعب وبقى قعيد ... وماما رفضت تصرف على البيت فاطلقت هي وبابا .... وإخواتي إتجوزو وسافرو ومحدش فيهم بيسأل ... مكنش في حد غيري يهتم بيه ... عشان كدة مرضيتش أسافر وأفضل معاه... وشيلت الموضوع من دماغي خالص

رمقته بضيقٍ على حاله وإعجاب بما فعله من أجل والده، وكان الغضب يلوح على وجهها أيضًا مما فعله أشقاءه وكيف تركوه وتخلوا عن والدهم بهذه الطريقة...

رسم بسمة هادئة على ثغره ليُبرهن لها أنه ليس ماقتًا لحياته ولا للقرار الذي إتخذه، فكان يقول بنفسٍ راضية:

-بس أنا مش متضايق ... أنا كنت هبقى متضايق لو بابا حصله حاجة ...

تنهد وهو يعتدل أكثر بجلسته ليقول بصدق:

-لما شوفتك بالصدفة إفتكرت نفسي ... إفتكرت وأنا بذاكر ليل نهار عشان آخد المنحة ... عشان كدة قولت لازم أساعدِك ... أساعدِك توّصلي للي معرفتش أوصله

أنهى حديثه بنظرة تشجيعية جعلتها تبتسم عنوة وتردف بنبرة رخيمة وكلماتٍ خرجت من فمها عنوة:

-إنت جدع أوي على فكرة

اتسعت بسمته ما إن أدلت تلك الكلمات والتي وجد نفسه يردف بعدها بأعينٍ هائمة بها:

-وإنتِ جميلة أوي على فكرة

لعن نفسه بعد تلك الكلمات التي لا يعرف من أين خرجت، حيث أنه أبعد عينيه عنها بحرجٍ وطفق يسب حماقته بقرارة نفسه، أما عنها فادعت الحماقة وعدم انصاتها لتلك الكلمات التي جعلت وجهها يتحوّل إلى اللون الأحمر والعرق يكاد يتصبب من جبينها، ما إن لاحظ حرجها حتى أردف مغيِّرًا مجرى الحديث:

-إيــه ... هي يقين فين ؟؟

آجابته بتلعثمٍ وصوتٍ مرتبِك:

-مـ.. معرفش .. هروح أشوفها برة

وثبت بعدها من المقعد لتهرع خارج الحُجرة وتتركه يضرب جبهته ولايزال يسب غباءه...

هرعت خارج الحُجرة لتجد يقين تجلس على إحدى المقاعد تحني رأسها لأسفل والحُزن جليًا عليها، جلست سما جوارها لا تعلم ماذا تقول وكيف تواسيها وهي لا تستطيع مواساة نفسها ... إكتفت بالصمت لبُرهة حتى أردفت بالنهاية:

-كان نفسي أخوية يبقى هنا ... على الأقل كان ساعدني بدل ما الحِمل كله يبقى على مُراد

رفعت يقين رأسها ما إن انتبهت لحديث سما ثم سألتها بفضول:

-هو إنتِ عندِك أخ ؟

أومأت سما رأسها متفوهة:

-أه ... بس مهاجر اليونان ... كان نفسي أوي يبقى موجود

مرّت برهة من الصمت قطعتها يقين وهي تنكس رأسها لأسفل وتردف بأسفٍ:

-أنا أسفة ... كان لازم آخد كلامهم جد وأعرف إنهم ناس زبالة

حادثتها سما وهي تزيغ ببصرها بمنطقة عشوائية:

-إللي حصل حصل ... شكلي مش مكتوبلي أكمل حاجة للآخر

لم تجد يقين ما تقوله بتلك اللحظة فتحلّت بالصمت والتحديق لأسفل كما فعلت سما بالضبط، فكلتاهما في استياءٍ لما حدث ولا يعلما ما سيفعلانه بالفترة المُقبلة...

لاحظت سما قطرات الدماء التي تتساقط من مرفق يقين بغزارة، بل لاحظت كذلك هذا الجرح الكبير وكأن قطعة كبيرة من الشظايا الزجاجية قد اخترقت جسدها، والغريب أن يقين كانت تتصرف بصورة طبيعية دون أن تتأوه حتى...

-إيه الجرح ده !! .... لازم تروحي تكشفي بسرعة الجرح كدة هيتلوث

انتبهت يقين لحديث سما وإشاراتها على ذاك الجرح الذي يشق مرفق يقين وينسل منه الدماء...

رمقت يقين هذا الجرح بتيهٍ وكأنها لم تنتبه له فكانت ترمق ذاك الجرح بحيرة أخفتها وهي تثب عن المقعد وتُخبر سما أنها ستعالجه في الحال....

____

نجوم لامعة تتراقص بجوار القمر المستنير في تلك الليلة الشاقة الطويلة، وعلى إحدى المقاعد المريحة، كانت تجلس سارة تضم ركبتيها على صدغها وعينيها يحملان أطنانًا من الحُزن الكافي لإغراق دولة بأكملها، فكانت عيناها شاردتان في السماء ودموعها تكاد تتقاطر على وجنتيها...

أحسّت بأقدامٍ تقترب نحوها وصوتٍ مرحٍ علِمت للوهلة الأولى أنه زكريا:

-تعالي إلعبي معايا على الـ play station

لم يكن قد رآى حُزنها لذلك أردف بتلك الجملة لعلها تأتي وتلهو معه كما تفعل دائمًا، هذه المرة لم تُعطي له بالًا ولم تنبس ببنت شفة، فقط الصمت والنظرات الحزينة هي ما تنبعث منها حتى أدرك فورًا أن هناك ما يُثقل كاهلها...

-في إيه ؟؟...

سألها بقلقٍ وهو يتخذ مقعدًا جوارها وينتظر إجابتها، فما هي إلا لحظاتٌ وجيزة حتى وجدها تقول بصوتٍ خافتٍ:

-مامي وبابي وحشوني .... وعايزة أشوفهم أوي

أنكست رأسها لأسفل بحُزن كاد يجعل الجبال تنفطر لأجلها:

-بس سما قالتلي إنهم مبقوش موجودين

لم يجد ما يقوله في تلك اللحظة لأنه يعلم تمام العِلم أن والديها لن يأتيا أبدًا، فهما قد انتقلا إلى خالقهما بالعام الماضي، ويعلم كذلك أن سارة كانت مُتعلقة بهما ودائمًا ما تتذكرهما ويغتابها الحُزن...

-مين قال إنهم مبقوش موجودين ؟؟

قالها بلهفة جعلتها تنتبه له وتستفسر عن حديثه:

-يعني هما موجودين ؟

لاتزال اللهفة تطغي عليه وهو يقول بثقة:

-أه ... بُصي كدة فوق

آشار على السماء ليجعلها ترمق النجوم اللامعة وتستمع إلى حديثه الذي جعله مُقنعًا:

-شايفة النجمة دي ... دي نجمة أونكل ممدوح ... والنجمة دي ... نجمة طنط سُهير

آشار على النجمات وهو يُخبرها ببراءة جعلتها تُصدق حديثه أو على الأقل تقنع ذاتها أن ما يقوله حقيقيًا وأن والديها موجودان بالفعل، فكانت ترمق النجمات بلهفة سألت معها:

-يعني هُما موجودين فوق وبيسمعوني ؟

أومأ رأسه مؤكدًا ليردف بعدها:

-أيوة ... تعرفي بقى كمان ... أنا بعرف أكلم النجوم

رفعت حاجبيها بغير تصديق سألته بعدها:

-يعني تعرف تقولي هُما عايزين يقولولي إيه ؟

أومأ رأسه إيجابًا وهو يعلم تمام العِلم أن ما يقوله محض هُراء، فهو لا يستطيع التحدث مع النجوم من الأساس، هو فقط يقول هذا حتى يُطيب خاطرها ويُبدد حُزنها، ولأنها لاتزال تتمتع ببراءة الأطفال وسذاجتهم، صدقته بسهولة واعتدلت بجلستها كي تنصت إلى حديثه بإمعان:

-أيوة بعرف ... استني كدة

أغلق عينيه وطلب منها أن تصمت حتى يستطيع سماع تلك النجوم، فكانت هي تُطالعه بلهفة وتستمع إلى ما يقوله بأعينٌ مُغمضة إدعى معها أنه يُمعن التركيز بما تقوله هذه النجوم:

-بيقولو إنهم بيحبوكي أوي .... وبيقولو كمان ... إنهم عايزينِك مبسوطة علطول

رمقت حديثه باشتياقٍ ودُت معه لو تستطيع التحدث مع النجوم هي الأخرى كي تُخبر والديها كم أنها تشتاقهما...

بعد بُرهة من الصمت فتح زكريا عينيه ليُحدق بها ويُخبرها بلهفة:

-وعارفة قالولي إيه تاني ؟؟

رمقته بجهلٍ فواصل حديثه بنفس ذات اللهفة:

-قالولي خليها تلعب معاك يا زيكا عشان تفضل مبسوطة علطول

ابتسمت مع آخر كلماته كما ابتسم هو الآخر بعد أن نجح بجعلها تترك مراسم الحُزن وتتبعه إلى البهو لتلهو معه بمرحٍ كما تفعل كل ليلة...

____

بنفس تلك الليلة الطويلة والمليئة بالحُزن والضيق، لاتزال بدور تستوطن فراشها وترفض الرحيل عن الحُجرة بسبب ضيقها، فعلى الرغم من أن جدتها حاولت مواساتها إلى أنها لاتزال تشعر بالخُذلان الذي يكاد يُمزقها إربًا...

استمعت إلى صوت الباب يُفتح لتدلف من خلاله سما وحالتها يُرثى لها، فقد كان اللاصق أسفل عينيها التي كانت حمراء من شدة البُكاء، حتى أنها من شدة ضيقها لم تلحظ بدور المنزوية على نفسها ترفض الهرب من فقاعة حُزنها...

إرتمت سما جوارها على الفُراش كي تُخبرها بما يؤرقها كما تفعل دائمًا، فدائمًا ما تُشارك بدور جميع أسرارها ومعاناتها...

-العربية اتدمرت .... وكل حاجة راحت ... أنا مش عارفة بجد بيحصل معايا كدة ليه ... ومش عارفة هجيب فلوس الإيجار منين...

لم تنبس بدور ببنت شفة وبقيت في حالة من الصمت حتى سألتها سما:

-هو إنتِ ليه مجتيش ؟ ... وكمان مش بتردي ... إنتِ قولتي إنِك هتساعديني ووعدتيني كمان

كانت نبرتها تحمل كمًا من العِتاب لكونها تظن أن بدور قد تخلُّت عنها ولن تُساعدها مجددًا، هذا ما جعل بدور تنفجر بوجهها بكلماتٍ غاضبة وكأنها انتهزت الفرصة كي تطلق نيرانها التي تشتعل بداخلها....

-هو كل حاجة عليا .... كل حاجة أنا إللي أبقى مسئولة عنها ؟؟ .... زكريا وسارة عندهم إمتحان، بدور تذاكرلهم عشان هي الكبيرة ... حد فيكم يتضايق، لازم أنا إللي أروح أطبطب وأواسي وأكون جنبه مع إن مفيش حد فيكم بيقف جنبي .... محدش فيكم بيفكر بدور عاملة إيه ولا بتعاني بإيه ... أنا إللي لازم أتحمل كل حاجة

كانت كلماتها صارخة تبعتها بوصلة بُكاءٍ مريرة دبت القلق بأوصال سما، فهي قد فهِمت لوهلة أن هناك ما يُضايق بدور ويجعلها بتلك الحالة، فهذه أول مرة تعترض بدور على ما تفعله وترى نفسها دور الضحية الذي يُكرس حياته من أجل الجميع...

وضعت سما يدها على ظهر بدور تحاول الاستفسار بصوتٍ رخيمٍ يحمل القلق:

-في إيه يا بدور ؟؟ ... إنتِ عُمرِك ما اعترضي على إللي بتعمليه عشانا ... أنا متأكدة إن فيكي حاجة

أومأت بدور رأسها بدموعها المنهمرة التي أردفت معها باختصارٍ شديد:

-أنا سيبت مُعتصم

أدلت تلك الجُملة ثم اجهشت ببكاءٍ مريرٍ حتى ضمتها سما لصدرها وطفقت تُربت عليها بعوالم غير مصدقة أردفت معها:

-إيه !! ... سبتيه ليه ؟؟ ... إنتو كنتو بتحبو بعض

بقيت بدور على صدرها تتحدث بصوتٍ واهن:

-طلع خاين ... أنا مش عارفة إزاي اتخدعت فيه كدة

مسدت سما على ظهرها بمواساةٍ أردفت معها:

-متعيطيش عشانه ... هو أساسًا ميستاهلكيش

-بس أنا لسة بحبه

قالتها بين شهقاتها فزادت سما من تربيتاتها لعلها تواسيها وتُرمم جروحها الغائرة، فجروح القلب صعبة الترميم ورُبما تتسبب بهدم شخصية بأكملها....

اقتحم زكريا الحجرة في تلك اللحظة هو وسارة بعد أن استمعا إلى صُراخ بدور وبكاءها الذي غمُر أركان المنزل، أرتمى زكريا على طرف الفراش وهو يردف بتذمرٍ مازح:

-هو البيت كله بيعيط ولا إيه ؟

اعتدلت بدور بجلستها لتُكفكف دموعها كي تدّعي الثبات أمامه، لم ترد عليه فحاولت سما مجاراة حديثه بمُزاح كي لا يستشعر الحُزن الذي هبِط على جميع أفراد هذه العائلة...

-تقريبًا كدة ده يوم الدموع العالمي

ابتسم إثر كلماتها ليجلس بعدها بالقُرب من بدور التي لاحظ آثار البُكاء على وجهها، حاول مواساتها بقوله الذي يبدو عليه المُزاح:

-متزعليش يا بدور واسمعي إللي هقولِك عليه كويس

انتبهت لحديثه الذي خرج منه ببعض الجدية:

-بعد الطرقعة .... بتيجي المرقعة

كان يُمثل تلك الحكمة بيديه مما جعل بدور ترمقه بعوالم مُبهمة بعد أن ظنَّت أنه سيُربت عليها ويواسيها بكلماتٍ حنونة، فهي لا تعلم أن زكريا لا يستخدم المواساة، هو يستخدم المُزاح حتى يُخرج من أمامه من قوقعة حُزنه، وهو بالفعل قد نجح بذلك عندما دفعته بدور ليبتعد عنها بقولها المازح:

-إبعدي السرسجي ده عني يا سارة

قهقهت سارة على حديثها وعوالم زكريا التي تذمرت من سخريتها من حكمته، لكنه وثب من الفِراش بغيظٍ ليبتعد بعدها عن الحُجرة ويردف قبل أن يخطو قُرب الباب:

-بُكرة السرسجي ده يبقى دكتور ويخيلكم تتعالجو عنده

قالها بثقة وهو يُشير على كلٍ من سما وبدور مما جعلهما يرمقانه باستخفافٍ جعل سما تسأله:

-وهتبقى دكتور إيه بقى عشان نيجي نتعالج عندك ؟

-دكتور أمراض نفسية

هكذا آجابها بتبطين يحمل سبهما، وهذا ما جعل بدور تمسك الوسادة وتقذفها عليه كي يترك الحُجرة ووراءه سارة التي لا تتوقف عن الضحك مما جعل أربعتهم يضحكون متناسيين تلك الأحزان التي كانت تغمرهم منذ قليل، فهكذا هي حياتهم، تجعلهم يتنقلون بين الأحزان والضحكات بصورة قد تجعلهم يبدون كالمجانين في حين غُمرة، فلا شيء أفضل من العائلة، ولا شيء أفضل من جعل أحدهم يُشاركك أحزانك ويجعلك تبتسم رغم ضيقك....

مرَّت بضع أسابيع امتدت إلى شهرين فها هي يارا تسير بأرجاء إحدى الممرات داخل جامعتها العريقة بعد أن انتهت من إحدى إمتحاناتها، فهي لا تُصدق أن العام

الدراسي على وشك الإنتهاء وأخيرًا ستحظى بإجازة الصيف التي تنتظرها من عامٍ إلى آخر...

وقفت عند إحدى البِقاع بجوار إحدى العواميد كي تُخرج هاتفها وتتصل بتيمور لأنه وعدها بلقائها حالما ينتهي من إمتحانه، فكانت تعبث بالأرقام بحثًا عن رقمه حتى قطعها صوت يأتي من جوارها ونظراتٍ متلهفة لا تُعطي لها بالًا...

كان يونس يقف جوارها يحمل معه حفنة من الأوراق لعله يحاول أن يفتح معها مجالًا للحديث كما يُحاول كل مرة، فهو لا يُفكر إلا بها ودائمًا ما يُحاول إيجاد الفُرصة للتعرف عليها..

-أ.. أنسة يارا...

قالها بارتباكٍ كي تنتبه لحديثه، فما إن رأته حتى لاح على وجهها بعض عوالم الاستحقار والتي أخفتها بلامبالاة قرر يونس إغفالها وإقناع ذاته أنها ستتقرب منه في يومٍ من الأيام...

-أنا لخصتلك منهج المادة إللي جاية ... والورق ده هيساعدِك في المذاكرة

مدٌ نحوها تلك الأوراق بابتسامة هادئة لعلها تتشكره وترميه بابتسامة أخرى ممتنة، لكن ما حدث أنها رفضت أخذ الأوراق بقولها:

-ميرسي... بس أنا مش محتاجة أي مُلخصات

كانت نبرتها تبدو مُهذبة على الرغم من اللكنة المُحتقرة المتدثرة أسفل تلك الكلمات، فقد كانت تدعو بقرارة نفسها أن يأتي تيمور بسرعة كي يبتعد هذا السمِج عن أمامها ....

-الورق ده مش هيخليكي تقري الكتاب كله ..ده ..ده ملخص كل حاجة وهيسهل عليكي المُذاكرة

تنهدت بنفادٍ صبرٍ من إلحاحه ثم حادثته بنبرة جامدة جعلتها تتخلّى عن تهذيبها وتظهر على حقيقتها:

-يا يونس قولتلك مش عايزة حاجة

آعاد الورق إلى صدره بخُذلان كاد يجعله يعتذر ويرحل، لكن ما حدث أنه وجد تيمور قبالته يقف خلف يارا بعد أن استمع إلى حديثها الغاضب مع يونس وظن أنه يُضايقها...

-في إيه ... عايز منها إيه ؟

وجه حديثه بأعينٍ نارية مُصوَّبة نحو يونس مما جعله يرتبك ولا يعلم ماذا يفعل، كان يحاول التبرير بتلعثمٍ مما جعل تيمور يفقد السيطرة على ذاته ويمسكه من تلابيبه بحدة:

-عايز إيه من خطيبتي يلا ؟؟

حاولت يارا التدخل حتى تمنع هذا العِراك، فكانت تدفع تيمور للخلف من خلال جذب ذراعه وكلماتها المترجية:

-تيمور خلاص سيبه .. هو هيمشي

جذب تيمور ذراعه بعيدًا عنها وهو يهتف بتوّعدٍ:

-يعني إيه يمشي ؟ .... الواد ده أنا بشوفه بيبصلِك وبيمشي وراكي ... وأنا محدش ييجي جنب حاجة تخصني

تبع كلماته بلكمة قوية أسقطت يونس أرضًا وجعلت الدماء تنبثق من شفتيه والأوراق التي معه تتناثر في كل مكان، كاد يواصل تيمور ضربه لكن يارا أبعدته بصعوبة فاكتفى بركلة ركلة قوية على معدته بعد أن كان يُحاول الوثوب عن الأرض...

ذهب بعدها تيمور وتبعته يارا وهي تتعلق بكتفه بعد أن أعجبها مدافعة تيمور عنها وإخبار يونس بأنها خطيبته على الرغم من أن عائلتها لا تعرفه من الأساس، يكفي أنها رأت نظرات التعلق بعينيه وكم أنه يغار عليها...

أما عن يونس فقد كان الخُذلان والحرج يُغطيانه وهو يحاول الوثوب عن الأرض وجمع الأوراق متجاهلًا نظرات الطُلاب التي كانت ترمقه وتتهامس عمَ حدث معه مما يزيده شعورًا بالحرج...

استمع إلى خطواتٍ تهرول ناحيته وإذا أن فتاة تبدو بمُقتبل العشرين تحمل حقيبة متوسطة الحجم وتركع قبالته بنظراتٍ قلقة آرادت من خلالها الاطمئنان على حاله:

-يونس إنت كويس ؟

وثب يونس على الأرض يُنفض الأتربة عن ثيابه ويوميء برأسه بعوالم باهتة كادت تجعله ينفجر بالبُكاء رغم تحليه بالصمود دائمًا، فهو لا يفعل شيئًا بتلك الحياة سوى المثابرة والصبر رغم القساوة التي تُحيط به....

لم ينبس ببنت شفة فوجدها تنتشله بعيدًا عن أعين الطُلاب التي تخترقه وتجعله ينكس رأسه حرجًا، سارت معه حتى وصلا إلى بوابة الجامعة من الخارج لتقف قبالته كي تحاول إرشاده بعِتاب:

-إنت لسة بتمشي ورا البنت دي ؟؟

كانت نبرتها حادة وكأنها أم تخشى على أولادها وتحاول إرشادهم....

-مش قولتلك يا يونس إن البنت دي سُمعتها وحشة ومش شبهك ؟؟ ... ليه مُصر إنها ممكن تتكلم معاك ؟؟

آجابها يونس بحرجٍ وهو لا يزال ينكس رأسه لأسفل:

-مش قادر يا فرح ... مش قادر أشيلها من دماغي ... أنا بقيت أحلم بيها، بقيت أشوفها في كل حتة وأتخيل إنها معايا وبتحبني زي ما أنا بحبها

أحست بالضيق لأجله فرمته بنظراتٍ تحمل اللوم لقلبه الذي يُوقعه دائمًا:

-يا يونس متوقفش حياتك عشانها .... فكر في مُستقبلك وانساها، هي أساسًا عُمرها ما هتفكر فيك

إزداد الضيق على وجهه مما جعلها تشعر بالندم لما قالته من كلماتٍ قاسية اعتذرت بعدها:

-أنا عارفة إن إللي بقوله صعب ... بس صدقني لو نسيتها هترتاح

لم ينبس ببنت شفة وبقي في حالة من الصمت والتفكير في كيفية نسيانها، فمنذ أن رآها بإحدى المحاضرات ووجودها بنفس لجنته وهو لا ينفك يُفكر سوى بها، لا يُفكر سوى بابتسامتها وعينيها الخضراء الجذابة، بل وجسدها الرشيق الذي يزيدها جاذبية، فهي بالنسبة له ملاكًا منزل من السماء ولا يعلم أن الحقيقة أنها أبعد ما يكون عن ما ينسجه لها من مخيلات...

ما إن طالت فترة صمته حتى أردفت فرح بمرحٍ لتُغير مجرى الحديث:

-يلا بقى نروُح ... ماما عاملة محشي ومستنيانا

أنهت حديثها ببسمة واسعة أخرجته من تفكيره وحُزنه وجعلته يسير خلفها كي يذهبا إلى المنزل سويًا كما يفعلا دائمًا مُنذ أن علِم أن شقيقته الصُغرى فرح ستُشاركه الجامعة كما تشاركه أسراره وما يتعلق بحياته....

____

لا يجب أن تترك مجالًا لليأس بأن يُسيطر على عقلِك، حتى ولو كانت فرصة النجاح ضئيلة...

هكذا كانت تُفكر وهي تتجول بجوار يقين ومراد بعد أن أخبرهما بأن يأتيا معه لمفاجأة قام بتحضيرها، فكانت اللهفة تطغي على حركته السريعة وتعابير وجهه الحماسية، ما إن توقفت أقدامه قُرب هذا المُبنى الذي من المفترض أن يقوموا بشراءه حتى أردف أمام عوالم التيه المُرتسمة على كلٍ من يقين وسما:

-خلاص وصلنا...

قالها وهو يُشير على ذاك المبنى بابتسامة زيَنت ثغره وزادتهما حيرة حتى سألت سما:

-إحنا إيه إللي جابنا هنا ؟

أخرج مراد ورقة مطوية كانت مُتدثرة داخل جيبه ومدها نحو سما لتلتقطها بعوالم لا تخلو من التعجب خاصة وهي تستمع إلى ما قاله:

-ده عقد إيجار المكان ... ومن بكرة هوّدي كل الورق والمُستندات للجنة الاعتماد عشان نبدأ المشروع

بقيت سما تُحدق بالورقة التي معها بفاهٍ مفتوحٍ وعوالم تحوّلت إلى عدم التصديق، فمن أين أتى بالأموال ليدفع ثمن الإيجار، فما جنوه من تلك العربة لم يصل حتى إلى نصف المبلغ المُراد..

-إ ... إ..إزاي ؟؟ ... جبت الفلوس منين ؟

آجابها بثقة وبسمة زينت ثغره:

-رفعت قضية على إللي دمروا العربية ... وخدت أربعين ألف جنيه تعويض ... حطيت عليهم المبلغ إللي حوّشناه وروحت دفعت مُقدم الإيجار

ما إن أنهى جُملته حتى اتسعت بسمة سما وإزداد حماسها وعدم تصديقها لما يحدث، فحُلمها على وشك أن يتحقق بعد أن ظنت أن جميع الطرق أضحت مُغلقة أمامها،

تشكرته بعدها على تلك الخدمة ثم سارعت باقتحام المبنى والتجوّل داخله بأريحية بعد أن تأكدت أنه أصبح ملكها أخيرًا، فهي الآن تركض داخل المبنى وعلى وشك أن تقفز عاليًا لتُعرب عن مدى سعادتها بما حدث...

تقدمت يقين نحو مُراد حالما تأكدت من رحيل سما تمامًا حتى يسنح لها المجال بالتحدث عما يدور بذهنها، فكانت عوالمها حائرة وهي تسأل:

-إنت جبت الفلوس منين ؟؟ ... مش قولتلي إن القضية اتقفلت وملقوش إللي عملو كدة

أخرجه هذا السؤال من فرحته لتتحوّل عوالمه إلى التردد أثناء إجابته:

-لأ ما أنا ... بِعت العربية .... بعتها بتلاتين ألف جنيه عشان كانت متدمرة ... وكملت الباقي بالفلوس إللي محوّشها

غطا وجهها عوالم اللوم وهي تسأله:

-ليه يا مراد ؟؟ ... ليه بِعت العربية ؟؟

آجابها بسرعة وبنفسٍ راضية:

-أنا أصلًا مش بستخدمها ... وسألت بابا قبل ما أبيعها وهو مكنش مُعترض

سألته مجددًا بنبرة بها بعض الاندفاع والفضول:

-أيوة بس ليه ؟؟ ... ليه بتساعد سما وبتعمل ده كله عشانها ؟؟

لم يستطع إجابة هذا السؤال وبقي في حالة من الصمت وعيناه تبصران سما وهي تتجوّل داخل المبنى بسعادة تجعل عقله يُصاب بالانتشاء، بعد بُرهة من الصمت وجد جوفه يردف بهدوءٍ وصدق:

-عشان هي تستاهل ... تستاهل إني أساعدها عشان تحقق حلمها

لاحظت شروده بها ولمحة الهيام في حديثه مما جعلها تهتف بمشاكسة:

-أااه ... ده الموضوع مش تحقق حِلمها بقى

انتبه إلى حديثها الذي أصابه ببعض التوتر؛ التفت ليواجهها وينفي حديثها بارتباك:

-لـــ...لأ .. أنا عايزها تــ ..تحقق حلمها ... هكون عايز إيه يعني ؟

لم يبدو على وجهها التصديق مما جعله يستأذن حتى يهرب من نظراتها:

-أنا هسيبكم بقى عشان بابا .. سلام

بصق تلك الكلمات ثم إبتعد عنها أمام عينيها اللتان تُحدقان به مع ابتسامة مشاكسة تعتلي ثغرها ووجهها الذي يتحرك بالنفي لعدم تصديقها لما تراه بعينيها، فقد عزِمت في تلك اللحظة على جعله يعترف عما يكنيه بداخله حتى ولو كان بالإجبار....

____

خيَم الهدوء والسكون في الأرجاء ولكنه لم يصل إلى ذاك المنزل البسيط الذي لا يوجد بداخله سوى صوت الصياِح والشِجار، خاصة عندما تفقد بدور عقلها وتُقرر أن تُذاكر لشقيقها وابنة عمها حتى يستعدا للإمتحانات التي بدأت للتو وهما الآن ببدايتها ...

فكان صوتها يحمل بعضًا من نفاد الصبر وهي تسأل للمرة التي لا تعلم عددها لعله يُجيبها:

-ها يا زيكا .... المعلم يشرح الدرس للتلاميذ ... التلاميذ هتبقى إيه ؟؟

آجابها بسرعة وثقة:

-هتبقى زهقانة ... أكيد زهقانة من شرح المُعلم

أطبقت على شفتيها من تلك الإجابة الحمقاء التي جعلتها تهتف بغضبٍ مبكوت:

-وأنا مالي أنا ومال حالتها ... التلاميذ هتبقى إعرابها إيه ؟؟

وأخيرًا فهم مغذى سؤالها مما جعله يهتف:

-أااه .. إنتِ قصدِك كدة

أومأت رأسها إيجابًا وهي تقول:

-أيوة .. إعرابها إيه بقى ؟

فكرٌ زكريا هنيهة لكنه بالنهاية لم يعرف الإجابة وجعلها تُخبره وتشرح له على الرغم من أنها شرحت له ذاك الدرس أكثر من مرة، تكاد تجزم أن ذاكرته بها العديد من الثقوب التي تمنعه من اختزان أية معلومات....

في خِضم شرحها وشعورها وكأنها ستُجن بسببه أتت سارة لتسألها كما تفعل دائمًا:

-يا بدور ... أنا عايزة اسأل سؤال

تنهدت بدور بنفاد صبرٍ لأنها تعلم القادم جيدًا:

-إتفضلي يا سارة ... وعلى الله السؤال يطلع برة المنهج

تجاهلت سارة آخر جملة وسألت بفضول:

-هو مش البحر ده عبارة عن ماية ؟

أومأت بدور إيجابًا لتستكمل سارة سؤالها بنفس ذات اللكنة:

-طب إزاي الماية لونها شفاف ... والبحر لونه أزرق ؟؟

أغلقت بدور عينيها وهي تضرب جبهتها بنفاد صبرٍ لم تطل مدته لأنها قررت أن تُجيب على أسئلة سارة الغريبة...

-عشان البحر فيه ماية كتير ... الماية الكتير بتعمل لون أزرق ...زي البسين كدة

لم تفهم سارة تلك الإجابة، أو الحقيقة أن الإجابة لم ترضي فضولها لذلك سألت مجددًا:

-أيوة اللون الأزرق ده بييجي منين ؟؟

تنهدت بدور مجددًا بنفاد صبرٍ قررت معه إنهاء تلك الأسئلة لأنها تعلم أنها لن تنتهي أبدًا، دفعت سارة بتروٍ كي تُعاود المذاكرة وتتناسى تلك الأسئلة التي تُفكر بها بكثرة، فهي يجب أن تُركز بمذاكرتها على أن تُفكر بتلك الأسئلة الغريبة...

-روحي يا سارة كملي مذاكرة وأنا هبقى أفكر في سؤالِك وأبقى أجاوبِك عليه بعدين

عادت سارة إلى مكانها بتذمرٍ وجلست أمام بدور تُدوِّن بعض الكلمات في كتابها...

اتجهت بدور بأنظارها نحو زكريا لتجده يلهو ولا يواصل المذاكرة كما اعتقدت بالضبط، فهو ينتهز فرصة عدم انتباهها له حتى يلهو كما يشاء...

انتشلت بدور كتابه لترى ما قام بكتابته وتسأله المزيد من الأسئلة التي امتزجت بغضبها لأنه لم يكتب الإجابات الصحيحة، لكن غضبها خرج بصورة حنونة حتى لا تجعله يمقت المُذاكرة أكثر مما يمقتها...

-فين يا زيكا الإجابات ؟... أنا مش قولتلك تحل القطعة ؟؟

آجابها زكريا بقلة حيلة:

-ما أنا مستنيكي

كانت تعلم تلك الإجابة التي دائمًا ما يقولها ودائمًا ما تجعلها تكاد تفقد صوابها، لكنها هذه المرة استخدمت معه اللين وهي تقرأ ما بالكتاب وتحاول سؤاله بصوتٍ هاديء:

-ماشي .... خُد استخرج ضمير غائب

أعطته الكتاب مجددًا ليُنفذ تعليماتها لكنها وجدته ينظر للكتاب نظرة سريعة ثم يبتعد عنه متفوّهًا بثقة:

-مش موجود

بدأ الغضب يشتعل بداخلها وهي تهتف بوجهه:

-هو إيه إللي مش موجود ... إنت لحقت بصيت في القطعة ؟

-الله !! ... مش إنتِ لسة قايلة إنه غايب ... أكيد مش هيبقى موجود يعني

ضربت جبهتها بنفاد صبرٍ وقد ظنت في تلك اللحظة أنها ستُجن وستنتقل إلى إحدى المصحات النفسية، ما كادت ترد عليه حتى استمعا إلى صوت الباب يصدح عاليًا مما جعل زكريا يكاد يثب من مكانه ليفتح لذاك الزائر لولا يد بدور التي أوقفته متفوّهة بتقريرٍ وصرامة:

-خليك هنا كمل القطعة...

استجاب لأوامرها وواصل المذاكرة فوثبت هي من مكانها لتفتح لذاك الزائر بدورها ...

ما إن فتحت الباب حتى لاح على وجهها عوالم الذهول والصدمة مما جعل لسانها يهتف بتفاجؤ:

-سامح... !!

الفصل الثامن (هل تقبليني زوجًا ؟)

"دائمًا ما تحمل لك الحياة مفاجآتٍ سارة، لكنها لا تمنحك إياها إلا بعد أن تتذوق من معاناتها أولًا"

____

سقط فاهها بتفاجؤٍ ما إن رآته أمامها، فها هو يظهر بعد كل هذه المُدة وبعد أن ظنت أنه لن يأتي أبدًا، فمنذ آخر مرة رآته بعزاء والديه وهو قد أخذ قراره بألا يخطو قُرب تلك البلدة لعله يستطيع نسيانهما ومواصلة حياته، لكن كيف ينساهما وهما جُزءٌ من كيانه، كيف ينسى من كان له فضلًا بتفوقه بحياته وحصوله على الدعم دائمًا، حتى أنه لم يستطع أن يتخلّى عن شقيقاته ولم ينقطع عن الحديث معهما والاطمئنان على أحوالهما، وأحيانًا ما يرسل إليهما بعض الهدايا والأموال، لكنه أبدًا لم يُفكر بالمجيء، ولم يُخبر أحدًا حتى أنه قرر قطع غُربته والمجيء إلى ذاك المنزل الدافيء...

بقيت أمامه في حالة من الصمت والشرود إلى أن قطعتها هرولة سارة وهي تنقض على شقيقها الذي ابتسم وعانقها بحُبٍ أخوي...

-ســـامح...

هتفت بتلك الكلمة بصوتٍ مُرتفع مُهلل أتت سما على إثره وكذلك زكريا، وجميعهم كانت عوالم السعادة تُمتزج بالتفاجؤ من عودة هذا المُغترب إلى موطنه أخيرًا...

كانت دموع الفُرحة تنزلق على وجنتي سما وهي لا تُصدق أنه أمامها، فهي لم تلحظ نفسها وهي تحتضنه بدموعها المُنهمرة التي لا تُصدق حتى الآن أنه هنا، بقي ثلاثتهم يحتضنون بعضهم وأمامهم زكريا يُحدق ببدور التي كانت ترمق ما يحدث بتبلمٍ إلى أن أردف سامح بمرح:

-هنفضل واقفين كدة على الباب ... خلوني حتى أدخل أسلم على زوزو

كان يقصد جدته بحديثه والتي دائمًا ما يُناديها بهذا اللقب لقُربه الشديد منها نظرًا لكونه أول وأكبر أحفادها....

تفرق ثلاثتهم ليسمحوا له بدلوف المنزل ليُصافح جدته بحرارة قبل معها يدها باحترامٍ ثم جلس على الأريكة وجواره شقيقتيه من الجهتين وكانت بدور تجلس جوار جدتها وزكريا يجلس على إحدى الوسائد الملقية على الأرض...

بعد بُرهة من الترحيبات والحديث عن معاناة السفر سألت سما بقلق:

-هو إنت هتسافر تاني ؟؟

رماها بابتسامة هادئة وهو يُجيب بأعينٍ تُمرر عليهم وعلى ذاك الدفء الذي يُحاوطهم:

-لأ مش هسافر ... أنا خلاص قررت أستقر هنا

تهللت أساريرهم بعد تلك الكلمات وطفقوا يُصفقون بسعادة وغير تصديقٍ لهذا القرار الذي تبعه سامح بندمٍ على تلك الأيام التي أضاعها بالغُربة...

-وأنا في اليونان .... كانت حياتي فاضية، أينعم كنت بشتغل شُغلانة حلوة ومرتبي كويس ... بس دايمًا كنت حاسس بالنقص، أو حاسس إن انا مش مرتاح .... لغاية ما قررت أسيب شُغلي هناك وآجي هنا وسطكم

أنهى حديثه بابتسامة جعلت سعادتهم تزداد أضعافًا إلى أن وثب زكريا من مقعده ليمسك يد سامح ويُحاول جذبه بعيدًا عن المِقعد كي يأتي معه ويستجب لما يقول:

-طب تعالى نلعب جوة

تدخلت بدور لتعترض حديث زكريا بصرامة:

-نلعب إيه يا زيكا في عندك إمتحان بُكرة

ثم وجهت بعدها الحديث نحو سامح بنبرة أهدأ:

-وبعدين سيب سامح يرتاح من السفر

رمقها سامح بنظرة عابرة حملت بعض الاشتياق الذي أخفاه ببراعة حالما وجه حديثه نحو زكريا ليُخبره بتقريرٍ وصوتٍ حانٍ:

-بدور عندها حق .. لما تخلص إمتحانات هاجي ألعب معاك براحتك

زفر زكريا الهواء من فمه بتذمر ليبتعد عن ناظريهم كي يواصل مذاكرته كما طلبت منه بدور وطلبت من سارة كذلك رغم أنها آرادت البقاء مع شقيقها...

وثب سامح من مكانه ليُودعهم بقوله:

-أنا همشي دلوقتي وهبقى أجيلكم بُكرة الصُبح

كاد يهم بالرحيل لكن سما سألته بفضول:

-إنت هتبات فين ؟؟

آجابها قبل أن يرحل عن المنزل:

-هبات في بيتنا .... مينفعش أبات هنا

أومأت سما رأسها بتفهمٍ لتتركه يرحل عن المنزل على أمل أن يزورهم يوميًا ويُعوضها عن إحساس الوحدة الذي كان يأكلها طوال الأيام الماضية....

عدة أيامٍ أخرٍ قد مرّت عليهم وهم لا يزالون مُنشغلون بتجهيزات هذا المركز، فقد أخذت التجهيزات أكثر من شهرين وكانت الأيام في غاية الصعوبة والإنهاك خاصة

وهُم يقومون بتلك التجهيزات بفصل الصيف والذي يشتد به حرارة الطقس وزيادة فترة الصباح...

لكن بنهاية هذه المشقة، وصلوا أخيرًا إلى نهاية الخط وأضحى المكان جاهزًا لاستقبال أول زبون يأتي لتلقي التمرينات...

كانت تتجوّل سما داخل المركز بسعادة بالغة جعلتها تلتف حول نفسها بابتسامة تشق ثغرها، شاركها مراد تلك الابتسامة وهو يسير وراءها على بُعد بضعة أمتارٍ وكانت الشمس على وشك المغيب مما جعل هذا الوقت يتسم بالسماء البنفسجية المُختلطة مع الشمس البُرتقالية الساحرة....

-وأخيرًا فتحت المركز ... أنا بجد حاسة إني هطير من الفرحة

قالتها بسعادة وهي لا تزال تلتف حول نفسها وتتفحص كل إنشٍ بالمكان مُتخيلة نفسها وهي تُدرب الأطفال وتخوض معهم المسابقات والبطولات...

إقترب مراد منها بضع خطواتٍ لا تزال مُحافظة على المسافة بينهما، لكنه آرادها أن تنتبه إلى ما يقوله والذي كان غاية في الأهمية:

-لسة اسم الفريق متحددش .... قررتي هتسميه إيه ؟

وقف قبالتها مع آخر كلماته ليجدها تُحدق بالسُقف وتحاول اعتصار عقلها لتُفكر بالاسم المناسب لهذا الفريق، فهي تُريد اسمًا مميزًا يتناسب مع فريقها ومعها هي، لكن من أين تأتي به ؟ ليس لديها أية فكرة..

-مش عارفة ... إزاي مفكرتش في الموضوع ده ... تفتكر اسميه إيه ؟؟

سألته لعله يقترح عليها لكنها وجدته يُفكر هو الآخر بأي اسمٍ مُناسبٍ حتى زارته العديد من الذكريات التي تجمع بينهما، فقد غاص في بحور ذكرياته وأحاديثهما سويًا المُفعمة بالأمل والتشجيع والحماس لما هو آتٍ ... هناك ذِكرى وجدها تخترق عقله

وتُشعل أفكاره، وربما تلك الذِكرى هي ما ستجعله يعثر على الاسم المناسب لتلك الفرقة...

-فاكرة لما كلمتيني عن احساسِك وإنتِ بتلعبي باليه ؟... كُنتِ بتقولي إنِك بتحسي إنِك طايرة ... بتحسي إنِك_

بترت حديثه لتُكمل ذكراه بلهفة:

-بحس إني فوق النجوم

تبعت حديثها ببسمة واسعة جعلتها تهتف بحماسٍ وهي تجوب أركان المبنى:

-يبقى هنسميه فوق النجوم ... اسم بيعبر عن الطموع، بيعبر عن الأحلام، زيي بالظبط...

____

تتمايل بجسدها الرشيق بحركاتٍ ماهرة وهي داخل قاعة التدريب تستمع إلى موسيقى هادئة وتتمايل معها مع زميلاتها وهن يرقصن بحركاتٍ متناغمة جعلتهن يُنتجن عرضًا مُبهرًا خاصة مع تلك الشرائط التي يُحركونها مع حركاتهن الراقصة مما جعل استعراضهن مُبهرًا أكثر...

-برافو يا بدور ... كملي كدة إنتِ وهيام وهتعملو شُغل عالي في العرض إللي جاي

قالها بيشوي بعد أن أنهت بدور عرضها هي وصديقتها هيام التي تترأس هذا العرض بخلاف بعض العارضات بالخلفية، فالتركيز سيضحى على اثنتيهما نظرًا لكونهما الأكثر مهارة وقِدمًا بالفريق، ولو كانت سما معهن لما تصدرت المُقدمة هي الأخرى، لكنها تركت تدريبها بذاك المكان وانشغلت بحُلمها الخاص...

أنهت بدور تدريبها وبدلت ثيابها لتهرع بعدها خارج المركز وتبدأ التجوّل حتى تصل إلى الحافلة التي ستقلها لمنزلها، لكن ما حدث أنها وجدت مُعتصم يعترض طريقها ويبدو وكأنه يحمل حقيبة ورقية تحتوي على نوعٍ من الهدايا...

-بدور ... ممكن أتكلم معاكي ؟

قالها وهو يقف أمامها مباشرة مانعًا إياها عن الحِراك، فهذه ليست أول مرة يعترض بها طريقها ويُحاول مسامحتها، فهو يفعل ذلك منذ أعطته خاتمها وقررت إنهاء خُطبتهما...

-أنا آسف ... صدقيني أنا فسخت خطوبتي مع البنت دي ... ومستعد أعمل أي حاجة عشان تفضلي معايا ... ولو على أمي، أنا ممكن أتكلم معاها تاني وأقولها إني مش هتجوز غيرِك ... بس بعد إذنِك تسامحيني وتديني فُرصة

تقدم نحوها خطوة أدت إلى تراجعها بالمُقابل ومواجهته بعوالم جامدة لا تحمل أي نوع من الشفقة والرغبة بمسامحته، حتى بعد أن رآته يمد نحوها تلك الهدية وترفض هي أخذها متفوّهة بكبرياءٍ رغم أن قلبها لا يزال يدق لأجله...

-إللي بتقوله مش هيحصل يا مُعتصم ... مامتك هتفضل شيفاني الرقاصة إللي ماشية على حل شعرها عشان أهلها متطلقين وسايبنها ... هتفضل تحكم عليا لمُجرد إن أهلي متطلقين_

بتر حديثها محاولًا اعتراضها بكل ما أوتي من قوة:

-لأ .. صدقيني هتكلم معاها وأقولها إنك_

قطعت حديثه لتنهي هذا النقاش بصرامة:

-أنا عارفة إن مامتك مش هتغير رأيها يا مُعتصم ... فياريت متحاولش تاني وتسيبني عشان أنا تعبت

تخطته بعد تلك الكلمات وواصلت سيرها بخطواتٍ سريعة تمنع معها دموعها بالانحدار، فهي لا تعلم لما أخبرته بتلك الكلمات القاسية، هي لا تتحمل فُراقه ولا تتحمل البقاء معه خاصة بعد ما فعله هو ووالدته، لا تعلم أتختار قلبها الذي يُخبرها أن تُسامحه ؟؟ أم عقلها الذي يُخبرها أنها لا تُناسبه البتة ؟؟ ... لا تعلم الإجابة ولا تعلم متى ستعلمها...

ـــ

التوتر ... كلمة من أربع أحرفٍ فقط لكنها كفيلة بقلب الحالة المزاجية لأي شخص وتجعله يفتعل أمورًا لا يعلم لما يفعلها وما سبب ارتكابه إياها، لكنه متأكدٌ أن تلك الحالة التي تأتيه ما إن يقبل على أمرٍ طارئ تجعل ثقته تتبدد وأحلامه تكاد تسقط من الهاوية...

هذا ما كان يشعر به بعد أن ترك مكتب عميد الجامعة التي سيقوم بالتدريس داخلها، فهو قد قام بتقديم أوراقه بجامعة كبيرة أخذ عنوانها من صديقه وزميل دراسته، فما إن أنهى تقديم الأوراق والحديث مع العميد لبعض الوقت إلى أن تأكد من حصوله على الوظيفة حتى هرع من مكتبه ليتجوّل بأركان الجامعة بحثًا عن فضل، صديقه الذي اشتاق لرؤيته وأخبره أن يأتي ليعمل معه بتلك الجامعة....

دلف إحدى المكاتب المُخصصة للقسم الذي سيقوم بالتدريس به وهو الفلسفة، كان يجلس فضل على إحدى المقاعد يلتهم شطيرة من الدجاج تفوح رائحتها بكل مكان، لكنه ما إن لمح مجيء سامح، حتى ترك تلك الشطيرة وانقض عليه ليلتقفه بعِناقٍ أخوي أعرب عنه عن مدى اشتياقه لصديق جامعته المُقرب، فكان جسد فضل القصير والنحيل ذا البشرة الخمرية يمنعه من حمل سامح الذي لديه جسد متوسط ليس رياضيًا لكنه لا يزال متناسقًا مع طوله وملامحه المُهذبة التي ينبعث من خلالها بعض الطيبة...

بعد وصلة الترحيبات ابتعد عنه فضل ليردف بمرح حمل معه الاشتياق:

-إيه يلا الغيبة دي ... كدة متسألش فيا ولا تعبرني ... هي دي العِشرة إللي بنا ؟؟

أنهى حديثه ببعض الدرامية التي جعلت سامح يعتذر له بابتسامة هادئة جلس معها على المكتب ليتفقد الجدول الدراسي وما عليه القيام به قبل بدء العام الجديد، أما عن فضل فكان يُعاود الجلوس على مكتبه ويواصل التهام شطيرته وهو يهتف بمزاح:

-طب استنى أقولك نُكتة ... مرة واحد اسمه سامح حط إيده على ودنه مبقاش سامح

تبع حديثه بقهقهة سمجة جعلت سامح يرمقه باشمئزازٍ لأنها ليست المرة الأولى التي يُخبره فضل بتلك النكتة المُتعلقة باسمه، فربما أخبره فضل إياها حتى يتذكر مزاحهما ومشاكساتهما في الماضي...

قذفه سامح بإحدى الأوراق المجعدة وهو يقول:

-تصدق يلا رخامتك دي هي إللي هتخليني أمشي من هنا

قهقه فضل على حديثه ثم عاود كلاهما مواصلة العمل في أجواء من المرح وبعض المزحات المتبادلة....

____

تستند بذراعها على مِسندٍ خشبي برداءٍ ضيقٍ وتنورة قصيرة تساعدها على الرقص بأريحية، والحقيقة أنها لم تكن تتلوّى بمهارة كما يفعل بقية فريقها، بل كانت تُشاهدهن من بعيد بنظراتٍ مُستحقرة تستخدمها للسخرية عليهن بقرارة نفسها...

كانت الشمس قد أسدلت ستارها في هذا الوقت لأنها تتمرن بالفترة المسائية على عكس شقيقتها التي تتمرن بالصباح لعدم انشغالها بهذا الوقت....

وثبت شذى _ المساعدة الخاصة ببيشوي_ بجوار يارا لتُشاركها التحديق بزميلاتها ثم تنصت إلى سؤال يارا الذي كان:

-هو الكابتن حدد الناس إللي هتشترك في العرض إللي جاي ؟

أومأت شذى وهي تُجيب بثقة:

-أه ... وأنا حطيت اسمِك زي كُل مرة

رسمت يارا بسمة خبيثة على ثغرها وهي تقول:

-كويس أوي ... بس إنتِ حطتيني مكان مين ؟

آجابت شذى بصوتٍ مُنخفضٍ حتى لا يسمعها أحد:

-مكان هيام ... هي كدة كدة هتشارك في العرض إللي بعده

همهمت يارا بلامبالاة وسعادة لأنها سُتشارك بالعرض القادم بطريقة ماكرة بعد أن تقرّبت من شذى وأخضعتها لتُنفذ طلباتها بحُجة أنهما صديقتان مُقربتان وعليهما مساعدة بعضهما بعضًا، لكن الحقيقة أن يارا تنتهز تلك الصداقة لمصلحتها ليس إلا ...

____

طفلٌ صغير يبدو بالثامنة من عُمره يتربع على الأرض وأمامه قطع من الأحجية يقوم بتركيبها بمساعدة من طفلة صغيرة تبدو بالخامسة من عُمرها، استمرا لبعض الوقت يحاولان تركيب تلك الأحجية إلى أن زفرت الفتاة بضيقٍ جعل جوفها يمتليء بالهواء الذي أخرجته بصورة تجعلك تعتقد أنه هواءًا ساخنًا، هتفت بعدها وهي تترك الأحجية على الأرض بيأس:

-أنا مش هعرف أركبها ... دي صعبة أوي

لم تخلو عوالم الطفل الصغير من الصبر والعزيمة عندما التقط قطعة الأحجية عن الأرض وحاول تركيبها متفوهًا ببراءة:

-لو إحنا ساعدنا بعض مفيش حاجة هتبقى صعبة...

عاد من تلك الذِكرى البريئة بفمٍ يرسم بسمة هادئة ووجهه يتسقبل نفحات الهواء العليل الذي يضرب جبينه ويجعله غارقًا في بحور ذكرياته التي لا يُريد نسيانها...

قطع وصلة ذكرياته واستجمامه بالشُرفة أمام القمر المنير والسماء الصافية، أقدام تتحرك من وراءه يصحبها صوت مرح يعرفه جيدًا:

-بتعمل إيه ؟

التفت سامح صوب ذاك الصوت ليلمح زكريا الذي أتى ليُشاركه مجلسه بالشُرفة واستمتاعه بهذا الهواء النقي...

-ولا حاجة يا زيكا ... ما تدخل تلعب مع سارة

رفض زكريا حديثه مُبررًا:

-لأ أنا مش همشي غير لما تقولّي في إيه ... إنت ليه مش قاعد معانا ؟؟

تنهد سامح بعُمقٍ ولم يكن يعلم بما يُجيبه، فهو لا يعلم إن كان عقله الصغير سيتفهم سبب محاولاته لتجنبهم أم لا...

وجد نفسه يردف بما يجيش به صدره وعيناه تزيغان في السماء بهوادة:

-عادي يا زيكا .. حاسس إني مخنوق شوية عشان كدة عايز أقعد لوحدي

همهم زكريا بتفهمٍ ثم إقترب من سامح ليُحاول مواساته بنبرته المعتادة ويده التي طفقت تُربت على ظهر سامح:

-ماشي .. أقولك على نصيحة ؟

رمقه سامح باهتمامٍ لنصيحته التي أدلاها فورًا:

-فُكها ... عشان ربك يحلها

لاحت الغرابة على وجه سامح من طريقة حديثه التي تُشبه حديث السائقين، فما هي إلا لحظاتٍ حتى حاوط رقبة زكريا بذراعه وقربها ناحيته وهو يسأله:

-أفكها !! ... إنت ياض بتجيب الكلام ده منين ؟؟

آجابه زكريا وهو لا يزال قابعٌ بين ذراعه:

-من على اليوتيوب

هتف سامح بتفاجؤٍ حمل معه المرح:

-يوتيوب !! .. دا أنا فاتني كتير أوي....

حادثه زكريا بصوتٍ يجاهد حتى يحل وثاقه:

-مفاتكش حاجة غير خطوبة بدور

ما إن أدلى تلك الجُملة حتى اغتابته معاني الصدمة وهو يُبعد زكريا عنه كي يسأله بحدة:

-إيه !! ... بدور اتخطبت ؟؟...

____

لم تكن تعلم أنها في يومٍ من الأيام سأتيها هذا الشعور... شعور الراحة الذي يأتيك بعد عناءٍ ومشقة، فها هي داخل مركزها بعد أن أنهت تفاصيله الأخيرة وأضحى جاهزًا من جميع الجوانب، ها هي تقف بداخله وكأنها فراشة تُحلق بين الأزهار لتستنشق من رحيقها الذي يُشبه رحيق الحُرية....

كان مراد يسير خلفها بعد أن أخبرها أن تأتي وترى اسم المركز وهو يُزين الواجهة، لكنها لم تكتفي بالنظر إلى المركز من الخارج ووجدت قدميها تُهرولان للداخل والسعادة تنطلي على جنباتها...

كانت قد انقطعت عن الرقص لفترة ليست قصيرة بسبب انشغالها بهذا المركز، وما إن وجدت جهاز الموسيقى أمامها حتى هرعت نحوه فورًا وأشعلت نغمة هادئة أعادت الروح بداخلها، أغلقت عينيها لتغرق في بحور تلك النغمة حتى بدأ جسدها يتمايل بحرفية مع تلك النغمة، وجدت جسدها يؤدي بعض حركات البالية بمهارة أبرزت مدى رشاقة جسدها وليونته....

استدارت عدة دوائر وهي تقف على أطراف أصابعها ثم ترفع قدمها لأعلى لتتلامس مع رأسها وتبدأ بالدوران ثم القفز كالغزلان لتواصل بعدها تأدية حركاتها دون أن تنتبه إلى وجود مراد الذي كان يُشاهدها من بعيد وعوالم الانبهار على وجهه، فهي بالفعل ماهرة كما كان يعتقد دائمًا...

ابتسم ابتسامة واسعة وهو يتأمل حركاتها المتناسقة ولا يُبدي أي ردة فعلٍ خشية من أن يجعلها تتوتر، فيبدو أنها غاصت في تلك الموسيقى وتلك الحركات التي جعلتها بعالمٍ آخر يشوبه اللون الوردي والأزهار الرائعة....

وجدها تقترب نحوه بعد أن لاحظت وجوده وارتباكه بعض الشيء، لكنها وأدت ارتباكه وهي تجذب يده ليُشاركها تلك الرقصة ويُشاركها كذلك إحتفالها الصغير...

لم يكن بحُسبانه أن يُشاركها الرقص، وكذلك تعجب من سعادتها البالغة التي جعلتها تُنحي مبادئها وتغفل عن كونها تشاركه الرقصة وصوت التهليلات والمرح يخرج من كليهما، فكانت ذراعيهما يمتدان بينهما تاركين فجوة تمنعهما من الالتصاق ... آدارها مراد لتلتف أمامه تماشيًا مع الموسيقى، فما إن توقفت عن الدوران حتى وضع ذراعه أسفل خِصرها لتنحني بجذعها للوراء برشاقة جعلت عينيهما تُحدقان ببعضهما لبُرهة من الوقت...

بقي يُحدق بعينيها البُندقية الجذابة التي أشعلت نيران قلبه وجعلته يفصح عما بداخله فجأة :

-تتــ... تتجوزيني ؟؟...

الفصل التاسع (نظرة نارية)

"إبدأ بالمُتاح ولا تنتظر اكتمال الأدوات"

____

عينان لامعتان تُحدقان ببعضهما وكل عينٍ منهما تبرز ما بمكنون صاحبها، فهناك عين عاشقة وأخرى مصدومة وكأنها عادت للتو لواقعها...

اعتدلت سما بوقفتها لتبتعد بضعة إنشاتٍ عن مراد بوجهٍ أحمرٍ من الخجل وأطرافٍ ترتجف مما حدث وما استمعت إليه للتو، فكأنها كانت مغيبة عن العالم وعادت مرة واحدة دون أن تستعد لذلك، أما عن مراد فلم تكن عوالمه تخلو من التوتر، لا يعلم ما الذي قاله وكيف اعترف بهذه السهولة، لكنه متأكد أنه يقول الحقيقة ولن يتراجع أبدًا، ربما لم يكن بحُسبانه أن يعترف الآن، لكن هذا لا يُهم، طالما وضعه القدر على أول الطريق، فعليه انتهاز الفُرصة والمواصلة...

-إنـ... إنت قولت إيه ؟

قالتها سما بارتباكٍ وأعينٍ لا تخلو من عدم التصديق، كان سيتردد ويُخبرها أن تنسى ما قاله لكنه على آخر لحظة وجد نفسه يردف بما يجيش به صدره:

-قولت ... إني عايز أتجوزك ... عايز أعيش معاكي إللي باقي من عُمري

سقط فاهها وهربت الحروف من عقلها، فلم تعد قادرة على الحديث ولم تعد قادرة على تكوين جُملة واحدة، فقط الصمت هو ما يُصاحبها أمام نظراته الهادئة التي تزيدها ارتباكًا....

اقترب نحوها خطوتين ليُحادثها بإصرارٍ رغم التردد الكامن بداخله:

-أنا مش هجبرك توافقي ... بس لازم تعرفي إني بحبك، ومستعد أعمل أي حاجة عشانِك ... حتى لو قولتيلي مش لازم نتجوز دلوقتي_

قطعت حديثه بسرعة وجرأة لم تعهدها:

-بس أنا موافقة ... موافقة نتجوز

كم لعنت نفسها على حديثها بتلك اللحظة، فقد كانت تُريد إتباع سياسة الثِقل ولا توافق على عرضه إلا بعد التفكيرِ والعديد من الإلحاحات، فما الذي يقوله هذا الجوف الساذج ؟

أحنت رأسه بخجلٍ وكادت تضرب جبهتها من شدة تسرعها، لكنه كان يبتسم لها ابتسامة متلهفة وقلبه يرقص من السعادة، يقسم أنه آراد الرقص معها مجددًا في تلك اللحظة احتفالًا باعترافها لكنه تحلّى بالصمت وبقي ساكنًا أمام توترها وإحمرار وجهها....

بعد فترة من السكون تراجع عدة خطواتٍ للوراء ليُغير مُجرى الحديث بقوله:

-طب يلا عشان أوصلِك

نفت برأسها بسرعة وهي تُخبره بتوترٍ لا يزال طاغٍ على ملامحها:

-لأ ... أخوية هييجي يوصلني...

أومأ رأسه بتفهمٍ ثم رحل بهدوءٍ تاركًا إياها وحيدة داخل المركز بقطرات العرق المنسابة على جبهتها وكلماتها المتفاجئة:

-لأ ... أكيد ده حلم ... أكيد هصحى دلوقتي وهلاقي نفسي على السرير ... مستحيل ... مستحيل يكون ده حصل

انتبهت إلى كونها تُحادث نفسها بصوتٍ مسموع فأردفت:

-هو أنا اتجننت ولا إيه ؟؟....

____

تقبع على فراشها بقدميها الممتدتين أمامها كما الغِطاء الذي يُغطي نصف جسدها، تمسك إحدى القِصص بين يديها لعلها تُمارس هواية القراءة التي تعشقها وتنسى بها العالم، لكن الحقيقة أن عقلها شاردًا بشيءٍ آخر، لا يزال يُفكر بمن يُسيطر على قلبها ويجعل الأفكار تتضارب بداخلها، لا تُدري أتسامحه وتتناسى فعلته ؟؟ أم تصر على قرارها وتبتعد عنه رغم قلبها الذي لا يزال مُتعلقًا به ... فلا يجب أن تجعله يعصي والدته من أجلها، ولن تتحمل العراك معها كما تقرأ بالقصص والحكايات، فدائمًا ما تقرأ عن الوالدة المُتحكمة التي تُرغم ابنها على الزواج من شخصٍ باختيارها وإذا عصا أمرها تقف حائلًا أمامه وأمام من يريد تزوجها رغمًا عن أنف والدته، وتقرأ كذلك عن كيف يصرٌ البطل على زوجته ويُعاند والدته وربما كذلك يهجرها...

كل ذلك يحدث فقط بالأساطير، إنما على أرض الواقع، هي لن تقبل أن تجعله يعصي والدته، ولن تستطيع أن تنال رضاها، فلا يوجد أمامها سوى أن تهجره وتتركه وشأنه....

هكذا انتهت أفكارها المتضاربة والتي جعلتها بالنهاية تُغلق كتابها وتكاد ترتخي على الفِراش استعدادًا للنوم، لكن ما حدث أنها وجدت باب الحُجرة ينفتح باندفاع صحبه صوت سما وهي تقتحم الحجرة بصوتٍ ناشز يُغني إحدى الأغاني المُبهجة...

اعتدلت بدور بجلستها لترمقها بحيرة وتتسآل عما يحدث معها، لكنها تجد سما ترتمي على الفراش وتردف بصخب:

-أنا هتجوز ... مراد عرض عليا الجواز

لم تتغير ملامح بدور وبقيت ترمقها بحيرة دون إبداء أية تعبيرات...

-إنتِ بتقولي إيه ؟؟

سألتها بدور بغير تصديق فوجدت سما تردف بابتسامة واسعة وكأنها تحوٌلت إلى مجذوب:

-بقولك مراد قالّي إنه بيحبني ... والمركز خلاص اتفتح، أنا بجد مش مصدقة .... حاسة إني عايزة أعمل حفلة...

قالت آخر جُملة وهي تثب عن الفِراش وتفتح إحدى الأغنيات الصخبة من خلال هاتفها أمام عوالم الاستفهام المُرتسمة على وجه بدور، فمنذ متى وسما بهذا الجنون ؟؟....

-أهي أهي أهي .... أهي جاية هناك أهي ... دي فرحة ولا إيه ... أهي أهي أهي أهي...

بقيت تُغني تلك الأغنية بصوتٍ مليء بالبهجة لتجذب بعدها يد بدور وتجبرها على مشاركتها الرقص مع تلك الأغاني التي تُعبر عن السعادة، فما هي إلا بضع ثوانٍ حتى بدأت كلتاهما الرقص بعشوائية على تلك الأغنية حتى وصلت مسامعها إلى زكريا وسارة اللذان كانا بالبهو يلهوان...

-إيه ده هو في إيه ؟؟

سأل زكريا ذاك السؤال وهو يقف أمام الباب ويستمع إلى تلك الأغنيات الصخبة، وجد سما تجذبه من يده هو وسارة كي تُدخلهما الحجرة ويشاركاهما القفز والدندنة مع الأغنية بسعادة...

تابعتهم جدتهم من بعيد بابتسامة تعتلي ثغرها حتى جذبتها بدور إلى داخل الحُجرة كي تشاركهما هذا الاحتفال الصغير رغم كِبر سنها، فكانت تُقهقه بحرارة وهم حولها يفتعلون حركاتٍ مُضحكة تتماشى مع الأغنية، فكادت الجُدران تهتز من كثرة قفزهم الذي ربما يجعل الجيران يتصلون بالشُرطة لتقبض على هذه العائلة المُزعجة....

بجوار الحُجرة كانت هناك نظرات نارية تنبعث من عينيها ما إن علِمت أن ابنة عمها ستتزوج ممن تُحب، كوّرت قبضتها بغيظٍ وهي تتابع سعادتهم وداخلها يتذمر من وصولها لتلك الإنجازات وهي لا تزال مُهمشة بتلك العائلة ... فهي قد أقسمت على تدمير تلك السعادة بكل ما لديها من حيِل، هي لن تسمح لأحدهم أن يتصدر القمة سواها....

ـــ

ما إن أشرقت الشمس وتغلغلت أشعتها الأرجاء، جلس هو على الأريكة داخل منزلٍ بسيطٍ يقبع بإحدى الأحياء البسيطة، أمامه فنجان من القهوة والعديد من الأوراق التي ستُساعده بتحضير ما سيقوم بشرحه بالعام الجديد، وأثناء إنهماكه بالعمل إذا أنه يستمع إلى صوت الجرس يصح عاليًا مما جعله يثب من مقعده ليفتح الباب لذاك الزائر ....

دلفت سما المنزل دون أن يمهلها الإذن لذلك، فهذا بالأخير منزلها قبل أن تنتقل للمبيت مع جدتها....

-سامح أنا عايزة أتكلم معاك ضروري...

قالتها وهي تتجه نحو البهو وتجلس على الأريكة أمام نظراته المُتعجبة...

أغلق الباب واتبعها للداخل ليجلس قبالتها على إحدى المقاعد كي يسألها باهتمام:

-نعم يا سما .... عايزاني في إيه ؟

سرقت سما نفسًا عميقًا ثم أطلقته لتستعد لتفجير تلك القُنبلة التي لديها:

-أنا متقدملي عريس

لاحت عوالم الصدمة على وجهه مما جعله في حالة من الصمت لوهلة لا يعلم ماذا يقول، لكنه عاد من صدمته بسرعة وهو يسأل بغير تصديق:

-عريــس !! ... عريس مين ؟؟ ... وإنتِ تعرفيه منين ؟

كانت نبرته حادة تُشبه أسئلة الضابط حينما يُحقق مع إحدى المجرمين، ومع ذلك رتبت سما أفكارها قبل أن تُجيبه ببعض التردد:

-بُص .. أنا عارفاه من حوالي خمس شهور ... بس والله العظيم ده محترم جدًا وابن ناس و_

لم تكد تُكمل صفاته الحسنة حتى يقتنع شقيقها الذي كان يرميها بنظراتٍ نارية، فيبدو أن غُربته وابتعاده عنهم أوهمتها أنه سيتغاضى عن كونها تتعرف على الرجال وتتحدث معهم كذلك...

وجدته يوقف حديثها بنبرة مُحتدة:

-إتعرفتي عليه إزاي ؟ .... وإزاي متقوليليش الكلام ده ؟ ... ملكيش كبير ولا إيه ؟

حاولت سما التوّسل له بنبرتها المُستعطفة:

-يا سامح والله محصلش بينا أي حاجة، بقولك محترم جدًا ... ده حتى كان بيوصلني البيت عشان ممشيش في الشارع لوحدي

ظنّت أن تلك الجُملة ستطُمئنه لكن الحقيقة أنها أدت إلى اشتعال نيران الغيرة بداخله مما جعله يهتف:

-كمان كان بيمشي معاكي في الشارع لوحدكم!!

أدركت سما ما ارتكبته وتعجبت من غضبه من هذا الأمر الذي كان بسيطًا بالنسبة لها، طفقت تُتمتم بصوتٍ منخفضٍ حتى لا يصل إلى مسامعه:

-ياللهوي ... أومل لو عِرف إني رقصت معا هيعمل إيه ؟

انتبه إلى تمتمتها فسألها بحدة:

-بتقولي إيه ؟

إزدردت ريقها ببعض التوتر وهي تتدارك الامر:

-إيه ... بقول إنه عايز يشوفك ويطلب إيدي منك ... ممكن بقى تقابله ؟؟

أنهت حديثها بنظراتٍ مُستعطفة بريئة جعلته يتنهد باستسلامٍ أمام نظراتها ويردف بهدوءٍ متنافي مع ما بدأ به الحديث:

-ماشي يا سما ... إديني رقمه وأنا هكلمه

ما إن أدلى تلك الجملة حتى شقت البسمة الواسعة ثغرها وانقضت على شقيقها بمرحِ كي تعانقه عِناقًا قصيرًا لكنه حمل من اللهفة ما جعله يرتد للوراء:

-وربنا إنت أحلى أخ في الدنيا

قالتها بمرحِ ما إن ابتعدت عنه وتركت المنزل أمام قهقهته الخافتة وكفيه اللذان يتضاربان ببعضهما من جنونهما، أيُمكن للعشق أن يفعل بها كُل هذا ؟ أم ربما لأن مركزها قد تم إفتتاحه وهي على شفة جرفة من تحقيق حُلمها ... لا يعلم ما الذي حدث معها، لكنه سعيد برؤية ابتسامتها التي يتمنى لو لم تزول عن وجهها أبدًا....

مرّت ثلاثة أشهرٍ تم فيهم التحضير لتلك الخُطبة البسيطة التي ستُقام بالمنزل، فكان هناك أقرب المعازيم إليهم من بعض رفاق بدور وسما أثناء فترة التدريبات وكذلك كان يوجد بعضٌ من أقارب سما من والدتها وأقاربها من والدها كذلك، ناهيك عن يعقوب والد مراد وبعض رفاقه الأقربين وعمته ويقين ابنة عمته والتي هي بمثابة شقيقته....

ترتدي سما رداءًاورديًا من الستان يصل إلى أخمص قدمها مع وردة على كتفها الأيمن أبرزت جمال هذا الرداء وتناسقه مع جسدها الرشيق وخصلات شعرها التي عقصتها لأعلى بطريقة جذابة جملتها هذا التاج الرقيق ومستحضرات التجميل البسيطة، فكانت طلّتها النهائية مُبهرة كفراشة تتبختربجمالها بين الأزهار....

ألبسها مراد خاتم الخُطبة بابتسامة هادئة على ثغره، فهو لا يزال غير مُصدقًا لما حدث، فكيف لكلمة بسيطة تنزلق من جوفه عنوة أن تُغير مُستقبله إلى هذه الدرجة ؟ ... لايزال يعتقد أنه داخل حُلمٍ جميلٍ وسيفيق منه عما قريب كما تعتقد هي الأخرى ....

بعد العديد من الأحاديث البسيطة بينهما ومصافحة جميع الضيوف وإلتقاط العديد من الصور أتت تلك الفقرة التي يبدأ بها تناول الطعام في أجواء موسيقية هادئة....

كانت بدور تُساعد جدتها وبعض أقاربها بتفرقة الطعام على الحضور إلى أن قطعها جرس الباب الذي صدح عاليًا؛ تركت ما تفعله واتجهت نحو الباب كي تفتحه لعلهم يستقبلون زائرًا آخرًا، لكن حركتها قد ألجمت مكانها ما إن وجدته أمامها....

يقف مُعتصم قبالتها مباشرة يحمل معه عُلبة من الحلوة مع بزته الرمادية التي تتناسق مع بنيانه وجسده الرياضي، لاحظ صدمتها من مجيئه لأنه قد توقف عن طلب مسامحتها لشهرٍ كاملٍ بعد أن ظنٌ أنها تركته نهائيًا، والحقيقة أنها آرادته ألا ييأس ويُعاود مصالحتها لأنها فقط تريد الحديث معه مجددًا...

-مش هتخليني أدخل ؟؟

سألها بابتسامة ودودة زادتها ارتباكًا لكنها أفسحت له المجال باقتحام هذا الحفل وإعطاءها عُلبة الحلوة كهدية لأصحاب تلك الخُطبة، أمسكت منه العُلبة بتيهٍ ولم تكن تعلم ماذا تقول، فهي تريد إخباره أنها تُسامحه وستنسى ما حدث، فيكفي الفُراق بينهما إلى هذا الحد، لكنها أيضًا لا تستطيع قول ذلك فتحلُّت بالصمت إلى أن وجدته يقول:

-أنا بعِدت عشان أثبتلِك إني إتغيرت ... وأنا مش هسمح تاني لأي حد إنه يدخل بينا...

إقترب نحوها خطوة ولاتزال هي واثبة مكانها تكاد الدموع تُذرف من عينيها من كثرة اشتياقها له:

-بدور إنتِ وحشتيني ... كل حاجة فيكي وحشتني ... أنا مبقتش قادر أبعد عنِك أكتر من كدة، من فضلِك إديني فرصة أثبتلِك إني صلحت غلطي....

لم تنبس ببنت شفة وبقيت تستمع إلى حديثه في صمتٍ إلى أن وجدته يُخرج خاتمها من جيبه ويمده نحوها متفوِّهًا:

-أنا بحبِك يا بدور ... وهفضل أحبِك لأخر يوم في عُمري

وجدت أناملها تلتقط الخاتم منه بارتجاف أدلت معه ما بداخلها:

-وأنا كمان بحبك

أدت كلماتها إلى تراقصه بسعادة خاصة وهو يراها ترتدي ذاك الخاتم وترميه بابتسامة أثلجت نيران قلبه، فها قد عادت نصفه الآخر أخيرًا بعد أن ظن أنه خسرها للأبد....

وفي ظل تراقص هذان القلبان بسعادة، كان هُناك قلبٌ آخر يُتابعهما بنيرانٍ تلتهم أحراشه وسكاكين تُمزق فؤاده....

تجلس يارا داخل حُجرتها تضع الهاتف على أذنيها بعد أن رفضت مشاركتهم هذا الاحتفال السخيف من وجه نظرها، كانت ترتدي رداءًا بنفسجيًا أبرز تفاصيل جسدها الرشيق المائل للنحالة، فهي من أولئك اللذين يتبعون نظامًا غذائيًا قاسيًا فقط من أجل أن يُحافظوا على جمالهم ويتباهوا به أمام الجميع...

-أنا بجد مخنوقة ومش قادرة أقعد هنا أكتر من كدة...

أدلت تلك الكلمات وهي تتحدث مع صديقتها راندا عبر الهاتف وتُخبرها عن مدى شعورها بالغيرة من تلك العلاقة التي لا تستطيع أن تصل لمثلها، فعلى الرغم من أنها على علاقة مع تيمور، إلى أنه حتى الآن لم يعرض عليها الزواج ولم يجعلها تحظى بمثل هذا الإحتفال، وهذا ما يُصيبها بالغيرة...

-بس العريس مُز أوي ... البت سما قريبتِك دي حظها إيه

قالتها راندا عبر الهاتف مما آصاب يارا بالغيظ أكثر خاصة ما إن رآت مراد ورآت كم أنه شاب لديه جميع الخِصال الحسنة من إحترام وشهامة ناهيك عن ملامحه الهادئة الوسيمة وبسمته التي تجعل من يراها يُصاب بالراحة، وفوق هذا لا يتوقف عن دعم سما ومساندتها، مما يجعل الغيرة تأكل أحراشها أكثر وتجعلها تهتف بغلٍ:

-ولا حظ ولا نيلة ... العلاقة دي أصلًا مش هتكمل ... وهتشوفي إن كلامي هو إللي هيمشي_

قطع حديثها اقتحام بدور الحجرة ومناداتها:

-يلا يا يارا قومي ساعديني

أبعدت يارا الهاتف عن أذنها وهي تتنهد بتذمر:

-حاضر جاية...

قالتها ثم أغلقت المكالمة ووثبت من فراشها لتتبع بدور حيث البهو وحيث يتجمع المعازيم استكمالًا لهذه الخُطبة....

____

بعد مرور بضعة أيامٍ من تلك الخُطبة، عاد الجميع ليواصل عمله واستكمال حياته وأحلامه كما كان سابقًا، فلا تعتقدوا أن حُلمها تحقق بتلك البساطة، فهي لاتزال على أول عتبة من درجات النجاح ودائمًا ما تضحى الدرجة الأولى هي الأشد صعوبة...

تجلس على الرصيف أمام مركزها بعوالمٍ بآسة ورأسٍ منحنٍ لأسفل يكاد يُذرف العديد من الدموع، فعلى عكس ما توقعت، كان المركز خالٍ من المتدربين ولم يأتي ولو شخصٍ واحدٍ ليشترك بفرقتها على الرغم من أنه تم إفتتاحه منذ عدة أشهر، ولا يزال

هُناك ديون عليها سدادهم ولا تعلم كيف تسد ديونها وهي لا تمتلك أموالًا، فهي الآن تشعر وللمرة المئة بأن أحلامها تتحطم ولا تعلم كيف تبنيها مجددًا...

شعرت بأحدهم يجلس جوارها ولم تتفاجأ لأنها تعلم أنه مراد، فهو الوحيد الذي يُشاركها تعثراتها ودائمًا ما يُشجعها خاصة بعد أن أصبح هناك رابطًا بينهما، لاحظ ضيقها ودموعها المكبوتة فحاول مواساتها بقوله:

-متقلقيش ... أكيد حد هييجي ... الموضوع مش سهل وإنتِ عارفة، بعدين إحنا عملنا دعاية بما فيه الكفاية

رفعت رأسها ما إن انتبهت لحديثه ثم أردفت:

-إحنا لسنا محتاجين باقي فلوس الإيجار ... دا غير الفلوس إللي استلفناها عشان نجهز المكان ... يعني لو مفيش حد جه هنخسر كل حاجة...

أنهت حديثها بإحباطٍ شديدٍ جعلها تُغطي وجهها بكفيها لعلها تكبت دموعها بتلك الطريقة...

-أنا عارف إنك صبرتي كتير ... بس أنا متأكد إن ربنا مش هيضيع تعبنا ... ومش هيضيع تعب كل الشهور إللي فاتت دي

انهمرت بضع قطراتٍ من الدموع بسبب شعورها باليأس الذي يُفتك بها في تلك اللحظة، فهي على شِفة جرفة من الغرق في بحر الفشل واستسلامها عن ذاك الحُلم شديد الصعوبة، بل وحتى تحقيقه مستحيلًا...

تحلّت بالصمت لوهلة كما كان صامتًا هو الآخر يُفكر في المزيد من الكلمات التشجيعية ولا يعرف ماذا يقول، فهو قد استنزف معها كل ما يخص التشجيع ولم يعد قادرًا على إيجاد المزيد من الكلمات، حتى أن عقله أوهمه بحضور جلسات التنمية البشرية حتى يجد طريقة تُساعدها على المثابرة والاجتهاد...

قطع أفكاره صوت أقدامٍ تقترب نحوهما وتقف أمام المركز مباشرة، تبع هذه الأقدام صوت رجلٍ يبدو عليه التهذيب:

-هو ده سنتر فوق النجوم ؟؟

انتبهت سما لسؤاله فرفعت رأسها ببعض اللهفة التي جعلتها تثب من موضعها حالما وجدت أمامها رجلًا يبدو بالعقد الثالث وأمامه طفلة بريئة تبدو بالثامنة من عُمرها..

-أ.. أه ... دا سنتر فوق النجوم

قالتها ببعض التوتر لتجد الرجل يرميها بابتسامة ودودة أردف معها وهو يمد يده للمصافحة:

-إزي حضرتك ... أنا نجيب والد حلا...

كاد يُصافح سما لكن مراد اقتحم الحديث ليُصافحه بدلًا من سما بسبب شعوره بالغيرة، فمن هذا الرجل حتى يأتي ويُصافح زوجتي المستقبلية ؟

-أهلًا بحضرتك يا فندم ... أؤمرني

رماه مراد بابتسامة مغتاظة تجاهلها الرجل وهو يقول بودٍ:

-حلا بنتي شافت الإعلان بتاعكم وكانت عايزة تلعب بالية ... فكنت جاي أسأل على التفاصيل وأعرف إذا كان بنتي_

قطعت سما حديثه بحماس:

-أيوة طبعًا ينفع .... إحنا كمان عاملين خصومات مش هتشوفها في مكان تاني قبل كدة

ابتسم لها الرجل ودلف إلى الداخل ليُشاهد هذا المكان الذي ستتمرن ابنته بداخله، كما أمسكت سما يد حلا وجذبتها بحنانٍ داخل المركز حتى تُشجعها على تلك الرياضة أكثر خاصة وهي ترى جسدها الرشيق المناسب لتلك الرياضة ولهفتها بأن تُصبح من إحدى الراقصات الماهرات....

فما إن انتهى الأب من تفحص المكان حتى جذب يد صغيرته لتبتعد عن سما وتهرول نحوه بلهفة وهي تلح عليه بالإشتراك، فما إن رحلا عن المركز حتى اتسعت بسمة سما وهي تهتف بانتصارٍ من هذا النجاح الطفيف، فلا يجب أن تتذمر من نجاح بسيطٍ كهذا، فهو بمثابة الخطوة الأولى التي ستليها المزيد من النجاحات المتتالية....

يتقاطر العرق من جبينها ما إن انتهت من تدريبها لتهرع خارج الصالة الرياضية حتى تستقل الحافلة وتعود إلى منزلها كما تفعل يوميًا، ما إن خطت بضعة خطواتٍ حتى أتتها مكالمة هاتفية من رقمٍ مجهولٍ ظنت في البداية أنه مُعتصم، فهو الوحيد الذي يتصل بها ليطمئن عليها حالما تنتهي من التمرينات خاصة بعد أن عادت له ووجدته يزيد من اهتمامه بها وكأنها طفلته الصغيرة....

وضعت الهاتف على أذنها لتُجيب على ذاك المُتصل بابتسامة هادئة تبددت ما إن استمعت إلى ما يُقال من الجهة الأخرى...

-متفتكريش إنِك هتعرفي تسيطري على ابني بالسهولة دي ... عشان معتصم هيفضل تحت طوعي ... وهيرجع لبنت عمه، فأحسنلِك تمشي بكرامتِك

انتهت المكالمة بعد تلك الجُملة لتستمع بدور إلى صافرة تنعي بانتهاء المكالمة ويتداخل ضجيجها مع ضجيج عقلها ودموعها التي تكاد تُذرف، فيبدو أن والدته لن تُحبها أبدًا كما أقنعها مُعتصم....

أغلقت هاتفها وقررت تجاهل الأمر ومواصلة حياتها مع من تُحبه على أمل أن يرمم الزمن هذه التشققات ويُصلح تلك العقبات بحياتهما، فبالطبع بعد زواجها من مُعتصم سيلين قلبها وتتوقف عن التدخل بحياتهما، على الأقل من أجل ابنها الوحيد...

قطع طريقها وزحمة أفكارها ظهور سامح أمامها بسيارته التي ابتاعها مؤخرًا وآراد أن يتفاخر بها ويساعد بها الجميع، تعجبت بدور من رؤيته وبقيت ثابتة مكانها حتى إقترب نحوها بابتسامة ودودة قال معها:

-كنت عارف إنِك هتخلصي تمرين دلوقتي .. عشان كدة قولت أوصلِك بدل ما تروّحي مواصلات

آشار على سيارته كي تستقلها ولم يكن ينتبه إلى تعبيرات وجهها المُتضايقة لأنها أخفتهم بمهارة، كذلك استجابت لطلبه واستقلت معه السيارة، فهي للحق لا تريد أن تستقل الحافلة ويشتد الخِناق عليها وهي بين الرُكاب كما يحدث دائمًا...

استقلت السيارة بجواره بهدوءٍ دون أن تُبدِ أي تعبيرات، فقط تشكره بصوتٍ هاديءٍ حاولت معه إخفاء ما حدث منذ قليل، كذلك تلاشت بسمته التي كانت زائفة وحلّ محلها بعض الاستفهامات التي تجعله يُراقبها في صمت ويُراقب هذا الخاتم الذي يُزين إصبعها ويُصيبه بالغليان....

-ممكن نروح المدرسة بتاعت زيكا وسارة ؟... أصلهم قالولي ناخدهم بدري عشان سارة عندها تدريب وزيكا معندوش حصص مهمة

أومأ سامح موافقًا وطفق يقود سيارته اتجاه المدرسة حتى دلفها وأتى بعد قليلٍ بصُحبة كلٍ من زكريا وسارة....

ما إن استقل زكريا السيارة حتى التفتت بدور نحوه لتسأله عما فعله باختبار اليوم، فهي أهلكت عقلها البارحة من أجل أن تجعله مستعدًا لذاك الاختبار الذي قام به أحد الأساتذة...

-عملت إيه في الإمتحان ؟ ... حلّيت ؟

اعتدل زكريا بجلسته وهو يُجيبها إجاباته الغريبة بنبرته الباردة:

-أه حلّيت ... جِبت أيس كريم بالمانجا كان حلو أوي

كبتت بدور شُحنة غضبها لأنها تعلم تلك الحيلة التي يستخدمها زكريا حتى يجعلها تتوقف عن سؤالها عن ذاك الاختبار والذي بالتأكيد لم يستطع إجابة أي من أسئلته، بينما كان سامح يُقهقه بحرارة على إجابته المضحكة حتى هتفت بدور مشيرة على شقيقها:

-شايف الردود ؟

واصل سامح قهقهاته التي انتهت بعد فترة لتلتفت بدور نحو سارة كي تسألها باهتمام:

-وإنتِ يا سارة عملتي إيه في المدرسة ؟

ظنّت سارة أنها تتهمها بجُرمٍ ما وكأن المدرسة هي جماد وهي قد قامت بتدميره أو ارتكبت إحدى الكوارث بداخله:

-معملتش فيها حاجة والله

قالتها بدفاع عن نفسها مما جعل بدور تضرب جبهتها بخيبة أملٍ ثم تُحادث سامح بإصرار:

-إطلع بينا على البيت عشان مش هستحمل أكتر من كدة

خرج من جوفه قهقهة بسيطة مكتومة تبعها ببعض الأحاديث المازحة مع كليهما حتى توقفت سيارته أمام المنزل...

هرع زكريا من السيارة أولًا تلته سارة ليهرعوا فورًا نحو البناية وكأنهما يتسابقان على من منهما سيصل إلى الطابق أولًا...

كادت بدور تفتح باب السيارة لكن سامح منعها بقوله متوّسلًا:

-بدور ... ممكن نتكلم شوية ؟

رمقته بغرابة وتأملٍ لنظراته المُستعطفة، لكنها بالنهاية أومأت رأسها إيجابًا بسبب فضولها لمعرفة ما يُريده...

____

نسمات هادئة من الهواء تُداعب وجنتها الناعمة وتجعلها تتأمل هذه السماء التي امتزجت ألوانها وكأن فنانًا ألقى ألوانه المائية ولمسته الساحرة عليها ليجعلها بهذا الجمال...

كانت تجلس بهدوءٍ على مقعدٍ خشبي يعتلي حديقة خضراء وبعض الأرجوحات التي يُصدر من خلالها أصوات الأطفال، فهي تتذكر مجيئها بتلك الحديقة مع أقاربها ولهوها وتهليلها بمرح كلما ارتفعت الأرجوحة بها لأعلى، كم ودت لو عادت تلك الأيام وعادت معها براءتها التي كانت تتمتع بها دون أن تكترث لتلك العواقب بحياتها، ودون الاضطرار لمواجهة تلك الصِعاب التي تجعل النوم لا يُفارقها، فهي تتذكر أن أكبر مشكلة واجهتها أيام الطفولة كانت عندما تشاجرت مع رفيقتها على ممحاة برائحة الفراولة مما جعلها تقطع علاقتها مع تلك الرفيقة لفترة وجيزة إلى أن سامحتها صديقتها وأعطتها ممحاة أخرى...

أنهت ذكرياتها ببسمة هادئة تذكرت معها سذاجتها وبساطة تلك المُشكلات التي توّد لو تُقابل مثلها حتى، فما تُقابله بتلك الأيام لا يُساوي شيئًا بالنسبة لما كان يحدث معها قديمًا....

قطع شرودها صوت سامح الذي أتى من بعيدٍ ومعه صحنين من البلاستيك يحتويان على نوعٍ من الحلوة المُفضلة لدى بدور، فهو لم ينسى أبسط تفاصيلها حتى الآن...

-جبتلك كنافة بالكريمة زي ما بتحبيها بالظبط

رسمت بسمة هادئة على ثغرها وهي تلتقط منه الصحن متفوّهة ببعض الذهول:

-إنت لسة فاكر ؟

جلس جوارها ليُجيبها بصدقٍ حمل معه ما يكنيه بداخله:

-أنا منستش أي حاجة عنِك...

لم تنبس ببنت شفة بل وأبعدت انظارها عنه واتجهت بهم نحو صحنها لتأكل من تلك الحلوة قطعة صغيرة لعلها بتلك الطريقة تُخفي إحراجها من نظراته التي ذكرتها بالماضي، فلا تزال تتذكر كم كانا مُقربين ودائمًا ما يتحدثان...

مرّت بينهما بُرهة من الصمت جعلتهما يُحدقان بالأفق إلى أن أردف سامح مستذكرًا بلهفة:

-فاكرة لما كنا بنيجي هنا بعد المدرسة ؟.... وكنتِ بتركبي المرحيجة وأنا أفضل أزق فيكي لغاية ما الليل يليل

شقت البسمة ثغرها وهي تتذكر تلك الأيام البريئة وتهتف بعدها باستذكار:

-أيوة فاكرة ... وكنت بتقولي هجبلِك كنافة عشان أنزل من على المُرجيحة

قهقه قهقهة بسيطة تبعها بالمزيد من الذكريات والقهقهات بينهما على تلك الأيام التي لن تُنسى أبدًا، فما إن انتهت تلك الذكريات حتى أردف هو:

-كانت أيام حلوة أوي .... وكنا علطول مع بعض

أنهى حديثه بنظرة عابرة موجهة نحوها لكنها لاتزال تُحدق أمامها وتمحي ابتسامتها كي تُخبره بنبرة بها بعض العِتاب:

-أيوة ... بس إنت إللي سافرت

انتبه لنبرة عِتابها فواجهها بنبرة مثيلة وهو يلتقط بعينيه الخاتم الذي يُزين إصبعها:

-كُنت فاكر إني بأمن مستقبلي وإني هحقق حلمي

-وحققته ؟؟

باغتته بهذا السؤال بصورة حادة فوجدته يُجيبها ببعض الندم:

-مش أوي .... مش كل الأحلام بنعرف نحققها

لم تنبس ببنت شفة وبقيت نظراتها تُحدقان بالأسفل ولقطات من الذكريات تمر أمامها عندما اعترف لها بحُبه وكان على وشك أن يتقدم لخُطبتها لولا تلك المنحة التي أتته دون ترتيباتٍ ليُقرر بعدها السفر وتركها بهذه السهولة، كم شعرت وقتها أنه شخصًا أنانيًا ولم يكن يُحبها، هذا ما جعلها ترفض الحديث معه وتمحي ذكرياتهما سويًا للأبد حتى ظهر أمامها مرة أخرى، والحقيقة أن تلك المشاعر التي كانت فيما سبق قد أزيلت تمامًا ولم يبقى منها سوى الرُفات، فهي تُحب معتصم ولن تُحب غيره مهما حاول معها مجددًا....

اعتدل سامح بجلسته ليُقابلها كي تنصت إلى حديثه الجاد:

-بدور ... أنا عارف إن علاقتنا مش هترجع زي الأول ... خصوصًا يعني وإنتِ .... مخطوبة لواحد تاني...

صمت برهة عن الحديث ليستجمع أقواله رغم الغصة التي تعتلي صدره كلما فكر أنها لن تضحى معه بالنهاية:

-أنا كل إللي عايزه بس إننا نبقى صُحاب .... مجرد صُحاب، نرجع نتكلم زي زمان ... أو حتى نرجع ولاد عم ... بس على الأقل مش عايز أشوف النظرة دي في عنيكي كل ما تشوفيني

كان يقصد تلك النظرة الجافة التي ترميه بها كلما رآته بالمنزل أو كلما لمحت طيفه في أي مكان، فعلى الرغم من أنهما آقارب، إلى أنها تُعامله كالغريب، وهذا فقط بسبب ما حدث بالماضي....

بعد بُرهة من الصمت والتفكير وجدها تردف بتقريرٍ وصوتٍ خافت:

-ماشي ... إحنا في الأول وفي الآخر ولاد عم يعني

اتسعت بسمته مع آخر كلماتها وبعد أن اطمأن أنها ستسمح له فيما بعد بالحديث معها، هو لا يُريد امتلاك قلبها، هو فقط يريد صديقته أيام الطفولة لعله بتلك الطريقة يُكفر عن الخطأ الذي ارتكبه وجعله يغترب عن عائلته وآقاربه...

بعد بُرهة من الصمت وبعد أن تناولا هذه الحلوة، وثب سامح من مقعده ليُخبرها بطريقة مرحة حملت معها التقرير:

-طب يلا نروّح بقى عشان زوزو مستنيانا على الغدا

استجابت لحديثه ووثبت عن الأريكة الخشبية لتستقل السيارة بجواره وتبقى في حالة من الصمت طوال الطريق إلى أن توقفت السيارة أمام البناية لتترجل منها وتسير برفقة سامح الذي طفق يُلقى عليها بعض الدُعابات والذكريات المرحة قبل أن يدلفا البناية، فكانا يضحكان بحرارة مع تلك الذكريات لدرجة تجعل من يراهما من بعيد يظن أنهما عاشقان من النوع المرح...

ومن كان يراهما في تلك اللحظة هو مُعتصم، فهو قد جاء لزيارتها والاطمئنان عليها ككل مرة، لكنه ما إن رآها مع هذا الذي لا يعرف صلته بها، حتى ألقى نحوهما نظراتٍ نارية جعلته يقسم على تلقين هذا الذي يتقرب من حبيبته درسًا ليس هينًا أبدًا ....

الفصل العاشر (قسوة الإمتلاك)

"إذا كنت عاجزًا عن رؤية شُعاع الأمل، فتذكر دائمًا أنه يكمن بداخلك، ولا يُمكنك رؤيته إلا بالعزيمة والمثابرة"

____

شرارات من اللهب تنبعث من عينيه وهو يرمق هذا المشهد أمامه، فمن هذا الذي تُقهقه معه ؟ من هذا الذي استقلت سيارته ؟ ... كل تلك الأسئلة كانت تدور حوٌل ذهنه ولم يأتي بباله أبدًا أن هناك صلة قرابة بينهما، فالغيرة أعمت بصيرته وجعلته يهرع نحوهما بخطواتٍ سريعة غاضبة أدت إلى انقضاضه على سامح ليمسكه من تلابيبه ويهزه بعُنفٍ أعرب عن غضبه الجحيمي...

-إنت بتعمل إيه معاها يلا ؟...

كان وجهه أحمرًا من كثرة الغضب مما جعل بدور تُطلق شهقة مفزوعة من مظهره وتحاول إبعاده عن سامح والتبرير له....

-معتصم استنى إنت فاهم غلط

حاولت الإقتراب منه لكن غضبه كان يقود تحركاته ويجعله يدفعها بعيدًا عنه ويهتف بوجهها:

-إبعدي من قدامي ...

انقشعت أوزار الهدوء لدى سامح في تلك اللحظة خاصة بعد أن رآه يدفع بدور ويهتف بوجهها...

-إنت إزاي تمد إيدك عليها يا حيوان!!

قالها سامح وهو يدفع معتصم بعيدًا عنه ثم يلكمه لكمة قوية جعلت كدمة بنفسجية تتكون أسفل عين مُعتصم، لكن تلك الكدمة جعلت غضبه يتفاقم ونيرانه تشتعل أكثر، فما هي إلا بُرهة قليلة وانقض على سامح ليلكمه لكمة أخرى ثم يمسكه من تلابيبه ويكاد يُسدد له المزيد من اللكمات أمام صراخ بدور ومحاولاتها المستميتة لفض هذا الجدال....

تجمع العديد من الأشخاص حولهم ونجحوا أخيرًا بانتزاع سامح عن مُعتصم بعد أن أضحى وجهه مليئًا بالكدمات، كاد يجذب يد بدور لكنها أردفت بإصرارٍ غطا حنقها مما فعله مُعتصم:

-استنى يا سامح هتكلم مع معتصم شوية

أطبق سامح على شفتيه بغضبٍ من تصرفاتها وغِلٍ من هذا الذي يقف أمامه، لكنه بالنهاية تركها وشأنها راميًا إياها بنظراتٍ غاضبة أشارت لها بأنه سيُراقب ما تفعله مع ذاك الأرعن...

ما إن تأكدت بدور من رحيله حتى وجهت نظراتها الحانقة اتجاه مُعتصم وأخبرته بحدة:

-إنت إيه إللي عملته ده ؟ ... ده سامح ابن عمي

حدق بمُنتصف عينيها وهو يهتف بنبرة مرتفعة:

-وهو ابن عمِك ليه الحق إنه يركبك معاه العربية ويمشي معاكي بالمنظر ده ؟

أحست بالغيرة والإمتلاك بحديثه، فهو لا يُريدها أن تتحدث مع رجلٍ آخر سواه وهذا ما أصابها بالغضب، فلما لا يثق بأنها لن تُحب غيره رغم ما حدث ؟

-أيوة يا مُعتصم ... أنا وسامح متربيين مع بعض وأعرفه قبل ما أعرفك ... وأنا مش هقطع علاقتي بيه عشان خاطر أوهام في دماغك

زادت كلماتها من غضبه فطفق يهتف بوجهها:

-أوهام !! غيرتي عليكي بقيت أوهام!!

-أيوة أوهام ... أنا مفيش بيني وبين سامح حاجة عشان تعمل كل ده

كاد يتجادل معها مجددًا لكنه قررإنهاء الأمر من جذوره بقرارٍ صارم:

-من الآخر يا بدور .... لو عايزاني في حياتك ... يبقى تنهي علاقتِك مع الراجل ده

كادت تنفجر في تلك اللحظة من كثرة الغضب خاصة وهي تراه يرحل من أمامها بعد أن أدلى هذا القرار الصارم والذي لم يكن عادلًا، فهي تعلم كم أنه يغار عليها ولا يُريدها أن تبقى لأحدٍ سواه، ربما لهذا السبب يرفض تركها مهما كان خطأه شنيعًا...

هذه المرة لم تتحمل قراره ووجدت نفسها تهتف بنفس نبرته المُهددة:

-يبقى إنت كمان تنهي علاقتك مع مامتك لو لسة عايزنا نكمل

ما إن أدلت تلك الجملة حتى لاحت عوالم الصدمة على وجهه، فكيف تُخبره أن يتخلّى عن والدته ؟ هي بالأصل لم تُرد قول هذا وتعلم أنها ستندم فيما بعد، لكن الغضب هو ما يُحرك كليهما في تلك اللحظة...

-إنتِ بتقولي إيه ؟؟ .... عايزاني أقطع علاقتي بأمي!!

-ما إنت عايزني أقطع علاقتي بابن عمي

تحدثته بتلك الكلمات فوجدته يُبرر بحدة:

-دي حاجة ودي حاجة_

قطعته بصوتٍ مُرتفع:

-لأ نفس الحاجة .... مامتك عُمرها ما هتسيبنا في حالنا، يعني لو إحنا معرفناش نكمل مع بعض هيكون بسببها مش بسبب سامح

أدلت تلك الجُملة ثم هرولت من أمامه لتتجه إلى البناية وتوّليه ظهرها عندما كان يقول آخر جملة قبل أن ينفض هذا الجدال:

-ماشي يا بدور ... هنشوف مين فينا إللي كلامه هيمشي في الآخر...

تجاهلت تلك الكلمات رغم الغصة التي اعتلت صدرها بتلك اللحظة، فهذه أول مرة يصل بهم الجدال إلى هذا الحد، أول مرة تجد نفسها أنانية لدرجة تجعلها تُرغمه على التخلّي عن والدته حتى ولو كانت امرآة على هيئة حرباءة....

كم لعنت نفسها على ما قالته للتو، لكنه هو من أوصلها إلى تلك الدرجة، هو من رفض أن يستمع لها وأصرّ على أنها على علاقة مع ابن عمها، حاولت تنفيض تلك الأفكار عن ذهنها كي تصعد الدرج وتصل إلى منزل جدتها، فهي متأكدة أنها ستخوض معركة أخرى وهذه المرة مع سامح....

ما إن وطأت قدماه المنزل حتى كادت نيرانه تُشعل الأثاث وكل مكان، حاول تجنب النظر لجدته حتى لا ترى جروح وجهه وتسأله عما حدث، وبالطبع لم يستطع الهرب من أمامها لكنه استطاع أن يخفي غضبه المضمور وأخبرها أنها مجرد مشاجرة بسيطة وقد انتهت تمامًا....

جلس بعدها بحُجرة المعيشة يحني جذعه لأسفل وتارة يُلقي نظرة من النافذة عما تقوله بدور لذاك الحقير من وجهة نظره، هل هذا الذي اختارت أن تواصل حياتها معه ؟ ... ربما هو يتمتع ببعض الوسامة ناهيك عن جسده الرياضي المليء بالعضلات، لكن هذا لا يمنع كونه وغدًا...

قطع وصلة أفكاره مجيء بدور من الخارج واتجاهها مباشرة إلى حُجرة المعيشة لعلها تُبرر له ما حدث وتنتهي من هذا الأمر للأبد، فكانت نبرتها متوّسلة وهي تقول:

-سامح والله الموضوع مش زي ما إنت فاهم .... هو بس كان_

قطع سامح حديثها بحزمٍ وهو يثب من موضعه ويرميها بنظراتٍ بها بعض الغضب رغم النبرة العادية التي يتحدث بها:

-إنتِ إزاي تسمحي للحيوان ده يزعقلِك كدة قُدام الناس ؟

حاولت التبرير له رغم أنها أيضًا غاضبة مما فعله معتصم:

-والله مش بيزعقلي، دي أول مرة ... هو كان فاهم غلط مش أكتر

إرتفعت نبرته قليلًا في تلك اللحظة وهو يقول:

-إنتِ مشوفتيش كان عامل إزاي ؟؟ ... أنا عارف الأشكال دي كويس ... الراجل ده عايز يسيطر عليكي، عايزِك تبقى بتاعته وبس....

لم تنبس ببنت شفة وبقيت تُحدق بالأرض شاردة بحديثه الصادق، فهي تعلم أن مُعتصم يُبالغ بحمايتها وتدليلها فقط كي تبقى جواره رغم أن الظروف التي تحاوطهما لا تسمح بذلك، فدائمًا ما كان يأتي الخطأ من ناحيته ودائمًا ما تُسامحه هي بسذاجة لأنه يُدللها ويُخبرها أنه لا يستطيع العيش بدونها ... وهو في حقيقة الأمر لا يُريدها أن تضحى مع شخصٍ سواه....

-صدقيني ... مش هتقدري تكملي حياتِك مع واحد زي ده

قالها سامح بنبرة أهدأ وهو يقترب خطوة واحدة نحو بدور ليجعلها ترمق نظراته التي من خلالها أبرز كم أنه يهتم لأجلها ولسعادتها...

رفعت نظرها نحوه في تلك اللحظة وهي تُخبره بصوتٍ خافتٍ:

-بس أنا بحبه ... ومش فارق معايا هو إزاي ؟؟

رغم أن نبرتها كانت خافتة إلا أنها أشعلت نيران الغيرة بداخله، فكم شعر بالخُذلان والغضب بتلك اللحظة، وكم شعر أنه يُريد أن يلكمها كي يُعيدها إلى صوابها، فهو لا يعلم طبيعة العلاقة بينهما ولا يُريد أن يعلمها حتى لا تزداد غيرته، فهو لا يزال يُحبها رغم مرور تلك السنوات، وهي كذلك تعلم أنه لايزال يُحبها، لكن قلبها الآن مع شخصٍ آخر، ولا تعلم متى سيُعيده ذاك الشخص حتى تبقى جواره....

إنتهى هذا الجدال وهو يهرع من الحُجرة بل ومن المنزل بأكمله، فقد سئِم من الجِدال معها، وعلِم أنه لن يستطيع إرشادها، إكتفى بمصافحة جدته والإعتذار منها على عدم مقدرته بتناول الغداء معهم، فهو لن يستطيع البقاء معها ورؤيتها بعد ما حدث، فقط يُريد البقاء وحده لعله يستطيع استجماع هدوءه وثباته مُجددًا...

ما إن ترك المنزل حتى أخرج هاتفه وأجرى مكالمة هاتفية قال بها:

-أيوة يا فضل ... معلش هتعبِك، بس ممكن تروح تجيب سما من السنتر وتجيبها عند بيت تيتا ... لأ خطيبها عنده شُغل وهي مش عايزة تزعجه ... تمام شُكرًا...

____

تجلس يقين أمام طاولة خشبية تتصفح هاتفها كي تُجب على تعليقات الزبائن والذين يستفسرون عن هذا المركز، فهي الآن مسئولة عن ما يخص المتدربين والشئون المالية وكذلك تتوّلى شِقًا من الدعاية والرد على الاستفسارات، أي أن لها دورًا مهمًا بهذا المكان لا يقل أهمية عن سما التي تتوّلى تدريب الفتيات...

كانت منهمكة بتصفُح هاتفها حتى قطعها صوت قريب منها:

-هي الأنسة سما خلصت ؟

آجابته يقين وهي لا تزال تُحدق بهاتفها:

-لأ لسة ... حضرتك عايزها في حاجة ؟

كان فضل صديق سامح هو من يقف أمامها ينتظر سما حتى يأخذها كما طلب منه صديقه، فهو يعتبر سما مثل شقيقته بالضبط، كما أن سامح أنبأ شقيقته بمجيئه...

-أه ... عايزها تيجي عشان أروّحها

أحست يقين ببعض القلق من نبرته خاصة وهي لا تثق بأغلب الرجال لذلك هتفت بوجهه بحدة:

-وحضرتك مين بقى عشان تروّحها ؟

سئِم فضل من أسئلتها التي لا يجد لها أي داع، لذلك حاول إنهاء تلك الأسئلة بنبرة خرجت منه بطريقة فظة:

-ممكن حضرتك تندهيلها من غير أسئلة ؟

رمقته يقين بنظرة مقتضبة وثبت معها من مقعدها لتضحى قبالته وترد على حديثه:

-لأ مش ممكن ... ومش هندهلها أنا مش شغالة عندك .... وأنا هقول لسما أساسًا متروّحش مع واحد زيَك

كاد يرد عليها إلى أن قطعتهما سما وهي تترك حُجرة التمرينات ويتبعها حفنة من الفتيات ممن بدأن معها التمرينات، فكان عددهن خمسة فتياتٍ فقط، لكنها متأكدة بأن عددهن سيزداد مع مرور الأيام...

-إيه الصوت العالي ده ؟

إقتربت نحوهما بضعة خطواتٍ لتوجه بعدها الحديث نحو فضل بوٌدٍ:

-إزيَك يا فضل

آجابها فضل بطريقة ودودة لأنه يعرفها منذ فترة طويلة، فدائمًا ما كان يأتي لزيارة سامح حينما كان معه بالجامعة، أما عن يقين فكادت تفيض من الغيظ وهي تُشير عليه وتقول:

-هو إنتِ هتروُحي مع الكائن ده ؟

كانت نبرتها مستحقرة جعلت فضل يزداد غضبًا ويرد على إهانتها:

-مين ده إللي كائن يا بت إنتِ_

ولثاني مرة تقطع سما جدالهما بنبرة مقررة:

-خلاص يا جماعة ... يلا يا فضل عشان تيتا متقلقش

وجهت بعدها الحديث نحو يقين كي تُخبرها أن تُغلق المركز جيدًا ما إن تنتهي من عملها، فما إن ابتعدت سما عنها حتى سأل فضل بتهكم:

-مين الولية دي ؟؟

آجابته بابتسامة ساخرة من هذا الشجار السخيف الذي نشب بينهما:

-دي يقين...

هكذا آجابته باختصارٍ لتتحرك بعدها نحو سيارته وتستقل المقعد الخلفي كما تفعل دائمًا ... لا يبتعد المركز كثيرًا عن منزل جدتها، لهذا السبب لم تأخذ مدة الطريق سوى بضعة دقائق لم يتوقف فيهم فضل عن التفكير بتلك الفتاة الغريبة والتي يبدو عليها الصلابة....

____

انتهى المُعلم من إلقاء محاضرته أمام الطلاب بعد أن أخبرهم بذاك الإختبار بالغ الأهمية والذي يجب أن يتفوق به الجميع حتى يتخطى هذا العام، فالطلاب يعلمون أن من يتخطى ذاك الإختبار أما يتخطاه بالغِش أم بالخداع، ومن يُفكر بالإجتهاد والاعتماد على ما يبذله من مجهود ينصدم أمام علامته المنحدرة لأنه فقط لم يكسب صداقة المُعلم ولم يتمتع بنفوذٍ طاغية...

هكذا كان الحال بتلك الجامعة وهكذا يُعاني الطُلاب بسبب هذا الظُلم الطاغِ...

ما إن رحل جميع الطُلاب تقدمت هي بدلالٍ نحو المُعلم الذي وقف مشدوهٌ أمام جمالها وجاذبيتها، فهي تتغنج في مشيتها وابتسامتها الساحرة إلى أن وقفت قبالة المُعلم مباشرة لتضع يدها على كتفه بدلالٍ جعل المُعلم يتصبب عرقًا ويشعر بضربات قلبه تزداد رويدًا..

-إيه يا دكتور ... هو أنا موحشتكش ؟؟

أنهت حديثها بنظرة بريئة مُصطنعة جعلت شهوته ترتفع خاصة من قُربها المُهلك، رماها بابتسامة متغزلة أردف معها:

-وحشتيني طبعًا، بس مش هينفع هنا

وضعت يدها الأخرى على كتفه الآخر وبقيت تُحدق بمُنتصف عينيه وهي تقول:

-وانا معنديش مانع في أي مكان ... بس الأول تشوفلي موضوع الإمتحان ... يعني يرضيك أسقط وأعيد السنة ؟

كان حديثها يبدو طفوليًا بريئًا على الرغم من الاستغلال الذي يحتويه والذي يجعل المُعلم يهتف بنبرة مستميلة وكأن سمها بدأ يتغلغل بعقله:

-لأ طبعًا ميرضنيش ... أنا هخليكي تنجحي زي كل مرة ... بس...

داعب وجنتها بنشوة كاد يقترب معها أكثر مع كلماته:

-تيجي معايا المكتب ... إيه رأيك ؟

أبعدت يده عنها لتردف بإصرار:

-نجحني في الإمتحان الأول ... ونبقى نشوف موضوع المكتب ده بعدين

إبتعدت عنه لتترك القاعة بأكملها تحت نظراته وابتسامته المتغزلة، ما إن تركت القاعة حتى قابلت صديقتها التي سألتها فورًا:

-عملتي إيه مع الدكتور ؟ ... حاولتي تخليه ينجحنا ؟

أومأت يارا التي كانت مع المُعلم تحاول استمالته بتلك التصرفات الحقيرة، فهي حتى وإن كانت تقترب منه بطريقة مشمئزة إلى أنها لا تسمح له بانتهاك عِرضها رغمًا عنها، هي فقط تُهمه أنها تُحبه، لكنها ما إن تصل إلى مرادها حتى تنسى وعودها وتلقاه كالغريب، ثم تعاود التدلل والخداع مجددًا حتى يُنفذ قراره ويجعلها تحصل على أعلى العلامات دون أن تبذل مجهودًا، وهي كذلك لا تُخبر تيمور بما تفعله، فقط أصدقاءها من أخبرتهن بمعلوماتٍ سطحية أوهمتهن أنها صديقته فقط ليس إلا...

-أه ... وهو قالّي هيعمل إللي أنا عايزاه ... فاكرني أي حد ولا إيه ؟

قالتها بفخرٍ رغم أنها لم تُحادث المُعلم عن أصدقاءها، فقط حادثته عن نفسها لرغبتها بالتفوّق عليهن....

بعد بُرهة من الصمت سألتها رنا بفضول:

-طب هتعملي إيه في حوار قريبتِك ده ؟... إنتِ قولتلنا نساعدِك...

توقفت يارا عن السير لتلتف لهن وتُخبرهن بمُكرٍ:

-أنا فعلًا عايزاكم تساعدوني....

____

فتحت باب الحُجرة بجسدٍ مُنهك يكاد يفقد توازنه من شدة الإرهاق، فهذا أول يومٍ في تمريناتها وكان مُرهقًا بطريقة لم تكن بالحُسبان، فتلقين الفتيات والحرص على تمكينهن من مهاراتٍ محددة هو أمرٌ غاية في الإجهاد، خاصة عندما تكون هذه مرتها الأولى...

وعلى الرغم من إنهاكها كانت تشعر بفراشات من السعادة تدحض حصون قلبها وتُبدد هذا الإرهاق، بل وتجعلها أيضًا تُفكر في مُستقبلٍ مُشرقٍ مليءٍ بالإنجازات...

إرتمت على الفراش بجوار بدور التي كانت تجلس في شرودٍ تُفكر فيما حدث معها وتلك التقلبات التي تعصف بذهنها، كانت تتحدث سما بحماس عما حدث معها اليوم وتقول:

-البنات كانت مبسوطة أوي، كانو عايزين ينزلو عروض من أول مرة ... مشوفتيش كانو_

بترت حديثها ما إن لاحظت عوالم الضيق المُرتسمة على وجه بدور؛ تلاشى حماسها وهي تُحدق بها وتسأل:

-مالِك يا بدور ؟؟

تنهدت بدور تنهيدة عميقة وهي تنكس رأسها لأسفل بدموع مكبوحة بداخلها، فكان صوتها يخرج بين ضيقها بصورة خافتة:

-معتصم شاف سامح معايا ... وافتكرني بخونه...

اختصرت ما حدث بتلك الكلمات البسيطة التي جعلت سما تعتدل بجلستها وتتربع على قدميها كي تنصت إلى ما حدث بالتفصيل والصدمة تنجلي على وجهها:

-إيه !! .... وهو إزاي يفتكر كدة .. معندهوش ثقة فيكي!!

نفت بدور برأسها وهي تُجيبها بحسرة على حالها:

-لأ عنده ... بس أنا قولتله إني كُنت بحب سامح زمان وإننا كُنا هنتخطب ... عشان كدة لما شافه تاني إفتكر إن...

لم تستطع مواصلة الحديث لأنها شعرت وكأنها ستنفجر في تلك اللحظة من كثرة أفكارها المتضاربة، لاحظت سما تقلباتها فضمتها نحوها لعلها تجعلها تفصح عمَ بداخلها:

-إفتكر إنِك ممكن ترجعيله ؟

قالتها باستنتاجٍ فأومأت بدور رأسها ولم تنبس ببنت شفة، تحدثت سما بعدها بعِتاب:

-وإنتِ إزاي تقوليله إنِك كُنتِ على علاقة مع إبن عمِك ؟

دافعت بدور عن نفسها بتبرير:

-ما أنا مكنتش أعرف إنه هيرجع تاني ... كنت فاكرة إنه صفحة واتقفلت ومكنتش عايزة أكدب على مُعتصم .... بس هو لما شافنا مع بعض حَس إني ممكن أرجع أحبه تاني

كان حديثها يخرج بصورة مُبعثرة أعربت عن هذا الضجيج الذي يتفاقم داخلها، وعن كثرة هذا الضجيج الذي يكاد عقلها ينفجر إثره، ألقت رأسها على رُكبة سما التي بدأت تُمسد على خُصلات شعرها بحنانٍ لعلها تُهديء من نيرانها...

-وهو إنتِ لسة بتحبي سامح ؟؟

باغتتها سما بهذا السؤال لتتفاجأ بصمت بدور وتحديقها بالسقف وكأنها لا تعلم الإجابة، فهي بالفعل لا تعلمها ولا تعلم لما قلبها يفرض عليها هذه التخبطات...

-مش عارفة ... بس لما اتكلمنا مع بعض إنهاردة .. حسيت بإحساس غريب ... حسيت إني برجع لأيام زمان ... أيام ما كانت أبسط مشاكلنا إننا مش لاقيين بومب نفرقعه في العيد

أدلت تلك الكلمات بتيهٍ انقلب في النهاية إلى نبرة مشتاقة لتلك الأيام البريئة، اعتدلت بعدها بجلستها ليضحى ظهرها مُستندًا على مِسند الفراش وعينيها تزيغان في الفراغ:

-بس أنا بردو بحب مُعتصم ... بس حاسة إننا مش هنعرف نكمل ... أنا مش هقدر أخليه يعصي أمه، ومش هقدر أبعد عن سامح عشان خاطره .... أنا مش عارفة أعمل إيه ؟

أنهت حديثها بيأس كادت تذرف معه الدموع، حيث آعادت رأسها للوراء كي تُحدق بالسقف وتُطلق تلك الكلمات التي خرجت منها بصورة حكيمة:

-هو ليه مفيش طريقة نقدر نفهم بيها قلبنا ؟

ردت عليها سما بنفس ذات الحِكمة:

-لأ إحنا محتاجين طريقة نفهم بيها الحياة ... عشان كل ما نفتكر إننا فاهمنها ... بنطلع مش فاهمين حاجة في الآخر

أيدتها بدور الحديث من كثرة تلك الصدمات التي تتلقاها من الحياة، فكلما رآت أن حياتها مثالية تجد صفعة تجعلها ترتد للوراء عدة خطوات إلى أن تبتعد عن الحياة الوردية التي تتمناها ... وهي حتى الآن لا تفهم السبب وراء ذلك ...

بعد بُرهة قصيرة من الصمت ركزت سما أنظارها على بدور كي تجعلها تنتبه لنصيحتها التي كانت:

-بدور مينفعش تمشي ورا قلِبك بس ... لازم تستخدمي عقلِك كمان .... ولو مُعتصم مينفعش تكملي معاه ... يبقى متكمليش، حتى لو لسة بتحبيه ... عشان الحب ده مش هينفع بعدين

كانت تستمع لها بإمعانٍ حتى دق جرس المنزل ليقطعهما عن هذا الحديث العميق...

وثبت بدور عن الفِراش كي تفتح لهذا الزائر الذي أتى في وقتٍ متأخرٍ على غير العادة، فلا يأتي أي أحدٍ في هذا الوقت، وكلما أتى شخصٌ كان مجيئه هو مفاجأة ربما سعيدة وربما صادمة...

نفضت تلك الأفكار عن رأسها وهي تتجه صوب الباب لتفتحه وتتسمر مكانها ما إن رأت مُعتصم أمامها...

-أنا ... جيت أعتذرلِك عن إللي حصل ... مكنش قصدي اتخانق معاه .. أنا بس_

أوقفت حديثه بنبرة صارمة حملت بعض الغضب مما فعله بالصباح:

-جاي ليه يا مُعتصم ؟ .... جاي عشان تتأكد إن أنا لسة معاك ؟

تعجب من لكنتها الجامدة وطريقة حديثها التي يبدو وكأنها تستميله إلى شيءٍ ما، حافظ على هدوءه وهو يتقدم نحوها متفوّهًا:

-لأ يا حبيبتي ... أنا متأكد إنِك عُمرِك ما هتبعدي ... وكمان عشان نحدد كتب الكتاب

-ومين قالك إن أنا موافقة ؟

باغتته بهذا السؤال المفاجيء وداخلها يتآكل من الندم، فما بداخلها يبكي ويُخبرها أن تتمسك به ولا تتركه أبدًا، لكنها أقسمت على ألا تنصت لذاك الصوت مجددًا، فيكفي ما حدث بالأيام السابقة، فوالدته لا تزال تترصد لهما، وربما ستُرغمه على الزواج مجددًا وتجعله يكرهها للأبد، كذلك هي لن تقطع علاقتها مع ابن عمها من أجل شخصٍ يُريدها فقط جواره...

-يعني إيه الكلام ده ؟

سألها بتيهٍ وداخله يشعر بالقلق يلتهم أحراشه، خاصة وهو يستمع إلى تبريرها الحاد الأشبه بالخناجر:

-يعني إللي سمعته .... أنا مش موافقة إننا نتجوز .... ومش عايزة أكمل

أنهت حديثها وهي تخلع خاتمها وتُعطيه له كي يرحل عن وجهها، لكن ما حدث أنه بقي صامدًا وعيناه قد تحولتا إلى جمرتين من النار، آبى أن ينتشل منها الخاتم وطفق يهتف بصورة مُحتدة:

-وإنتِ فاكرة إن الموضوع هيخلص بالسهولة دي ؟ .... فاكرة إنِك هتسبيني بعد كل إللي عملته عشانِك ؟

أنهى الحديث بصوتٍ مُرتفع جعلها ترتعد من الخوف، ومع ذلك حافظت على ثباتها وهي تُبرر بنُبرة تكاد تُعادل نبرته:

-معتصم إنت معملتش حاجة ... أنا إللي كل مرة بعمل، أنا إللي كل مرة بستحمل إللي مامتك_

قطع حديثها وقد تهدمت حصونه في تلك اللحظة، فكانت نبرته مرتفعة وهو يهتف:

-تاني هتقوليلي مامتك !! ... أنا مالي ومال مامتي ؟ ... إنتِ هتيعشي معايا أنا مش هتعيشي معاها هي، ولو على خطوبتي من بنت عمي فأنا قولتلِك إني فركشتها ... وقولتلِك مليون مرة إني ندمان_

-وأنا إيه إللي هيعرفني إنك مش هتعملها تاني....

صرخت بتلك الكلمات التي قطعت حديثه وجعلت دموعها تنهمر، فهي لم تعد قادرة على كبحهم أكثر من هذا، واصلت بعدها الحديث ودموعها تهبط على جبهتها:

-أنا مبقتش واثقة في إللي ممكن تعمله ... مبقتش واثقة فيك زي الأول ... معتصم عشان خاطري كفاية ... إحنا مش مكتوبين لبعض ... وأنا مش هقدر أخليك تعصي مامتك .... لو سمحت إبعد عني

أنهت حديثها برجاء رغم السكاكين التي تنحر أوصالها، أما عنه فبقي ثابتًا يقبض على خاتمها الذي أمسكته إياه رغمًا عنه عازمة على إنهاء الأمر وعدم التراجع عن هذا القرار مجددًا، فعلاقتهما أضحت بالأونة الأخيرة مُجهدة، تزداد صراعاتها حتى أضحت أكثر من الأيام السعيدة، هي لن تستطيع التحمل أكثر من هذا ... لذلك أخذت قرارًا حاسمًا بإنهاء الأمر ... إلى الأبد...

رماها بنظراتٍ نارية أنهى معها الحديث بنبرة صارمة:

-إنتِ حُرة يا بدور ... عايزة تسبيني .. إنتِ حُرة...

تقدم نحوها خطوة ليُحدق بمُنتصف عينيها لتتحوّل نبرته الصارمة إلى أخرى مُهددة:

-بس أنا مش هسيبِك ... ومش هخلي حد يقرب منِك غيري...

الفصل الحادي عشر (صرخة مدوية)

"لا يتلخص النجاح في كونك تسير على طريقٍ وعرٍ يمتليء بالتشققات ... إنما يتلخص في كونك تسير على ذاك الطريق رغم الجروح التى تتكالب على جسدِك"

أشرقت شمس يومٍ جديد وكانت أشعة الشمس خافتة يُغطيها السُحب الكثيفة والنسمات العليلة، ففصل الشتاء يدق أبواب السماء ليجلب معه البرودة والأجواء الدافئة الهادئة ...

كانت تجلس بدور أمام الطاولة تُقطع الخضروات لعلها تُساعد جدتها بإعداد الطعام، كان المنزل خالٍ إلا من جدتها النائمة وشقيقها وسارة ذهبا للمدرسة، كما ذهبت يارا إلى الجامعة وسما إلى مركزها الرياضي...

بقيت هي وحدها تُحاول إشغال عقلها بتقطيع تلك الخضروات على أمل أن تتركها تلك الأفكار اللعينة والذكريات الأليمة، لا تُصدق حتى الآن أنها تركت نصفها الآخر، فلطالما آرادت أن تضحى حياتها كما القصص التي تقرأها، تحيا قصة غرامية أسطورية تنتهي بالزفاف والسعادة ... لكن يبدو أن تلك السعادة ليس لها وجود على أرض الواقع، يبدو أن واقعها يكتب عليها الفُراق دائمًا....

قطع شرودها جرس الباب الذي جعلها تترك ما تفعله وتتحرك صوٌب الباب لتفتحه...

ما إن وجدت سامح أمامها حتى تركت الباب مفتوحًا وعادت بلامبالاة إلى ما كانت تفعله وكأنه لم يأتِ من الأساس...

جلست مجدداً تُقطع الخضروات حتى إقترب نحوها وجلس على المقعد الذي يترأس تلك الطاولة التي تجلس أمامها، كان يُريد الإعتذار منها عما بدر منه البارحة، فما كادت علاقتهما تتحسن وتعود كما سبق حتى أتى هذا الوغد ليُدمر كل شيءٍ في أقل من لحظة...

-أنا عايز أعتذرلِك عن إللي حصل إمبارح ... أنا فعلًا_

قطعت بدور حديثه بنفاد صبرٍ من تلك المشكلة البسيطة والتي تضخمت أكثر من اللازم:

-خلاص الموضوع خِلص ... ومش عايزة أفتحه تاني

قالتها بصرامة جعلته يتوقف عن الحديث لبُرهة أبعد فيها أنظاره عنها ببعض الارتباك والتردد، فهو يُريد أن يسألها عما فُعله مُعتصم ولكن في نفس الوقت لا يُريد أن يتدخل في علاقتهما، فقد وعدها مُسبقًا أن يتركها وشأنها لتواصل حياتها مع من تُحب...

أخذ يتلعثم ويرتبك لبعض الوقت حتى أردف في النهاية مُغيرًا مجرى الحديث:

-طب ... إنتِ كويسة ؟؟

أدركت بدور أنه يُريد سؤالها عن مُعتصم لذلك اختصرت عليه تردداته وهي تضع حبة الجزر على اللوح الخشبي ثم تلتفت بأنظارها نحوه كي تُخبره بثباتٍ رغم الحروق التي تُفتك بصدرها:

-أنا سيبت مُعتصم

أدلت تلك الجُملة بسُرعة ثم عاودت تقطيع الخضروات أمام نظراته المصدومة وقلبه الذي تراقص فجأة من السعادة، لكنه بالطبع حاول إخفاءها قدر الإمكان والتظاهر بالقلق حينما سألها:

-بجد !! ... ليه ؟ إيه إللي حصل ؟؟

آجابته دون أن تنظر لوجهه حتى لا يسترفد دموعها المكبوتة:

-اكتشفت إنه شبه مامته ... عايز يسيطر على كل حاجة، وعايزني ملكه وبس ... زي ما قولتلي

أنهت حديثها بحسرة على نفسها وعلى عدم قُدرتها على معرفة تلك الحقيقة قبل أن يتعلق قلبها به، فرغم أن مُعتصم يُريد أن يتملكها إلى أنه كان يُعاملها أفضل معاملة وكأنها أميرته التي تتبختر داخل عرش قلبه، ولولا وجود والدته وإرغامه على الإنصات لقرارتها لما قطعت علاقتها معه، بل ربما كانت ستتزوج منه وتنجب أطفالًا...

لاحظ سامح ضيقها فحاول مواساتها بقوله:

-طب إيه رأيك تيجي معايا نشتري طلبات البيت ... بدل ما تفضلي قاعدة هنا

كان فقط يُريدها أن تخرج من قوقعة حُزنها وتأتي معه بحُجة أمرٍ طارئٍ لا يحتمل الانتظار، ففي جميع الأحوال كان سيتسوق ويبتاع ما يحتاجه هذا البيت من مقتنيات، فما الداعي من أن تُشاركه هذا الأمر وربما يبتاع لها الحلوة ويتجوّل معها قليلًا...

-لا ... أنا مش قادرة أنزل من البيت

قالتها برفضٍ تامٍ لكنه أصرٌ على قراره بمرح:

-أنا مش باخد رأيك .. إنتِ هاتيجي معايا بالعافية، زوزو هتعوز حاجات كتير وأنا مش هعرف أشيلهم لوحدي

رفعت حاجبيها له بعدم تصديق من حديثه الذي خرج منه بصورة مازحة جعلتها تترك ضيقها لوهلة كي تُخبره:

-وده بقى نسميه استغلال ؟

أومأ رأسه إيجابًا وهو يقول مؤكدًا:

-أه استغلال .. هكدب عليكي ليه ... يلا بس قومي البسي وأنا هستناكي تحت... وابقي قولي لزوزو إننا نازلين

تنهدت بنفاد صبرٍ من إصراره عليها وقررت أن تأتي معه لعلها تتغافل عن تلك الصعوبات بحياتها...

أمسكت صحن الخضروات التي قطعتها لتتجه به نحو المطبخ ثم تهرع بعدها لتُبدل ثيابها بالحُجرة بينما استأذن سامح لينتظرها أمام سيارته حالما تنتهي وتشاركه التسوق مُتمنيًا أن تُشاركه حياته فيما بعد....

مرّت العديد من الأيام وقد امتدت إلى شهرٍ ونصف، فها هي سما تقف داخل مركزها الذي امتلاء بالفتيات بالأونة الأخيرة وأصبح العمل شاقًا لدرجة قد تجعلها تستسلم في بعض الأوقات، لكنها دائمًا ما تُذكر نفسها أن هذا هو حُلمها ولن تتخلّى عنه مهما كانت صعوبته، لا تزال تُريد أن تصعد سُلم المجد بفرقتها وتتمنى لو تُشارك بإحدى هذه المسابقات الدولية التي قد تجعلها تلقى شُهرة واسعة...

-أيوة كدة .. برافو..

قالتها سما وهي تقف أمام إحدى الفتيات التي كانت ترتدي تنورة قصيرة أسفلها سروال ضيقٌ يُغطي حتى قدميها النحيلة ويتماشي مع جسدها الرشيق والصغير، كانت ترفع سما قدم الفتاة لأعلى وتُساعدها على تأدية إحدى الحركات والمحافظة على اتزانها وهي بتلك الوضعية، فكانت الحركة في غاية الصعوبة لكن الفتاة ورغم صِغر سنها أدتها بمهارة شديدة...

التقطت عينا سما إحدى الفتيات وهي تجلس في رُكنٍ ما تُغطي وجهها بين كفيها ويبدو كما لو كانت على وشك البُكاء؛ تركت سما ما تفعله واتجهت نحو هذه الفتاة الصغيرة التي تُدعى جودي...

-مالِك يا جودي ... قاعدة لوحدِك ليه ؟؟

سألتها سما بحنانٍ وهي تجلس بجوارها على إحدى المصاطب، لم تتخلى جوديِ عن تعابيرها المتضايقة وهي تُجيب:

-مش عارفة أعمل الأرابيسك " حركة من حركات الباليه " زيهم .... كل ما بعملها بقع

أنهت حديثها بتذمرٍ طفولي غطت معه وجهها مجددًا، إقتربت منها سما لتحاوطها بذراعيها كي تتحدث معها بحنانٍ أموي:

-طب ما تحاولي تاني

-منا حاولت كتير

توقفت سما عن الحديث لبُرهة حتى تستجمع حديثها الذي أدلته في النهاية بحكمة:

-وماله ... حاولي كمان مرة ... مش إنتِ عايزة تبقي شاطرة ؟

أومأت جودي رأسها فواصلت سما الحديث بإرشاد:

-يبقى تقومي دلوقتي وتعملي الأرابيسك لغاية ما تنجحي ... ومينفعش تقولي على نفسك مش عارفة تعملي حاجة ... لأنِك بتعرفي، طالما زمايلِك عرفو يبقى إنتِ كمان هتعرفي

كان حديثها مَفعمًا بالتشجيع مما جعل الفتاة تشعر ببعض الأمل وهي تسألها:

-يعني هتساعديني أعملها ؟

ابتسمت سما وهي تؤكد حديثها:

-أكيد طبعًا ... يلا بقى قومي

وثبت الطفلة بحماسٍ أخذت معه عدة أنفاسٍ قبل أن تقف بمُنتصف القاعة وتُعاود رفع قدمها والإمتداد بجسدها للأمام، لكنها كلما تأخذ هذه الوضعية تشعر بجسدها يفقد توازنه ويجعلها تترنح حتى تسقط قدمها، وهذا ما يُشعرها بالضيق...

هذه المرة إقتربت سما نحوها وساعدتها على رفع قدمها ثم وضعت يدها أمام صدر الفتاة لتنحني بتروٍ على يدها حتى لا تسقط على الأرض، ثبتتها سما على تلك الوضعية حتى تمساكت الفتاة واستطاعت المحافظة على توازنها، حتى أنها لم تشعر بسما وهي تنزع يدها وتترك جودي تؤدي الحركة بنفسها دون أن يترنح جسدها ككل مرة، فكانت سعادة الفتاة لا تُوصف وهي تتأكد بالفعل أنها تستطيع إتقان أي مهارة طالما لديها العزيمة لإتقانها...

أتت يقين في تلك اللحظة لتثب خلف سما وتُخبرها بأهمية:

-سما .. عايزاكي في موضوع

انتبهت سما لوجودها فطلبت من الفتيات أن يواصلن التدريب حالما تتحدث مع يقين:

-نعم يا يقين

أخبرتها يقين بلهفة امتزجت مع الجدية:

-في مسابقة هتتعمل الشهر اللي جاي، عن العروض الاستعراضية ... أنا بفكر نشترك في المسابقة دي

اعترضت سما حديثها بقولها:

-بس إحنا لسة في الأول ... خايفة البنات متكنش مُستعدة

حاولت يقين إقناعها بقولها:

-دا بالعكس، دي هتكون دافع ليهم إنهم يتشجعو في العروض إللي هتيجي بعد كدة ... ده غير إن في جايزة مالية للي هيكسب المسابقة ... إحنا لو كسبنا الجايزة ممكن نطوّر المركز ونجيب ناس تشتغل معانا

بقيت سما في حالة من الصمت تُفكر في حديث يقين الذي بدا مُقنعًا بالنسبة لها، فهي بحاجة ماسة للمال بسبب تلك الديون التي لم تنتهي حتى الآن، كذلك آرادت لهذه المسابقة أن تضحى تحديًا جديدًا ستبذل مجهودًا حتى تواجهه وتربح تلك الجائزة المالية، لكنها مع ذلك بقيت في حالة من الصمت حتى عاودت يقين الحديث بقولها:

-ها قولتي إيه ... أسجل اسم الفريق ؟

آجابتها سما بعد فترة من الصمت:

-ماشي

اتسعت بسمة يقين ما إن استمعت إلى موافقتها، ربتت بعدها على كتف سما وهي تثني على ذاك القرار:

-كنت متأكدة إنِك هتوافقي ... أنا هسجل اسمنا حالنا ... وهستأذن ساعة زمن عشان عندي مشوار مهم تمام

أومأت سما بموافقة ثم هرعت يقين خارج المركز لتأدية حاجيتها تاركة سما في حالة من التيه تُفكر في تلك المسابقة وما الذي ستفعله بها...

____

انتهى تمرينها لليوم وطفقت تتحرك خارج المركز لتلقى سامح الذي كان يقلها المنزل بصورة شبه يومية بالأونة الأخيرة، فقد تطوّرت علاقتهما كثيرًا في تلك الأيام السابقة، لم تصل إلى الإرتباط والعشق، لكن على الأقل عادا صديقين يتشاركا مع بعضهما أبسط اللحظات...

فتحت باب سيارته لتجلس بجواره على المقعد تتنهد بأريحية بسبب هذا التدريب الذي أنهك جسدها، لاحظت نظراته الغاضبة الموجهة نحوها والتي لم تكن تعلم سببها لذلك سألته:

-في إيه ؟ ... باصللي كدة ليه ؟

رفع حاجبيه بعدم تصديقٍ لحديثها بعد أن ظنَّ أنها تعلم سبب غضبه:

-والله !! ... يعني بجد مش عارفة أنا متعصب ليه ؟

توترت من نبرته وطفقت تسأل بقلق:

-في إيه يا سامح ؟

اعتدل سامح بجلسته كي يسألها بنبرة لم تكن صاخبة مرتفعة لكنها تحمل مزيجًا من الغضب والغيرة:

-مش قولتي إن المركز مفيهوش غير بنات ؟

أومأت رأسها بحيرة فأكمل:

-أومل مين إللي كنتِ بترقصي معا جوا ده ؟

تعجبت أكثر من حديثه ولم تكن تعلم من أين عِلم أنها كانت تؤدي إحدى الاستعراضات مع رجلٍ يتدرب معها بالفرقة، الم يكن من المُفترض أن يأتي ليقلها للمنزل فقط ؟ .... لذلك السبب سألته بتعجبٍ:

-إنت عِرفت منين ؟ ... إنت كنت بتتفرج عليا ؟

تدارك سؤالها لأنه بالطبع لن يُخبرها أنه وقف يتأمل حركاتها الرشيقة المتناغمة مع الموسيقى ببراعة، فكيف يُخبرها أنه يتعمد دائمًا مشاهدتها بل ويُحب هذا أيضًا ... لكن ما حدث اليوم جعله يفصح عن حقيقته بسبب غضبه وغيرته الشديدة:

-متغيريش الموضوع يا بدور ... مفيش رقص مع رجالة تاني

اعترضت بدور حديثه بنبرة مندفعة:

-هو إيه ده ؟ ... أنا أعمل إللي أنا عايزاه

ربطت ذراعيها بتذمرٍ فهدأت نبرته قليلًا وهو يحاول نصيحتها:

-أنا والله خايف عليكي ... ومش قصدي أزعق صدقيني، أنا بس لما شوفته حسيت إني عايز أروح أضربه

بقيت على وضعها المُتذمر ولم تكن تعلم سبب قوله لهذا، ألم يُخبرها أنهما أصدقاء، لما تجده يغار عليها بتلك الطريقة ؟

كادت تصل إلى استنتاجِ يجعله لايزال يتعلق بها لكنها نفضت هذا الاستنتاج عن ذهنها وهي تقول بصدق:

-بردو متتعصبش عليا، أنا أساسًا مش بحب النوع ده من العروض ... وصدقني مكنتش هرقص كدة مرة تانية

تنهد سامح ليُحافظ على هدوءه المعتاد، فهو نادرًا ما يفقد صوابه ويصرخ بأحدهم، دائمًا ما كان معروفٌ بهدوءه ورزانته، ولا يعلم ما هذا الهُراء الذي أدلاه جوفه:

-طب خلاص أنا آسف متضايقيش ... أنا واثق إنِك مش هتعملي حاجة تغضب ربنا ...

أنهى حديثه ببسمة هادئة لم تُحرك بها قيد أنملة، فبقيت على تذمرها الطفولي حتى دفعها دفعة بسيطة بكتفها وهو يلح عليها بمرح:

-خلاص بقى قلبِك أبيض

حافظت على ثباتها ولم تتزعزع أمام نظراته التي كانت تأسرها فيما سبق، اما الآن فهي تشعر بالحنين كلما تصادفت مع تلك النظرات ... ألح عليها سامح للمرة الثالثة مُستخدمًا إحدى أسلحته الفتاكة:

-طب يلا اضحكي طيب ... اضحكي وأنا هجبلِك كُنافة

وجدت بسمة هادئة تُرتسم على ثغرها لأنها كانت تنتظر تلك الجُملة التي دائمًا ما كان يقولها فيما سبق، فهو يعلم كم تهيم هي بتلك الحلوة ولا تستطيع مقاومتها...

-بتمسكني من الإيد إللي بتوجعني

إزدادت بسمة سامح وهو يهتف بانتصار:

-أيوة كدة ... هي دي الضحكة إللي أنا عايزها ... استني بقى أجبلِك أحلى كنافة مدوقتيش زيَها قبل كدة

إزدادت ضحكاتها الخفيفة بعد تلك الجملة التي تبعها سامح بتحركه بالسيارة وانطلاقه إلى وجهته المُرادة.....

____

يقف داخل إحدى المشفيات العريقة أمام موظفة الاستقبال التي من المُفترض أن تُعطيه مِعادًا لإجراء بعض التحليلات، فما إن أنهى من الحديث مع موظفة الاستقبال حتى تحرك بخطواتٍ هادئة مُطمئنة نحو والدته التي كانت تنتظره على إحدى المقاعد الحديدية...

جلس فضل قبالة والدته بابتسامته المرحة التي تبعها بقول:

-خلاص سجلت ... شوية وهيندهو

ربتت والدته على كتفه بحنانٍ وهي تتشكره:

-تعبتك معايا يابني ... كان زمانك في شُغلك دلوقتي

تضايق من حديثها الذي دائمًا ما تقوله كلما ترك عمله وأدى أي من مُتطلباتها، وكأنها حِملًا عليه هي ووالده، فهو وحيد والديه ومُدللهما كذلك، يعلم جيدًا كم عاناة والداه من أجل الإنجاب حتى أتى هو ووالداه كادا يقتربا على الشيَب، لكنه أتى وحمل معه البهجة والسعادة إلى قلبيهما، كذلك أقسم على الاعتناء بهما مهما كثرت مشاغله، فمهما فعل معهما لن يتساوى مع ما فعله والديه لأجله ولأجل مستقبله ومكانته المرموقة...

-بتقولي إيه بس ... دا إنتِ الخير والبركة

أنهى الحديث ببسمة مرحة جعلتها تبتسم هي الأخرى وتدعو له:

-كتر خيرك يا بني

استأذن فضل وهو يثب من مكانه:

-أنا هقوم أجبلنا كوبيتين شاي ... شكلنا مطوّلين هنا

أومأت والدته إيجابًا ليثب من موضعه ويتجه صوب المقهى الصغير الذي يقبع بإحدى الأركان...

على جهة أخرى كانت تقف يقين داخل هذه المشفى تقرض أظافرها بتوترٍ كلما مرٌ الوقت وعلِمت أنها على وشك أن ترى تلك التحاليل التي توّضح حالتها الصحية، كم

يُصيبها هذا الأمر بالتوتر والقلق، فربما تكتشف أن لديها مرضٌ خطيرٌ وأن حياتها ستُفنى عما قريب، ما الذي ستفعله وقتها ؟ ...

بقي عقلها يُعذبها بتلك الأفكار حتى...

التفتت بجسدها التفاتة مفاجآة جعلتها تصطدم بفضل الذي أتى ومعه كوبين ورقيين من الشاي الساخن الذي انسكب واحد منهم على يقين خاصة يدها التي كانت تُقربها من ذقنها...

انتفض جسد فضل وطفق يعتذر بقلقٍ وهو ينحني بجذعه لينتشل كوب الشاي ثم يرفع جذعه مجددًا ليتفاجأ بوجود تلك الفتاة أمامه...

-يقين... !!

قالها بتفاجؤ قابلته يقين بجمود لم تتحرك معه ولم تسأله حتى من أين يعلم باسمها، بالطبع أخبرته سما...

-إنتِ كويسة ؟

سألها بذعرٍ وهو ينظر إلى يدها التي انسكب عليها الشاي الساخن، والعجيب أنها لم تُبدِ أي علامات وكأن ما انسكب عليها كان مُجرد ماءًا فاترًا...

-أه كويسة ... بس ياريت تاخد بالك بعد كدة

قالتها بحدة وهي تُنفض ثيابها من قطرات الشاي المُنسكبة...

جحظت عينا فضل في تلك اللحظة وهو يرى يدها المُنتفخة وتلك الفقاقيع التي بدأت بالبروز، هذا ما زاد من قلقه وهو يُشير على يدها متفوّهًا:

-إ.. إيدِك ... لازم تروحي تحطي عليها حاجة

انتبهت يقين لحديثه فرمقت يدها المتورمة دون أن تُبدِ أي تأثير، فقط تنظر ليدها بلامبالاة رغم أنها ملتهبة حمراء، هذا ما آصاب فضل بالذهول لذلك سألها:

-هو ... إنتِ مش حاسة بيها ؟

توترت يقين في تلك اللحظة ولم تكن تعلم بما تُجيبه، فلا يجب أن تُخبره أنها لا تشعر بالألم، بالطبع سينعتها بالجنون، أو ربما يسخر منها كما كان يفعل رفاقها عندما كانت صغيرة، لهذا السبب حاولت تمثيل التألم بقولها:

-لــ.. لأ .. حاسة ..أنا بس مش بحب أبين

خرجت نبرتها متوترة مما جعله يتأكد من حدسه، ففتاة مثلها كانت لتصرخ وتزحر إذا حدث معها هذا .... لهذا السبب سألها باستنتاجٍ علميٍ:

-دا " congenital insensitivity to pain إضطراب إنعدام الإحساس الخُلقي " ... مش كدة ؟

سقط فكها بذهول من معرفته لهذا الاضطراب الذي لديها، فهي تعلم كم أنه نادرًا ولا يعرفه سوى الأقلة، آجاب فضل عن أسئلته الداخلية بقوله مُعرفًا:

-أنا دكتور علم نفس في جامعة ... ودرست شوية عن الإضطراب ده ... وعارف إنه خطير ولازم تتعالجي وإلا_

كاد يُحذرها لكنها قطعت حديثه بنبرة محتدة أعربت عن معاناتها:

-أنا حاولت ومعرفتش .... وأصلًا بعمل تحاليل كل شوية عشان لو عندي مرض ألحقه ... عشان عارفة إني مش هحس بيه

تنهدت بعد حديثها وقررت إنهاء هذا النقاش قبل أن تنفجر أكثر وتتحدث عن معاناتها أمام رجلٍ بالكاد تعرفه، لهذا السبب قررت الانسحاب بقولها:

-عن إذنك...

بصقت تلك الجُملة ثم هرعت من أمامه تاركة إياه يتفحصها بحيرة ورغبة جامحة بمساعدتها، فهو كان على وشك إخبارها أن هناك أمراض لا تستطيع التحاليل تحديدها، وربما تلك الأمراض تنتهي بوفاة صاحبها خاصة وهو لا يشعر بها البتة ويشعر أن جسده طبيعي يخلو من الأمراض .... تلك الأفكار كوّنت بداخله رغبة مُلحة لمُساعدتها وربما لمعرفتها أكثر....

____

بدأت الشمس بالخفوت تدريجيًا لتخلق أجواءًا ساحرة هادئة جملها هذا الطقس الذي يحمل برودة طفيفة، كانت تجلس سما داخل مركزها تتربع على قدميها وأمامها مجموعة من الفتيات تقوم بتدريبهن لكنهن الآن يجلسن أمامها على نفس الوضعية بعد أن انتهين من التدريب وطلبت هي منهن أن تتحدث معهن لأمرٍ بالغ الأهمية ... فكانت تقول بصوتٍ هاديء:

-أنا عارفة إن كل واحدة فيكم بتحب البالية ... وبتحب الرقص والاستعراضات ... عشان كدة عايزة أقولكم إن خلاص ... جيه الوقت إللي هنظهر في موهبتنا للنور ...

تبادلت النظرات بين الفتيات بحيرة من حديثها المُبهم الذي فسرته فورًا بطريقة مباشرة:

-إحنا هنشترك في المسابقة ... وهنعرف الناس إحنا إزاي موهوبين ... هنفرجهم على العروض بتاعتنا وهنخلي كل الناس تسقفلنا

كانت تتحدث بنبرة تشجيعية لتجعل الفتيات بتحمسن للأمر، لكنها لاقت عوالم الخوف على وجوههن مما جعلها تصمت عن الحديث وتسأل:

-مالكم ؟ ... مش مبسوطتين ؟

سألتهن بنبرة ودودة فوجدت الفتيات يتحلن بالصمت لوهلة إلى أن تشجعت إحدى الفتيات والتي تُدعى حلا بقولها:

-بس إحنا لسة مش مستعدين

أنهت حديثها بإحباطٍ حاولت سما امتصاصه بقولها:

-مش إنتِ بقيتي بتعرفي الحركات الرئيسية ؟

أومأت رأسها إيجابًا فواصلت سما على نفس وتيرتها:

-يبقى إنتِ كدة مستعدة ... زي ما كلهم مستعدين

آشارت على البقية مع آخر كلماتها لتؤكد لهن أنهن قادرات على خوّض هذا التحدي ...

لاحت بعدها بُرهة من الصمت والنظرات المتبادلة التي تحمل شيئًا من الخوف حتى قطعتها سما باستنتاج:

-هو إنتو خايفين ؟

أومأ الجميع إيجابًا لتتأكد شكوكها وتقترب نحوهن بضعة أمتارً لعلها تستطيع احتواء خوفهن وبثهن بعض التشجيع بقولها:

-عادي إنكم تبقو خايفين ... عشان دي أول مرة .... بس إللي مش عادي بقى ... إننا منواجهش خوفنا...

صمتت برهة لتستجمع أفكارها ثم تواصل بذات اللكنة الحكيمة:

-عشان نواجه خوفنا لازم نجرب ... حتى لو هنخسر ... هيحصل إيه يعني ؟ ... المهم إننا جربنا ... ويعالم بقى ... مش ممكن نكسب ونطلع على التلفزيون والناس تيجي تتصور معانا

أنهت حديثها ببسمة مُشجعة جعلتهن يبتسمن تتابعًا ويتهامسن في تلك المسابقة بحماسٍ يأكلهن، أردفت فتاة من الفتيات بحماسٍ:

-هو إحنا فعلًا هنطلع على التلفزيون ؟

أومأت سما إيجابًا فزادت حماسة الفتاة وزادت همسات البقية إلى أن سألت فتاةً أخرى بجدية:

-هو إحنا كلنا هنروح الحفلة دي ؟

أومأت سما مجددًا وهي تُجيب:

-أه كلكم .... إنتو والمجموعة بتاعة الصُبح...

بقيت في حالة من الصمت بعدها تتأمل همساتهن وحماسهن إلى أن هتفت في النهاية:

-ها إيه رأيكم ؟

انتبهت الفتيات لحديثها فطفقوا يؤيدونها ويوافقن على تلك المسابقة بحماسٍ وسعادة رغم الخوف الذي يأكلهن إذا لقين الخُسارة، فهذه ستضحى أول تحديًا حقيقيًا بالنسبة لهن ويجب عليهن إثبات أنفسهن جيدًا...

وثبت الفتيات عن الأرض بعد فترة ووثبت سما ورائهن وكانت على وشك الرحيل إلى أنها انتبهت لمُراد الذي كان يقف خلفها ويبدو وكأنه كان يُتابع حديثها مع الفتيات، فكانت الابتسامة مُرتسمة على ثغره من طريقة تعاملها معهن وكأنها شقيقتهن الكُبرى ...

-البنات شكلهم حبوكي

قالها بإعجابٍ وهو يستند بظهره على الحائط وتقف سما قبالته بابتسامة حرجة من اطراءه، لكنها حوّلت تلك الابتسامة إلى تعالٍ زائفٍ قالت معه بفخرٍ من نفسها:

-أومل فاكر إيه ... أكيد هيحبوني

أضاف على حديثها ببعض الهيام والصدق:

-ما هو مفيش حد هيتعامل معاكي ومش هيحبِك ... ده يبقى مجنون

أنهى حديثه بمُزاح رغم ما يحمل من غزلٍ طفيف تعمّده حتى لا يقوم بإحراجها، فهو لا يتمادى معها سوى بتلك الكلمات الغزلية العفيفة حتى تُصبح زوجته بالفعل...

بعد بُرهة من الصمت والنظرات الهائمة المتبادلة بينهما أردفت سما مُغيرة مجرى هذه اللحظة:

-طب إيه ... أكيد مجيتش تتفرج عليا

قهقه مراد بخفة ليعتدل في وقفته ويبتعد عن الحائط كي يُجيبها بصِدق:

-بصراحة جيت أطمن عليكي ... وعشان أشوف لو ينفع أوصلِك إنهاردة، أنا كدة كدة خلصت شُغل

لم توافق سما على عرضه بقولها:

-لسة ورايا مجموعة تانية ... شكلي مش هخلص غير بليل ... وعمومًا سامح هييجي يوّصلني

أومأ مراد متفهمًا وبداخله يُريد أن يطلب منها أن تُعطي لجسدها قِسطًا من الراحة، فمنذ فُتح هذا المركز وهي مُنشغلة بتلك التمرينات التي أحيانًا تستمر حتى المساء

لعدم وجود من يُساعدها، لكنه مع ذلك لن يتدخل بما تفعله وسيظل يدعمها حتى تُسدد تلك الديون وتستطيع بعدها توظيف شخصٍ آخر يُساعدها بالتمرينات...

إنتهى الحديث بينهما في تلك اللحظة بعد أن ودُعها مراد بوِّدٍ ثم ترك المركز على أمل أن يتصل بها في المساء ويتحدث معها عن أحوالها....

____

أتى الليل بديجوره ليزيح معه أشعة الشمس وتتحوّل السماء إلى لونٍ داكنٍ صحبه أصوات الحشرات الليلية وذاك الهدوءِ المُصاحب لليالي الشتوية، فكانت تجلس بدور على فراشها تُغطي جسدها بغطاءٍ سميكٍ يُدفئها من تلك البرودة هي وزكريا الذي كان يتدثر أسفل الغطاء جوارها وبينهما كتابًا مدرسيًا كانت تقرأ منه بدور وتحاول تفسير ما به من كلماتٍ لزكريا الذي يُجادلها لدرجة قد تجعلها تتركه وشأنه، لكنها تتجنب هذا الشعور وتواصل الشرح حتى طفح كيلها وهي تقول:

-يا زيكا الكلام واضح ... هو إيه إللي مش مفهوم بالظبط ؟

جادلها زكريا بتفسيرٍ لوجهة نظره:

-إنتِ قولتي إننا لازم نتعب عشان نجيب فلوس حلال .... طب ما الحرامي كمان بيتعب عشان يجيب فلوس ... إشمعنا بقى بتقولو إنه بيعمل حاجة حرام

سرقت بدور نفسًا عميقًا استجمعت معه أفكارها وهي تحاول التفسير له:

-عشان الحرامي بياخد فلوس مش بتاعته_

قطعها زكريا باعتراضٍ:

-ما إللي بيشتغلو بردو بياخده فلوس مكانتش بتاعتهم وبياخدوها من حد تاني

عارضت حديثه بقولها:

-بس صاحب الفلوس بيبقى عارف إنهم أخدو فلوسه وبيديهالهم بمزاجه ... أما الحرامي بقى ... بياخد الفلوس من ورا صُحابها

عارض حديثها للمرة الثانية ولم تكن تعلم لمَ يُدافع عن اللصوص بتلك الطريقة:

-ما الحرامي لو سألهم مش هيدوله حاجة....

أغلقت بدور الكتاب الذي معها لتعتدل في جلستها لتضحى قبالته كي ينتبه لحديثها جيدًا:

-عشان الحرامي بياخد فلوس ناس تانية تعبت فيها .... تخيل لو إنت رسمت لوحة كبيرة وفضلت ترسم فيها لغاية لما ضهرك وجعك وتعبت ... وفجأة تلاقي حد أخد منك الرسمة دي ... مش هتضايق ؟

أمعن التفكير بحديثها وتخيل إرهاقه بتلك الرسمة رغم أنه لا يُتقن الرسم بتاتًا، لكنه تخيل فقط كم سينفقه من وقتٍ وجُهدٍ على شيءٍ حتى يأتي شخصٌ آخر ويأخذ منه ذاك الشيء ببساطة، بالطبع سيشعر بالغضب، وربما سينتقم من هذا السارق فيما بعد...

لهذا السبب أومأ رأسه إيجابًا لينصت إلى ما ستقوله بدور بعد ذلك:

-أديك قولت أهو ... الحرامي بيعمل كدة بالظبط...

صمتت لوهلة عن الحديث ثم عاودت مجددًا وهي ترمق السقف وتتخيل حديثها:

-تخيل لو مبقاش في حد بيشتغل ... وكله بقى ياخد من التاني من غير ما يستأذن ... تفتكر هتبقى عايش في آمان ؟...

لم ينبس ببنت شفة وبقي ساكنًا ينصت لها بإمعانٍ لأول مرة في حياته:

-مكنتش هتلاقي أكل ولا هتلاقي بيت ... عشان الناس هتاخدهم من غير إذنك ... وممكن متعرفش ترجع حاجتك منهم تاني .... هتبقى خايف من الناس عشان

بياخدو حاجتك منك ... وهتفضل قاعد لوحدك بتخبي الحاجات بتاعتك عشان متموتش من الجوع .... تفتكر وقتها هتبقى مبسوط ؟

أحنى رأسه لأسفل وهو يُفكر في حديثها ويتحلَّى بالصمت لوهلة قبل أن يسأل:

-يعني لو الحرامية بقو كتير هنبقى عايشين كدة ؟

آجابت سؤاله بصدق:

-وأسوأ من كدة كمان ... عرفت ليه الحرامي المفروض يتقبض عليه ؟

أومأ رأسه إيجابًا فعاودت فتح كتابه المدرسي على إحدى الصفحات كي تشرح له:

-طب يلا نكمل مذاكرة...

قالتها وهي تفتح الكتاب وتعاود قراءة ما به لعله يفهم حديثها هذه المرة ويستطيع تأدية فروضه المدرسية....

أنهت عملها أخيرًا وكانت على وشك الرحيل وإغلاق المركز بنفسها، فقد أخبرتها يقين أنها ستتأخر بالمشفى فطلبت منها سما ألا تأتي وأنها تستطيع تدبر أمورها وشأنها ... لهذا السبب هي وحدها الآن تضب حاجيتها استعدادًا للرحيل قبل أن يتأخر الوقت أكثر....

كانت لا تزال داخل المركز حتى استمعت إلى صوتٍ أقدامٍ تقترب نحوها مما جعل جسدها ينتفض رعبًا، فهي لم تتوقع مجيء أحدهم خاصة في هذا الوقت المتأخر....

-الأنسة سما موجودة ؟

إزدردت ريقها في هلع من ذاك الذي يقف أمامها ويُحادثها بنبرة مُنتشية أصابتها بالذعر، لكنها مع ذلك حاولت الثبات وهي تُحادثه بصوتٍ متلجلج:

-حـ ... حضرتِك مين ... الـ...مركز قافل دلوقتي

إقترب نحوها بنظراتٍ مليئة بالشهوة تُمرر على كل إنشٍ بجسدها مما جعل قطرات من العرق تتصبب على جبينها...

-أنا مش عايز المركز ... أنا عايز سما إللي اسمها مكتوب على الصفحة

تراجعت خطواتٍ للوراء حتى التصقت بالحائط بصدرٍ يعلو ويهبط تباعًا مع أنفاسها المتلاحقة بصعوبة:

-إ..إتفضل لو سمحت من هنا

تشدقت بتلك الجملة بنبرة كادت تضحى باكية رغم محاولاتها المستميتة للثبات، فهذا الرجل ببنيته الضخمة يُحاول الإقتراب نحوها حتى وقف أمامها مباشرة...

حاولت دفعه لكنه أمسك ذراعيها ودفعهما نحوها ولايزال يتشبث بهم وهو يُحاول الالتصاق بها أكثر حتى...

انهمرت دموعها وارتجفت أطرافها وهي تحاول مقاومته وتُطلق صرخة مدوية مستنجدة...

الفصل الثاني عشر (زواج مفاجيء)

"هناك أوقات نشعر فيها أنها النهاية، ثم نكتشف أنها البداية ... وهناك أبواب نشعر بأنها مغلقة، ثم نكتشف أنها المدخل الحقيقي"

سكون الليل يضرب مسامعه ويجعل من تلك الأجواء أجواءًا مُرعبة، كان يقود سيارته بين الطُرقات الوعرة متجاهلًا هذه الظُلمة وهذا السكون ولكن بداخله نيرانٌ من القلق على شقيقته التي بقت وحدها في أجواءٍ كهذه، يقسم أنه سيصيح بها إن رآها ويُحذرها من المبيت في العمل لهذا الوقت... لكن الآن، عليه فقط أن يعثر على بُقعة مناسبة يستطيع التوقف بها بسيارته حالما تأتي من الداخل...

ما إن توقف بسيارته حتى انتفض جسده فجأة إثر هذه الصرخة المدوية التي اخترقت مسامعه وزادته شعورًا بالرهبة...

فما هي إلا بضع ثوانٍ حتى تأكد أن تلك الصرخة تُصدر من شقيقته التي بالطبع في مأزق الآن...

ترجل من سيارته بسرعة البرق وداخله يهتز بقلقٍ على شقيقته، هرع فورًا داخل المركز ليجد هذا الوغد يُحاول الإقتراب من سما التي كانت مُنخرطة بالبكاء وتحاول دفعه بعيدًا عنها...

تدفقت الدماء بعروقه وهو يركض نحو هذا الوغد ويدفعه بعيدًا عن شقيقته مُسددًا له العديد من اللكمات التي أسقطت الرجل على الأرض، لم يكتفي سامح بتلك اللكمات وبقي يركله بقدمه حتى تأوه الرجل من الألم وأضحى وجهه مليئًا بالجروح بل كان سيفقد حياته لولا تدخل سما لتدفع سامح بعيدًا عنه حتى لا يتفاقم الأمر ويتسبب سامح بقتله....

انتشله سامح عن الأرض وألقاه خارج المركز بغضبٍ ثم أغلق الباب ولا تزال نيرانه تتصاعد مما حدث، أما عن سما فكانت كالمُغيبة بجواره لا تشعر بما حولها ولا

تُصدق ما كاد يُحدث، فهي كانت على وشك الموت لولا مجيء شقيقها باللحظة المناسبة...

استقل سامح سيارته وصفع الباب بقوة ليلتف نحو سما الجالسة جواره بدموع حارة على وجنتيها، كان يهتف بوجهها بنبرة غاضبة مُعاتبة:

-أنا مش قولتلك متفضليش في المركز لوحدك بليل !! ... إفرضي الحيوان ده عملِك حاجة ؟

كانت نبرته مُرتفعة غاضبة أدت إلى إنفجار سما وارتفاع وتيرة بكاءها وشهقاتها....

أحس سامح بالندم من صراخه عليها بتلك الطريقة فحاول تنظيم أنفاسه والتحلّي ببعض الهدوء ليضع يده على كتفها ويحُاول التربيت عليها بحنانٍ:

-خلاص يا سما متعيطيش ... محصلش حاجة الحمد لله

لم تتوقف سما عن البكاء حتى أردفت بين شهقاتها:

-دي أول مرة والله أبقى لوحدي ... كل مرة يقين بتبقى معايا..

هدأها مجددًا وهو يزيد من تربيتاته على ظهرها:

-إهدي طيب ... إحمدى ربنا إن محصلش حاجة ... بس لو هتقعدي لغاية بليل تاني قوليلي وأنا أبقى معاكي

أومأت رأسها بهدوء ثم كفكفت دموعها لينطلق بعدها سامح بسيارته ولم يكن يتوقف عن مواساتها طوال الطريق حتى استطاع محو حُزنها وحجب دموعها حتى لا يظهر عليها أثر ما حدث أمام جدتها وآقاربها...

على جهة أخرى كانت هناك فتاة تتدثر خلف الجدار ومعها هاتفها تُشاهد ما قامت بالتقاطه من صور تُظهر ذاك الرجل وهو يتقرب من سما، رسمت الفتاة بسمة خبيثة على ثغرها حتى أخرجت هاتفها وأجرت مكالمة هاتفية قصيرة أردفت معها:

-كله تم...

____

يتحرك بخطواتٍ هادئة داخل منزله البسيط ومعه صينية معدنية مستديرة تحتوي على صحنين ممتلئين بالطعام الشهي الذي تغلغلت رائحته أركان المنزل، ولج حُجرة يتوسطها فراشٌ متوسط الحجم يرقد عليه والده، فما إن رآه والده حتى رسم بسمة هادئة على وجهه أبرزت مدى امتنانه لولده الذي يعتني به جيدًا...

جذب مُراد إحدى المقاعد الخشبية ليضعه بجوار والده يعقوب ثم يُقرب منه تلك الصينية التي تبعها بحديثٍ مرح:

-عملتلك بقى شوية بامية ... هتاكل صوابعك وراها ... وإياك تقولي مش قادر

قهقه يعقوب قهقهة بسيطة وهو يحاول الاعتدال بجلسته بمساعدة من مراد الذي جعل ظهره يستند على الحائط كي يستطيع تناول الطعام...

-طالما فيها بامية ... يبقى ماشي، خلينا ندوق

اتسعت بسمة مراد وهو يُعطيه الصحن المليء بالطعام الذي أعده بنفسه، فهو قد أتقن الطهي بفضل والده الذي كان طاهيًا ماهرًا فيما سبق...

بعد العديد من الأحاديث المرحة والمزحات بينهما سأل يعقوب:

-خطيبتِك عاملة إيه ؟

أومأ مراد رأسه بابتسامة آجاب معها:

-الحمد لله ... بتسلم عليك

أومأ يعقوب بوٌدٍ رد معه السلام ليقطع حديثهما مكالمة هاتفية وردت على الهاتف الخاص بمُراد، ولأن المُتصل لم يكن مُسجلًا أغلق مراد هاتفه بلا إكتراث...

-ما ترد..

قالها يعقوب بعد أن لاحظ تلك المكالمة التي تأتي لولده وهو يُغلقها دائمًا مما آصابه بالفضول...

-مش مهم ...رقم غريب

قالها مراد بلامبالاة جعلت يعقوب يصرٌ عليه أكثر بقوله المتشكك:

-ما ترد يا بني مش يمكن سما وبتكلمك من موبيل حد تاني

أمعن مراد التفكير بحديث والده الذي زرع بداخله بعض الشكوك، لهذا السبب أخرج الهاتف الخاص به ليُجيب على ذاك الإتصال الذي آتاه مجددًا، وضع الهاتف على أذنه متفوٌهًا:

-ألو ... مين معايا ؟

كانت عوالم التساؤل مُرتسمة على وجهه لكنها تحوٌلت في أقل من ثانية إلى أخرى تحمل الحيرة من ذاك الذي أخبره أن يتصفح الرسائل لأن هناك ما يخص خطيبته، أغلق الهاتف بعد تلك المكالمة ولاتزال عوالم الحيرة مُرتسمة على وجهه وهو يتصفح الرسائل حتى...

جحظت عيناه فجأة وهو يرمق تلك الصور أمامه، تصاعدت نيران قلبه ووٌد لو يُهشم ما يُقابله بما فيهم هذا الهاتف، فهو لا يُصدق أن من ظنها تختلف عن الباقيين ... تضحى هكذا... !!

____

أشرقت شمس يومٍ جديد وكانت بدور تتجوّل بين الأزهار رفقة سامح الذي أصرٌ على مجيئها معه لسببٍ لا تعلمه، بالطبع لم يُخبرها عما حدث مع سما لأنه اتفق معها أن ما حدث البارحة سيضحى سرًا بينهما، لذلك كان يرسم على وجهه بسمة واسعة وهو يتجوّل برفقتها ويتنسم رحيق هذه الأزهار ويتمتع برؤية تلك الفراشات التي تطوف حولها...

-جايبني هنا ليه بقى ؟؟

سألته بدور بمرحٍ وهي تسبق خطواته ببضع خطواتٍ مرحة وتُمسد بيدها على تلك الأزهار الوردية...

لم يُجبها سامح مباشرة واكتفى بالسير حتى أضحى بجوارها يطلب منها بحماس:

-تعالي ورايا...

تعجبت من طلبه لكنها بالنهاية تبعت خطاه وبقيت تتحرك وراءه بين الأزهار ولا تدري ما الذي سيُقابلها بنهاية المطاف...

وما قابلته جعل عيناها تنفتحان بذهول مع شهقة سعيدة خرجت من جوفها ما إن رمقت هذا المظهر أمامها، فهي ترى أرجوحة كبيرة وحولها الأزهار الوردية بطريقة تجعلك تعتقد أنها بعالمٍ آخر، بل كانت تلك الأرجوحة متدثرة ببقعة لا يصلها صوت ضجيج الأطفال وصُراخهم، بل كانت بُقعة هادئة تحفها الخُضرة والأزهار وتلك الأرجوحة التي آشار عليها سامح وطلب منها أن تجلس فوقها...

اتبعت تعليماته للمرة الثانية وجلست على تلك الأرجوحة بقلبٍ يضرب من الحماس، فها هي تعود مجددًا إلى أيام طفولتها التي تتمنى يومًا أن تعد إليها، وما جعلها تشعر أكثر بحنين الطفولة، هو عندما أحست به يتحرك من خلفها ويدفع يده بتروٍ على الأرجوحة كي يدفعها دفعة بدت قوية لكنها جعلتها ترتفع لأعلى وتُهلل بحماس...

-فاكرة لما كُنت بمجرحِك كدة زمان ؟

سألها باستذكار فآجابته وهي تستمتع بتلك الأرجوحة:

-أيوة ... وكُنا بنغني جدو علي ... فاكر ؟

أيد حديثها ببعض التعالِ :

-إيه إللي فاكر ... أنا لسة فاكر الأغنية لحد دلوقتي ... ودايمًا تطلعي إنتِ إللي مش حافظة وأنا أكملها

رفعت حاجبيها وهي تعترض حديثه بصبيانية:

-إيه الكدب ده ... إنت إللي كنت بتتلغبط فيها مش أنا

تحداها بحديثه وهو يدفع الأرجوحة كي ترتفع هي لأعلى:

-طب تيجي نشوف ؟

-موافقة

هكذا وافقت على تحديه ليبدأ كليهما بغناء تلك الأغنية التي كانوا يُغنونها في صِغرهم، فهي مُجرد أغنية بريئة تتحدث عن الحيوانات بطريقة مُسلية أعادتهم سنينًا للوراء، خاصة وهما يُغنيان بمرحٍ ويُقهقهان بسعادة...

وفي ظل هذا المرح كانت هناك أعين تترصدهما من بعيد عازمة على إنهاء تلك السعادة وتحطيم هذين القلبين مهما كلفه الأمر، فهي وإن كانت تركته نهائيًا، لن يسمح لها بمواصلة حياتها بسعادة....

تجلس على طاولة الاستقبال وأمامها العديد من الأوراق والحسابات التي تقوم بكتابتهم حتى تنتهي من هذا العمل، كانت يدها مُغطا بشاشٍ أبيبضٍ نتيجة تعرضها للحرق بالأمس، كم ودُت إزالة هذا الشاش الذي يُضايقها، فهي في جميع الأحوال لاتشعر بذاك الجرح الذي يعتلي يدها ويجعلها حمراء مليئة بالفقاقيع...

-عاملة إيه ؟؟

اخترق مسامعها هذا الصوت الذي جعلها تترك ما تفعله وتنظر إلى فضل الذي لا تعلم من أين أتى ولما يقف أمامها الآن، لذلك قابلته بحيرة أردفت معها:

-أنا كويسة ... أندهلك سما ؟؟

ظنُّت أنه أتى من أجل سما كما المرة السابقة لكنها تعجبت من كونه ينفي برأسه ويقول:

-أنا مش جاي عشان سما ... أنا جيت أطمن عليكي ... إيديك كويسة ؟

كان يرميها بابتسامة بلهاء أخفت ارتباكه وشعوره بأنه يرتكب ضربًا من الجنون، وهو بالفعل يفعل ذلك، فما إن أدلى تلك الجُملة حتى وجدها تثب من موضعها وتهتف بحدة:

-مكنش ليه لزوم تيجي ... كان ممكن تسأل سما عادي

أخذ نفسًا عميقًا ليُرتب أفكاره كي يستطيع محادثتها، فكيف يُخبرها أنه أتى كي يتعرف عليها أكثر ؟

-لأ ... ما هو أنا كنت ... كنت عايز أشوف إيدِك كويسة ولا لأ ... ما هو أنا السبب بردو

كان حديثه مُرتبكًا همهمت بعده يقين بلامبالاة جلست بعدها على المقعد لتواصل أعمالها، بقي فضل أمامها يُحمحم بحرجٍ قبل أن يقترب بضعة سنتيمتراتٍ نحوها انتهت بجلوسه قبالتها وسؤاله بحرج:

-ممكن أسألِك سؤال ؟

أومأت يقين بلا اكتراثٍ فسأل فضل بفضول:

-هو إزاي المرض ده عندِك ؟ ... أصله يعني ... مرض نادر أوي

انتبهت يقين لسؤاله ولم تكن ترغب بإجابته والإفصاح عن حياتها، لكنها لسببٍ لا تعلمه وجدت نفسها تقول بنبرة خافتة:

-ورثته عن بابا الله يرحمه ... هو كمان كان بيعاني منه ... ومات فجأة بإنفجار في الزايدة ... وهو عشان مكانش حاسس بيها معرفناش نلحقه...

أنهت حديثها بضيق تسرب إلى فضل الذي قال:

-الله يرحمه

رفعت رأسها لتقابله وتحاول تبديد هذا الضيق بنبرة تحمل الأمل:

-عشان كدة ماما بتخليني أعمل تحاليل كل شوية .... من ساعة ما عرفت إني ورثت المرض ده عن بابا

قطب حاجبيه وهو يسألها بفضول :

-إنتِ عرفتِ منين إنه عندِك ؟

تنهدت قبل أن تُجيبه بصدق لا تعلم سببه، ربما آرادت الإفصاح عما بداخلها والتخلص من تلك الذكريات بأية طريقة:

-وأنا عيلة عندي تمن سنين، كنت بلعب بالمقص، وبالغلط المقص دخل في جلدي ولقيت دم بيطلع مني ... بس أنا مكنتش حاسة بحاجة ... ومكنتش عارفة اللي بيطلع مني ده دم بجد ولا حاجة تانية ... عشان كدة جربت تاني ... فضلت أعور نفسي بالمقص لغاية ما الدم كتر .... تقريبًا دراعي كله كان متعوِّر ... بس بردو مكنتش حاسة بحاجة ... لغاية بقى ما ماما شافتني ... فضلت تزعقلي وأخدتني جري على المستشفى ... قالتلي معملش كدة تاني ... بس أنا مكنتش فاهمة ... إزاي بتقولي إني بأذي نفسي وأنا مكنتش حاسة بحاجة ؟ ... ولما قولتلها كدة اتخضت أكتر ... وروحنا كشفنا عند الدكتور ... هو بقى إللي قالُها إن عندي المرض ده

أنهت حديثها للمرة الثانية بضيقٍ لكن فضل إمتص ضيقها بابتسامة متفائلة أردف معها:

-بس على فكرة بقى في ناس بتتعالج منه ... وأنا هساعدِك كمان تتخلصي منه للأبد

قطبت حاجبيها بعدم تصديق لحديثه وهي تقول:

-إزاي يعني ؟؟

إقترب بجذعه نحوها ليُحادثها بجدية وثقة:

-ثقي فيا ... وهتفهمي إللي بقوله ده كويس

لم تكد تُجيبه حتى وجد كليهما مراد يهرع داخل المركز بوجهٍ غاضب يكاد ينبثق النيران منه، تبادلت النظرات بين فضل ويقين حتى وثبا بُسرعة ليفهما ما حدث...

كانت سما تستند على الحائط بشرود أمام الفتيات تحاول الثبات أمامهن لكنها تشعر أن حصونها ستتهدم في أية لحظة، فهذا الحقير ومحاولته للتهجم عليها لا تُمحى من بالها مما سيُصيبها بالجنون عما قريب ... وما زاد همومها هو مراد الذي أتى ووقف قبالتها بنظراتٍ غاضبة أصابتها بالإرتباك...

-فـ..في إيه يا مراد ؟؟

لم يُجبها مراد وأخرج هاتفه بسُرعة على تلك الصورة التي آراها إياها وجعل عينيها تتسع في صدمة...

-ممكن أفهم إيه ده ؟....

بقيت في حالة من الصمت تلتقط أنفاسها بصعوبة وتشعر وكأن دموعها ستُذرف في تلك اللحظة، أما عن مُراد فلم يكن يُصدق ما يراه وظن أنها بالفعل تُريد تركه كما فعلت والدته...

-إنتِ إزاي تعملي كدة ؟ ... أنا وثقت فيكي ... أنا عملت كل حاجة علشانك .... إزاي تسمحي للحقير ده يقرب منِك ؟

إزداد جسدها ارتجافًا وهي تحاول المدافعة عن نفسها لكن لسانها لا يستطيع الحديث:

-مــ... مراد ..إنـ..إنت فاهم غلط_

كان حديثها مُتقطعًا قطعه مراد بنبرة هجومية صارخة:

-أنا مش عايز أسمع حاجة ... ومش عايز أشوف وشِك تاني...

بصق تلك الكلمات ثم ترك المركز لتنفجر هي بالبكاء وترتمي بأحضان يقين التي أتت هي وفضل إثر صراخه، ولا تعلم سبب هذا العِراك وعن أي رجل إقترب من سما وما هذه الصور التي بحوزة مراد...

-إيه إللي حصل يا سما ؟ ... مين إللي بيتكلم عنه مُراد ؟

لم تستطيع سما إجابتها وواصلت البُكاء بين أحضانها وهي تحاول الحديث بين شهقاتها:

-مش عارفة ... مش عارفة...

واصلت البكاء بدموع حارة حتى كادت تهوي على الأرض، لكن يقين أسندتها حتى جلست على إحدى المقاعد بينما كان فضل يُتابعها بشفقة حتى أردف بتقريرٍ:

-أنا هكلم سامح أخليه ييجي...

____

تتعالى قهقهاتها ومرحها وهي ترتفع بالأرجوحة لأعلى وتتغنى بتلك الأغنية الطفولية، كان يقف مُعتصم بالقُرب منهما على وشك أن ينقض على سامح ويلكمه إنتقامًا لسرقته لنصفه الآخر ... وما كاد يتحرك نحوه حتى...

صدح الهاتف الخاص بسامح على الجهة الأخرى ليجد فضل هو من كان يتصل به؛ رمق الهاتف بغرابة لبضع ثوانٍ قطعها وهو يُجيب على المكالمة ويتحدث مع فضل لبضع ثوانٍ أخرى جعلت الصدمة تتسرب بداخله مما أوقد نارًا من القلق داخل بدور التي سألته ما إن انتهت تلك المكالمة:

-إيه يا سامح ؟ في إيه ؟

وضع سامح الهاتف داخل جيبه وهو يهتف بتقريرٍ:

-مراد وسما اتخانقو ... وسما منهارة من العياط وفضل عايزني أروح آخدها

إزداد قلق بدور فوثبت عن الأرجوحة كي تُخبره بإصرارٍ:

-طب استنى ... أنا هاجي معاك

وافق على حديثها ليهرع كليهما خارج تلك الحديقة ويبقى مُعتصم وحده يسب سامح بقرارة نفسه ويصرٌ على مواجهته في المرة القادمة...

ـــ

لاتزال دموعها تنحدر بغزارة على وجهها وجوارها يقين تُربت على ظهرها تحاول تهدئتها وفضل يقف بجوارها على بُعد أمتارٍ يُحاول هو الآخر مواساتها ببعض الأحاديث...

ما هي إلا لحظاتٍ حتى أتى كلًا من بدور وسامح يُهرولان نحو سما حتى وثبت بدور قبالتها تسألها بذعر:

-في إيه يا سما ... اتخانقتو مع بعض ليه ؟

لم تُجبها سما لكنها استنجدت بشقيقها سامح الوحيد الذي يعلم حقيقة الأمر وهو الوحيد الذي سيتفهم حديثها:

-في حد كان بيصورني ... حد صوٌرني إمبارح

جحظت عينا سامح بصدمة حتى ركع ليضحى قبالتها ويسألها كي يتأكد من شكوكه:

-إزاي الكلام ده ... يعني إللي حصل إمبارح كان بفعل فاعل !!

إزدادت حيرة بدور وإزداد فضولها أيضًا ورغبتها بمعرفة ما حدث، لذلك طفقت تسأل ببعض الاندفاع:

-ما تفهمونا يا جماعة إيه إللي حصل إمبارح...

وثب سامح عن الأرض ليُقابل ثلاثتهم ويُحاول اختصار عليهم ما حدث دون أن يتطرق لتفاصيل تُصيب شقيقته بالحرج:

-في واحد حيوان حاول يتهجم على سما ... بس الحمد لله محصلش حاجة

كان حديثه مُفعمًا بالغضب مما جعل بدور تُطلق شهقة مفزوعة أردفت بعدها:

-إيه !! ... وإنتو مبلغتوش البوليس ؟

آجابها سامح بنفس ذات اللكنة الغاضبة مما فعله ذاك الحقير:

-منا قولت معملش حاجة ... بس الظاهر كدة إن إللي عمل كدة قاصد يوقعهم

اندفعت يقين وهي تتسآل:

-ومين يعني إللي هيعمل كدة ؟ ... وهيكون عايز إيه من سما ؟

أوقفت سما حديثهم بصُراخٍ حمل معه بُكاءها:

-خلاص بقى ... مش عايزة حد يجيب سيرة الموضوع ده...

أطلقت سما هذه الجملة لتثب بعدها وتتجه صوب المرحاض كي تختفي عن أنظارهم، فحديثهم الذي يُذكرها بتلك الأهوال يُشبه الخناجر التي تطعن صدرها، هدأ بعدها نقاشهم لوهلة حتى أردفت يقين بنبرة مُقررة:

-مراد لازم يعرف الحقيقة ... لازم يعرف إن سما ملهاش ذنب في إللي حصل

أومأ سامح رأسه بتأييد أردف معه:

-أنا هروح أتكلم معا...

أضافت بدور على حديثه بتقرير:

-وأنا هروح أمرّن البنات عشان سما مش هتعرف...

أضاف فضل هو الآخر بنفس ذات التقرير:

-وأنا كمان لازم أمشي

كاد يرحل سامح لكنه انتبه لحديث فضل ووجوده هنا لسببٍ لا يعلمه، لهذا السبب سأل وهو يمسك ذِراع فضل مستوقفًا إياه:

-ثانية واحدة ... هو إنت بتعمل إيه هنا ؟

ابتلع فضل ريقه وبقي صامتًا يُتهته بالحديث وهو يرى نظرات سامح المُتشككة والمصوِّبة نحوه، فهو لا يعرف الإجابة ولا يُعرف كيف يُخبر سامح السبب الحقيقي وراء مجيئه، لهذا السبب أخذ يتلعثم بالحديث وهو يقول متحججًا:

-كنت ... كنت ... أه ... كنت جاي أدي حاجة لسما ... أصلها نسيتها معايا آخر مرة كنت بوِّصلها فيها

رفع سامح حاجبيه بغير تصديقٍ قال معه:

-آخر مرة دي إللي كانت من حوالي شهرين ؟

واصل فضل كذبته وهو يجذب ذراعه بعيدًا عن سامح كي يتهرب من نظراته مُتحججًا:

-أه شوفت بقى ... أصلي كل ما أفتكر بنسى ... فـ... سلام بقى عشان عندي محاضرة

هرول بعدها بعيدًا عن سامح دون أن ينتبه ليقين التي كادت تنفجر بالضحك على هيئته وتلعثمه بالحديث، لكنها عادت بعدها إلى عملها وهي لا تُزال تُفكر في ذاك الذي يعرض عليها مساعدته ولا تعلم إذا كانت ستتقبلها أم لا....

———————————————————

أسدلت السماء ستارها وكان مُراد يجلس بشرودٍ أمام والده مُنذ ما حدث بينه وبين سما، فهذا أول شِجارٍ حدث بينهما منذ بدأت علاقتهما تزداد ويمتد جذورها إلى القاع،

لم يكن يتخيل أن تأتي الطعنة منها، لم يُصدق حتى أنه رآها تقترب من شخصٍ آخر وهو الذي يخشى الإقتراب منها إحترامًا لها...

قطع شروده صوت والده الذي آراد الاطمئنان عليه بسؤاله:

-إتكلمت معاها ؟

كان والده يعلم ما حدث لأن مراد لا يخفي عنه شيئًا، فمنذ أن أتته تلك الرسالة وهو قد أخبر والده الذي نصحه بدوره أن يتحدث مع سما بهدوءٍ كي يفهم منها طبيعة ما حدث، لكن يبدو أن مُراد لم يتبع أيًا من تعليماته، ووجد نفسه يصرخ بها بغضبٍ يراه على ذاته لأول مرة، فهو لا يعلم حتى كيف تحدث معها بتلك الطريقة...

-خلاص كل حاجة انتهت

قالها بوهنٍ وهو ينكس رأسه لأسفل حتى لا تتلاقى نظراته المُتحسرة مع نظرات والده الذي سأل:

-إنت فهمت إللي حصل ؟

نفى مراد برأسه ثم تنهد قبل أن يُخرج ما بجعبته:

-لأ ... بس لما شوفت الصور مقدرتش أمسك نفسي ... إفتكرت إللي عملته

أحنى رأسه بخُذلانٍ مع آخر جُملة تذكر معها بعض الذكريات المُجحفة...

-بس سما مش زي أمك ... وإنت قولتلي كدة بنفسك

قالها والده كي يُنفي معتقداته ويجعله يردف مؤكدًا:

-عارف إنها مش شبهها ... ولا يُمكن تكون شبهها ... الحكاية كلها إني إفتكرت إللي ماما عملته فيك ... وأنا مش هستحمل إن يحصل فيا كدة_

قطع يعقوب حديثه بصرامة حملت بعض العِتاب:

-وده يخليك تزعق فيها قُدام الناس بالطريقة دي ؟

أحنى رأسه بندمٍ وهو ينفيها ثم يقول مُعترفًا بخطأه:

-لأ .. أنا عارف إني غلطان ... بس والله مدرتش بنفسي وانا بعمل كدة

حرك يعقوب يده بوهنٍ ليضعها فوق يدِ مُراد لعله بتلك الطريقة يستطيع تقديم النصيحة له:

-روح اتكلم معاها يا مُراد ... إفهم منها إللي حصل، وبعدين إحكم براحتك ... متخليش الشيطان يحركك

أومأ مُراد إيجابًا عازمًا على الإتصال بها ومحاولة الإعتذار منها عما بدر منه منذ ساعاتٍ قليلة، لكنه قبل أن يقدم على أية خطوة، وجد جرس المنزل يصدح عاليًا ليثب مراد من موضعه كي يفتح لذاك الزائر الذي لم يكن سوى سامح...

ولج سامح المنزل بخطواتٍ هادئة ونظراتٍ جامدة آراد من خلالها معاتبة مراد على شكه بشقيقته بتلك الطريقة، وكان مراد يُبادله بنظراتٍ نادمة جعلته صامتًا لبُرهة يستمع إلى سامح الذي سأل بهدوء:

-ممكن نتكلم شوية ؟

لم ينبس مراد ببنت شفة وإكتفى بإيماءة رأسه ثم آشار على إحدى المقاعد كي يجلس عليها سامح ويستطيع الحديث معه بأريحية، فكان كليهما يجلسين على أريكة البهو ينتظر كل منهما الآخر كي يبدأ الحديث، لكن هذا المرة تشجع مراد كي يردف ببعض النُدم:

-أنا عارف إني غلِط لما روحت زعقتلها قُدام الناس ... بس عايزك تحُط نفسك مكاني ... هتعمل إيه يعني لو لقيت حد باعتلِك صورة خطيبتِك مع واحد تاني ؟

كوّر سامح قبضته بغضبٍ تخيّل معها حديث مراد وكم سيضحى غاضبًا وقتها، لكنه لن يصب غضبه على خطيبته كما فعل مراد، بل سيجبرها على إخباره عن ذاك الشخص حتى يُلقنه درسًا قاسيًا...

رفع رأسه ليواجه مراد بعد فترة من الصمت استجمع فيها هدوءه وهو يقول:

-أنا مقدر إللي كُنت فيه ... بس عايزك تعرف كمان إن سما كانت منهارة .. يمكن أكتر منك بمراحل .... لأن الحقير ده أكيد حد باعته عشان يحاول يتهجم عليها وهي لوحدها في المركز ... والحمد لله لولا إني روحتلها في الوقت المناسب كان زمانه عملها حاجة ...

اتسعت حدقتا مراد في صدمة من ذاك الحديث الذي ألقي على مسامعه، فكل ما آراده في تلك اللحظة هو مقابلة هذا الحقير ولكمه حتى الموت، لكنه الآن إكتفى بتقديم جذعه للأمام كي يسأل ببعض الذعر:

-إيه !! ... ومين إللي بعته ؟

آجابه سامح بجهلٍ ولكنة مُستاءة:

-لسة مش عارفين ... بس إللي متأكدين منه إنه عايز يفرقكم ... وإنتو المفروض متدلهوش الفرصة دي

بقي مراد في حالة من الصمت أمام حديث سامح الذي آصابه بوابلٍ من الصدمات، فهو الآن يُريد لكم نفسه على صراخه وشكه بها، كان من المُفترض أن يقف بجوارها ويُساعدها لتتخطى تلك الأزمة لكنه بغباءه وتسرعه لم يستمع حتى إلى تبريراتها، وهذا فقط لأنه تذكر ما فعلته والدته فيما سبق .... والدته التي من المُفترض أن يتخذها الآخرون قُدوة، لكنه يعتبرها نقمة في حياته التي دمرٌتها كليًا هو وحياة والده...

عاد من شروده على صوت سامح الذي وثب عن المقعد كي يدلي آخر كلماته قبل أن يرحل:

-أتمنى تراجع نفسك وتعرف مين إللي غلط كويس ... وسلام بقى عشان لازم أروحلهم

وثب مراد هو الآخر كي يُصافح سامح بوِّد ومعالم جامدة لا تزال تُفكر فيما حدث ويُحاول العثور على طريقة تساعده على الحديث معها مُجددًا...

ـــ

إزدادت عُتمة الليل وأوشكت ساعة الصفر على المجيء، داخل هذا المنزل الدافيء الذي يبدو هادئًا للوهلة الأولى، لكن الحقيقة أنه ورغم هدوءه إلا أن هناك ضجيجًا يعتمر قلوب أصحابه ويجعلهم في حالة من الصمت حتى سيطر هذا الضجيج على عقلهم، فها هي يارا تجلس على فراشها داخل الحُجرة تضع الهاتف على أذنها لتتحدث مع صديقتها كما تفعل كل الليلة، هذه المرة كانت السعادة والمُكر ينطليان على وجهها وهي تقول:

-مش قولتلِك مش هيكملو ... عشان تسمعي كلامي بعد كدة ... أهو من أول خناقة وسابو بعض، مكنتش أعرف إن الموضوع هيبقى سهل أوي كدة

أتاها الصوت من الجهة الأخرى بطريقة تحمل بعض الشفقة:

-هو إنتِ ليه عملتي كدة ؟ ... هتكسبي إيه لو فرقتيهم ؟

أرخت يارا ظهرها للوراء وبدأت تُداعب خُصلات شعرها وهي تُجيب بلكنة حقودة:

-مش هستفيد حاجة ... بس نظرة الانكسار إللي في عينيها خلتني مبسوطة...

أنهت حديثها ببسمة ماكرة واصلت معها الحديث مع صديقتها دون الإكترات لتلك العلاقة التي دمرٌتها وكادت تُدمر معها ابنة عمها...

أما بالبهو فكانت تستلقي سما على الأريكة ترمق السقف بشرودٍ ودموع مُتحجرة جعلتها تسترجع حياتها الصعبة والتي تشتد صعوبة مع الأيام، حتى أنها تتجاهل

هاتفها الذي يصدح برقم مراد لكنه على وضعية الصامت لعدم رغبتها بالحديث مع أي أحد...

كان يجلس سامح على الأرض مُتربعًا على أقدامه وأمامه إحدى الأحجيات التي يقوم بتركيبها بمرحٍ مع كلٍ من زكريا وسارة، فدائمًا ما كان سامح بارعًا في تركيب تلك الأحجيات منذ أن كان صغيرًا يقوم بتركيبها مع بدور....

-يا سامح ... هو مين إللي اخترع البازل ؟ ... وليه أصلًا اخترعها ؟

طرحت سارة هذا السؤال بالطبع بسبب فضولها الذي جعلها تترك اللهو واللعب كي ترضيه...

آجابها سامح هذه المرة دون ترددٍ كالبقية نظرًا لكونه يتمتع بذكاءٍ جيدٍ ويقرأ العديد من الكُتب في مختلف المجالات:

-إللي اخترع البازل كان واحد انجليزي اسمه جون ... وتقريبًا اخترعها في القرن التمنتاشر ... وزمان كان بيستخدموها في الخرايط خصوصًا في التدريس عشان الطالب يحفظ الخرايط والأماكن بشكل أسرع وأمتع ... بعدها الموضوع اتطوّر وبقيت صور بنى آدمين، بعدها بقت صور حيوانات وكرتون لغاية ما بقيت زي دلوقتي

همهمت سارة بتفهمٍ ثم عاودت السؤال مُجددًا:

-طب هو مين إللي اخترع الألعاب ؟

لم يُجبها سامح هذه المرة لأنه يعلم أن أسئلتها لن تنتهي قبل أن يُنهيها هو بنفسه:

-لا بقولك إيه ... إحنا عايزين نلعب مش عايزين نسأل ... يلا تعالي نكمل

استجابت سارة لحديثه وعاودت اللعب معه بالأحجية لتمر بينهم برهة من الصمت قطعها سامح مستذكرًا وهو ينظر لزكريا:

-إلا قولّي صحيح يا زيكا ... هي نضارة الشمس بتاعتي إللي إنت أخدتها راحت فين ؟

ظهر التوتر جليًا على وجه زكريا الذي أخذ يتلعثم بالحديث ثم يحاول تداركه ببلاهة:

-ها ... نضارة إيه ؟؟

رفع سامح من صوته متكئًا على حروفه بتوٌعد:

-النضارة بتاعتي إللي قولتلي هتصور بيها وأرجعهالك ... مرجعٌتهاش ليه لغاية دلوقتي ؟

بقي زكريا يُحدق به بفاهٍ مفتوحٍ حاول معه العثور على أية حُجة والتهتهة بالحديث حتى إزداد سامح غضبًا وأمسكه من تلابيبه كي يعترف بالحقيقة:

-وديت النضارة فين يا زيكا ؟ ... إنطق بدل ما هتشوف الوش التاني

آجابه زكريا بتلعثمٍ حمل معه الهلع:

-منا في الحالتين هشوف الوش التاني

إزدادت شكوك سامح وهو يسأل:

-ليه ؟ ... كسرت النضارة ؟

نفى زكريا برأسه فسأله سامح مجددًا:

-ضيعتها ؟

نفى زكريا مجددًا لتزداد حيرة سامح وهو يسأل بحدة:

-أومل عملت فيها إيه ؟

آجابه زكريا بصدقٍ وتردد:

-بِعتها...

سقط فك سامح ما إن أدلى زكريا بتلك الكلمات التي كادت تجعله ينفجر بالصدمة، حيث أنه أمسك زكريا مجددًا من تلابيبه لكن هذه المرة كانت يده تتشبثان بسُترة زكريا حتى كادت تنتزعها أو تُمزقها...

-بِعت نضارتي !! ... ومن غير ما تقولي!!

حاول زكريا الإعتذار والدفاع عن نفسه بقوله:

-معلش بقى يا ساموحة ... أصل ظروفي كانت صعبة

قبض سامح على قلنسوته بحدة وهو يهزها للأمام والخلف مع كلماته الحانقة:

-وحياة أمك !! ... وبعتها إزاي بقى إن شاء الله ... وفين الفلوس ؟

آجابه زكريا بلكنة مُتلجلجة:

-بعتها على أولكس بـ500 جنيه ... والفلوس اشتريت بيها لعبة للـ play station

قطب سامح حاجبيه بحيرة لأنه يعلم أن ألعاب الفيديو يرتفع ثمنها عن خمسمئة جُنيه، لذلك سأله:

-لعبة إيه دي إللي بـ500 ... هي مش كانت بألف باين ؟

آشار زكريا بإصبعه على نفسه وهو يُجيب استفسارات سامح بتعالٍ:

-عيب عليك .. وأنا أي حد ولا إيه ... ضحكت على الراجل وخدت اللعبة بـ500

ما إن أنهى حديثه حتى زاد سامح من هزاته وكلماته الحانقة:

-يعني كمان نصاب ... حرامي ونصاب!!

أمسكه سامح من أذنه وبقي يدفعه بحدةٍ ومُزاح لكن زكريا تأوه بألم وأخذ يهتف مستنجدًا:

-سما .. سما إلحقيني يا سما

رد عليه سامح بنبرة متوّعدة:

-محدش هيرحمك مني ... بقي تبيع نضارتي المستوردة من ورايا .... إن ما وريتك يا زيكا مبقاش أنا سامح

بقي زكريا يستنجد بسما التي لا تُعيره أي انتباه ولا تزال شاردة حتى لاحظ زكريا شرودها فقرر انتهاز الفرصة حتى يهرب من قبضة سامح:

-طب استنى بس يا ساموحة ... سما أختك شكلها متضايقة ... ولازم نشوف مالها .. مش كدة ؟

انتبه سامح إلى شقيقته ليجد ملامحها عابسة بالفعل مما جعله يترك أذن زكريا متوّعدًا له بتلقينه الدرس فيما بعد، إقترب بعدها نحو سما ليجلس بجوارها على الأريكة يحاول مواساتها بنبرة هادئة تختلف عن تلك التي كان يُحادث بها زكريا:

-متقلقيش يا سما ... هو خلاص عِرف كل حاجة

تنهدت سما بخيبة أملٍ أدلت معها السبب الحقيقي وراء شرودها:

-أنا مش متضايقة من إللي مراد عمله ... أنا بس هتجنن وأعرف مين إللي حرٌض الحيوان ده عليا .... عايزة أعرف مين إللي حاطتني في دماغه

كاد يواسيها سامح إلى أن زكريا تدخل بحديثهما ليهتف بحكمته المعتادة:

-متشغليش بالك يا سما ... خليكي فاكرة ... إن إللي يجرحِك من غير سبب ... بكرة الأيام تعلمه الأدب

آشار عليه سامح بسُخرية من حكمته:

-خُدي الحكمة من أفواه السُفهاء ... أهو ده إللي ناقصينا

تذمر زكريا من سخريته فأردف:

-في إيه يا ساموحة ... إنت مستقصدني ليه ؟ ...كل ده يعني عشان بِعت الساعة الرولكس بتاعتِك ونضارتك الشمس إللي إنت مش عايزهم أصلًا

سقط فك سامح ما إن أدلى تلك الحقيقة الأخرى وبقي يرمق زكريا بنظراتٍ متوٌعدة قال معها:

-إنت بِعت الساعة الرولكس بتاعتي!!

إزدرد زكريا غصته ما إن أدرك اعترافه الأحميق الذي جعله يثب بسرعة حتى يهرب من نظرات سامح التي كادت تلتهمه حيًا، فكان يتراجع زكريا للوراء ويتحرك سامح أمامه بنظراتٍ نارية دون أن يكترث إلى تبريرات زكريا المتوترة:

-بُص أنا هفهمك ... أنا بس كنت مزنوق في قرشين عشان_

قطع سامح تبريراته بانقضاضه عليه كالاسد الذي ينقض على فريسته ويلقاها صريعة:

-دا إنت ليلتك مش معدية يا ابن عمي...

أطلق زكريا صرخاتٍ مستنجدة وهو يركض بعيدًا عن سامح الذي طفق يركض وراءه بتوّعدٍ بينما كانت سارة تتابعهما بقهقهاتٍ حارة كما كانت سما بالضبط، فقد تناست ضيقها وهمومها وبقيت تتابع هذين اللذان يُطاردا بعضيهما كما الفأر والقط...

بعيدًا عن تلك المطاردة وداخل المطبخ، كانت تُساعد بدور جدتها بإعداد الطعام، بل كانت تُعده بنفسها وتنصت إلى تعليمات جدتها التي كانت تجلس على مِقعدٍ خشبي وتتسامر مع بدور من الحين للآخر بخلاف تعليماتها التي تُلقيها على بدور وهي تُعد تلك الأكلة المصرية المشهورة والتي تتكون من العديد من أنواع الخضروات والتي يتم حشوها بخليط من الأرز والبصل والخُضرة مع مزيج من البهارات وغيرهم من المكونات، فكانت بدور مُنهمكة بحشو حبات الباذنجان إلى أن أتتها مكالمة هاتفية جعلتها تترك ما تفعله كي تُجيب عليها...

وضعت الهاتف على أذنها وطفقت تسأل بحيرة:

-أيوة مين معايا ؟

ما إن أتاها الرد من الجهة الأخرى حتى تغيرت عوالم وجهها إلى الحدة لتردف بعدها:

-معتصم !! ... عايز إيه ؟

هرعت خارج المطبخ بعد أن غسلت يديها وجففتهما بسرعة، حاولت الاختباء في رُكنٍ ما حتى تستطيع التحدث معه بأريحة، أو بالمعنى الأصدق، تستطيع الصراخ بوجهه كما تشاء، فهي أخبرته مرارًا ألا يتصل بها مُجددًا، وهو لا ينفك يتركها وشأنها ودائمًا ما يُحاول الاتصال بها رغم أنها حظرت أرقامه أكثر من مرة...

-لو منزلتيش تحت البيت دلوقتي أنا هطلع واعملِك مشكلة

هتف معتصم بتلك الجُملة ليجعل أطرافها ترتجف وهي تهتف بقلقٍ حمل معه بعض الخوف خاصة من لكنته الصاخبة:

-إنت بتقول إيه ؟ .. أكيد مش هينفع أ_

قطع حديثها بلكنة صارمة تحمل كمًا من الغضب:

-أنا قولت إللي عندي ... لو منزلتيش دلوقتي هطلعلك واعملِك مشكلة

تأففت بقلقٍ وتوترٍ لكنها بالنهاية لم تجد حلًا أمامها سوى الموافقة:

-ماشي ... ثواني وجاية

انتهت المكالمة هنا لتُغلق الهاتف بعدها وتُخبر جدتها أنها ستذهب لابتياع غرضٍ ما من متجر الأدوية، وافقت جدتها بالطبع على أمل ألا تتأخر لأن الوقت كان متأخرًا، لذلك قررت أن ترتدي سُترتها السميكة وتترك المنزل بسرعة قبل أن تتقابل مع سامح ويصّر على النزول معها وهي لا تُريد ذلك أبدًا، فعلى الرغم من أن ضربات قلبها تضرب بسُرعة البرق إلى أنها قررت إنهاء ما بينها وبين مُعتصم إلى الأبد...

كان ينتظرها أسفل درجات السُلم بعوالم غاضبة جعلته يتحرك في كل مكانٍ إلى أن لمح طيفها تنسل الدرج وتقف قبالته بعوالم مقتضبة قالت معها:

-نعم ... عايز مني إيه ؟ ... قولتلك أنا مش هرجعلك

واجهها بنظراتٍ حاقدة قال معها:

-هو ده إللي إنتِ سبتيني عشانه ؟ ... هو ده إللي فضلتيه عليا ؟

بالطبع كان يتحدث عن سامح، فهو يُراقبهما منذ فترة طويلة جعلته يعتقد أن هناك شيئًا بينهما، مع أن الحقيقة أنه مجرد صديقٍ لها ليس إلا، او هكذا تقنع ذاتها حتى تتداوى جروح الماضي وتغفر له عما سلف...

ربطت ذراعيها لتواجه نظراته النارية بأخرى متحدية قالت معها:

-أولًا ده شيء ميخصكش ... ثانيًا بقى سبني في حالي

بصقت تلك الكلمات وكادت تصعد الدرج إلى أنه قبض على ذراعه ليستوقفها ويجعلها تلتفت له بنيرانٍ مشتعلة بسبب قبضته الحادة:

-إبعد عني...

بقي مُتشبثًا بذراعها لتتحوّل نظراته النارية إلى أخرى مُستعطفة أبرزت مدى معاناته، فهو يتألم يوميًا بسبب إبتعادها عنه وهي لا تشعر بذلك البتة، أو الحقيقة أنها تشعر بأضعاف أوجاعه لكنه لا يعلم ذلك...

-بدور ... أنا بموت من غيرِك ... خلينا نرجع زي الأول ... أنا مستعد أبعد عن العالم عشانِك

توترت أكثر من نبرته وشعرت ببعض الشفقة وكأنها على وشك الانجراف لحديثه الهائم مجددًا، فهو كالسُم الذي ينثر سمومه ويُفتك بمن أمامه بطريقة ماكرة أصابتها أكثر من مرة ... لكنها لن تسمح له بأن يخدعها بسُمه مجددًا، فهي أقسمت على إنهاء تلك العلاقة مهما حدث...

جذبت ذراعها بعيدًا عنه لترميه بنظراتٍ قاسية قالت معها بصرامة:

-مش هينفع_

قطع حديثها باندفاعٍ كادت تتساقط معه الدموع:

-ليه مش هينفع ؟ ... ما إحنا كانت حياتنا كويسة وكنا خلاص هنتجوز... قوليلي إنتِ عايزاني أعمل إيه وأنا هعملهولِك

كادت تقع مجددًا أمام نظراته المستعطفة لكنها للمرة الثانية على التوال تماسكت من أجل مستقبلها ولأنها تعلم جيدًا أنها إذا واصلت حياتها معها فستتحوٌل حياتها إلى كُتلة من المشاكل ... لذلك حافظت على ثباتها وهي تحاول إنهاء الحديث معه بنبرة مترددة جاهدت لتجعلها ثابتة:

-مش هينفع عشان ... عشان أنا وسامح هنتجوز... !!

الفصل الثالث عشر (طعنة عاشق)

"لا تتخذ دور الضحية، لأنك إذا اتخذته ستتلقى صفعات الحياة بكثرة حتى تجعلك تفقد ما تملك"

____

إن كانت نيران الجحيم تتلخص في كلمة، فهي تتلخص به الآن ... فما إن أدلت تلك الجُملة وهو يكاد ينفجر صارخًا بوجهها، بل يكاد يُحطم كل ما يُقابله أمامه، كيف بهذه السُرعة تتخلُى عنه ؟ .. ألم يكن هذا عِشقًا ؟ هل كانت تلهو بقلبه طيلة هذه المُدة ؟

هذا ما كان يدور بخُلده ما إن أخبرته أنها ستتزوج بسامح، أما عنها فكانت في دوامة من التُخبط، لا تعلم ما الذي قالته وكيف تقوله بهذه القساوة، فهي للتو أوقعت نفسها بنيرانٍ مُجحفة لا أحد يستطيع الهرب منها...

وجدته يتقدم نحوها بنظراتٍ أذابت عظامها من الرُعب، نظراتٍ لم ترها عليه من قبل وكأنها أطلقت الوحش الكامن بداخله بسبب بضعة كلماتٍ بسيطة وكاذبة...

-تتجوزو !! .... بالسُرعة دي!

كان صوته هادئًا لكنه لم يفشل ببث الرعب بداخلها مما جعل أطرافها تتصلب مكانها وتبقى في حالة من الصمت أمام نظراته، ابتعد عنها بضعة أمتارٍ ليبصق آخر كلماتٍ لديه بتهديدٍ مُبطن وابتسامة خبيثة:

-ألف مبروك ... بس متنسوش تعزموني ... عشان أشعللكم الليلة

أنهى الحديث ببسمة خبيثة زادت شعورها بالرُعب، فما إن تركها ورحل حتى التقطت أنفاسها بهلع سبُت معه نفسها على ارتكابها لتلك الحماقة، بل وكانت تقرض آظافرها برُعب كادت تتأكد معه أن ما سيرتكبه مُعتصم لن يضحى هينًا أبدًا....

____

أشرقت شمس يومٍ جديد وكانت سما داخل المركز بعد أن استعادت ما فقدته من طاقتها وقررت تخطي الأمر والبدء من الجديد، فما الحياة إلا بدايات جديدة تتجمع معًا لتخلق نهاية عادلة لهذه التعثرات...

تقف أمام الفتيات لتجعلهن يصطفن بجوار بعضهن ويؤدين حركاتٍ متناغمة هادئة مع تلك الموسيقى التي تغلغلت طياتها أركان المركز، كانت تتحرك سما بينهن لتُلقي تعليماتها بطريقة حنونة تتبعها بنصيحة تُساعد الفتيات على إتقان تلك الحركات بطريقة أسهل..

بعد فترة من التمرينات، شعرت الفتيات بالإرهاق الشديد؛ لذلك أعطتهن سما قِسطًا من الراحة لتترك هي المركز كي تبتاع زجاجة من المياه من البقالة المجاورة، لكنها ما كادت تترك المركز حتى...

قطع مراد طريقها بعد أن أتى ومعه عُلبة كبيرة من الشوكولاة الفاخرة، وثب أمامها مباشرة يحاول بدء الحديث معها باعتذارٍ حمل معه التوتر والندم:

-أنااا... عرفت كل حاجة ... وبجد مش عارف إزاي زعقت كدة امبارح

رمقته سما بعوالم جامدة حاولت معها تخطيه ومواصلة سيرها بلامبالاة:

-ماشي يا مراد ... بعدين نتكلم

لم تكد تخطو خطوة حتى أوقفها مراد مجددًا بإلحاحٍ شديد:

-طب مش عايزة تعرفي أنا ليه شكُيت فيكي ؟

لا تعلم لما شعرت بالغضب من حديثه لكنها توقفت عن السير كي تهتف بوجهه بحدة :

-لأ مش عايزة أعرف ... عشان المفروض تكون عارف كويس إني لا يُمكن أعمل حاجة زي كدة

كانت نبرتها مُرتفعة غاضبة إنتقمت بها عما تسبب به البارحة، فقد كانت تنتظر مجيئه حتى يُربت على كتفها ويواسيها كما يفعل دائمًا، لكنها تعجبت من كونه يصرخ بوجهها كما لو أنها بالفعل مُذنبة، حتى أنه لم يُمهلها فُرصة التبرير لنفسها وإثبات براءتها...

تقدم نحوها خطوة أخرى ولم يتخلّى عن هدوءه المُعتاد وهو ينكس رأسه بندمٍ ويقول:

-أنا آسف ... وهفضل أقولِك آسف لغاية ما تسامحيني...

صمُت بُرهة عن الحديث لتتحوّل عوالمه إلى الضيق وهو يُخرج ما بجعبته:

-أنا بس عايزِك تعرفي ... إن دي مش أول مرة ... مش أول مرة أحس إن حد جرحني

لاحت عوالم الحيرة على وجهها وتحلّت بالصمت أمام حديثه الذي أدلاه بصعوبة بالغة:

-إحنا كنا عايشين في بيت كبير .... أنا وبابا وماما وإخواتي ... بس ... فجأة كل حاجة راحت ... وماما هي السبب

بتر حديثه عنذ تلك الجملة مما أوقد بداخلها نيرانٌ من الفضول وهي تسأله بصوتٍ خافت:

-السبب إزاي ؟

تنهد ليستجمع هدوءه ويرمق عينيها البندقية كي يستطيع مواصلة الحديث بثبات:

-كانت بتحب صاحب بابا .. واتفقت معاه ياخدو كل حاجة ... وفعلًا عملو كدة، أخده المطعم، وأخدو الفيلا إللي كنا عايشين فيها ... ضحكو على بابا وأخدو كل حاجة .... وبابا من كُتر الصدمة جاتله سكتة دماغية ... قام بعدها مشلول ... ماما .. أو

إللي المفروض تبقى أمي ... استغلت الموضوع وطلبت الطلاق، بعدها اتجوزت صاحب بابا...

صمت بُرهة عن الحديث ليحاول كبت دموعه وتعرضه للخُذلان سابقًا:

-بس بابا مستسلمش ... وجاب عربية واشتغل عليها لغاية ما جاب فلوس تاني رغم إنه كان مشلول ... بس بعدها المرض شد عليه فبطل يشتغل تاني ... وأنا إللي فضلت أراعيه عشان إخواتي سافرو واتجوزو

تنهد للمرة الثالثة بعد أن أفرغ ما بجعبته، لم يكن يُريد إفصاح تلك الحقائق التي جاهد لإخفاءها، لكنها يجب أن تعلم سبب شعوره بالخُذلان الدائم، يجب أن تعلم أن تلك العقبات الماضية لها تأثيرٌ على حياته الآن...

أحست سما بالشفقة من حديثه خاصة مع نظرات الضيق المُنبثقة من عينيه والتي محاها مراد فورًا كي يُعطيها عُلبة الحلوة ويعتذر منها للمرة الثالثة:

-أنا آسف بجد ... وأتمنى تسامحيني وتقدري موقفي

مدٌ نحوها العُلبة فأمسكتها هي بوهنٍ ولا تزال تُفكر بماضيه المؤلم وتُفكر كذلك بتقبل أسفه، فهو وإن كان خاطئًا لا يجب أن تُحمله الذنب كله، فالذنب الأكبر يقع على عاتق من أرسل هذا الحقير إلى مركزها وليس هو بُتاتًا ... لهذا السبب أمسكت منه عُلبة الشوكولاة بنظراتٍ تائهة كادت تتحدث بعدها لولا استماعها لصوت فتاة يأتي من وراء ظهرها:

-كابتن سما ... إحنا مش هنبدأ ؟

التفتت سما لتلك الصغيرة التي تُناديها وتجعلها تنتبه إلى كونها في مُنتصف التمرينات، لهذا السبب استأذنت من مراد متفوّهة بهدوء:

-أنا همشي عشان التمرين...

أوقفها مراد كي يُنبئها:

-هستناكي

أومأت سما رأسها دون أن تنبس ببنت شفة ثم واصلت تحركها تجاه الحُجرة التي يتم بداخلها التمرينات، تتجاهل نظراته الهائمة والتي آصابتها بالارتباك ... لكنه ارتباكًا مُحببًا إليها....

____

أوشكت الشمس على المغيب وكانت يقين داخل سيارة حديثة الصيحة تجلس داخلها بأريحيتها المعتادة، حيث كانت تضع قدمًا فوق الأخرى وتستند بهما على طاولة السيارة ... أما بجوارها فكان يجلس فضل يتوّلى قيادة السيارة التي هي سيارته، فهو أخبرها أن تأتي معه لزيارة أحد الأطباء المُختصين بمرضها كما وعدها سابقًا...

-هو إنت متأكد من الدكتور ده ؟

سألته بشكٍ وهي داخل سيارته فآجابها بثقة:

-أنا أضمنهولِك برقابتي ... ده الناس كلها بتحلف بشطارته

أخذت تُتمتم بقرارة نفسها وهي توميء برأسها بلامبالاة:

-أما نشوف...

مرٌت بعدها بُرهة من الصمت قطعها فضل مستفسرًا:

-مكنتش متوقع إنك هتوافقي تركبي العربية معايا عادي ... كنت فاكرِك هتخافي لاخطفِك ولا حاجة

كان يتوقع ارتباكها وترددها لكنه تفاجأ بصراحتها المُفرطة:

-وأنا يوم ما هخاف هخاف من واحد زيَك

كانت جُملتها تحمل بعض الإهانة، فهي للتو كانت تسخر من جسده النحيل وقامته القصيرة نسبيًا، هذا ما جعله يُحمحم بحرجٍ ويُتمتم بقرارة نفسه:

-إيه قلة القيمة دي

ما هي إلا بُرهة حتى زارته لمحة من الغضب من حديثها جعلته يهتف بوجهها بصرامة:

-طب نزلي بقى رجلِك عشان العربية دي عليها إقساط

حمل صوته بعض الغضب انتقامًا منها على إهانته، لكنها استجابت لحديثه وأنزلت قدميها من على الطاولة دون أي اعتراض، فلايزال هو يُتمتم بقرارة نفسه وهي تتابعه بصمتٍ ولكن بداخلها يسخر من هيئته...

بعد بُرهة أخرى من الصمت هتفت يقين ببعض القلق الذي تسرب إليها فجأة:

-أنا حاسة إن الدكتور ده مش هيعمل حاجة ... أنا قولتلك من الأول المرض ده ملوش علاج

حاول فضل طمأنتها وهو لا يزال منغمسًا في القيادة:

-يا بنتي قولتلِك ثقي فيا ... كل حاجة هتبقى تمام ... وأوعي تخلي حاجة توقفنا

ما إن أدلى تلك الجملة حتى أحس بالسيارة التي أصدرت فجأة بعض الأصوات حتى توقفت كليًا، فما إن توقفت حتى انفجرت يقين بالضحك سخرية من هذا الموقف ... أما عن فضل فكان يرمق سيارته بذعرٍ هتف معه:

-إنتِ وقفتي ليه ؟

آجابته يقين من بين قهقهاتها:

-تقريبًا كدة بتتحداك

اغتاظ فضل من سُخريتها فهتف بوجهها بحدة:

-بتضحكي على إيه ؟ ... العربية باظت

نفت يقين حديثه بثقة بسبب خبرتها بالسيارات:

-مباظتش ... ده الكاوتش فرقع

قطب حاجبيه بحيرة وهو يسألها:

-وإنتِ عرفتي منين ؟

أرخت ظهرها للوراء وهي تُجيبه بتعالٍ:

-محسوبك الأسطا يقين ... كنت شغالة خمس سنين في ورشة عم صُبحي الميكانيكي

اعتدلت بعدها بجلستها كي تسأله بجدية:

-معاك إستبن ؟

أومأ فضل رأسه إيجابًا وهو يُجيب:

-أه في شنطة العربية

فتحت يقين باب السيارة وطفقت تترجل منها وهي تقول بأمرٍ:

-على بركة الله ... هاته وتعالى ورايا

تبعها فضل بتيهٍ ليتجه صوب حقيبة السيارة ويُخرج منها إطارًا آخرًا وبعض المُعدات التي طلبتها يقين وأخذتها منه كي تضعها أسفل الإطار المثقوب لترفع بعدها السيارة وتحاول نزعه بمهارة أمام نظرات فضل التي كانت تتُابعها بإعجاب..

-هتفضل تبحلق كتير .. ما تيجي تساعدني

قالتها يقين بحدة جعلته يترك أحلامه وتأملاته ليقع على أرض الواقع وحقيقة أن تلك الفتاة لا يوجد في مثل قوتها وثقتها، فكونها تختلف عن الجميع يجعل تعلقه بها يزداد يومًا عن الذي يسبقه....

____

تجلس على إحدى المصاطب أمام مركزها بعد أن أنهت التدريبات وكانت على وشك الرحيل، يجلس مُراد جوارها يتأمل السماء البنفسجية والتي يُصاحبها نسمات عليلة تلفح وجهه، كان يرخي ظهره للوراء ويستند على إبطيه أثناء إنصاته لحديثها المُحمل ببعض القلق:

-أنا بجد خايفة من المسابقة ... بس بحاول مبينش عشان البنات

حاول طمأنتها من تلك المسابقة التي دائمًا ما تتحدث عنها منذ أن سجلُت يقين اسم فريقها، فهذه المسابقة بمثابة أول تحدٍ تواجهه ولا تعلم كيف سينتهي...

-إعملي إللي عليكي والباقي سبيه على ربنا ... أكيد مش هيضيع تعبِك

آمنت وراء دُعاءه لتمر بينهما بُرهة من الصمت قطعها مجيء صبيًا صغيرًا يبدو بالعاشرة من عُمره، لكن الغريب أنه أتى وحده ويبدو أنه ينحدر من عائلة مرموقة بسبب ثيابه الأنيقة المكونة من سُترة رياضية سوداء أسفلها سروال رمادي يبدو أنه من ماركة أصلية، ناهيك عن خُصلات شعره الكثيفة المُجعدة التي تتناسق مع هيئته الواثقة...

وثب هذا الصبي أمامهما كي يسأل بثقة:

-هو إنتو بتدربو رقص هنا ؟

تبادلت النظرات بين سما ومُراد الذي اعتدل بجلسته كي يُجيب الصغير بوٌد:

-أيوة ... عايز حاجة ؟

أومأ الصبي إيجابًا وهو يقول:

-أه ... عايز أتمرن معاكم

ترددت سما قليلًا قبل أن تعترض حديثه بلطافة:

-بس إحنا ... مش بنمرن غير بنات

أفأف الصغير بضيق حاول بعده إقناعهم:

-بس أنا برقص حلو ... لو مش مصدقاني أنا ممكن أوريكي

إزدادت شكوك سما حيال الصبي فسألته كي ترضي فضولها:

-هو إنت جاي لوحدك إزاي ؟ ... وعرفت عننا منين ؟

آجابها الصبي بثقة عرٌف معها نفسه:

-أنا اسمي مدثر ... وشوفت الإعلان على النت ... فقولت للسواق يجبني هنا عشان أهرب من تمرين الكراتيه...

تنهد بضيقٍ وهو يحني رأسه لأسفل:

-أنا مش بحب الكراتيه ... وبابا وماما مش عايزني أتعلم الرقص، بيقولو إنه بتاع بنات ... مع إني برقص hip hop و ... free style وممكن أوريكم لو مش مصدقين

تبادلت النظرات مجددًا بين سما ومراد ثم عاودت سما التحديق بمُدثر ونظراته المترجية التي جعلتها تومىء برأسها حتى لا تتسبب بإحراجه:

-ماشي يا مُدثر ... تعالى جوة ورينا

اتسعت بسمة الصبي وهو يدلف معها المركز كما دلف وراءهما مراد حتى وصلوا إلى حُجرة التدريبات، فما إن ولجت سما تلك الحُجرة حتى اتجهت فورًا صوب المذياع كي تفتح إحدى الأغاني الحماسية وتثب عند الجدار كي تترك مساحة لمُدثر ليتمايل مع تلك الأغنية بأريحية...

فكانت تقف بجوار مراد تستند على الحائط وعلامات الذهول والإعجاب على وجهيهما من ذاك الصبي الذي يتحرك ببراعة مع تلك الأغنية الحماسية، حيث كانت قدميه الصغيرة تتحركان بعشوائية وجذعه يتحرك بليونة تتنافى مع كونه صغيرًا، بخلاف حماسه وقفزه باستدارة تناغمت مع الأغنية وأشعلت الأجواء حولهم، فمن كثرة حماسه جعل كلًا من سما ومراد يهتزان برأسيهما مع تلك الأغنية ورقصته التي كانت سما تُصفق من أجلها...

ما إن انتهت الأغنية حتى وقف مدثر يلهث بإرهاق وقطراتٍ من العرق تنساب على جبينه بسبب هذا المجهود الذي بذله، أما عن سما فكانت تُصفق له بحرارة ثم تقترب نحوه وتنحني بجذعها بابتسامة إعجاب لا تزال على وجهها...

-برافو عليك ... إنت عندك كام سنة ؟

آجابها بسرعة وثقة:

-تسعة

تعجبت سما من صِغر سنه الذي لا يتوافق أبدًا مع تلك الموهبة، فكانت تسأله بحيرة:

-ومين إللي علِمك الرقص ده ؟

-كنت بتمرن مع كابتن جوزيف ... بس بابا

أحنى رأسه وهو يواصل بضيق:

-بابا خلاني أسيب التمرين عشان بيقولي إنه تمرين بنات بس

همهمت سما بتفهمٍ ثم سألته بفضول:

-طب إنت عايز تتمرن معانا ؟

أومأ مُدثر رأسه بحماسٍ فسألته سما مُجددًا:

-إشمعنا إحنا بقى ؟

آجابها مُدثر بثقته المُعتادة:

-عشان المركز قُريب من تمرين الكُراتيه وبابا مش هيعرف إني بروح ... وكمان عشان حبيت الإعلان وكنت عايز آجي هنا

رمته سما بابتسامة واسعة ربتت معها على كتف مُدثر وهي تقول:

-ماشي يا مُدثر ... من بُكرة تيجي تتمرن معانا إتفقنا

هلل مُدثر بسعادة تشكر معها سما قبل أن يترك المركز بجسدٍ يتراقص من الفرح رغم أن سما آرادت الحديث مع والده كي تُحاول إقناعه بتلك الرياضة التي تُناسب جميع الفِئات وليس الفتيات فقط كما يظن بعض الأشخاص ... لكنها ستؤجل تلك الخطوة حالما تتأكد أن بإمكانها تلقين مُدثر تلك المهارة جيدًا...

إقترب مراد من سما حتى وقف خلفها كي يسألها بحيرة:

-إزاي قولتيله ييجي والمركز للبنات بس ؟

التفتت نحوه سما لتُجيبه بصِدقٍ وقلة حيلة:

-عايزني أعمل إيه ؟ ... الولد موهوب جدًا ... كمان أنا بفكر أعمل فرقة للولاد ... وهيشاركو معانا في العروض بردو

قطب حاجبيه بحيرة من حديثها حتى سأل:

-إزاي ؟؟ ... إنتِ بتعرفي باقي أنواع الرقص ؟

وضعت يدها على خِصرها وهي تُجيبه بتعالٍ:

-أنا بعرف أرقص كل الأنواع ... بس بحب البالية أكتر حاجة ... ده غير بقى إني بفكر...

تجوّلت داخل المركز وهي تواصل حديثها بتخيلٌ:

-بفكر أمزج بين البالية والـ free style ... ويبقى لينا عروضنا الخاصة وإللي هنكون مميزين بيهم... ومن بُكرة هخلي يقين تبدأ تعمل إعلانات لفريق الصُبيان ... بس طبعًا مش هيكونو بيتمرنو مع البنات إلا في العروض الكبيرة بس...

وهكذا انتهت قراراتها وتلك التوّسعات التي ستفعلها عاجلًا أم آجلًا حتى يتوّسع مشروعها أكثر ويتهاتف به الجميع...

____

مرّت عدة أيام لم تتعدى الأسبوعين، ها هُم الآن يجتمعون داخل المنزل الخاص بجدتهم ومعهم كلًا من مراد ويقين بعد أن أصرّت جدتهم أن يأتوا ليتشاركوا معهم

وجبة الغداء، فبعد أن امتلأت بطونهم بتلك الوجبة الشهية حتى تفرق الجمع وكانت بدور تُساعد جدتها بضب الطعام وكذلك تفعل سما ويقين التي أصرّت على مساعدتهن .. أما عن مُراد فكان يجلس على الأريكة بجوار سامح الذي كان يتسامر معه بمرحٍ حتى اقتحم زكريا جلستهما متفوّهًا:

-بقولك إيه يا مُراد

قالها زكريا بحكمة زائفة جعلت مراد يُطالعه بحيرة وعلامات استفهام حتى واصل زكريا الحديث بنفس ذات اللكنة:

-هو ليه مش عارفين نحس بالراحة ؟ ... يعني أنا دلوقتي .. عندي وقت وعندي صحة .. بس مش عندي فلوس ... ولما أكبر واشتغل ... هيبقى عندي فلوس وعندي صحة .. بس مش هيبقى عندي وقت .... ولما أعجز وأسيب الشُغل ... هيبقى عندي فلوس وعندي وقت ... بس مش هيبقى عندي صحة ... ليه مفيش راحة ليه ؟

أنهى حديثه المُتذمر بصياح جعل جسد مراد يرتد للوراء أمام جسد زكريا الذي إقترب نحوه كي يرى عوالم تذمره من هذه الحياة، ما هي إلا بُرهة حتى عاد زكريا إلى حكمته كي يهتف آخر جُملة أمام نظرات مُراد الحائرة:

-صحيح ... أنا بتكلم عن الراحة ليه ... وكيس الشيبسي بقى بسبعة جنيه

رسم مراد بسمة خافتة على ثغره بينما لاحظه سامح فآحاط ذراعه برقبة مراد ليُشير بعدها نحو زكريا متفوّهًا:

-دا زيكا ... ياريت متقربش منه عشان هيخليك تتحوّل في ثانية

اتسعت بسمة مراد وهو ينفي حديث سامح بوٌد:

-ليه ؟ ... دا شكله لذيذ

انصدم سامح من حديث مُراد مما جعله يُشير على زكريا متفوّهًا:

-دا لذيذ !! ... إنت مش شايف الابتسامة

انتبه زكريا لحديثه فرفع لهما حاجبيه مع ابتسامة ماكرة زيّنت ثغره وأكدت على تحذيرات سامح...

تحدثا بعدها لفترة حتى اقتحمت سارة جلستهم كي تتعرف على ذاك الضيف وتسأله كعادتها:

-أبيه مُراد...

انتبه لها مُراد فأكملت سؤالها:

-هو التعبان ... بيبيض منين ؟

قطب حاجبيه بحيرة من سؤالها الغريب مما جعل سامح يُحيطه مجددًا ويُحذره للمرة الثانية بقوله:

-دي كمان سيبك منها عشان هتسأل أسئلة ملهاش إجابات...

وهكذا استمر الحديث بينهما ما بين مُزاحٍ ومرحٍ وسُخرية من تلك العائلة المجنونة...

على جهة أخرى كانت تقف يقين داخل الشُرفة تحمل هاتفها الذي كانت تنقر بأصابعها على بعض الحروف وابتسامة تُرتسم على شفتيها مما جعلت سما تُلاحظها وتقف جوارها داخل الشُرفة تستند على السور قبل أن تسألها:

-دا مين إللي واكل عقلِك ومخليكي تضحكي ؟

آجابتها يقين بابتسامتها التي لم تُمحى دون أن تنتبه لما تقول:

-دا فضل

همهمت سما بتفهمٍ أكد بداخلها بعض الشكوك التي جعلتها تسأل بمشاكسها:

-قولتيلي ... جدع أوي الواد فضل ده مش كدة ... لأ وابن ناس ودكتور في الجامعة رغم إن شكله صغير ...

أومأت يقين رأسها دون أن تنتبه إلى أسئلة سما لأنها مُنشغلة بتلك المحادثة، ما إن رأت سما لهفتها حتى واصلت استدراجها بالحديث بقولها:

-طب إيه ... مش هنفرح بيكم ولا إيه ؟

هنا وقد انتبهت يقين لحديثها مما آصابها بالإحراج ومحى ابتسامتها كي تبتعد بأنظارها عن الهاتف وتُجيب بتوتر وبلاهة:

-إيه ... هتفرحو بمين ؟ ...

رفعت سما حاجبيها وهي تحاول استدراجها مجددًا:

-هيكون بمين .. إنتِ وفضل ... عمالين تتودودو وكل شوية ينطلنا في المركز وإنتِ ما شاء الله ما بتصدقي تشوفيه عشان ترغي معاه

توترت يقين أكثر وهي تُحاول نفي حديثها:

-لــ ..لأ مفيش الكلام ده ... إحنا أساسًا بنتكلم عن الدكتور ... وهو بيساعدني عشان المرض إللي عندي

أنهت حديثها بسخونة تسري بجسدها وكادت تجعل وجهها يتغير للون الأحمر، أما عن سما فبقيت تتفحص معاني وجهها وحرجها لتتأكد شكوكها أكثر، كذلك هي تعلم بذاك المرض الذي أخبرتها عنه يقين فيما سبق لذلك لم تتفاجأ حينما أخبرتها، لكنها تتفاجأ من محاولات يقين للتهرب من مشاعرها...

-وفيها إيه لما يكون في حاجة بينكم ؟_

قطعت يقين حديثها باعتراض:

-لأ طبعًا مينفعش ... أنا مش عايزة أخلف ومش عايزة أخلّى حد من عيالي يورث المرض ده تاني ... هما أكيد مش هيستحملو

أنهت حديثها بضيقٍ حاولت سما تخفيفه وهي تُحاوط يقين بذراعه لعلها تنصت إلى نصيحتها:

-مينفعش توقفي حياتك عشان حاجة مش بإيديك ... وبعدين لو خلفتي ... ولادك هيكونو أقوية زيِك... ويا ستي إنتِ بتفكري في العيال ليه دلوقتي ... مش لما تتجوزي الأول

أنهت حديثها بمرحِ جعل الابتسامة تتكوّن على ثغر يقين رغم الهموم التي لا تزال على كاهلها خوفًا مما يحمله مستقبلها، فهي لن تقبل أن تقع في براثن العشق وهي مع ذاك المرض الذي من الممكن أن يتوارثه أبناءها ويجعلهم في تلك المعاناة التي تعيشها، وهي لا تريد هذا البتة ... فرغم أنها لا تشعر بالألم، إلا أنها لا تزال تشعر بالمعاناة...

جذبت سما ذراعها كي تتحرك معها إلى الداخل وتطرد همومها جانبًا لتبدأ بعدها سهرتهم ويجتمع الجميع داخل البهو يتناولون المقرمشات ويشاهدون إحدى الأفلام تارة وتارة أخرى يلعبون البطاقات والعديد من الألعاب المسلية...

فكان صوت ضحكاتهم ومزحاتهم يصدح في كل مكان مما جعل يارا الماكثة داخل حُجرتها تراقبهم بغلٍ دفينٍ وداخلها يحقد على تلك العائلة التي لا تهتم لأجلها ولا تكترث لها، فهي تريد الإنتقام منهم لأجل أوهامٍ تنمو بداخلها ولن تتوقف عن النمو دون أن تُفرق بينهما مُجددًا....

____

انتهت تلك الأمسية وأمسى الجميع يعود أدراجه إلى منزله والسعادة تتغلغل بداخله بسبب هذا اليوم، آخر من ترك المنزل كان سامح، حيث كان يقف أمام الباب قبالة بدور التي يُداعبها بالحديث قبل أن يرحل إلى منزله لعدم مقدرته على المبيت معهم، فكان يقف قبالة الباب يُخبرها مودّعًا:

-أنا لازم أمشي بقى سلميلي على زوزو

بقيت بدور مكانها تهتف بوجه بتذمرٍ أدلت معه الحقيقة بمزاح:

-بقالك ساعة بتقول الجُملة دي ... بعدين إنت بتيجي كل يوم ... فيلا امشي بقى

رفع حاجبيه بعدم تصديقٍ لما قالته فطفق يرد عليها:

-إيه ده !! .. إنتِ بتطرديني ؟!

دفعته بدور بعيدًا عن الباب وهي تردف بنفاد صبر:

-أيوة بطردك ... يلا بقى عايزين ننام

رماها بابتسامة مشاكسة قبل أن يوميء برأسه موافقًا ثم يرحل عن المنزل كي تُغلق هي الباب والابتسامة لا تزال على مُحياها، فهي لم تكن تريد أن تقول أيًا مما قالته، بل حتى آرادت الحديث معه أكثر لكن الوقت أضحى متأخرًا وعليها الخلود إلى النوم، خاصة بعد هذا اليوم الشاق...

أما عن سامح فكان يُدندن إحدى الأغنيات بسعادة وهو ينسل الدرجات ويتجه إلى سيارته بذهنٍ لا يزال يُفكر بذاك اليوم ويُفكر أيضًا في اليوم الذي تعود إليه نصفه الآخر ويُعوضها عن تلك الأيام الماضية...

قطع سعادته شخصٌ يعرفه كل المعرفة، بل ويتعجب كذلك من ظهوره أمامه بذاك الوقت المتأخر وبتلك النظرات النارية المُنبثقة من عينيه مما جعل سامح يرمقه بحيرة وثباتٍ يُحسد عليه...

-أفندم !! ... ليك شوق في حاجة ؟

قالها سامح بحدة حتى يبتعد مُعتصم عن أمامه ويتركه يواصل طريقه نحو سيارته، لكن ما حدث أن مُعتصم لم يتحرك قيد أنملة وأخرج خِنجرًا كان بحوزته وقرّبه نحو معدة سامح وهو يقول بغلٍ دفين:

-جاي أقولَِك تبعد عن إللي ميخصكش

بصق تلك الجُملة وهو يدثر السكين داخل معدة سامح ليجعلها تتوّغل أحشاءه لينسل الدماء منه بغزارة...

أطلق سامح صرخة مكتومة وضع معها يده على موضع الإصابة وتلك النيران المُنبثقة من هذا الجرح، تدفقت الدماء بعروقه وتحوّل وجهه إلى اللون الأحمر من كثرة كُتمانه للألم وهو يحني جذعه وباليد الأخرى يحاول جاهدًا أن يدفع مُعتصم بعيدًا عنه...

لم يقف مُعتصم عند هذا الحد بل أخرج خنجره وطعنه طعنة أخرى حملت ما يكنيه من غِلٍ دفينٍ ورغبة عارمة من الانتقام ممن سلبه روحه؛ هوى سامح على ركبتيه بدماءه الغزيرة التي تتدفق من معدته وجسده الواهن الذي لم يتحمل الصمود أكثر وجعل غمامة سوداء تتكوّن أمام عينيه تلتها ارتماء جسده على الأرض حول بركة الدماء الناتجة عن تلك الطعنة التي طعنها عاشقٌ مجروحٌ....

الفصل الرابع عشر (العرض الأول)

"البداية ... هي أصعب مراحل النجاح"

____

صرير أصدره الباب عقب دخوله المنزل بأنفاسٍ متلاحقة وقطرات من الدماء لا تزال أثرها على يديه، خطا داخل المنزل الساكن لكن عقله لم يكن يتوقف عن التفكير، فتلك الأفكار تتزاحم داخل ذهنه لتجعل ضجيج عقله يتخطى ضجيج العالم بأكمله، فكانت عينيه جاحظة وجسده يرتجف برهبة لا يستطيع إظهرها وإلا كُشف أمره...

-لسة فاكر إن ليك بيت ؟ ... ولا السنيورة لسة ممشياك وراها زي الدلدول

قطع شروده تلك الكلمات الصادرة من والدته الجالسة داخل البهو تنتظر مجيئه على أحر من جمر، فهو بالكاد يأتي المنزل بالأيام السابقة...

كانت كلماتها كالقشة التي قصمت ظهر البعير، فسُرعان ما اشتعلت نيران عقله وكوّر قبضته حتى إبيضت مفاصلها، كل هذا في محاولات جاهدة منه كي يتحلّى بصمته ولا يفقد صوابه عليها، فهي بالنهاية والدته، وعليه إحترامها حتى ولو كانت السبب في تعاسته...

-ما تنطق ... ساكت ليه ...

وثبت من مقعدها لتتقدم نحوه وتهتف بوجهه بصرامة:

-مش قولتلك البت دي بتلعب بيك ... أديها قلشتك زي ما قولت ... بس أحسن .. عشان إنت الغلطان، أنا ياما قولتلك_

هنا ولم يعد يتحمل المزيد من حديثها، فقطعها بصراخ جعله يفقد كل ذرة من مبادئه وينفجر بوجهها كما لو كان قد فقد صوابه بتلك اللحظة:

-كــفاية بقى .... إنتِ إيه !! ... حرام عليكي ... إنتِ السبب في كل حاجة

تحوَّل وجهه إلى اللون الأحمر وكان شبيهًا بجمرة من اللهب وهو يتحدث، تقدم نحو والدته بنظراتٍ نارية أخافتها خاصة وهو يهتف بما يفيض بداخله:

-انا بسببك خسرت كل حاجة ... خسرت الوحيدة إللي بحبها ... وخسرت إللي كنت عايش عشانها ... وكل ده عشان إنتِ واحدة أنانية ... عايزاني أعملِك إللي إنتِ عايزاه غصب عني

توقف ليلتقط أنفاسه ثم يواصل بنبرة مبحوحة اختلطت ببكاء:

-إنتِ عارفة أنا عملت إيه ؟؟ .... أنا قتلت ... قتلت بسببك

لاحت عوالم الصدمة على وجه والدته رباب لتتقدم نحوه بعوالم الذعر التي امتزجت بحديثها:

-قــ.. قتلت !! ... قتلت مين ؟ .. انطق .. عملت إيه ؟؟

دفعها بعيدًا عنه ليواصل الحديث بنبرة صارخة امتزجت بدموعٍ نادمة على ما فعله:

-إبعدي بقى عني ... أنا مش عايز أشوفِك تاني في حياتي ... ومن هنا ورايح هعتبرك ميتة

بصق تلك الكلمات القاسية ليترك المنزل بعدها متجاهلًا والدته التي كانت تبكي وتناديه بحسرة وهو لا يُعيرها أي انتباه، فهو قد سئِم تلك الحياة، وسئِم تحكماتها التي جعلته يفقد صوابه كليًا....

دقت ساعة الصفر وكان الجميع يتجه إلى فراشه كي يخلد إلى النوم حتى يضحى على أتم استعدادٍ للغد وما يحمله من مفاجآت، فكانت بدور تقف أمام السراحة تُمرر فرشاة

الشعر على خُصلات شعرها المموجة الناعمة ثم تضع الفُرشاة مكانها فوق السراحة لتتج بعدها صوب الفراش حيث تستلقي سما على ظهرها استعدادًا للنوم...

-كان يوم مُتعب أوي بجد

ألقت سما تلك الجُملة بتذمرٍ ما إن استلقت بدور جوارها على الفِراش وغطت جسدها استعدادًا للنوم، فكانت بدور تؤيد حديثها بقولٍ:

-أه والله ... بس كان يوم جميل بردو

أيدت سما حديثها وبقيتا تتحدثان عن أحداث هذا اليوم ويُقهقهان بسُخرية على بعض المواقف، ما إن طال حديثهما حتى أردفت سما وهي تعتدل بالفراش لتُستلقي على إحدى الجنبين حتى تستطيع الخلود إلى النوم...

-خلاص يلا بقى خلينا ننام عندي شُغل بكرة

قالتها سما بتقريرٍ وافقت عليه بدور بابتسامة مرحة كادت بعدها تستلقي على الفراش، لكن فجأة...

صدى صوت سيارات الإسعاف الصادرة من أسفل البناية، لكن صوتها اخترق نافذة الحُجرة وجعل بدور تُقطب حاجبيها بقلق:

-إيه ده !! .. هو الإسعاف عندنا ليه ؟

استنتجت سما وهي لا تزال مُستلقية على فراشها:

-دا تلاقي طنط إسعاد جاتلها غيبوبة سُكر زي كل مرة

إزدادت حيرة بدور وهي تنفي استنتاج سما:

-يا بنتي طنط إسعاد بايتة عند بنتها ..

انتبهت سما لحديثها الذي جعلها تهتف بحيرة:

-بجد!! ... أومل الإسعاف جاية ليه ؟

نشبت نيران الفضول داخل أحراش بدور مما جعلها تثب عن الفراش حتى ترى من النافذة سبب مجيء سيارة الإسعاف، فكانت تثب عن الفراش وتهتف بتقرير:

-مش عارفة ... انا هشوف في إيه ؟

اتجهت بدور نحو النافذة بينما اعتدلت سما بجلستها تنتظر حتى تفهم من بدور ما يحدث بتلك البناية، فكانت تقف بدور أمام النافذة تُمعن التركيز بما يفعله الأطباء ومن هذا الشخص الذي يتم حمله على الفراش الأبيض ويبدو أن هناك بُقعة من الدماء يبرز أثرها على معدته، حاولت التحديق أكثر بهذا الجسد حتى...

أطلقت شهقة مدوية زادت من فزع سما التي سألتها بذعر:

-في إيه يا بدور ؟

ابتعدت بدور بسرعة عن النافذة كي تتجه إلى خزانتها وتفتحها بسُرعة وهي تُجيب سما بذعر:

-دا سامح...

جُدران بيضاء تُحيط هذا المكان مما يبعث انقباضة في القلوب، فلا أحد يأتي هنا دون أن يأتي معه الشعور بالقلق وربما الدموع الحارة، كانت تجلس سما على إحدى المقاعد المعدنية بدموع تنحدر على وجنتيها كما كانت بدور بالضبط، فمنذ أن شاهدا ما حدث لسامح حتى قررا ترك المنزل بسرعة دون أن يُخبرا جدتهما كي لا يزداد قلقها...

ما هي إلا بضع لحظاتٍ حتى أتى كلًا من يقين ومُراد بعد أن هاتفتهما سما وأخبرتهما ما حدث لعدم مقدرتها على الصمود أكثر، أخبرهما الطبيب أن حالة المريض حرجة وأنه فقد الكثير من الدماء مما يستدعي وضعه تحت العناية المُركزة، ربما كانت كلمات الطبيب طبيعية لكنها كانت أشبه بالخناجر التي تضرب صدورهما بلارحمة كلما فكرا بما حدث وما يُمكن أن يحدث له....

جلس مراد بالمقعد المجاور لسما وحاول تهدئتها قدر الإمكان بينما اتجهت يقين بدورها نحو بدور المُستندة على الجِدار تُفكر بما حدث بأعينٍ مُنتفخة وإحساس من الندم يتفاقم بداخلها ويُخبرها أنها السبب فيما حدث...

أحست بيد يقين وهي توضع برقة على كتف بدور كي تبدأ التربيت عليها بمواساة:

-إهدي يا بدور ... هيخرج منها ان شاء الله

إنفجرت بدور بتلك اللحظة وطفقت تهتف بين شهقاتها:

-أنا السبب ... أنا السبب...

لم تفهم يقين أي من حديثها لكنها رآتها ترتمي بأحضانها لتنهمر دموعها على صدر يقين التي لم تتوقف عن التربيت على ظهرها ومحاولة فهم ما حدث:

-مين قال إنِك السبب_

قطعت بدور حديثها وهي لاتزال مُجهشة بالبكاء:

-لأ أنا السبب ... أنا عارفة مين إللي عمل كدة

واصلت البكاء على صدرها حتى استوقفهما أحد الضُباط وهو يتقدم نحوهما ومعه دفتره الذي يدوِّن عليه، فكان يُحادثهما بلكنة رسمية صارمة:

-إنتو قرايب المجني عليه ؟

أومأو رؤوسهم إيجابًا فاعتدلت بدور في وقفتها كما حاولت سما تجفيف دموعها كي يستطيعا التحدث مع الضابط:

-ممكن أعرف لو في أي عداوة بين المجني عليه وبين أي حد ممكن يعمل فيه كدة ؟

نفت سما برأسها وهي تُجيبه بصوت واهن:

-لأ .. سامح مش عنده أعداء

آعاد الضابط سؤاله بصرامة:

-يعني مش شاكين في أي حد ؟

أردفت بدور بسرعة وثقة:

-لأ ... أنا عارفة مين إللي عمل كدة ... وعايزة أشتكي عليه....

بعد العديد من الأيام الصعبة التي لم تخلو من المعاناة وتنقلهم يوميًا بين المشفى والمنزل، فبعد أن عِلِمت جدتهم بالأمر وهي تُكثر من الصلاة والدعاء لحفيدها حتى تنزاح عنه هذه الغُمة ويخرج إليهم سالمًا...

كانت سما داخل المركز اليوم تنهمك بتدريب الفتيات من أجل تلك المسابقة التي إقتربت للغاية، فكانت تُلقي أوامرها على الفتيات وتارة تتحدث معهن بهدوءٍ وتُشجعهن بكل ما لديها من طاقة، كما أنها بالفعل أنشأت فريقًا للأولاد وتقوم بتدريبهم في وقتٍ آخر رُبما في المساء بعد أن تنتهي من تدريب الفتيات...

-الله ينور

اخترق مسامعها تلك الجملة التي تعلم صاحبها جيدًا، فما إن التفتت حتى رأت مراد أمامها يرميها بابتسامة ودودة مُحملة بالإعجاب مما تفعله مع الفتيات، كما كان يحمل معه هدية صغيرة تحتوي على فنجانًا أنيقًا كُتب عليه عبارة no pain no gain " "مما جعلها تتفحص هذا الفنجان بابتسامة واسعة أبدت معها إعجابها وتشكرها لمُراد الذي دائمًا يُغرقها بتلك الكلمات المُحفزة والهدايا البسيطة...

-أول ما شوفت الماج ده قولت لازم أجبهولك

تشرب وجهها بحُمرة طفيفة وهي تُجيبه بحرج:

-والله تعبت نفسك

تقدم خطوة نحوها بنظراتٍ هادئة تحاول الإبتعاد عن وجهها حتى لا يُصيبها بالحرج، فكان حديثه يخرج منه بهدوءٍ أراحها:

-ولا تعب ولا حاجة ... المهم تكون الهدية عجبتِك

رمته بابتسامة هادئة لم تنبس معها ببنت شفة وبقيت في وضعية صامتة حتى قالت:

-أنا لازم أروح أشوف البنات..

كادت تتحرك وتعود إلى الفتيات حتى استوقفها صوت صُراخ ينبعث من حُجرة التدريبات يصحبه ارتطامًا قويًا جعل سما تهرع داخل الحُجرة وقلبها ينبض هلعًا وخوفًا....

____

تجلس على إحدى المقاعد الخشبية داخل مركز الشُرطة الذي لأول مرة تدخله بحياتها، فهي لم تتوقع أبدًا أن تضحى سببًا في القبض على شخصٍ ما خاصة إذا كان هذا الشخص يُمثل الكثير بالنسبة لها، بل حتى أنها متأكدة أنه ارتكب جريمة كهذه بسببها، وهذا ما يُشعرها أكثر بالذنب والندم، كم سبُت نفسها على تلك الكذبة التي

أوهمته من خلالها أن هناك علاقة بينها وبين ابن عمها، فتلك الكذبة البسيطة كادت توّدي حياة شخصينٍ في رعيان شبابهما، وهي ستضحى المُذنبة الوحيدة في هذا...

قطع وصلة تفكيرها صوت باب المكتب الذي فُتح كي يدلف من خلاله مُعتصم وحالته يُرثى لها، فكان مُكبلًا بالأغلال وأسفل عينيه يتكون غمامة رمادية تماشت مع شحوب وجهه ولحيته التي أضحت كثيفة مع مرور الأيام، ناهيك عن جسده الذي أضحى هزيلًا وعضلاته التي أصبحت رخوة بسبب قلة اعتناءه بنفسه، فكانت حالته تزيدها إحساسًا بالذنب ومُقتًا لنفسها...

جلس أمامها على المقعد بأعينٍ حمراء منتفخة ونظراتٍ حاقدة تحمل بعض الشوق، تركهما الضابط حتى يتحدثا بأريحية، فبدأت هي الحديث بأطرافٍ مرتجفة لا تعلم من أين تبدأ، بعد فترة من الصمت وجدت نفسها تبدأ الحديث بهدوء حمل بعض العِتاب:

-ليه عملت كدة ؟ ... ليه وّديت نفسك في داهية ؟... أنا لو مكنتش متأكدة إنك عملت كدة مكنتش هبلغ عنك ... لكن إنت إللي أجبرتني

أنهت حديثها بدموع مكبوتة تكاد تُذرف من عينيها، لكنه استقبلها بهدوءٍ يتناسب مع النبرة التي بدأت بها رغم الحروق التي تُفتك بفؤاده:

-يعني متعرفيش عملت كدة ليه ؟ ... متعرفيش إحساسي بيبقى إيه وأنا بشوفِك معاه ؟...

تقدم بجذعه لينثر نظراته المعاتبة نحوها وهو يواصل الحديث بحسرة:

-أنا كنت بموت كل يوم وإنتِ مش حاسة بيا ... أنا لحد دلوقتي مش عارف إنتِ ليه سبتيني ... أنا أيوة غلِط ... بس صلحت غلطي، واتغيرت عشانِك .... ليه اتخليتي عني بعد إللي عملته ؟

لم تمنع دموعها بالإنهمار في تلك اللحظة التي جعلتها تُفكر في كم أنها بهذه الحقارة، كم أنها بهذه القسوة التي تسببت بتحطيم قلبٍ كل ما آراده هو نيل مرادها فقط...

حاولت استجماع ما تبقى من ثباتها وهي تحادثه بصوتٍ نادم:

-أنا أسفة ... أنا أسفة لو كسرت قلبك ... بس خلاص، قصتنا انتهت ... وأنا مش عايزاك تعلق نفسك بيا أكتر من كدة ... إنت من حقك تلاقي حد تاني يحبك وتحبه ... وللأسف أنا معرفتش أعمل كدة ... مقدرتش أنهي قصتنا زي ما كنا عايزين

حاولت تنظيم أنفاسها المتلاحقة وهي تتحدث معه إلى أن وجدته يردف بدموع تكاد تُذرف من عينيه:

-بدور ... أرجوكي خليكي .. أنا مش عايز أعيش مع حد غيرك_

قطعت بدور حديثه بنبرة صارمة رغم الغصة التي تتكوّن بأحراشها:

-هتعرف يا مُعتصم ... صدقني هتعرف تبعد عني ... وأرجوك كفاية ... كفاية تضغط عليا أكتر من كدة، أنا مش عايزاك تتأذي ... وأنا كمان هشوف حياتي

لم يتحمل مُعتصم وتيرة الفُراق التي تُلطخ حديثها فأخذ يصرخ بوجهها بين دموعه:

-يعني إيه !! ... إللي بينا ده كان أي كلام ؟

نفت حديثه بسرعة وبصوتٍ أجش:

-لأ كان حقيقي ... أنا فعلًا كُنت بحبك ... بس خلاص مش هقدر ... مش هينفع نفضل عايشين في صراعات للأبد .... مش هقدر أرجعلك .... أبوس إيدك انساني ...

بقي يضرب بقدميه على الأرض وينكس رأسه لأسفل ودموعه تنهمر بصمتٍ لتخلق أمطارًا غزيرة تنحدر أسفل قدميه، بقي صامتًا لفترة يُفكر فيما آلت إليه حياته وتلك الأغلال التي تُكبل رسغيه، فهو بحياته لم يتخيل أنه سيرتكب مثل هذا الجُرم، لم يتخيل أنه يُترك بتلك الطريقة، بل وحتى لا يعرف أي قرارٍ سيأخذ، فحديثها بدا صائبًا مئة بالمئة ... علاقتهما لم تخلق لتُكتمل، وخاصة بعد ما فعله، لهذا السبب قرر أن

يلكم فؤاده ويُقطعه بالخناجر حتى يزيحها عن رأسه... فالحياة ليست مُخيرة كما يظن الجميع، هناك قرارت يجب على المرء إتخاذها حتى لا تتدمر حياته وحياة الآخرين، وهذه القرارات لا يتأذى بسببها سوى الفؤاد والذي يضحى جرحه أصعب الجروح وأكثرها فتكًا...

رفع رأسه نحوها بوهنٍ كي يدلي آخر كلماته بصعوبة بالغة وكلماتٍ ثقيلة على لسانه :

-أنا آسف ... وأوعدِك مش .. هتشوفي وشي تاني...

لم يستطع التفوّه بأكثر من هذه الكلمات، فما إن ألقاها حتى دخل في دوامة من الصمت قطعتها هي وهي تثب عن المقعد وتترك مركز الشُرطة بعد أن رمته بنظراتٍ أخيرة ودموع متحجرة حاولت معها نسيان قصتهما البريئة ووضع خاتمة لحكايتهما التي لم تكتمل بالصورة المرادة، فليست جميع النهايات سعيدة، هناك نهايات تعيسة يصحبها بدايات أخرى لحياة ربما تضحى سعيدة وربما تضحى أشد قساوة....

____

تسارعت ضربات قلبها وهي تقتحم الحُجرة وترى هذا المنظر أمامها، فكانت هناك إحدى الفتيات ملقية على الأرض وحولها زملاءها يحاولن مواساتها ومعرفة ما بها، فكانت الفتاة لا تتوقف عن الصُراخ وهي تمسك كاحلها ودموعها تنهمر بتألم...

ركعت سما على رُكبتيها تحاول تحريك كاحل الفتاة لكن أوجاعها تزداد كلما وضعت سما يدها على ذاك الجرح، فما هي إلا بضع ثوانٍ حتى إزداد الوضع سوءًا وتضخم كاحلها ليتخذ بعدها اللون الأحمر، ولا تزال الفتاة تبكي وتصرخ حتى حاولت سما التدخل وقامت بإجراء بعض الإسعافات الأولية لكاحلها ثم ربطته بإحدى الأربطة الضاغطة بمساعدة من مراد الذي كان يُحاول حلٌ هذه المشكلة بكل ما أوتي من قوة ...

ما هي إلا بضع دقائق أخرى حتى أتى والدا هذه الفتاة وأخذاها إلى الطبيب حتى يتفحص جرحها والذي على الأغلب التواءًا...

كانت تستند سما على ظهرها تقرض أظافرها بتوترٍ بالغ ولا تزال بعض آثار الرهبة على وجهها، فهذه أول مرة تتعرض فتاة من فتياتها إلى إصابة كهذه، على الرغم من أن تلك الإصابات هي أمر طبيعي في رياضة كتلك...

-هعمل إيه دلوقتي ؟... المسابقة قرّبت وأكيد البنت دي مش هتعرف تعمل معانا العروض ... أساسًا الفريق عدده قُليل...

أفأفت بعد حديثها وبقيت تتحرك بأركان المركز وتوترها يتفاقم رويدًا...

حاول مراد التدخل ليُبدي بعض الحلول بحكمة:

-مينفعش تخلّي بنت تاخد مكانها ؟

اندفعت سما بوجهه وهي تعترض حديثه:

-بقولك العدد أصلًا قُليل ... والمسابقة قرّبت ... أنا مش عارفة أعمل إيه بجد

بقيت تتحرك حول نفسها بقلقٍ وتيهٍ وعقلها لا يزال يُفكر في تلك المسابقة حتى أوهمها أنها لن تربح ويجب عليها الانسحاب فورًا...

تدخل مراد للمرة الثانية بعد أن أتته فكرة ربما تنجدها من هذا المأزق، فكان يسألها بلهفة:

-هي مش أختِك بتعرف ترقص ؟

توقفت عن السير لتنتبه لحديثه بحيرة وتوميء برأسها إيجابًا، هذا ما دفعه لمواصلة اقتراحه بلهفة تزداد رويدًا:

-يبقى تاهت ولقيناها .. إنتِ تروحي تطلبي من سارة إنها ترقص معاكي في الفريق .. مش هي أختِك بردو ؟

بقيت تُفكر في اقتراحه الذي استحسنته لكن لا يزال هناك بعض الشكوك بداخلها والتي جعلتها تسأل:

-يعني تفتكر هتوافق ... أصل ممكن متكنش عايزة تسيب فرقة بيشوي

حاول مجددًا اقناعها بهذا الاقتراح:

-جربي تقنعيها ... مش هتخسري حاجة

تنهدت تنهيدة عميقة وهي لا تزال تُفكر بحديثه ولا تعلم كيف ستحصل على موافقة من شقيقتها في أمرٍ بالغ الأهمية كهذا...

____

يفتح عينيه بوهنٍ ليخترق هذا الضوء عينيه ويجعله يُقطب حاجبيه لعدم مقدرته على الرؤية بوضوح، فكانت الرؤية مشوشة لكنه مع ذلك استشعر نظراتٍ قلقة تُحدق به من الجهة اليُمنى، تلك النظرات القلقة التي يهيم بها، جعلته يحاول الاعتدال بجلسته لكنه يتأوه من الألم فيستلقي مجددًا ويستمع إلى صوتها الهاديء:

-إ... إنت كويس ؟؟

وجدها شاحبة وعينيها حمراء منتفخة من كثرة البكاء، مظهرها المزري آصابه ببعض الضيق لكنه في الوقت ذاته أحب هذا الشعور، شعور أن يعتبرك شخصٌ أنك ذا أهمية جامحة...

-أنا أسفة ... أنا إللي غبية وقولت لمُعتصم إننا هنتجوز عشان ميقربش مني ... مكنتش أعرف إنه هيعمل كدة ... أنا أسفة والله...

انخرطت بالبكاء بعد حديثها وكان هو يُتابعها بابتسامة تُزين ثغره ما ان استمع إليها وهي تضعه بمثابة زوجها، حتى أنه طاف في أحلامه ووجد لسانه يهتف بصدقٍ اختلط بهيامه:

-وإيه المُشكلة ... مش ممُكن الكدبة دي تبقى حقيقة

إزدردت ريقها بخجلٍ من حديثه لتُجفف دموعها المنسابة وتبقى في حالة من الصمت تحاول تجنب نظراته حتى لا يزداد شعورها بالقلق...

-ساكتة ليه ؟ ... مش كفاية بقى التمثلية إللي إحنا بنقنع بيها نفسنا ... أنا وإنتِ بنحب بعض ... ليه مُصرة تحطيني في خانة الصداقة ؟

حاول الضغط عليها بحديثه لكنها لم تقع هذه المرة وبقيت ثابتة تحاول الحفاظ على قرارها وهي تهتف بصرامة:

-أنا أسفة يا سامح ... بس أنا مش مستعدة أدخل في أي علاقة دلوقتي ... فلو سمحت خلينا كدة أحسن

تلاشت بسمته وحلّ محلها الحُزن وبعض شذرات الخُذلان، لكنه مع هذه المشاعر المُختلطة قرر أن يستجب لقرارها على أمل أن تعود له يومًا، لذلك أنهى الحديث بأملٍ مع إيماءة رأسه التي أبدت موافقته:

-تمام ... خلينا كدة ... بس خليكي فاكرة إني هفضل مستنيكي ... لغاية ما تبقى مُستعدة

أومأت رأسها بهدوءٍ ولازالت عوالم الضيق تنحت وجهها...

مرٌت برهة قصيرة من الصمت قطعها سامح وهو يتأمل وجهها الذابل ويردف بمرح :

-طب إضحكي بقى كفاية عياط ... أنا بقيت أحسن

همهمت بهدوءٍ حاولت معه التبسم لكن البسمة لا تستطيع زيارتها، لذلك حاول سامح مجددًا وهذه المرة بابتسامة واسعة قال معها:

-إضكي بقى ... طب خلاص إضحكي وأنا هجبلِك كنافة

لم تستطع كبت ضحكتها في تلك اللحظة ووجدت نفسها تبتسم ابتسامة واسعة وهي ترمق ابتسامته وتلك الجُملة التي لها سحرٌ خاصٌ به ولا تعلم لما تجعلها تبتسم ؟ ربما لأنها تُذكرها بالماضي..

-أيوة كدة .. هو إنتِ مبتجيش غير بالكنافة

قالها بانتصارٍ لتواصل بعدها الحديث معه في جوٍ من المرح قطعه مجيء سما وتوّغلها الحُجرة بسعادة بالغة بعد أن أخبرها الطبيب أن حالته قد تحسنت تمامًا...

إقتربت سما نحوه لتقطع مرحهما بمشاكسة:

-ما تضحكونا معاكم

دعاها سامح للجلوس بجواره وطفق يطمئن على حالها كما تطمئن هي الأخرى على صحته، وبعد هذه الأحاديث البسيطة ظهرت بوادر الضيق على وجه سما وهي تقول :

-أنا عايزة آخد رأيكم في حوار..

انتبهت بدور لحديثها وكذلك سامح الذي حاول الاعتدال ليُقابلها، فما إن وجدتهما يُمعنان التحديق بها حتى أدلت ما لديها:

-دلوقتي أنا واقعة في مُشكلة ... في واحدة من البنات رجلها اتكسرت ... ومحتاجة بنت غيرها تكون بتعرف ترقص كويس عشان المسابقة...

صمتت بُرهة عن الحديث ثم أدلت بعدها القرار الذي إتخذته بتردد:

-مراد قالْي أطلب من سارة تبقى معايا في الفريق ... بس أنا مش عايزة أجبرها على حاجة ... ده غير إن الفرقة بتاعتي لسة صُغيرة وحاسة إني هظلمها معايا

تدخلت بدور باقتراحٍ ربما حمل معه الحلّ:

-طب ما تاخديها المسابقة وبعدها ترجع تاني لفريقها...

اعترض سامح هذا الاقتراح بقوله:

-لو غابت عن فريقها الأصلي كتير ممكن يحذفوها ... دا غير إن المسابقة هتحتاج إنها تتمرن معاهم ... يعني كدة ممكن تغيب أكتر من شهرين من تمرينها الأصلي

إزدادت حيرة بدور وطفقت تقول بتيهٍ:

-طب والعمل ؟؟

لم يكد حديثهما يكتمل لأن زكريا وسارة اقتحما الحُجرة بمرح صحبه زكريا بدندنته لإحدى الأغنيات وتشاركه سارة الغناء حتى إقتربا من فراش سامح ليرتمي عليه زكريا ويُعانقه من جهة كما عانقته سارة من الجهة الأخرى وكلاهما يطمئنان عن أحواله بمرحٍ لكنه انقلب ما إن شعر سامح بالاختناق من كليهما...

-ألف سلامة عليك يا شقيــق

قالها زكريا بمرحٍ لكن سامح أبعده ليستطع استنشاق بعض الهواء وهو يهتف بتذمر:

-إبعدو بقى أنا كدة هرقد اسبوعين كمان

ما إن ابتعد عنه زكريا حتى هتف بمشاكسة وعِتابٍ مازح:

-كدة يا ساموحة ... تسبنا وتقعد هنا ... يعني أنا أغلس على مين وأبيع حاجة مين أنا دلوقتي

أمسكه سامح من حلمة أذنه وبقي يهزه وهو ينهره بمُزاح:

-ولا .. متقوليش ساموحة دي تاني ... وبعدين إنت جاي ليه أصلًا ؟

حاول زكريا الابتعاد عنه وهو يهتف بدرامية زائفة:

-إخس عليك يا ساموحة ... دا أنا حتى طلعت صدقة عشان تخف وترجعلنا

بقي سامح يهزه ويقبض على أذنه متفوّهًا بغير تصديق:

-بقى إنت يا معفن تطلع صدقة ... وطلعت صدقة على مين ؟

آجابه زكريا بصدقٍ:

-عليا أنا وسارة ... أصل إحنا أيتام ومساكين والميس قالتلنا إتبرعو للأيتام والمساكين .... فأنا بقى لميت فلوس من المدرسة كلها وإتبرعت بيها لنفسي ... إيه رأيك بقى ؟

أنهى حديثه بفخرٍ لكنه آصابهم بالصدمة، حيث شدد سامح من قبضته على أذن زكريا مما جعله يتأوه بألمٍ أمام سبُات سامح ومحاولاته لضرب هذا المُخادع...

-إنت يلا نصاب ؟ ... بقى أنا راقد في المستشفى وإنت بتنصب على خلق الله...

شدد سامح من قبضته وهو يُهدده:

-ولاا ... الفلوس إللي خدتها من الناس تتبرع بيها إنت فاهم...

لم يستطع زكريا الفِكاك من قبضته وبقي يتأوه بألم وهو يقول باستسلام:

-خلاص خلاص والله هتبرع...

دفعه سامح بعيدًا عنه ليتملص زكريا من قبضته وهو يتأوه بألم حتى استطاع أخيرًا الإبتعاد عن سامح والإختباء خلف ظهر بدور ليتحسس أذنه التي أضحت حمراء وتؤلمه للغاية، أما عن بدور وسما، فكانتا تُقهقهان بشماتة لما يفعله سامح مع هذا الشقي كنوعٍ من العِقاب، فهم يعلمون أن سامح لن يتركه ينفد بعملته هذه...

بعد بُرهة من الصمت، وجهت سما حديثها نحو سارة كي تسألها ببعض التردد:

-سارة ... إنتِ عارفة إن عندي مسابقة ... مش كدة ؟

رمقتها سارة بحيرة لكنها أومأت رأسها إيجابًا مما دفع سما لمواصلة حديثها وترددها يزداد أكثر:

-بُصي يا سارة ... أنا عندي مُشكلة

قطبت سارة حاجبيها بقلقٍ وهي تسألها ببراءة:

-مشكلة إيه ؟

قصّت سما تلك المشكلة التي تواجهها فما إن انتهت حتى قالت:

-وأنا بقى عايزة حد يكون معايا في المسابقة ... تعرفي حد ممكن يبقى معايا ؟

حاولت استدراجها بتلك الكلمات فوجدت سارة تحني رأسها وتُفكر بحديثها أمام تركيز البقية وإنتظارهم هذا القرار المصيري الذي يقع على عاتق طفلة لم تتخطى العشرة أعوام...

-أنا ممكن آجي

قالتها سارة بحماسٍ بعد فترة من التفكير أدت لشعورهم بالقلق، لكنها بعد تلك الكلمات أزالت بعضًا من الحِمل الذي يتحامل على كاهلها، لكنها مع ذلك آرادت التأكد من قرارها حتى لا تُضيع مُستقبل شقيقتها:

-بس إحنا لسة فريق صُغير ... وممكن لما نصعد في المسابقة متقدريش تكملي في فريقِك تاني

همهمت سارة ببعض التردد والتفكير بشقيقتها، لكنها بالنهاية هتفت بثقة:

-لو إنتو صعدتو ممكن تكسبو ... صح ؟

أومأت سما إيجابًا لتبتسم سارة ببراءة قالت معها بإصرار:

-أنا عايزة أكسب معاكم ... عشان كدة هبقى معاكم في الفريق

سألتها سما مجددًا حتى تتأكد من قرارها:

-طب لو خسرنا ؟

همهمت سارة مجددًا بتفكيرٍ لم تطل مُدته لأنها قد حسِمت قرارها:

-مش مهم ... أنا عايزة أكون معاكي

أنهت حديثها بابتسامة واسعة جعلت البسمة تتكوّن على ثغر سما وهي تُعانق شقيقتها بحُبٍ بالغ وتتشكرها على تلك التضحية الجليلة، طفق البقية يُشجعون سارة على هذا القرار حتى إنضم زكريا لهم وأخذ يهتف ببعض التذمر:

-أنا كمان عايز أروح المسابقة معاكم ... عايز أتفرج على الفريق بتاع سما

وجهّت سما نحوه ابتسامة ودودة قالت معها بثقة:

-كلكم هتيجو تتفرجو على العرض الأول_

قطع زكريا حديثها بسؤالٍ مُتلهف:

-هو هيبقى إمتى ؟؟

-بعد أسبوعين....

ـــ

ها قد أتى هذا اليوم المُنتظر، اليوم الذي سيضحى بمثابة تحديًا بالنسبة لها، ولأنه التحدي الأول، سيُصبح من أصعب التحديات التي ستواجهها طيلة حياتها...

كانت الشمس بازغة تنثر أضواءها في تلك الأجواء المُبهجة من حولهم، فالمكان مُزينٌ بالورود وعدة أنواع من الزينة الملونة التي أضفت البهجة في كل مكان، تغلغلت موسيقى صخبة أعلى خشبة المسرح الذي تم نصبه بمُنتصف هذا الإحتفال، فكان المسرح على إرتفاع يسمح للجميع بمشاهدة هذا العرض الذي يتم بداخله...

أسفل المسرح، كان يوجد العديد من الأشخاص، منهم المصورين والصحفيين بالصفوف الأولى وورائهم بقية الحضور ممن يهوٌن الاستعراضات أو لهم صلة بمن يشترك بتلك العروض ... أما على يمين المسرح فكان يجلس ثلاثة من الحُكام يُشاهدون العرض عن كثبٍ ويدوٌنون بعض التعليقات التي ستُساعدهم باتخاذ القرار ...

فكان على المِسرح مجموعة من الفتيات والفتيان يتمايلون بمهارة مع تلك الأغنية ويرتدون ملابس ضيقة ملونة تناسقت مع وجوههم التي طُليت ببعض الرسومات، كانوا يؤدون العرض ببراعة هلل الجميع إثرها، فهم من أكبر الفِرق المشاركة وأكثرهم شُهرة بين الجميع، فدائمًا ما يربحون بتلك المسابقات...

كانت تقف سما على إحدى الأركان خلف المِسرح ومعها فريقها خلفها مباشرة يُشاهدون هذا العرض الذي يُقام والذي جعل توترهم يزداد أكثر، فمن يرقصون يفوقونهم مهارة وثقة قد تجعلهم عُرضة للسُخرية وربما يخسرون بتلك المنافسة...

التفتت سما نحو فريقها الذي كان على وشك صعود المسرح وتأدية عرضه، فكان فريقها يتكوّن من الفتيان والفتيات، نصفهم يرتدون ملابس الجيش والنصف الآخر يرتدى ثيابًا ممزقة مع بعض الأتربة التي تملأ وجوههم...

من المفترض أن عرضهم سيبدأ الآن، لكنهم لا يزالون في حالة من الرهبة والخوف الشديد، لهذا السبب انحنت سما بجذعها لتضحى قبالتهم وتحاول تشجيعهم بكلماتها رغم أن داخلها يضطرب من الخوف:

-أنا مش عايزاكم تبقو خايفين ... إحنا مش جايين عشان مكسب أو خُسارة ... إحنا جايين نعمل الحاجة إللي بنحبها .. نعملها بحُب ... عشان كدة وإنتو على خشبة المسرح ... متركزوش مع الناس .. ومتركزوش مع الحُكام ... ركزو مع نفسكم وبس ... إنسو حتى إن في ناس حواليكم .... إحنا إتمرنا كتير عشان اليوم ده ... عشان كدة مش عايزاكم تخافو ... إتفقنا

أومأوا رؤوسهم إيجابًا وبداخلهم بدأت دفعة من الحماس تنمو وتُشجعهم على تأدية العرض، فما هي إلا لحظات حتى انطلق صوت المُذيع الذي طفق يهتف بصوتٍ مسموع...

-والآن .... سيبدأ العرض الخاص بفرقة .... فوق النجوم...

الفصل الخامس عشر (خطة بديلة)

"توقف عن المماطلة وابدأ الآن ... فأنت لا تعلم ماذا سيحدث بالغد"

بدأ العرض بموسيقى هادئة وأضواء خافتة يزداد كثافتها رويدًا، فكان على المسرح بعض الأطفال ممن يرتدون ثيابًا ممزقة ويتمايلون مع تلك الموسيقى في تناغم يبعث الدفء على جميع المشاهدين، فكان العرض يتحدث عن معاناة الأطفال من الإحتلال وكيف أنه قادرًا على سلب طفولتهم البريئة وحُريتهم، حيث كانت الأطفال تُمثل تلك الصراعات بطريقة مُبهرة تناسوا معها أنهم أمام الجميع وأنهم بتلك المسابقة...

كانت تقف سما على مقربة منهم تشاهد العرض بقلقٍ وجوارها كلٍ من بدور ويقين من الجهة الأخرى، أما بالخلفية فكان يقف سامح وزكريا بجوارهم مراد وجميعهم يشاهدون العرض بإعجابٍ أثنوا معه على هذا المجهود الذي بذلته سما بتلقينهم....

إزدادت حدة الموسيقى مع توّغل بعض الأطفال بأزياء الجيش وهم يُمثلون القساوة والحِدة مع رقصاتهم المتناسقة بشكل لا يوصف، توترت سما أكثر ما إن لمحت أحد الفتيان يقوم بحركة خاطئة كادت تُفسد العرض، لكن بقية الفريق حاولوا حجب هذا الخطأ ومواصلة العرض وكأن شيئًا لم يكن .... كانت الأمور تسري على ما يُرام وكان العرض سيزداد روعة لكن فجأة....

انقطعت الكهرباء فجأة مما أدى إلى توقف الموسيقى وانقطاع الأضواء، فكان ضوء الشمس هو الذي يسود المكان مما أبرز توتر الفريق على المسرح وشعورهم بالتوتر ... فهم لا يعلموا كيف سيواصلوا العرض بدون موسيقى، بل وحتى لا يعلموا كيف سيُعيدوا العرض بهذا الإتقان مجددًا....

ساد الصمت لوهلة وساد معه صوت الهمسات والتوتر الذي بدأ يتغلغل كيانهم، كانت سما تتنفس الصُعداء ولا تعلم ماذا تفعل، ففريقها يُحاول مواصلة العرض بارتباكٍ جعلهم يتصلبون أماكنهم ويتلفتون حولهم، فتلك اللحظة كانت بمثابة لحظة إحساسهم بالخُسارة من أول عرضٍ حتى...

سارعت سما بالتدخل فورًا لإنقاذ الموقف فتحركت بسرعة حتى وقفت أسفل خشبة المسرح وطفقت تصيح بتشجيع وتُصفق بيدها حتى يواصلوا العرض، فما إن بدأت التصفيق حتى آفاق المشاهدون وساعدوها بتلك الصيحات التشجيعية والتصفيقات التي دفعت الأطفال للمواصلة...

كانت يقين على الجهة الأخرى تتحدث مع بدور بأمرٍ:

-معاكي الساب إللي كُنا بنتمرن عليه ؟؟

أومأت بدور رأسها ثم أخرجته بسُرعة من حقيبتها وأعطته ليقين التي ركضت به بسرعة نحو المسرح لتفتح تلك الموسيقى وترفع الصوت حتى يضحى مسموعًا للأطفال، عادت أدراجها بسرعة لتقف قبالة سما التي توقفت عن التصفيق كما توقف المشاهدون وهم يرون الأطفال يعاودوا الرقص على تلك النغمة الخافتة الصادرة من جهاز الموسيقى الصغير ... ولأن الصوت كان خافتًا، تحلّى الجميع بالصمت ليشاهدوا ما ستفعله تلك الفرقة المثابرة بهذا المأزق...

عاود الأطفال استكمال عرضهم لتتناسق حركة من يرتدون الثياب الممزقة مع الذين يرتدون ثياب الجيش القاسية وكأنهم في حربٍ بين الفرقتين، وعلى الرغم من أن الأضواء لم تتناسق مع العرض، إلى أن ضوء الشمس الخافت أضفى أجواءًا أخرى جعلت العرض أكثر واقعية ... فقد انتهى العرض بأطفالٍ تجلس في خوفٍ ويتحركون حركاتٍ هادئة انتهت بجلوسهم على الأرض مستسلمين لقدرهم المحتوم...

تعالت التصفيقات الحارة مع انتهاء العرض وأضحى الجميع يُطلق التهليلات والصيحات مما جعل الأطفال يبتسمون بفخرٍ وهم يتركون المسرح ويتجهون نحو سما التي كانت تعانقهم بتشجيع رغم ضربات قلبها التي لا تزال متصاعدة حتى بعد إنتهاء العرض، فهناك معركة أخرى لا تزال أمامهم وتلك المعركة تتمثل في ... إعلان النتائج...

____

بعد مرور ساعتين من تأدية العرض، وبعد أن أتت الكهرباء أخيرًا، كان أعضاء الفريق يجلسون بجوار بعضهم يتحاكون حول العرض ويلتهمون بعض الشطائر...

تقف سارة بإحدى الأركان ومعها شطيرة من النقانق تلتهمها بجوار زكريا الذي آراد التحدث معها عن العرض ويُشجعها بحديثه:

-العرض بتاعكم كان جامد ... وإنتِ رقصتي حلو أوي

ابتسمت بحرجٍ وهي تتشكره بامتنان وتعاود التهام شطيرتها حتى إقترب نحوها إحدى الفتيان الذي كان يرتدي زي العساكر كما كانت ترتدي سارة.... وقف هذا الفتى بالقُرب منها وأخذ يقول:

-ما تيجي تقعدي معانا يا سارة .... ولا إنتِ شايفة نفسِك علينا

كانت كلماته هجومية تحمل بعض الغيرة من سارة التي كانت أمهرهم، فهي بتلك الرياضة منذ فترة طويلة رغم صِغر سنها، ما إن أدلى بتلك الكلمات حتى تدفقت الدماء بعروق زكريا الذي آراد لكم هذا المُتعنت، فكان يُطالعه بنظراتٍ نارية أردف معها:

-هو حد كلمك يا جدع إنت ؟

دفعه زكريا مع آخر كلماته فحاول الفتى الآخر صد دفعته ليدفع زكريا دفعة مماثلة ويبدأ بالهتاف بوجهه حتى نشب العراك بينهما...

على جهة أخرى، كانت تجلس سما على إحدى المقاعد وتتناول شطيرة من الدجاج بنهمٍ وأمامها يجلس مراد يُشاركها تناول الطعام والحديث عن هذا العرض المليء بالكوارث، حيث كانت تقول سما بتذمر:

-أنا بجد حاسة إني فقر ... كل ما أعمل حاجة وأقول خلاص هتنجح ألاقي خازوق بيمسي عليا

قهقه بعد حديثها الصادق والذي قالته بطريقة مازحة، ما إن إنتهى من القهقهة حتى قال مطمئنًا:

-إحمدي ربنا إنها عدِت على خير ... وإن شاء الله مش هيحصل حاجة تاني

لم يكد ينهي الجملة حتى استمع كلاهما إلى أصوات شِجار تُصدر من جهة الفريق، خاصة صوت زكريا المرتفع الذي اخترق مسامعهما وهو يتشاجر مع أحد الفتيان...

تبادلت النظرات بين سما ومراد في ذعرٍ حتى وثبت سما بسرعة تركت معها شطيرتها على الطاولة كما فعل مراد بالضبط، هرولا بسرعة صوب الأطفال ليجدا زكريا يتمسك بتلابيب إحدى أعضاء الفريق المدعو بعصام، فكانت والدة عصام تحاول نزع ابنها عن زكريا كما كان يحاول سامح مع زكريا...

هرعت سما نحوهما لتقف أمامهما تحاول الاستفسار عن هذا الشجار بإقترابها نحو زكريا ما إن أبعده سامح عن عصام:

-سبني يا سامح ... والله ما هسيبه

هتف زكريا بتلك الجملة حتى ركعت سما قبالته تحاول سؤاله:

-في إيه يا زيكا ... بتتخانق معاه ليه ؟

آشار زكريا على عصام وهو يُجيب:

-الواد ده بيغلس على سارة

دافع عصام عن نفسه متفوّهًا:

-لا والله يا كابتن كنت عايزها تقعد معانا بس

نفى زكريا حديثه بنبرة صاخبة:

-كداب .. دا كان_

قطعت سما حديثه بصرامة:

-بــس ... بس إنتو الاتنين

جذبت عصام نحوها ليقف قبالة زكريا وتركع هي على ركبتيها بينهما، فكانت تُبادل نظراتها بينهما حتى توقفت أنظارها عند عِصام كي تُحادثه بهدوء:

-أنا عارفة إنك متضايق عشان سارة أحسن منك...

حاول اعتراض حديثها الصادق لكنها أوقفته وواصلت الحديث بنفسِ ذات النبرة:

-كلكم هتبقو زيها لو اتمرنتو كويس ... إنتو لسة في البداية ... عشان كدة متزعلش لما تشوفها بترقص أحسن منكم

تنهد عصام وأحنى رأسه بخجلٍ ومازالت نظرات زكريا تُطالعه بحدة أوقفتها سما ما إن حدقت بزكريا كي تحاول إرشاده:

-أنا مش هقولك متدافعش عن سارة، عشان إنت عملت الصح ... بس بطريقة غلط ... مش أي حد يغلط فيك أو في أحد تعرفه تروح تتخانق معاه ... روح الأول إتكلم معاه بهدوء، فهمه إنه غِلط ولازم يعتذر ... ولو معتذرش تعالى وقولنا ... يإما تسيبك منه خالص ... لازم تعرف إن الهدوء والبرود هما أكتر سلاحين بتستخدمهم عشان تعصب إللي قدامك من غير ما تغلط

تلاشت عوالم الجمود عن وجه زكريا وهو يوميء برأسه اقتناعًا بحديثها، وثبت بعدها سما وطفقت تُقربهما وتقول:

-يلا ... إعتذرو لبعض ... ومش عايزة خناق تاني

تردد الصبيان لوهلة حتى بادر عصام بأسفه ورأسه لا يزال منكسًا لأسفل:

-أنا آسف عشان ضربتك ... وآسف عشان ضايقت سارة

رد عليه زكريا بذات النبرة الهادئة:

-وأنا كمان آسف عشان زعقتلك

تصافح الصبيان وتعانقا بوِّدٍ ثم تفرقا أمام نظرات سما المنتصرة من حلِّها لذاك الشجار، فهي لا تُلقن فريقها فحسب، بل أيضًا تحاول تعليمهم المثابرة وكيفية التحلِّي بروحِ رياضية خالية من الحِقد والغيرة، فهذا التحدي أصعب بكثيرٍ من مجرد تعليمهم بعض المهارات....

____

مع مرور الدقائق، يزداد شعورهم بالرهبة، فها هُم الآن يقفون أمام خشبة المسرح ينتظرون إعلان النتائج على أحرٍ من الجمر، فكانت قلوبهم تدق بسرعة البرق وأطرافهم ترتجف مع كل ثانية تمر، خاصة سما التي كانت تخشى أن يضيع مجهودها هباءًا .... تخشى أن تتجرع من كأس الخُسارة بعد هذه الأهوال ...لكن حتى وإن خسِرت تلك المرحلة، فيكفيها شرف المحاولة...

هذا آخر ما فكرت به حتى لا يزداد توترها ولا تجد نفسها قعيدة بفراش المشفى من شدة الرهبة، كانت بدور بجوارها تُربت على كتفها وتحاول تهدئة روعها كما تفعل يقين من الجهة الأخرى، بينما أعضاء الفريق كانوا يثبون خلفهم يقرضون أظافرهم بتوترٍ بالغ كلما يقترب المذيع من مُكبر الصوت ويبدأ إعلان النتائج...

-بعد ما استمتعنا بعروض المتسابقين ... جيه الوقت إللي بيستناه كل الحضور ... وقت ... إعلان النتايج

قالها بنبرة مرتفعة أدت إلى تصفيق الجماهير وتهلليلهم بحماس، ثم توقفوا حتى يواصل المذيع حديثه:

-في تمن فرق من الـ12 فرقة المشاركة هيتأهلوا معانا للنصف نهائي ... هنبدأ نقول الفرق دي من المركز التامن ... وهنقفل بالمركز الأول ... وطبعًا هيبقى فيه جايزة للي هياخدوا أول تلات مراكز...

أخرج بعض البطاقات من جيبه وبدأ يقرأ ما بها بصوت متلهف:

-في المركز الثامن معانا فريق .... الاسود

هلل أعضاء هذا الفريق بحماس لتأهلهم للنصف نهائي، كما واصل المذيع إدلاء الفرق الفائزة، وكلما أدلى فرقة إزداد توترهم وارتجاف أجسادهم، حتى أن سما كادت تبكي من كثرة التوتر، خاصة بعد أن وصل المذيع إلى المركز الثالث ولم يقل اسمهم حتى الآن...

-وفي المركز التاني فريق .... الفراشات

هلل أعضاء هذا الفريق بحماس وهم يصعدون خشبة المسرح حتى يأخذوا تلك الجائزة النقدية، فكانت تلك هي الفرقة التي يرتدي أعضاءها ثيابًا ضيقة مليئة بالألوان...

إزداد التوتر في تلك اللحظة وكادت تهوي سما على الأرض أو تدمي أصابعها من كثرة ما كانت تقرض أظافرها ... فإن لم يقل المذيع اسمهم، هذا يعني أنهم خسروا تلك المسابقة، ومن أول مرحلة فقط...

-أما الفريق الأول ... إللي كسب المرحلة الأولى في المسابقة ... وإللي كان أكتر فريق ليه حضور وعمل جو مميز للمسابقة .... فريق .... فوق النجوم

ما إن أدلى تلك الجملة حتى شهقت سما بسعادة أخذت تقفز معها عاليًا وتحتضن بدور تارة ويقين تارة أخرى وهي تهتف بعدم تصديق:

-إتأهلنا للنصف نهائي...

أخذت تقفز هي وأعضاء فرقتها بحماسٍ حتى صعدوا خشبة المسرح ليتلقوا تلك الجائزة النقدية التي قدرها خمسون ألف جنيه، التقطوا بعدها العديد من الصور مع لجنة التحكيم ومع تلك الجائزة أمام الصحفيين والكاميرات، فكانت سعادتهم لا توصف وآرادوا الاحتفال الآن بهذا الانتصار البسيط ... فبعد أن التقطت الصور أخذ أعضاء الفريق يقف بجوار بعضهم في دائرة ويقفزون بسعادة انضمت معهم سما وطفقت تقفز معهم وتُهلل كما لو كانت طفلة صغيرة...

أما أسفل خشبة المسرح، فكان الجميع يُقهقه بسعادة بالغة ومراد يلتقط لهم العديد من الصور كتِذكار لتلك المسابقة...

ما إن انتهى اليوم وأسدلت السماء ستارها أخيرًا، كان الجميع يترك تلك المسابقة ويتجهون نحو السيارات حتى يعودوا إلى منزلهم ويستريحوا من عناء هذا اليوم الشاق، فكانت تسير سما بجوار مراد والابتسامة لا تزال على مُحياها وهي تتحدث بلهفة عن هذا اليوم الذي أضحى من أسعد أيام حياتها، فهي لم تكن تتوقع أن تُحقق مثل هذا الإنجاز...

استوقف طريقها فتاة رشيقة الجسد يبدو على ملامحها الحِقد والغيرة خاصة وهي تهتف:

-ألف مبروك ... متوقعتش إنهم هيدو المركز الأول لمُبتدئين زيكم

تلاشت بسمة سما ورمقت الفتاة بنظراتٍ حادة ساخطة، لكنها كبتت سُخطها وهي تقول:

-هما بيدو المركز الأول للي يستحقه ... ثانيًا بقى المبتدئين إللي مش عاجبينِك دول ولعو المسرح بعرضهم

رمتها الفتاة بابتسامة مستخفة وكانت تلك الفتاة هي مُدربة أعضاء فرقة الفراشات، تقدمت الفتاة نحو سما كي تُخبرها بنظراتٍ ماكرة حقودة:

-طب حافظو بقى على الجايزة كويس ... عشان مش هتاخدو زيها تاني

بصقت تلك الكلمات ثم رحلت إلى وجهتها تاركة سما تستشيط من الغضب وتوّد لكم هذه المتعنتة لولا مراد الذي أخبرها ألا تُعيرها أي انتباه وتُركز فقط بانتصارها اليوم، فعندما تسير في طريق وتُحدق في طريق آخر ... ستجد أمامك سيارة تتحرك بسرعة البرق نحوك وتجعلك تنجرف عن طريقك لأنك فقط لم تكن منتبهًا ... فما كنت تنتبه له هو طريق الآخرين...

____

تستند بيدها على مِسندٍ خشبي يعتلي الجدار، ملابسها الضيقة التي تدل على رشاقة جسدها تدل كذلك على كونها داخل المركز الرياضي تتمرن كما تفعل كل ليلة، أو بالمعنى الأدق، تدّعي أنها تقوم بالتمرينات بينما الحقيقة أنها تتفاخر بما تفعله ليس إلا...

كانت تقف بجوار شذى تتحدث معها _كما تفعل دائمًا _عن المكائد التي تفعلها والتي تنوي فعلها حتى تتصدر القِمة، فكانت تعاونها شذى بمثّابة أنها صديقتها الوحيدة، فهي لا تعلم حتى الآن أنها مجرد جِسرٍ لخططها الماكرة...

قطع حديثهما تقدم بيشوي نحوهما وتوجيه سؤاله نحو يارا ببعض القلق:

-هي بدور فين ؟ ... بقالها كتير مش بتيجي التمرين

كانت بدور قد انقطعت عن التدريب لفترة منذ ما حدث مع سامح، لكنها كانت ستعود حالما تتعافى جراحها وتضحى على استعدادٍ لمواظبة التمرينات، أما عن يارا، فلم تكن تعلم سبب سؤاله عن شقيقتها، فلا تعلم لما شعرت بالغيرة لأنه يكترث لشقيقتها إذا تغيبت يوم، وهي التي تتغيب بالأسابيع ولا أحد يسأل عنها...

هذه الأحاسيس جعلتها تهتف بلكنة مُعتذرة زائفة:

-أصل يا كابتن بدور ....

صمتت برهة لتدعي التردد وهي تقول:

-سابت الفريق

ما إن أدلت تلك الجملة حتى اتسعت حدقتا بيشوي في صدمة أردف معها بغير تصديق:

-إيه !! ... إمتى الكلام ده ؟ ... وليه مبلغتنيش ؟

إدعت يارا التردد وهي تهتف باعتذار:

-أنا أسفة والله يا كابتن، أصلها قالتلي أبلغ حضرتك من بدري بس أنا إللي نسيت ...

همهم بيشوي بتفهمٍ وداخله جمرة من الغضب لأنه للتو فقد أهم أعضاء فريقه، فما إن رحل من أمامها حتى اتسعت بسمة يارا الخبيثة التي تبتسمها ما إن تُنفذ إحدى ألاعيبها....

____

إجتمعوا داخل المنزل إحتفالًا بهذا اليوم الحاسم المليء بالانتصارات، فما إن تناولوا وجبة العشاء وشاهدوا إحدى الأفلام المُبهجة حتى اتجه كل منهم إلى وجهته، فكانت تجلس بدور بالبهو مع جدتها وسامح وسارة يتسامرون ويمرحون بشتى الأمور، بينما كانت تجلس سما بالشُرفة ويجلس مُراد قبالتها بعد أن أصرّت أن يأتي ويُشاركهما هذا الإحتفال، لكن يقين بقيت بمنزلها كي تهتم بوالدتها وخالها الذي أوصاها مراد بالاهتمام به حالما ينتهي هذا الإحتفال البسيط ويعود إلى منزله...

كان زكريا معهما يُشاكسهما بالحديث كالعادة، فكان يسأله مراد بوّدٍ:

-إيه رأيك في العرض ؟؟

آجابه زكريا بتلهفٍ وإعجاب:

-كان جامد فـ_

كممت سما فمه قبل أن يهتف بآخر كلمة والتي لا يجب أن يهتف بها ممن هُم في عُمره، أكملت هي الحديث نيابة عنه بقوله:

-كان جامد أوي

ثم همست بعدها بأذن زكريا بتحذير:

-نقي ألافظك...

تركت بعدها فمه تحت تذمر زكريا وحديثه معهما لفترة قصيرة انتهت بتوُغله داخل المنزل تحت قهقهات مراد وسما عليه...

بعد مرور بُرهة من الزمن، التقط مراد كوب الشاي من الطاولة المقابلة له وبدأ يرتشف منه بهدوءٍ إلى أن سألته سما بفضول:

-هو صحيح إنت مفكرتش تتكلم مع إخواتك ؟ ... مش يمكن لما يعرفو إن أبوهم عيان ييجو يطمنو عليه

غمٌر وجهه بعض النظرات الحزينة وهو يضع كوب الشاي على الطاولة ويُجيبها بصدقٍ حمل معه الخُذلان:

-لأ محدش هييجي ... ولو هييجو هيبقى عشان الورث

قطبت سما حاجبيها بحيرة من حديثه حتى سألت:

-ورث إيه ؟ ... إنت مش قولت إن عمو يعقوب خِسر كل حاجة ؟

فسٌر مراد حديثه بصدقٍ:

-هو فعلًا خِسر كل حاجة ... بس قِدر يرجع جُزء بسيط من أمواله، وشايل فلوس في البنك ... قالٌي إنه هيأمن بيهم مستقبلي ومستقبل إخواتي .... بس طبعًا مفيش حد فيهم عارف حاجة عن الفلوس دي

همهمت سما بتفهمٍ سألت بعده:

-يعني مش ناوي تصلح علاقتك بيهم ؟

نفى حديثها بغضبٍ دفين:

-محدش فيهم يستاهل ... دول مفيش حاجة عندهم أهم من الفلوس ... حتى لو هيضحو بأبوهم....

استمر الحديث بينهما بالشرفة، وكانت يارا تقف خلف الجدار بعد أن جاءت من تدريبها ولمحت حديثهما بالغ الأهمية والذي جعلها تسترق السمع له جيدًا وتبتسم بعدها ابتسامة خبيثة آشارت من خلالها إلى تلك الخُطة التي سُتنفذها بالجولة الثانية ... والتي ستجعل نهايتها تتلخص في انتصارها....

الفصل السادس عشر (السبب في ما يحدث)

"اصنع لنفسك مسارًا تسلكه ... فمن يسير خلف القطيع، أما ينقض عليه الاسد، أم يأخذه الراعي إلى التهلكة"

____

تتلاطم الأشجار بفعل هذه الرياح العاتية التي يصحبها سحابة مُلبدة بالغيوم الكثيفة، فرغم صوت الطيور المُغردة في الصباح، لم تكن الشمس بازغة، ولم تكن أشعتها تتغلغل في الأرجاء، فقط يومٍ مليء بالغيوم والهواء البارد المُلفح ببعض قطرات الندى وكأنها على وشك أن تُمطر...

دلف مكتبه القابع داخل الجامعة بعد أن عاد إلى عمله أخيرًا، فقد كان مُتغيبًا طيلة هذه المُدة بسبب إصابته وها هو اليوم يعود ليُباشر أعماله ويُلقي محاضراته المُثمرة...

-حمد لله على السلامة

قالها فضل باشتياقٍ ما إن لمح سامح يطيء أركان المكتب ويضع أمتعته على الطاولة، ابتسم سامح وهو يرد على صديقه بودٍ ثم يُحدق فيما أمامه من أوراق كي يبدأ تصحيح تلك الإختبارات بواسطة جهاز الحاسوب الذي قام بفتحه...

كان يعبث فضل بهاتفه وهو جالس بالمكتب المجاور لسامح، فكانت البسمة تُرتسم على ثغره وهو يتفقد تلك الرسائل والصور التي يُتابعها على وسائل التواصل الإجتماعي...

-صحيح يا فضل ... هو جدول الإمتحانات نزل ؟؟

سأله سامح وهو مُنهمك بأعماله لكن فضل لم يكن مُنتبهًا لحديثه فكان يُجيبه وهو لا يزال يُحدق بهاتفه:

-أه أه .. كويس الحمد لله

تعجب سامح من إجابته الحمقاء فالتفت نحوه كي يُعاود سؤاله بصوتٍ مُرتفع:

-هو إيه إللي الحمد لله ... بقولك جودل الإمتحانات نزل ؟

انتبه فضل لسؤاله فحمحم ببعض الحرج وهو يعتدل بجلسته ويُجيب:

-هاا ... لأ ... منزلش لسة

بقي سامح يُطالعه بنظراتٍ ثاقبة يوّد أن يفهم ما الذي يشغل عقله ويجعله بهذه الحالة المُرتبكة، لذلك وثب من مقعده بهدوء ليتحرك صوب فضل الذي لم ينتبه لتحركاته وبقي يُحدق بالهاتف والابتسامة تُرتسم على وجهه، فما هي إلا لحظاتٍ حتى...

شعر بأحدهم ينتشل الهاتف من بين أصابعه ليلتفت خلفه ويستمع إلى حديث سامح المُتهكم:

-الله الله ... وأنا بقول الواد مفوّت ليه إنهاردة ... أتاري الموضوع وراه واحدة

أحس فضل بالحرج وهو يُحاول استعادة هاتفه بتذمر:

-يا سامح هاتف التليفون

عانده سامح ورفع يده حتى لا يستطيع فضل الوصول إلى هاتفه بسبب قامته القصيرة نسبيًا، فكان يحاول سامح استخلاص الحقيقة باستخدام الأساليب الضاغطة:

-ولاا ... إنت في حاجة بينك وبين يقين ؟ ... ما هو مش منطقي تكون بتتفرج على صورها من غير سبب

أحس فضل بقطراتٍ من العرق تتصبب على جبينه بعد أن فضح سامح أمره أمام بقية زُملاءه، لكن حرجه لم يمتد طويلًا وعاود محاولة أخذ هاتفه بقوله:

-يا سامح هات الموبيل متبقاش سئيل

عانده سامح للمرة الثانية وهو يُبعد يده بعيدًا عن فضل حتى لا يستطيع الوصول إلى هاتفه، كم لعن فضل قامته القصيرة في هذه اللحظة، فهو الآن مجبور على التبرير لسامح حتى لا يفهمه بصورة خاطئة، أو بالمُعنى الآخر، هو لا يُريد أن يتم فهمه بصورة صحيحة....

-قولّي الأول إنت بتتفرج على صورها ليه ؟...

خفض سامح من صوته وهو يقول بخُبث:

-هو إنت ... بتحبها ؟

إزدرد فضل ريقه بحرجٍ حاول معه حجب الحقيقة:

-بـ... بحبها إيه بس ... أنا .. عادي يعني .. صورها ظهرت قُدامي بالصُدفة

رفع سامح حاجبيه بغير تصديقٍ قال معه:

-لا يا راجل ... والأكونت بتاعها بردو ظهر قُدامك بالصدفة

حوّل نبرته إلى الحِدة وهو يقول:

-إنطق وقول الحقيقة بدل ما أتصل بيها وأقولها إنك بتتفرج على صورها

نفد صبره بتلك اللحظة فطفق يهتف بنبرة مُحتدة:

-أا.. أيوة بحبها .. فيها إيه يعني ... الحُب مش حرام ... وبعدين، أنا أساسًا كنت هعترفلها وأطلبها رسمي ... بس

أحنى رأسه بضيقٍ مع آخر جملة، والتي أبرزت مدى غرقه في دوامة لا يعرف طريقة التحرر منها، فهو لا يعلم إن كانت تُبادله نفس المشاعر أم لا، فقط يخشى ألا

تُعجب بشخصيته الفريدة وقامته القصيرة والتي ربما تضحى أقصر منها ببضع إنشات، وهذا ما يخشاه للغاية، فهو يعلم أن الفتيات لا تُفضل سوى طوال القامة..

قطع سامح حبل أفكاره وهو يُعطيه الهاتف ويُربت على كتفه محاولًا إرشاده بصوتٍ هاديء:

-مش عيب إنك تحب ... بس عيب إنك تخبي مشاعرك وتفضل ماشي معاها وإنت عارف إنك عايزها ... لازم يا تقولها ... يا تبطل تراقب صورها

أخذ منه الهاتف وداخله شعور بالذنب لما فعله للتو، كذلك يجتمع مع هذه المشاعر مشاعر أخرى تجعله مُتخبطًا ولا يعلم ماذا يفعل، بل حتى لا يعلم كيف غرِق بهذه السُرعة، فربما فُتن بعينيها الكاحلة وملامحها الفرعونية، وربما غرق بقوتها وعفويتها التي تحمل الشجاعة، ورغم هذه الشجاعة والقوة، إلا أنها كذلك تخفي قلبًا هشًا يتأثر بأبسط الأمور ... فهو لم ولن يرى فتاة مثلها، ولا يعرف إن كان هذا حُبًا أم مجرد إعجاب....

____

تتحرك بخطواتٍ رتيبة وملابس رياضية تتكون من سُترة زرقاء سميكة تُغطي أكمامها بسبب برودة الطقس، ترتدي أسفلها سروال من الكتان تقوم بتبديله ما إن تدلف المركز الرياضي...

وصلت المركز أخيرًا لتدلفه فورًا وتتجه إلى حُجرة تبديل الأوعية، لكنها لمحت وجود شذى لذلك ألقت عليها التحية بوٌدٍ:

-إزيك يا شذى

لم تُقابلها شذى بنفس هذا الوٌد وبقيت تُحدق بها بنظراتٍ مندهشة إقتربت معها نحو بدور كي تُخبرها ببعض التردد:

-بدور !! ... إنتِ قولتي للكابتن إنِك جاية ؟

قطبت بدور حاجبيها من هذا السؤال الذي لأول مرة يُلقى على مسامعها، فهي وعلى الرغم من امتداد مُدة غيابها، إلى أن مكانها محفوظ وسط هذا الفريق، لذلك آجابت شذى بحيرة بالغة:

-لأ مقولتش ... كنت لسة هروح أتكلم معاه أساسًا وأقوله أنا كُنت غايبة ليه

ترددت شذى أكثر وهي تُخبرها تلك الحقيقة الصادمة بالنسبة لبدور:

-لأ .. ما هو الأحسن إنِك متروحيش

تفاقمت نيران القلق داخل بدور التي بقيت ترمق شذى بحيرة تزداد أكثر مع كلماتها:

-ليه ؟ ... هو في إيه ؟

ترددت شذى قليلًا قبل أن تهتف بالحقيقة:

-أصل ... الكابتن شطب اسمِك من الفريق عشان إنتِ غيبتي فترة طويلة

لم تُخبرها بالطبع أن يارا هي من أخبرته أنها تركت الفرقة، فهي بالطبع لن تفضح صديقتها، أما عن بدور، فكانت تُطالعها بصدمة وعدم تصديقٍ لهذا الهُراء، هل يستغنوا عنها بتلك البساطة ؟ هل لأنها فقط مرٌت بالعديد من التعثرات يتم عقابها بهذه القسوة ؟... تقسم أنها تُريد أن تصيح بوجوههم وتُخبرهم عن هذا الظُلم الذي تعرضت له سما مُسبقًا، والآن هي تتجرع من نفس هذا الظُلم...

-إزاي يعني شطب اسمي !! ... وإزاي يعمل كدة من غير ما أقوله ظروفي ؟...

هتفت بدور بتلك الجُملة بنبرة صاخبة تحمل كمًا من الغضب، حاولت بعدها دفع شذى من أمامها كي تقتحم المركز وتحاول الحديث مع بيشوي:

-وسعي كدة لازم أتكلم معاه..

لم تتحرك شذى وبقيت تمنعها من التقدم مُتحججة:

-لأ ... ما هو الكابتن بيمرن فريق الولاد وقالِّي محدش يدخل ... فلو دخلتي هيعملِك مُشكلة أكبر

أطبقت بدور على شفتيها بحنقٍ ونيرانٍ من اللهب تنبعث من أذنيها خاصة وهي تدلي آخر كلماتها:

-ماشي ... عايزين تمشوني من الفريق ؟ ... إنتو الخسرانين

بصقت تلك الكلمات ثم هرعت من المركز بنيران تتطاير حولها ورغبة عارمة بالبُكاء والصُراخ، لولا أنها تُحاول جاهدة أن تكبت تلك المشاعر بداخلها...

____

كان العمل يسير على قدمٍ وساقٍ داخل هذا المركز، فعلى الرغم من الجُهد الذي بذلته بتلك المسابقة إلى أنها لن تتوقف عن المثابرة حتى آخر يومٍ بعُمرها، فمبدأها بالحياة، هو أن النجاح ربما صعب الحصول عليه، لكن الأصعب هو أن تُحافظ على هذا النجاح دون أن تتعثر لحظة...

تتحدث مع يقين قبل أن تبدأ التدريبات نظرًا لكونهم بالشتاء والأطفال تذهب إلى المدرسة في هذا التوقيت، كانت أمامهما حفنة من الأوراق التي دوَّن عليها بعض الحسابات الناقصة والمستلزمات الخاصة بالعرض المُقبل، فكانت سما تهتف بتقرير:

-فلوس الجايزة أخدت منها ألفين ونُص وزعتهم على الفريق تشجيعًا ليهم بعني ... والباقي هنسدد بيه ديونًا ونشتري بيه فلوس هدوم العرض إللي جاي ... كدة هيتبقى حوالي أربع تلاف جنيه ... حلال علينا

انتهت من تدوين هذه الحسابات أمام يقين التي وافقت عليها وبدأت توزيع الأموال كما اتفقت عليه مع سما، وفي ظل انهماكهما بالعمل إذا يشعرا بشخص يهرول نحوهما حتى توقف أمام المكتب الخاص بيقين...

تعجبت سما من رؤيتها لبدور بهذا التوقيت، فهي تعلم أنها من المُفترض أن تضحى بتمرينها الآن، وقد زاد تعجبها وقلقها ما إن لمحت دموعها المكبوتة التي انهمرت فور أن توقفت أقدامها أمامهما...

-في إيه يا بدور ؟... مالِك ؟

سألتها سما بقلقٍ لتجد شلالاتٍ من الدموع تنبثق من أعين بدور مع كلماتها المتقطعة:

-طلعوني ... طلعوني من الفريق ... وكل ده عشان كنت غايبة، مع إني كُنت هقولهم والله

استمرت دموعها بالإنحدار فإقتربت نحوها سما وكانت أكثر من يشعر بها في هذا التوقيت، فهي تعلم جيدًا إحساس أن يتم استقصائك عنوة دون أن ترتكب أية أخطاء ...

عانقتها سما وبقيت تُربت على ظهرها حتى تهدأ بينما كانت يقين تُقطب حاجبيها بغضبٍ من الموقف بُرمته، فكانت تسبُّهم بقرارة نفسها ثم تواسي بدور بغلٍ دفينٍ من ناحيتهم:

-إهدي يا بدور ... هما إللي غلطانين مش إنتِ

ابتعدت بدور عن سما تحاول أن تُجفف دموعها وهي تقول بقلة حيلة:

-أنا هعمل إيه دلوقتي ؟ ... أنا مكنتش عايزة أسيب التمرين

تابعتها سما في صمتٍ لا تعلم كيف تواسيها، فهي تشعر أنها على شِفة جرفة وتنهمر دموعها هي الأخرى ما إن تتذكر ما حدث معها قديمًا، فكلتاهما تعرضتا للظُلم من عالمٍ لا يقوده سوى الطغاة...

ما هي إلا بضع ثوان حتى اقتحمت الفكرة رأسها فأخذت تُبادل نظراتها ما بين بدور ثم يقين التي كانت تُفكر في نفس تلك الفكرة، هدأت بدور قليلًا وكفكفت دموعها تبعًا لحديث سما الذي أخرجته من جوفها بلهفة عارمة:

-طب ما تيجي تشتغلي هنا .... تدربي معايا، كدة كدة الفريق كِبر وأنا هحتاج حد يساعدني

قطبت بدور حاجبيها بحيرة من حديثها الذي سألت بعده مستفسرة:

-أ.. أساعدِك إزاي ؟

رسمت سما بسمة متلهفة على ثغرها وهي تقول:

-تدرّبي معايا ... إنتِ تدرّبي فريق البراعم ... وأنا هدرب الفريق المتقدم بتاع المسابقة ... إيه رأيِك ؟

استحسنت بدور تلك الفكرة لتتسع بسمتها متفوّهة:

-أكيد طبعًا موافقة ... أنا بجد مش عارفة أقولِك إيه ؟

ربتت سما على كتفها وهي تهتف بمرحٍ أزاح عنها هذا الضيق:

-ولا تقولُي أي حاجة ... إجهزي بس عشان المجموعة الجاية هتبدأ ... وهخلي يقين كمان تغيّر شوية مواعيد وتخليهم في يوم واحد بما اننا الاتنين هنبقى موجودين

استمعت يقين لقرارها وأومأت رأسها بموافقة أنهتها ببسمة واثقة وسعادة لمجيء بدور معهما، صحيح أنها لا تعلمها مُنذ فترة طويلة، لكنها أحسّت بالراحة من تلك المرّات القليلة التي تحدثت فيهم معها....

____

يُهندب ملابسه المكونة من قميصٍ أبيضٍ أعلاه سُترة سميكة باللون البُني الداكن، لا يعلم لما تقوده قدميه إلى هنا، ولا يعلم ما الذي سيفعله، فكأنه إنسان آلي يتحرك وفقًا لما يمليه عليه قلبه والذي بالطبع يرتكب كل ما هو متهور...

توقفت أقدامه أمام مكتبها، فكانت تجلس يقين تُثرثر مع سما فيما يخص العرض المُقبل وأحيانًا يمزحان بمرح بينما كانت تتوّلى بدور إحدى التدريبات بعد أن أسدلت السماء ستارها وحلٌ الليل...

انتبها إلى فضل الذي وقف أمامهما مباشرة لا يعلم كيف يبدأ الحديث، لكن سما طالعته بابتسامة ماكرة أبرزت كونها تعلم سبب مجيئه، لكنها مع ذلك كانت تعلم أنه لا يستطع البدء لذلك حاولت استدراجه بقولها:

-أهلًا يا فضل...

كان يرسم ابتسامة بلهاء على ثغره وهو يُحدق بيقين بشوقٍ جعلها تطالعه ببعض الخجل، خاصة وهو يُجيب ترحيبات سما بلا انتباه:

-إزيك يا يقين ... أا. أقصد يا سما

كادت تنفجر سما بالضحك من توتره لكنها كبتت ضحكاتها كي تبتعد عنهما مستئذنة:

-ماشي ... أسيبكم أنا بقى عشان أجهز للتمرين...

تحركت بعيدًا عن المكتب لكنها توقفت بجوار فضل كي تهمس بأذنه بتحذير:

-خِف شوية عشان إنت مقفوش أوي

تركته يُحمحم بحرج لأن حديثها صائبًا، فهو لا يستطيع إخفاء مشاعره، ودائمًا ما يفشل بذلك...

ما إن رحلت سما حتى تقدمت يقين بجذعها نحو فضل كي تسأله بحدة زائفة رغم رغبتها العارمة بالحديث معه:

-نعم يا فضل ... جاي ليه ؟

تنحنح ليُجلي حنجرته قبل أن يقول بتهتهة:

-إيــه ... ممكن أعزمِك على العشا ؟

تعجبت من سؤاله ونظراته التي بدت بلهاء رغم ما تكنيه من عِشقٍ خفي، ومع تلك المشاعر المُختلطة قررت الحِفاظ على ثباتها وصرامتها وهي تهتف:

-ودا بمُناسبة إيه ؟

صمت لبُرهة ليحاول التفكير في حُجة تقنعها للذهاب معه، فهو مُتيقن أنها لن تقبل عزيمته بسهولة، بعد بُرهة من الصمت أخبرها مُتحججًا:

-بمناسبة ... بمناسبة عيد ميلادِك

قطبت حاجبيها بحيرة وهي تقول:

-عيد ميلادي !! ... أنا عيد ميلادي كان من أربع شهور

أحس بالحرج لوهلة من حماقة حُجته التي بدلّها بسرعة بطريقة أكثر حماقة:

-قــ.. قصدي بمناسبة عيد الحب المصري

فتحت فمها ببلاهة وهي تهتف:

-ها !! ... وإحنا نحتفل ليه بعيد الحُب المصري ؟

ضرب جبهته من شدة حماقته للمرة الثانية والتي كاد يبصق معها الحقيقة وهو لا يُريد الإفصاح عن مشاعره بتلك الطريقة المتسرعة، لهذا السبب عدُّل من نبرة صوته وهو يقول بنفاد صبرٍ:

-يا ستي بمناسبة أي حاجة .... في مطعم جديد فاتح وأنا عايز أروحه معاكي .. يلا بقى

تنهدت بنفاد صبرٍ من إلحاحه ونبرته التي تحوّلت إلى التوّسل بالنهاية، كذلك لأن الفضول هاجمها وجعلها ترغب بمعرفة ما تخفيه هذه العزيمة المفاجآة، فهي بحياتها لم تأمن لأي رجلٍ يقتحم حياتها، لكن يبدو أن مفهومها يتغير بعد ظهوره، فرغم هيئته التي تبدو أصغر منها رغم أنه يكبرها ببضعة أعوام، إلا أنها تشعر بالآمان معه ولا تعلم كيف ذلك...

-ماشي ... موافقة ... بس هي ساعتين زمن وهنرجع هنا تاني

أومأ رأسه موافقًا على شرطها وداخله طبولٌ تُقرع بسعادة لحصوله على موافقة منها، لا تزال أمامه الخطوة الأشد صعوبة والتي سيتحدد معها مصيره...

أرخى رأسه على تلك الوسادة القُطنية ما إن تجرع رشفاتٍ من المياه عقب تناوله هذا الدواء بمساعدة من مراد، ابنه الذي لم يتخلّى عنه رغم حالته المرضية التي تزداد سوءًا يومًا بعد يوم...

-تعبت نفسك يا بني ... كان زمانك مع خطيبتِك

هتف بها يعقوب بنبرة مبحوحة أظهرت مدى تدهور صحته، فدائمًا ما يجد نفسه عبئًا على ابنه الذي يهتم به ويتوّلى رعياته، حتى أنه لم يترك منزله كي يمكث مع والده خاصة بعد أن استأذن الرجل الذي يدفع له مراد كي يأتي ويهتم بوالده حالما يقضي أموره ويذهب إلى عمله أو إلى مقابلة سما كما يصر عليه والده...

ربت مراد على كتِف يعقوب بحنانٍ قال معه بلكنة معاتبة بعض الشيء لهذا الهراء الذي يقوله والده بكثرة:

-إيه يا حَج إللي بتقوله ده ؟ .... أنا لو عليا أسيب الشُغل وأفضل قاعد جنبك بس للأسف مش هينفع

بادله يعقوب بتربيتة أخرى أثنى معها على ما يفعله مراد يقوله:

-كتر خيرك يا بني

رماه مُراد ببسمة هادئة تابعها فترة من الصمت قطعها يعقوب باستفساره:

-اتكلمت مع سما على كتب الكتاب ؟

أومأ مُراد إيجابًا وهو يقول:

-أيوة ... واتفقنا نعمله بعد المسابقة

أنهى حديثه ببسمة هادئة لم يقابلها يعقوب بمثيلها بسبب قلقه الذي يزداد يوميًا، هذا القلق ظهر على حديثه وهو يقول:

-وهتيعشو فين بعد الفرح ؟...

آجابه مُراد بثقة:

-هنعيش هنا ... وهفضل جنبك

اعترض يعقوب حديثه خشية من تغيُر الأحوال في المستقبل، كذلك هو لا يُريد أن يبقى حِملًا على ابنه، لذلك قال:

-لا يا مراد ... أنا مش هينفع أفضل عايش معاكم ... وديني دار مُسنين، هما هناك هيعرفو ياخدو بالهم مني

قطب مراد حاجبيه ببعض الغضب من حديث والده، فكيف يرى أنه عِبئًا عليه وهو الذي لا يستطيع أن يتخيل حياته بدونه، فهو ينتظر أن ينتهي يومه حتى يجلس برفقة والده ويُحادثه عما يحدث معه في العمل وعما يُاقبله من مشكلاتٍ في حياته كي يأخذ برأيه ونصيحته، فهو رفيقه الأول والآخير، خاصة مع انعدام أصدقاءه...

-إيه الكلام ده يا حَج ... أنا قولت لسما إنك هتبقى معانا ... وهي راضية وموافقة، وحتى لو مكانتش راضية ... أنا لا يُمكن أرميك في دار مسنين...

كانت كلماته حادة لكنها خرجت بصورة هادئة ليُعاتب والده على هذا الحديث، فوالده أهم ما يملك في هذه الحياة، وهو ليس مُستعدًا أن يخسره ويُضحي به من أجل أيًا كان ... وضع يده على كتِف والده ليدلي آخر جُملة بحنان:

-لو سمحت متقولش الكلام ده تاني....

رماه والده بابتسامة هادئة وما كاد يتحدث حتى اخترق أذناهما صوت الجرس الذي أخذ يصدح عاليًا...

إبتعد مراد عن والده كي يفتح لهذا الزائر المفاجيء، فلا أحد يأتيه سوى عمته التي تتصل قبل المجيء، وكذلك يقين التي يعلم جيدًا أنها الآن مع فضل، فقد هاتفته وأخذت إذنه قبل أن تتحرك من المركز ... لهذا السبب كانت الأسئلة تدور حول رأسه وهو يتقدم نحو الباب ويفتحه بحيرة...

تلاشت هذه الحيرة ليحل محلها عوالم الصدمة التي امتزجت بدورها مع الغضب، فكانت نظراته النارية مصوّبة نحو ثلاثة من الرِجال عريضي المنكبين يبتسمون ابتساماتٍ صفراء يُقابلها مراد بنظراتٍ غاضبة حقودة لا يعلم سبب مجيئهم وما الذي أتى بإخوته في هذا التوقيت ؟...

____

أطلقت الهواء من جوفها براحة بعد أن انتهت من هذا العمل الشاق، ارتمت على المقعد الخاص بيقين لأنها ليست بالمركز، فعليها هي أن تتوّلى ما يخص الحِسابات والتعامل مع المشتركين، أرخت ظهرها إلى وراء بضع ثوانٍ تلتقط بهم أنفاسها بعد أن أنهت تدريبها وكان شاقًا للغاية خاصة وهي من تقوم بالتخطيط للعرض القادم وتُمارس تلك الحركات أمام فريقها حتى يحفظونها عن ظهر قلب...

تنهدت بعدها لتعتدل بجلستها وتفتح الحاسوب لتُباشر أعمالها، لكنها أحسُت بطيفٍ يقترب نحوها مما أوهمها أن يقين أتت من تلك العزيمة أو ربما حدثت معها مُشكلة جعلتها تأتي بهذه السرعة...

رفعت رأسها لتنتبه نحو هذا الزائر الذي جعلها تعقد حاجبيها بحيرة:

-كـ..كابتن بيشو

كان بيشوي يقف قبالتها بابتسامة هادئة تُزين ثغره مع سُترة أنيقة تصل حد الرُكبة أبرزت رشاقة جسده وقامتها الطويلة نسبيًا، فملابسه تتكون من تلك السُترة الداكنة والتي أسفلها كنزة عصرية أسفلها سروالٌ ممُزق تمزيقة بسيطة بمِنطقة الرُكبة، فعلى الرغم من أنه بالأربعين من عُمره، إلى أن هيئته تدل على أنه لا يزال مراهقًا...

جلس بيشوي على المِقعد المُقابل لها ليتحدث معها بوِّدٍ رغم النظرات الجامدة المصوٌبة من سما، فهي لم تنسى بعد ما فعلوه معها، وكيف أقصوها من الفريق بهذه البساطة...

-إزيك يا سما ... أنا شوفت العرض بتاع فريقِك على التلفزيون ... بجد شابو .. العرض كان هايل جدًا، كنت عايز أباركلِك من بدري بس لسة عارف العنوان من قُريب .... أنا فخور بيكي جدًا

لا تعلم لما استشعرت الكذب بحديثه رغم اللكنة الودودة التي يتحدث بها وكأنه بالفعل أتى ليُهنئها، لهذا السبب أوقفت تلك المسرحية بقولها:

-هو حضرتِك جاي ليه ؟

سألته بنبرة حادة جامدة جعلته يرمقها ببعض الحيرة، فهو لا يعلم سبب هذه النظرات الموجهة نحوه ولا سبب طريقة الحديث هذه..

تقدم بجذعه بضعة أمتارٍ ليهتف بصدقٍ مع لمحة من الحُزن تطغي على كلماته:

-أنا جاي أقولِك ألف مبروك .... وكنت أتمنى إنِك تفضلي معانا في الفريق

اندفعت بوجهه وكأنها أرادت الاندفاع مُنذ فترة طويلة، فكانت تهتف بجرأة لم تعهدها ولم تعلم أن لديها مثلها:

-ومشيتوني ليه طالما عايزني معاكم ؟

قطب حاجبيه بحيرة من حديثها ليردف بعدها:

-إحنا مكُناش عايزينك تمشي ... دا أنا حتى كُنت محتاجِك في احتفالية الأقصر ... بس للأسف قالولي إنِك تعبانة ... ولما رجعت اتفاجئت إنِك مشيتي

جحظت عينيها بصدمة من حديثه، فكيف يُخبرها أنها كانت مريضة، ومن أخبره بهذا الهُراء ؟ ... تلك الأسئلة جعلتها تندفع بوجهه:

-مين إللي قال إني كُنت تعبانة ؟

تعجب بيشوي أكثر بعد سؤالها الذي آجابه فورًا:

-شذى ... أنا قولتلها تكلمِك عشان تقولِك التفاصيل، بس هي قالتلي إنِك تعبانة ... كمان سألت يارا عشان اتأكد وهي أكدتلي كلامها ... عشان كدة أخدت أسماء مكانِك

تدفقت النيران من أذنيها مع استماعها لتلك الحقائق المُجحفة، فلما تفعل بها هذا ؟ ... ما الذي فعلته حتى تكالبها يارا وتحاول أذيتها، حقًا لا تعلم لمَ تتعامل معها يارا بتلك الطريقة ... لكنها الآن، تريد أن تصرخ بوجهها وتعاقبها على تدميرها لحياتها ... فهي السبب في ما حدث طيلة الفترة الماضية ... هي سبب تلك المعاناة....

الفصل السابع عشر (حريق جثيم)

"ليست جميع الجروح تُخلف وراءها آلامًا ... فهناك جروحٌ يأتي وراءها شفاءٌ أبدي"

____

تطيء بأقدامها هذا الطريق بسرعة تُعادل سُرعة البرق، فهي الآن أشبه بجمرة من النار تتحرك فوق سفحاتٍ من اللهب، شريط من الذكريات يمرٌ أمام عينيها يُذكرها بتلك الأيام المليئة بالمعاناة، بدموعها التي تُغرق وسادتها في كل ليلة، يُذكرها بالمرات التي شعرت بهم بالظُلم والاضطهاد ... لتضحى الحقيقة أنها ضحية للُعبة دنيئة لا تعلم هدفها ... حقًا لا تعلم ما الذي فعلته حتى يسعى أحدهم لأذيتها، بل والأصعب أن يضحى هذا الشخص فردًا من عائلتها ويقطن معها بنفس المنزل...!

تلك الأفكار تتغلغل عروقها وتجعل غضبها يزداد جسارة، ترغب في الإنتقام، لكن في الوقت ذاته لا تعلم كيف تنتقم، كيف تنتقم من شقيقة التي تعتبرها سليلة روحها ؟ ... هي حتى لا تعلم شيئًا عن الألاعيب الماكرة والإنتقام، فلطالما عاملت الجميع بالحُسنة وسعَت بجُهد حتى لا يكرهها أحد، فلما يحدث معها هذا ؟ ... لما يضطهدها الجميع دائمًا ؟...

اقتحمت المنزل بغوغائية تطايرت معها شرارتٌ من اللهب والتي اجتمعت مع عروقها المتنافرة ووجهها الأحمر، كانت تجز على أنيابها وهي تتحرك داخل أركان المنزل صوٌب حُجرة يارا مباشرة...

وجدتها تستلقي على الفراش وتعبث بهاتفها بلامبالاة لما يحدث حولها، لكنها ما إن استشعرت وجود سما أمامها بتلك النظرات النارية حتى اعتدلت بجلستها لتضع الهاتف جانبًا وترمق سما بنظراتٍ مستفهمة آجابتها سما بصُراخ وكأنها فجٌرت قُنبلتها...

-إنتِ عايزة مني إيه ؟

صرخت سما بتلك الجُملة مما جعل يارا تثب من فراشها وتقف قبالتها بعوالمٍ حائرة تحمل معها الاستخفاف:

-أنا عملتلِك حاجة ؟

قالتها يارا بدِفاع عن نفسها لكن سما لم تتحمل ودفعتها دفعة قوية أدت إلى ارتماءها على الفِراش مجددًا، تبعت سما دفعتها بصُراخٍ:

-إنتِ عارفة أنا بتكلم عن إيه ... ليه خلتيهم يمشوني من الفريق ؟... أنا خسرت كل حاجة بسببِك...

لم تتأثر يارا قيد أنملة وبقيت ترمقها باستخفافٍ ولا مبالاة حتى قالت:

-ومين إللي قالِك الهري ده ؟ ... شايفاني الشماعة إللي هتعلقي عليها خيبتِك

ضمت سما شفتيها بحنقٍ أمام برودها الذي يُصيبها بالغضب أكثر، فهي حتى لا تشعر بالندم مما فعلت...

لم تكن تعلم ماذا تقوله وكيف ترد عليها، فهي حقًا لا تستطيع الجدال مع أحد، ومن كثرة غضبها وجدت نفسها تنقض على يارا وتمسكها من خُصلات شعرها حتى كادت تُمزقها بين أصابعها....

-الكابتن قالِّي كل حاجة ... وإنتِ السبب...

حاولت يارا إبعادها لكن يبدو أن نيران الغضب جعلت من قوة سما تزداد أضعافًا، فكانت تُحركها للأمام والخلف وتتعالى صرخات يارا المُستنجدة حتى أتت سارة هي وزكريا ليحاولا فض هذا النُزاع بلا فائدة، فقد كانت سما أشبه بالثور الذي رآى أمامه شيئًا باللون الأحمر....

-إبعدي بقى عني ... أنا معملتش حاجة

قالتها يارا بغضبٍ اختلط بالاستنجاد وهي تحاول إبعاد سما عنها وعن خُصلات شعرها العزيزة، أما عن سما فلم تتحرك وبقيت تهتف بصوتٍ حانق:

-بطلي كِدب بقى ... أنا عارفة إنِك بتكرهيني ... بتكرهيني من ساعة ما جيت عيشت هنا ... أنا عملتلِك إيه عشان تعملي فيا كدة ؟

أتت جدتهما إثر هذا الصراخ لتقطع جدالهما بنبرة صارمة مرتفعة:

-إيه الصوت العالي ده ... في إيه يا سما ؟ ... في إيه يا يارا ؟ .... هتقطعو بعض وأنا موجودة ؟

كان صوت جدتهما غاضبًا جعل سما تبتعد عن يارا لتقف على مقربة منها، بينما كانت يارا تُمسد على رأسها بوجع وتحاول تمسيد خُصلات شعرها المُشعثة وتُدافع عن ذاتها بقولها:

-هي يا تيتا إللي بدأت ... دخلت تتخانق معايا وأنا معملتش حاجة

صكت سما على أنيابها بغضبٍ وهي تعترض حديثها:

-كدابة ... هي السبب في إني أسيب الفريق ... وأنا لازم آخذ حقي منها

كادت تعترضها يارا لكن زُهرة أوقفتهما بصرامة:

-بـس ... مش عايزة أسمع صوت

توقفا عن الحديث وبقيت النظرات النارية تتبادل بينهما حتى جلست زُهرة على إحدى المقاعد قبالتهما، فكانت تجلس سما على الفِراش وبجوارها يارا ترمقها باشمئزاز وتُقابلها سما بنظراتٍ ساخطة، لكن كلتاهما عاجزتا عن الحراك بسبب جدتهما التي تُريد أن تفهم ما حدث بالتفصيل، بل وتُريد فض هذا الجِدال كذلك...

طلبت منهما زُهرة أن يتحدثا عن سبب العِراك فأخبرتها سما حقيقة الأمر وتدخلت يارا كي تعترضها وتصرّ على عدم معرفتها بالأمر، وأنها بريئة من تلك التُهمة ... فكانت تتحدث ببراءة زائفة أثارت حفيظة سما..

-يا تيتا والله ماليا دعوة باللي حصل ... أنا أول مرة أسمع الكلام ده منها

اعترضت سما حديثها للمرة التي لا تعلم عددها بقولها:

-يعني هُما هيتبلو عليكي يعني ؟_

أوقفت زُهرة حديثها بِحِكمة:

-خلاص يا سما...

مرّت بُرهة قصيرة من الصمت قطعتها زُهرة بحديثها الموجه نحو سما بحكمة:

-مش عايزاكي توقفي حياتِك على الانتقام ... وخليكي فاكرة إن سيدنا يوسف رغم إن إخواته رموه في البير ... إلى إنه بقى حاكم مصر وبقى معاه فلوس أكتر منهم .... وإنتِ صحيح حد وقعِك زمان ... بس إنتِ دلوقتي بقى معاكي فرقة، واسمِك بدأ يتعرف ... فليه بقى ننبش في القديم وندوّر على إللي كان السبب

لم تنبس سما ببنت شفة وبقيت في حالة من الصمت تُفكر بحديث جدتها الصائب، فلولا أنها تركت فرقتها لما حققت هذه الإنجازات..

توجهت زُهرة نحو يارا لتحاول إرشادها بحكمة:

-وإنتِ يارا ... مش عيب إننا نغلط ... بس العيب إننا منعترفش بغلطنا_

قطعت يارا حديثها بنبرة فظة هجومية دافعت بها عن ذاتها:

-يوووه ... قولتلكم أنا مليش دعوة...

بصقت تلك الكلمات ثم هرعت من الحُجرة تاركة جدتها التي ترمقها بخيبة أملٍ وسما التي ترمقها بغضب، فما إن رحلت حتى التفت سما نحو جدتها كي تُخبرها بإصرار:

-أنا مش هعاتبها على إللي حصل، عشان فعلًا زي ما حضرتِك قولتي ... أنا بقيت في وضع أحسن من ما كُنت في الفريق ... بس أنا بردو مش هسامحها على إللي عملته ... وطول ما هي في البيت ده .. أنا لساني مش هيخاطب لسانها

ألقت تلك الكلمات ثم تركت الحُجرة تاركة جدتهما ترمقهما بخيبة أملٍ وعجزٍ عن إصلاح الأمور بينهما، فما إن رحلت سما حتى إقتربت سارة لتقف خلف جدتها وتبدأ التمسيد على ظهرها مواسية ببراءة:

-متقلقيش يا تيتا ... سما مش بتعرف تزعل من حد

ابتسمت جدتها على كلماتها البريئة والتي جعلتها تُربت على ظهرها بحنانٍ وداخلها يقين بأن الخلاف سينحل وتعود علاقتهما أفضل من السابق، لكنها يجب أن تنتظر الأيام كي تُداوي تلك الخلافات...

لا تزال الدهشة على وجهه وهو يرمق أخوته الثلاثة يقفون قبالته بابتسامتهم المُرحبة والتي بدت زائفة بالنسبة لمُراد، فعلى الرغم من أنهم أخواته، إلى أنهم أكثر ما يمقت بهذا العالم، خاصة بعد أن تخلوا عنه وعن والده وركضوا خلف الأموال...

-إيه يا مارو ... هتوقفنا على الباب ولا إيه ؟ ... دا إحنا حتى لسة جايين من سفر

قالها سُلطان أكبر أشقائه وهو واثب أمام نظرات مراد الثاقبة التي كادت تخترقهم وتُفتك بهم، انتهت تلك النظرات بكلماته الجامدة:

-إيه إللي جابكم ؟

تقدم دمرداش، ثاني أكبر أشقائه ليقف قبالة سُلطان ثم يدفع مُراد عن وجهه بتروٍ كي يدلف هو وأشقائه المنزل بأريحية تبعتها كلماته:

-حد يقول لإخواته الكُبار كدة ... ده إحنا حتى جايين نطمّن عليك وعلى الحَج

صفع مُراد الباب بغضبٍ ليلتفت نحوهم بنظراته التي لا تزال غاضبة والتي امتزجت مع كلماته المعاتبة:

-لسة فاكرين إن ليكم أب وأخ مرميين هنا ..... ولا إنتو جايين تشمتو فينا ؟

ابتسم بهاء_ ثالث أكبر أشقائه _ابتسامة سمِجة أحاط معها ذراعه برقبة مراد رغم رفضه بتلك الحركة، فكان صوته يتغلغل أذن مُراد عن قُرب وهو يتحدث بلوم:

-منا ياما قولتلك تيجي تشتغل معايا في الخليج ... وإنت إللي نشِفت دماغِك وفضلت قاعد هنا

رد عليه مراد بنبرة حادة سخرت من حديثه:

-إيه ... عايزني أنضف حمامات أنا كمان ؟

كان يعلم طبيعة عمل شقيقه بالدول العربية وعندما ذكره بذلك جعله يُحمحم بحرجٍ ويبتعد عن مراد، فلطالما كان بهاء الأفشل من بينهم والأكثر استهتارًا حتى أضاع جميع أمواله وأصبح يُنظف المراحيض بدوّل الجليج بعد أن كان يعمل بالتجارة...

تقدم نحوهم سُلطان كي يسأل مُراد بودٍ زائف:

-صحيح يا مارو ... هو أبوك فين عايزين نطمّن عليه

آجابه مُراد بسُرعة وجمود:

-نايم ... وقالْي مخليش حد يدخل

كانت إجابته كاذبة لأنه لا يُريدهم أن يُقابلوا والده كي لا تتدهور صحته، فهو يعلم جيدًا أنهم أتوا لغرضٍ آخر يتلخص في الحصول على المال كما يفعلون دائمًا...

قطب دمرداش حاجبيه بعدم تصديقٍ لحديثه حتى سأل:

-نايم دلوقتي !!... ده العشا لسة مأذنتش

رد عليه مُراد بصرامة وتأكيد لكذبته:

-أيوة نايم دلوقتي ... وأظن من حق الواحد ينام في الوقت إللي هو عايزه

بقي واثبًا أمام ثلاثتهم حتى لا يتحركوا أكثر ويستمع والدهم إلى صوته، فغُرفة والده تبتعد قليلًا عن البهو، مما يجعله عاجزًا عن تمييز الأصوات التي تُصدر من الخارج .... وربما قد استمع إلى أصوات أبناءه لكنه لن يقدر على مواجهتهم الآن...

بعد بُرهة من الصمت ضرب سُلطان على فخذ دمرداش الجالس بجواره على الأريكة، يريد إخباره أن يأتوا لاحقًا، أو عندما يترك مُراد المنزل كي لا يمنعهم عن رؤية والده، فكان يقول بأمرٍ:

-طب يلا بينا إحنا ... نبقى نيجي وقت تاني يكون الحَج صحي

تابعهم مُراد بنظراته النارية إلى أن تركوا المنزل وصفع مُراد الباب ورائهم كي يهرع فورًا إلى والده ويتأكد من عدم سماعه لصوت أشقائه، فقد كان يدعو بداخله ألا يعلم بمجيئهم أبدًا...

ما إن أغلق الباب وطفق سُلطان وأشقائه ينسلون درجات السُلم حتى أردف بهاء بتساؤلٍ:

-إنت متأكد من حكاية الورث دي ... يعني بجد أبوك مدكن فلوس ومش قايلنا ؟

أكد سُلطان على حديثه بثقة:

-أيوة ... في حد بعتلي رسالة وقالّي ... وأنا لما دوٌرت وراه اتأكدت من الكلام ده

اندفع دمرداش ليتدخل بحديثهما:

-والعمل ؟ ... هناخد الورث إزاي وإحنا مش عارفين نتكلم مع أبوك ؟

أنهى سُلطان حديثه بمُكرٍ ونظراتٍ خبيثة تحمل إحدى الخطط الماكرة:

-وإحنا هنتكلم مع أبونا ليه ؟ .... هو مش الورث بناخده لما صاحبه يموت ؟

____

اللون الأزرق طغا على ذاك المطعم البسيط ذي الديكورات العصرية، فكانت اللوحات منتشرة في شتى البِقاع تجاورها العديد من صور المشاهير اللذين أتوا لزيارة هذا المطعم وتناولوا أطيب المأكولات بداخله...

وعلى إحدى الطاولات المستديرة، كان يجلس فضل وأمامه صحنٌ من المعكرونة البيضاء الممتزجة بالأكلات البحرية، كما كانت يقين تجلس قبالته وأمامها صحنٌ من المعكرونة الحمراء وقطع من الدجاج المُقرمش...

تنصت لحديثه بلهفة وتتناول تارة من طعامها أمام نظراته التي بدت غريبة لكنها لا تعلم لم تُشعرها بالارتباك...

لم يتوقف فضل عن الحديث عن مغامراته بعُمر المراهقة والتي شاركته يقين بدورها وبدأت تتحدث عن طفولتها المتشردة، فهي ليست كأي طفلة عادية، بل كانت تلقي نفسها بالمخاطر كما لو أنها تلقي نفسها بالمسبح...

-وبس يا ستي ... دخلت الحفلة بتذكرة الأطفال .. مع إن كان عندي ستاشر سنة ... بس إللي يشوفني يقول عندي عشر سنين ... لا والأنقح كمان ... كنت مسبسب وشعري طويل وناعم وأنا عندي تمن سنين، لدرجة إن في ولية ساكنة عندنا في العُمارة كانت حالفة لتجوزني ابنها

إنفجرت بالضحك بعد حديثه الذي أكد عليه وواصل الضحك وهو يتحدث عن طفولته الغريبة...

بعد بُرهة من الأحاديث المازحة مرّت فترة وجيزة من الصمت تلاشت معها عوالم المُزاح وحلّ محلها عوالم الجدية، فكان يتأمل ملامحها الفرعونية ويتمنى لو يستيقظ يوميًا على تلك الملامح .... بقيت تُطالعه بنظراتٍ مستفهمة ظن معها أنها ستشعر بالخجل، لكنه لا يعلم أن الخجل لا يعرفها بتاتًا..

قطع وصلة الصمت هذه بسؤاله الذي خرج من جوفه بتردد:

-يقين هو ... هو إنتِ شايفاني إزاي ؟

عقدت حاجبيها من غرابة سؤاله والذي جعلها تتردد قليلًا قبل أن تُدلي ما لديها بتوترٍ بليغ:

-شايفاك ... شايفاك شخص كويس ... ومحترم .. وبتحب عيلتَك ... و..

لم تستطع الحديث بسبب بسمته المُتسعة ونظراته التي تزداد هيامًا وهو يستمع إلى حديثها ويستند برأسه على باطن كفه، فكان حديثها بمثابة نغمة موسيقية تُطرب مسامعه...

-وإيه كمان ؟

سألها ما إن طالت فترة صمتها، فما إن سألها حتى رسمت بسمة هادئة قالت معها بصدق:

-جدع ... ومش عارفة بصراحة إيه السؤال ده

أرخى ظهره للوراء وهو يواصل الحديث بنفس ذات النبرة الهائمة:

-سؤال ملهوش لازمة ... بس بردو هقولِك أنا شايفِك إزاي..

صمت بُرهة ليواصل الحديث أمام لهفتها ورغبتها بمعرفة كيف يراها، سرق نفسًا عميقًا قبل أن يُلقي حديثه بعقلٍ شاردٍ في أحلامٍ وردية:

-شايفِك مميزة ... شجاعة .. قوية ... بتضحي عشان إللي حواليكي ... وعُمري ما هلاقي واحدة زيِك

أنهى حديثه ببسمة هادئة جعلتها تبتسم هي الأخرى وتشعر بالسعادة لأنه يراها بتلك الصورة الجيدة، فلطالما أخبرها الجميع أنها تتشبه بالرجال لأنها فقط لا تهتم بجمالها ولا تضع أطنانًا من مساحيق التجميل، هي فقط تكتفي بالجمال الذي خُلقت به، ولا تتدخل بهيئتها، فلمَ يُخبرها الجميع بأنها كالرجال، هي حتى ترتدي ثيابًا طبيعية وترتدي حجابًا يُظهر جمالها أكثر...

بعد بُرهة من الصمت والتحديق بينهما أردف فضل بابتسامة هائمة ونظراتٍ لا تفارق عينيها الداكنة الكاحلة..

-بقولِك إيه ... ما تيجي أخطفِك منه ؟

قطبت حاجبيها بحيرة من حديثه حتى سألت:

-تخطفني من مين ؟

-من العذوبية

هكذا آجابها بتلقائية جعلتها تتوتر أكثر ما إن فهمت حديثه، هل حقًا يعرض عليها الزواج ؟ ... هل يقبل أن يتزوجها وهي بهذا المرض اللعين ؟ ... تلك الأفكار جعلتها تخفض رأسها بتوترٍ جعلها تصمت عن الحديث وتحاول الإبتعاد عن نظراته المُتلهفة .

-ها .. قولتي إيه ؟

آعاد سؤاله مُجددًا ليجعل توترها يتفاقم أكثر حتى بدأ حديثها يتلعثم:

-بس أنا‌ا ... مش هينفع ... المرض إللي عندي ممكن_

قطع حديثها بصرامة وإصرارٍ على قراره:

-المرض إللي عندِك هتتعالجي منه ... وحتى لو عيالنا ورثوه في المستقبل .. إيه المشكلة يعني ؟ هنعمل إللي نقدر عليه عشان نعالجهم

تعجبت من حديثه الذي يعكس ما يدور بأفكارها، فهي لا تعلم أنه استمع إليها في إحدى الأيام وهي تتحدث مع الطبيب عن توارث هذا المرض، وهذا ما جعله يشك بخوفها وترددها من الإنجاب...

تقدم بجذعه ليرمقها بنظراتٍ عاشقة أكدت على قراره:

-أهم حاجة إننا نكون مع بعض ... وصدقيني هنعدي الصعب سوا

بقيت تُطالعه بتيهٍ لا تعلم ما الإجابة، فهي كذلك تشعر بالانجذاب ناحيته، بل إنها حتى لا تتخيل أن يختفي عن حياتها، خوفها يُثقل حركتها ويجعلها عاجزة عن اتخاذ القرارت ... ومع نظراته العاشقة وكلماته الصدقة التي تؤكد على مساعدته لها، وجدت رأسها تومىء إيجابًا وفمها يهتف بالموافقة...

أرخى ظهره بأريحية ما ان إخترقت موافقتها حلمة أذنه، فكأن صخرة ثقيلة كانت فوق صدره وانزاحت ما ان وجدها تومىء برأسها إيجابًا، بل حتى أنه يُريد أن يقفز ويُهلل بسعادة لولا وجودهما بمكانٍ عام...

-طمنتيني ... كنت فاكرِك مش هتوافقي على الجواز عشان قُصير وكدة ... دا أنا اترفضت خمس مرات عشان قُصير...

أدلى حديثه بمُزاح جعلها تُقهقه لا إراديًا وهذا ما آراده بالضبط، آراد أن يُخبرها أنها ليست الوحيدة من يتعرض للمعاناة بهذا العالم، خاصة عندما تأتي المعاناة من شيء لا تستطيع التحكم به وتغييره، يُريد أن يُخبرها أنها تستطيع المواجهة حتى ولو لم تكن مُتحكمة في تلك الآثام...

____

بعد مرور بضعة أيامٍ لم تتغير بهم الأحوال، فلازالت الخلافات كما هي ولا تزال الصراعات تتكالب على أوداجهم وتجعل حياتهم أصعب، فكانت سما مُنهمكة بتدريب الفتيات في وضح النهار لأن اليوم هو إجازة رسمية، فلا يذهب الأطفال إلى مدراسهم اليوم...

تتحدث مع الفتيات بجدية تارة ولكنة إرشادية تارة أخرى، فكانت الفتيات يصطفن وراء بعضهن بعضًا يؤدين حركاتٍ رشيقة وأقدامهن ترتفع بجانبهن تسعون درجة، ثم يلتفن حول أنفسهن وفقًا لتعليمات سما...

قطعت بدور انشغالها رغبة في معرفة ما بينها وبين شقيقتها، فهي قد لاحظت تلك النظرات الحاقدة التي تصوٌبها نحو يارا ورغبتها الدائمة في تجنب البقاء معها في نفس الوقت، وعلى الرغم من أنها تعلم كم المشاكسات التي تحدث بينهما، إلى أن هذه المرة الأولى التي يصل فيها الأمر إلى هذا الحد..

-سما ... عايزة أتكلم معاكي

انتبهت سما لحديثها وطلبت من الفتيات أن يستريحن لبضعة دقائق حالما تتحدث مع بدور، فما إن ابتعدت عن الفتيات حتى قالت بجمود:

-نعم ... عايزاني ليه ؟

كانت تعلم سما عمَ ستتحدث، لهذا السبب حاولت التهرب بحديثها الجامد الذي لم تكترث له بدور بُتاتًا...

-على فكرة سارة قالتلي على الخناقة إللي حصلت بينِك وبين يارا .... وعارفة إن هي زودتها أوي المرادي ... وأنا مش هقولِك تسامحيها ... بس على الأقل متتعامليش معايا بالطريقة دي، أنا مليش دعوة بإللي حصل، وعُمري ما هفكر أذيكي

اندفعت مع آخر كلماتها لتُعرب عن غضبها من الطريقة التي تتعامل بها سما بآخر فترة، فهي تتعامل بجمودٍ مع جميعهم كلما رآت يارا تتحرك أمامها، وكأنها تصّب غضبها على من يُقابلها، وبما أن بدور أكثر من تقابله بالمنزل، فهي من تنال الشِق الأكبر من غضبها...

سرقت سما نفسًا عميقًا وهي تُفكر في حديثها وتُدرك تعاملها الفظ معها والذي بالطبع لم يكن بقصدها، لهذا السبب إعتذرت بقولها:

-أنا أسفة ... أنا بس كُنت متضايقة اليومين إللي فاتو، فكُنت بطلع غضبي على أي حد

رمقتها بدور بأعينٍ متضايقة قالت معها بعِتاب:

-حتى أنا ؟... دا أنا إللي بقف جنبِك في كل حاجة

إعتذرت سما مُجددًا وهي تُربت على كتفها:

-خلاص بقى أنا أسفة

تنهدت بدور باستسلامٍ قالت معه:

-ماشي هعديها المرادي ... بس المرة الجاية والله هتضايق ومش هتكلم معاكي تاني

رسمت سما بسمة هادئة على ثغرها وهي تؤكد على قرارها باطمئنان:

-مش هيبقى فيه مرة تانية ...

كادت تتحدث بدور إلى أنهما استمعا إلى صوت شِجار يُصدر من إحدى الفتيات بالداخل، ومن نبرة صوتهن، استنتجت سما أن هناك عِراكًا ينتظرها بالداخل؛ لهذا السبب استأذنت بقولها:

-أنا هدخل أشوف في إيه...

وثبت بسرعة داخل الحُجرة بينما اتجهت بدور بدورها نحو يقين التي كانت تعبث بالهاتف والابتسامة تُرتسم على مُحياها، فبالأيام السابقة، تقدم لها فضل وتمت خُطبتهما بسرعة بناءًا على طلب فضل كي يتسنى له مقابلتها دون أن يشعر بالذنب ...

لاحظت بدور بسمتها فإقتربت نحوها تُشاكسها بالحديث:

-شكلِك هتتجوزي وتقعدي في البيت ... طب راعي حتى السنجل إللي معاكم

انتبهت يقين لحديثها فتركت هاتفها جانبًا لترد عليها بنفس تلك النبرة المشاكسة:

-مين دي إللي سنجل ؟ ... أومل سامح ده يبقى إيه ؟

جلست بدور على مِسند المقعد وهي تُجيب سؤالها بثقة رغم شعورها بأنها تكذب:

-يا بنتي سامح ده ابن عمي ... ومفيش حاجة بينا ... بطلّي بقى تقوليلي كدة في الرايحة وفي الجاية

اتسعت بسمة يقين وهي تحاول استدراجها بخُبث:

-وهو ابن عمِك عادي يكلمِك ويطمّن عليكي طول الوقت ... دا سما إللي هي أخته مش بيعمل معاها كدة

توترت بدور من حديثها فدفعتها بتروٍ حتى تصمت وتتوقف عن إحراجها، فهي تعلم لما يفعل تلك الحركات ولاتزال تُعاند فؤادها وترفض الاعتراف بأنها بالفعل تُحبه ولا تقدر على الحياة بدونه...

-إيه المشكلة يعني ما يطمّن عليا ... أكيد بيعمل كدة بردو مع سما ... وبعدين إنتِ مالِك بتتحشري في إللي ملكيش فيه ليه

أبعدت يقين أنظارها عن بدور وصبُّتهم نحو جهاز الحاسوب لتستكمل أعمالها، لكنها أنهت الحديث بثقة:

-والله الواد صعبان عليا، عمال يلف وراكي وإنتِ ولا معبراه ...

نفت بدور حديثها بصرامة:

-ولا بيلف ولا حاجة ... ده حتى مكلمنيش خالص إنهاردة

لم تكد تنهي حديثها حتى وجدا سامح يخطو بأقدامه داخل المركز بابتسامته الودودة التي صوّبها نحوهما..

-سلام عليكم

إنفجرت يقين بالضحك ما إن رأته أمامها مما أصابه ببعض الحيرة، ضربتها بدور على كتفها كي تصمت وكانت هي تعتدل بوقفتها وإحساس من الحرج يطوف حول جسدها، همُست يقين بأذن بدور بقولها:

-جبنا سرت القط راح نط ... قابليني لو مكانش جاي عشانِك

نفت بدور حديثها بهمسٍ غاضبٍ:

-لأ ... دا أكيد جاي عشان سما

ما إن أنهت حديثها حتى وجدا سامح يقول بصوتٍ هاديٍ:

-خلصتي تمرين يا بدور ؟

كبتت يقين ضحكتها وهي ترمق الارتباك على وجه بدور التي كانت تقول:

-إيــه .. لأ لسة

تقدم نحو المكتب خطوة واحدة ليستأذن بهدوءٍ وبعض التردد:

-ينفع أخدِك مشوار ؟ ...

أنهى حديثه ببسمة واسعة أربكت حصونها وجعلتها تُبادل النظر ما بينه وبين يقين التي كانت تحثها على الذِهاب معه، لكن بدور آبت الرضوخ لنظراتها وأردفت برفضٍ:

-لأ مش هينفع ... في تمرين

تدخلت يقين بحديثهما باعتراض:

-التمرين لسة قدامه تلات ساعات ... يعني ممكن تروحو وتيجو

وجهت بدور نظراتها الغاضبة نحو يقين التي آرادتها أن تتحلّى بالصمت، فهي وعلى الرغم من رغبتها الشديدة بالذهاب معه، إلى أنها تريد التهرب من مشاعرها ولا تريد أن تخوض تجارب عاطفية فاشلة للمرة الثانية...

-طب خلاص ... يلا يا بدور ... هي ساعتين زمن وهنرجع تاني

حاول إقناعها مجددًا مما زادها ارتباكًا وتيهًا، لهذا السبب تدخلت يقين ودفعتها ناحيته لتجبرها على التحرك والقبول بعزيمته البسيطة، وهذا ما زاد بدور شعورًا بالغضب لكنها كبتت غضبها أمام نظراته الهادئة التي جعلتها تقبل بالذهاب معه على أمل أن تعود وتُلقن يقين درسًا....

____

صوت الرياح المتلاطمة يجتمع مع سفحات هذه البحيرة الزرقاء التي تلطخ لونها ببعض اللون الأخضر كما الحديقة الواسعة التي يتجولان بأرجاءها، فكانت الشمس ساطعة والأزهار من حولهما تُشعرك بفصل الربيع رغم أنهم بالشتاء القارص...

يستند سامح بجذعه على سورٍ عريض داخل حديقة الأزهر، إحدى الحدائق العريقة التي تقبع بالقاهرة، فهذا المكان مليءُ بالأشجار والأزهار التي حوّلت تلك الحديقة إلى أخرى ساحرة...

كانت الأجواء هادئة من حولهما رغم ضجيج الأطفال التي تركض بالجوار، فالحديقة لم تكن فارغة، بل كانت ممتلئة بالعديد من الأشخاص لأن اليوم إجازة على جميع العاملين كذلك...

ألقى سامح قطعة من الخُبز في تلك البُحيرة لتلتهمه طيور البط التي تسبح في تلك البحيرة وتجعلها فريدة من نوعها، كانت تقف بدور بجواره على بُعد بضعة أمتارٍ وكانت تُلقي قطع من الخُبز مثلما يفعل وتستمتع بمشاهدة الطيور وهي تتناول فُتات الخبز ويبدو عليها السعادة ...

-فاكرة زمان ... كنا دايمًا نيجي هنا ونأكل البط ... بس زمان كان عددهم أكتر من كدة

رفعت بدور جذعها عن السور تؤكد حديثه باستذكارٍ وهمهمة:

-أيوة .... وكنا بنجيب كورة ونلعب صيادين السمك

رفع جذعه هو الآخر ليُحاول استدراجها بالحديث كما يفعل كُل مرة، فكانت نبرته هادئة تحمل بعض الهيام:

-المكان ده هو المكان إللي قولتلِك فيه إني بحبِك

حدقت بعينيها لأسفل وهي تتذكر حديثه الصادق، وتعلم سبب إحضارها إلى هذا المكان دونًا عن غيره، فهو لا يزال يرغب بنيل مُرادها ومعاودة ما كان يحدث بينهما سابقًا، قبل أن تأتيه تلك المنحة اللعينة....

لاحت بوادر الصمت بينهما وكلاهما يُفكر في طريقة لنيل مراده حتى قطع سامح هذا الصمت متمنيًا:

-نفسي الأيام دي ترجع تاني ... عشان مغلطش وأقرر أسيب كل حاجة ورايا وأمشي

توقف عن الحديث ليرمق عينيها بنظراتٍ مستعطفة قال معها:

-نفسي ترجعي معايا تاني .... نرجع زي الأول، وصدقيني هعوِّضِك عن إللي فات

تنهدت بدور بقلة حيلة ورغبة عارمة بالإفصاح عن مشاعرها الحقيقية، لكنها لا تزال تخشى الفقد ولا تريد أن تستبدل مُعتصم به، تريد أن تمحي كل ذِكرى ربطتها بمُعتصم حتى تبدأ معه من جديد، ورغم مرور الأيام، إلى أنها لا تزال مشاعرها متقلبة ولن تقبل أن تطوله تقلباتها، وفي نفس الوقت لا تُريد أن ترفض حديثه ككل مرة ... لهذا السبب بادلته تلك النظرات الصادقة الشغوفة وهي تقول باطمئنان:

-أكيد الأيام دي هترجع ... بس مش دلوقتي_

قطع حديثها بنبرة مندفعة حملت نفاد صبره:

-أومل إمتى ؟

-قُريب ... قريب أوي

هكذا أنهت الحديث معه بكلماتٍ لا تعلم كيف خرجت من جوفها، فهي ليست متأكدة من أنها ستستطيع العودة إليه قريبًا، أو ربما قالت هذا كي لا ييأس ويبقى جوارها على أمل أن تعود إليه يومًا، فالأمل هو ما يدفع الجميع للتحرك، مهما كان الشخص يآسًا...

____

تلطخت السماء بعُتمة الليل وضوء القمر الذي يحتل غُمرة الأرض، فكان السكون مُخيم على الأجواء وكان يتجول مراد رفقة سما بعد أن أنهت تدريباتها وأصرّت على مقابلته نظرًا لأنه لم يتقابل معها طيلة هذه الفترة، فهو لا يترك والده خشية من زيارة

أشقائه لمرة أخرى وضغطهم على والدهم، وعلى الرغم من أنهم لم يُعاودوا الزيارة لمرة ثانية إلى أنه يعلم جيدًا أنهم لا يزالوا في تلك البلدة، أي من المُمكن أن يعاودوا الزيارة في أي وقت...

كانا يتحدثان عن تلك العقبات التي يواجهونها وقد أخبرها مراد انه ترك والده يغط في سُباتٍ عميقٍ لن يستيقظ منه إلى في وضح النهار، ولهذا انتهز الفرصة ليُقابلها ويعلم لما تأخذه في هذا المكان...

-مفكرتش تتكلم معاهم ؟ ... مش يمكن إتغيرو فعلًا وعايزين يشوفو أبوهم

قالتها سما ما إن قصَّ عليها مراد زيارة أشقائه المفاجآة التي لا يعلم سببها حتى الآن، لكن يعلم جيدًا أن أشقائه لن يتغيروا أبدًا، لهذا كان يُخبرها بثقة وحدة:

-لأ مش هيتغيرو ... أنا عارفهم كويس... تلاقيهم عايزين ينهبو أي حاجة من ورا أبوية ... أنا خايف ليكونو عرفو حاجة عن الورث

أنهى الحديث بخوف حاولت سما طمأنته بقولها:

-إن شاء الله محدش هيعرف ... بس إنت بردو حاول تتكلم معاهم ... دول في الآخر إخواتك

أومأ رأسه بموافقة على الرغم من أنه يعلم جيدًا أنه لن يتحدث معهم، هو فقط يرغب بإنهاء الحديث عن أخواته لأن مجرد ذكرهم يجعل الغضب يزوره دون استئذان...

مرٌت بينهما بُرهة من الصمت قطعها مراد بفضول:

-هو إنتِ واخدانا على فين ؟

اتسعت بسمة سما وهي تُجيبه بلهفة:

-هنروح المخزن ... عايزة أوريك الهدوم بتاعة العرض بتاع بُكرة ... خلاص قربنا نوٌصل

تحركا بضع خطواتٍ أوقفتهما رائحة قوية تغلغلت طياتهما، فكادت تلك الرائحة تُصيبهما بالاختناق، وهذا ما جعل مُراد يُجعد وجهه وهو يسأل:

-إيه ريحة الشياط دي ؟

جعدت سما وجهها وهي تحاول ألا تشتم تلك الرائحة التي يزداد قوتها كلما تقدما خطوة...

-مش عارفة..

آجابته بتيه ليتحركا خطواتٍ أخرى يظنان أن هناك إحدى المباني تتعرض للحريق، لكن تلك الظنون قد هوٌت مرة واحدة ما إن توقفت أقدامهما عند البُقعة المرادة لينعكس على أعينهما شُعلات كثيفة من اللهب وكأنهما وطأا الجحيم، فكانت النيران تتصاعد في السماء لتخترق طبقة الأذون وتخلق غمامة سوداء...

شهقت سما بصدمة وكاد قلبها يهوي أرضًا وهي تُشير أمامها وتهتف بصياحٍ مُستنجد:

-المخزن ! ... .المخزن بيولع... !!

الفصل الثامن عشر (أبوان مفقودان)

"لا تتوقف أمام العقبات، فتلك العقبات تجعلك أشد صلابة لتستطيع مواجهة طيات النهاية"

____

أصوات الصافرات يضرب أذنيها بجسارة كما تضرب نبضات قلبها حتى شعرت بأن فؤادها سيهوي أرضًا، فما أنفقت عليه أموالها تراه يتدمر أمام عينيها وهي لا تعلم ماذا تفعل، أتُلقي بنفسها في جوف النيران ؟ .. أم تستسلم وتبكي على الأطلال ؟

هوَّت ركبتيها على الأرض أمام هذا المنظر الذي لأول مرة يُقابلها، فهي حتى لا تستطيع المساعدة، مُجبرة على الاستسلام رغم كونها المثابرة الطموحة ... حقًا لا تعلم من أين أتت هذه النيران، ولا تعلم لما يصر القدر على معاندتها وتعذيبها، لمَ تتلذذ حياتها برؤية صراعاتها بل وتضربها بالسُياط حتى تُدمي ظهرها وكل إنشٍ بجسدها ... لمَ ولمَ ولمَ ... تلك الأسئلة التي دائمًا ما تفشل بإيجاد إجابات لها، وقد سئِمت حقًا من تلك الأسئلة التي تُفقدها عزيمتها أكثر، هي فقط تُريد حياة هادئة خالية من العقبات ... لكن يبدو أن الأمر سيظل مُستحيلًا...

وجدت أقدامها تثبان وتتحركان بسُرعة نحو تلك النيران وبين رجال الإطفاء الذين أتو لإنقاذ الموقف وبدأت النيران بالتبخر خالفة وراءها غمامات سوداء امتزجت مع سواد الليل وديجوره لتجعل السماء قاتمة تُعيق التنفس بأريحية...

جذبها مراد كي تتوقف عن اختراق النيران حتى لا تتضرر، فكانت تصرخ بين يديه وتنهمر دموعها كودقٍ في ليلة مطيرة شديدة البرودة، انهمرت دموعها الساخنة على وجهها الأحمر، فهذه الحياة لم تسنح حتى بمنحها ولو سعادة بسيطة، دائمًا ما تقتحم إنجازاتها وتُدمرها...

-سِبني يا مراد ... سبني الحاجة كلها جوة

قالتها بصُراخ وهي تُحاول دفع مراد عنها عازمة على اختراق النيران وإنقاذ حاجيتها التي ستحتاجها بالعرض، فكل الملابس والمستلزمات قد ذهبت هباءًا دون أن تدري ما السبب...

-سما مينفعش تدخلي...

خرجت كلماته صارمة صاخبة وهو لا يزال يقبض على ذراعها حتى لا تتهور وتخترق تلك النيران الهاجرة والتي ستُجعل جسدها رمادًا ... استسلمت سما بعد عدة محاولات انتهى بهم رجال الإطفاء من عملهم وأصبح المخزن يتشدق بالسواد القاتم وتلك السخونة تنبعث من دواخله....

جاسوا بأقدامٍ متخاذلة داخل المركز وعيناها تشخصان في كل مكان تتفحص الرماد الناجم عن مستلزماتها بحسرة ودت معها لو تصرخ عاليًا لتسأل الحياة بعلو صوتها : لمَ يحدث هذا ؟ ... لمَ علي مواجهة هذا ؟

إرتمت على الأرض بجوار الباب من الخارج ليرتمي مراد بجوارها بعينين يُقطرن حُزنًا على حالها وعلى ما آلت إليه الأمور، مرُت بينهما برهة من الصمت قطعتها سما متسآلة بصوتٍ خافتٍ متهدج:

-ليه ؟ ... إيه إللي حصل ؟ .... مين إللي حرق المخزن ؟ ... ليه بيعملو فيا كدة ؟

أنهت حديثها بصُراخ أعرب عن شعورها بالظُلم، حاول مراد تهدئتها بتبرير حصل عليه من رجال الإطفاء، فكان صوته هادئًا وهو يقول:

-بيقولو ماس كهربي_

قطعته سما بصُخب ولكنة غاضبة لطخت حسرتها ودموعها المُنهمرة:

-كدابين ... أنا متأكدة إن في حد عمل كدة...

أنكست رأسها وهي تهتف بحقد:

-أكيد ريتاج ... هي إللي كانت بتهددني بعد المرحلة الأولى ... عايزاني أخسر المسابقة ... هما ليه بيعملو فيا كدة ؟

تقاطرت دمعات حارة على وجنتيها الحمراء فحاول هو تشجيعها بكلماتٍ حكيمة واثقة:

-متركزيش معاهم ... هما أكيد ربنا هيجازيهم ... المهم إن إنتِ تكملي_

قطعته بإعتراضٍ وصُخب:

-إزاي ؟؟ ... أكمل إزاي والمسابقة بُكرة واللبس مش هيلحق يتعمل تاني

حاول مدُّها بالطاقة بثقته المعهودة:

-مش مُهم اللبس ... مش هو ده إللي هيخليكي تنسحبي من نُص الطريق

بقيت في حالة من الصمت لا يقدر جوفها على التفوّه بأية كلمة، فقط تستمع إلى حديثه المُشجع الذي يخترق عقلها ويمدُّها بالمثابرة...

-سما ركزي معايا ... لازم تكملي المسابقة ... حتى لو خسرتي ... على الأقل هتكوني خسرتي بشرف ومستسلمتيش...

سكُنت حركتها أمام نظراته المُشجعة المعبقة بالإصرار، توقفت دمعاتها عن الانهمار لتنزاح كتلة حُزنها وتتبدل مع عزيمتها للمواصلة، فهي ستواصل رغمًا عن أعين الحاقدين...

____

أشرقت شمس يومٍ جديد بسماء زرقاء صافية وسُحبٍ كثيفة أشبه بالقُطن، وفي هذا المكان المليء بالزينة، كانت تقف سما وأمامها أعضاء فرقتها يرتدون سُتراتٍ بيضاء ليست متناغمة لكنها تكفي للغرض، كان بعضهم يرتدي ملابس عادية ملونة والبعض

الآخر يرتدي ملابس بيضاء، جميعهم في حالة من التيه والخوف الشديد، فكيف سيؤودون العرض بتلك الملابس غير المتناغمة، خاصة وهُم بالنصف النهائي، أي إذا فازوا بتلك المرحلة، سيتم تصاعدهم لآخر مرحلة بتلك المسابقة والتي بعدها سينالوا الجائزة الكُبرى...

قطعت جودي_ إحدى أعضاء الفريق _ غمرة الصمت هذه حتى تسأل سما ببراءة حملت خوفها:

-هو إحنا هنعمل العرض إزاي من غير هدوم العرض ؟

وضعت سما يدها على كتفها برقة كي تُطمئنها وتُطمئن بقية أعضاء الفريق:

-مش مهم اللبس ... المهم إنتو ... ركزو في العرض وإعملو كل إللي اتدربنا عليه في البروفة ... مش عايزاكم تكونو قلقانين، وإنسو موضوع الهدوم ده خالص ... إحنا زي ما عدينا المرحلة الأولى ... هنقدر نعدي المرحلة دي

أنهت حديثها بتشجيعٍ جعلتهم يومؤون برأسهم وداخلهم تتكون العزيمة رويدًا...

هرعت يقين نحوهم في تلك اللحظة بصُحبة فضل الذي كان يحمل معه حقائب بلاستيكية ضخمة كما تحمل يقين هي الأخرى، تتقاطر حُبيبات العرق على جبين يقين وهي تهتف بين لهيثها:

-أنا لفيت كل المحلات أنا وفضل ولمينا كل الطواقي البيضا..

أدلت تلك الكلمات وهي تُخرج قُبعاتٍ بيضاء من الحقائب البلاستيكة وتُعطيهم لبعض أعضاء الفريق ممن يرتدون ملابس بيضاء، حيث طلبت منهم أن يرتدوا تلك القباعات ويُغطوا بها خُصلات شعرهم...

شكرتها سما على تلك الخدمة هي وفضل ثم أخبرت فريقها بأن يستعدوا لأن عرضهم على وشك البدء...

تقدم زكريا الذي كان معهم هو وسامح وبدور ومُراد كالعادة، كان يقف قبالة سارة التي ارتدت ثيابًا بيضاء وعلى وشك أن تدثر شعرها المموج داخل القبعة كما طلبت منها سما، عقصت شعرها أولًا أثناء استماعها إلى زكريا الذي من المُفترض أنه يُشجعها...

-خليكي فاكرة المبدأ دا كويس ... عشان دا هو إللي بيكسبو بيه

قطبت سارة حاجبيها وهي تسأله:

-مبدأ إيه ؟

رفع زكريا يده كي يُمثل مبدأه بشفاهٍ ملوية بتهكم:

-مبدأ ... يا تكسب بالغش ... يا نقولك معلش

ما كادت تُجادله سارة حتى وجدت بدور تمسك بتلابيب زكريا من الخلف كي تُبعده عن سارة قبل أن يفسد أخلاقها...

-متسمعيش كلامه يا سارة وركزي في العرض

أومأت سارة إيجابًا بينما هتف زكريا بتذمر:

-أنا كنت بنصحها

حركته بدور للأمام والخلف وهي لا تزال تتشبث بتلابيبه وتنهره:

-إنت بتقولها تغش وبتقولي بنصحها

دفعته بعدها للأمام كي يتحرك معها صوّب سامح كي يجلس بجواره ويشاهدوا جميعهم العرض الذي بدأ حالما انتهى المذيع من إلقاء جُملته...

-والآن مع فرقة ... فوق النـــجوم....

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أضواء خافتة بدأت بالظهور تزامنًا مع موسيقى هادئة صحبها مجموعة من الفتيات يتمايلن باحترافية ورشاقة مؤدين بعض حركات البالية المشهورة، ورغم العشوائية الطاغية على ملابسهن، إلى أن حركاتهن طغت على تلك الغلطة وجعلت الجميع يُحدق بهن باستمتاع..

ما هي إلا بضع ثوانٍ حتى ازدادت الموسيقى صُخبًا ليقتحم المسرح بعض الفتيان بحركات راقصة حماسية دفعت الجميع للتصفيق ورائهم، فما هي إلا لحظاتٌ حتى شاركتهم الفتيات تلك الحركات الحماسية بسعادة تطغي على ملامحهن، فكانت حركاتهم تُمثل الطفولة البريئة التي تمتليء بالحيوية والإندفاع...

إنقلب العرض فجأة مع تغيُّر الموسيقى إلى أخرى حزينة تزامنًا مع توّغل أولئك اللذين يرتدون ثيابًا بيضاء ويتمايلون بهدوءٍ وحركاتٍ بسيطة لكنها ماهرة نجحت بإضفاء الحُزن على أعين الجميع، فكان العرض يتحدث عن مرضى السرطان وخاصة الأطفال، وعن كم المعاناة التي تُقلل حيويتهم وتجعل الحُزن يُبدد ضحكاتهم ...

من كثرة ما كان العرض مؤثرًا أدمعت أعين بعض الحضور وهم يتخيلون معاناة تلك الأطفال...

لم يستمر الحُزن لمدة طويلة، فسرعان ما تبدل باللهفة مجددًا فور اقتحام من يرتدون ثيابًا ملونة وتحركهم بحماسٍ بين ذوي اللون الأبيض حتى تبسمت وجوههم واستطاعوا بنجاحٍ إضفاء الأمل عليهم مجددًا، فكانت رسالة العرض هي أن تتحلّى بالصبر وتتمسك بالأمل مهما كانت الظروف ... وأهم ما في الأمر ... ألا تبتأس أبدًا ...

هكذا انتهى العرض بسعادة جعلت الجميع يثب من مقاعدهم ليُصفقوا بحرارة وتتعالى هتافاتهم خاصة سما التي كانت أسفل المسرح مباشرة تُحيي صغارها بابتسامة

عريضة تُزين لهفتها، فرغم ما حدث ليلة أمس، إلى أنها أدركت الآن أن الأمل لا ينفد مهما كانت الظروف ... هذا العرض حقًا كان يُمثلها....

ـــ

انتهت معركة العزيمة لتبدأ بعدها معركة الإنتظار، وما بالك بتلك المعركة، فعلى الرغم من بساطتها إلا أنها تُطبق على الأنفاس وتسنح للأفكار السلبية بالتوّغل بين أفنان العقل لتُصيبه بشُرزمة من التناقدات، فلا يعلم أيشعر بالأمل، أم يشعر بالإحباط ...

هكذا كانت حالتهم ما إن إنتهى العرض بسلامٍ دون أن تحدث أية مشكلة كما العرض السابق، بخلاف الملابس التي اتضح أنها لم تؤثر كثيرًا على العرض...

بعد أن تحدثت سما قليلًا مع أعضاء فريقها اتجهت نحو مراد الذي أتى ومعه شطيرتين كي يُشاركها وجبة الغداء ويتواصل مع والده عبر الهاتف في كل ثانية، فهو لم يستطع ترك سما في يومٍ شاقٍ كهذا، لهذا اتصل بشخصٍ ما ليأتي منزله ويتولّى رعاية والده حالما يتم إعلان النتائج...

على جانبٍ آخر كانت تستند يقين بظهرها على الحائط وبجوارها فضل يحادثها بمرحٍ كالعادة عن هذا العرض الشيق، فكانت تُبادله يقين الأحاديث حتى أخرجت هاتفها مُقررة أن تلتقط صورة لهما كذكرى لهذا اليوم...

أخرجت الهاتف من جعبتها لكن فضل سبقها وأخرج هاتفه مدعيًا أنه حديث الصيحة ويمتلك كاميرا بجودة عالية قد تجعل الصورة أفضل، وافقت هي على قراره ومدُت يدها تلتقط منه الهاتف متفوّهة:

-طب هات ... أنا إللي هصوّر

رفض فضل حديثها بعِناد:

-ده ليه بقى ؟ ... أنا إللي هصوّر

أصرّت يقين على قرارها بتبرير:

-يا فضل إخلص ... أنا أساسًا أطول منك

ما إن أدلت تلك الجملة حتى تذكر معاناته وأخذ يهتف بدرامية زائفة:

-إنتِ بتعايريني عشان أقصر منِك بخمسة سنتي ؟

صححت يقين حديثه بقولها:

-قصدك تمانية ... هات يا فضل خلينا نخلص

آبعد فضل هاتفه عنها وهو يهتف بعِناد:

-طب تصدقي بقى إن أنا إللي هصور ... ثانيًا هُما سبعة ونُص سنتي مش تمانية ... أنا زِدت نُص سنتي الشهر إللي فات

ما كادت ترد عليه حتى وجدا مجموعة من الشباب طوال القامة ضِخام البنية يقتربون نحوهما ليهتف واحد منهم بابتسامة سمجة على وجهه وصوته يخرج من جوفه بسُخرية:

-مش كبيرة عليك دي يا نوغة

تبع حديثه بقهقهاتٍ ساخرة هو ورفاقه مما أوقد نيرانًا من الغيظ بداخل فضل، بينما هتفت يقين بغضبٍ وجهته نحو هذا الرجل الواثب أمامهما:

- ما تخليك في حالك يا راجل إنت

كادت تتهجم على الرجل لكن فضل فرد ذراعه أمامها كي يُهدئها ويأخذ هو حقه بنفسه:

-استني يا يويو...

ناداها بذاك اللقب الذي اخترعه مؤخرًا ما إن تطوّرت علاقتهما حتى يُبرهن للذي يقف أمامه أنه يُحبها حقًا، وجه بعدها الحديث نحو الرجل بغُلظة:

-إنت بتقول لمين يا نوّغة ؟

حادثه بتهديد واجهه الرجل باستخفافٍ وهو لا يزال يبتسم ابتسامته الساخرة ويؤكد حديثه:

-بقولك إنتِ

تفاقمت نيران الغضب داخل فضل حتى شمّر عن ساعديه وأطبق على شفتيه بغضبٍ جامٍ تحرك معه بضعة خطوات اتجاه أولئك الرجال لكن يقين أوقفته خشية مما سيحدث:

-استنى يا فضل ... سيبك منهم

التفت فضل نحوها ليُخبرها بصدقٍ حمل بعضًا من قلة حيلته:

-إنتِ فاكراني هروح اتخانق معاهم ... دا أنا أروح فيها، إنتِ مش شايفة هما عاملين إزاي

تفقد جعبته لوهلة حتى أخرج منها علبة من الصواريخ ثم أخرج علبة الكبريت من جيبه الآخر ليُشعل عود ثُقابٍ ويقول في نفس الوقت:

-أنا هعمل حاجة تانية

أنهى حديثه تزامنًا ما إشعاله واحدة من الصواريخ وإلقاءها مباشرة على الرجال كي تنفجر بوجوههم وتجعلهم ينتفضون بخوف، فكانت صرخاتهم تضرب أركان المكان وتمتزج بقهقهات يقين عليهم ونظرات فضل الشامتة والتي قال معها:

-على فكرة بقى أنا أكبر منها بتلات سنين

هرول الرجال بعيدًا عنهم خشية من تلك الصواريخ التي بدأت تتقاذف على رؤوسهم، ولاتزال يقين مُنفجرة بالضحك حتى توقفت لتردف بتساؤل وغير تصديقٍ لما حدث، فهي لم تتوقع ردة فعله بتاتًا:

-هو إنت ليه شايل معاك علبة صواريخ ؟

سألته بفضولٍ فآجابها بثقة وهو يسترخى بظهره للوراء حتى استند به على الجِدار:

-كنت ناوي أفرقعها بليل بعد المسابقة في الشارع مع العيال ... بس ولاد الكلب دول خلوني أفرقعهم في وشهم

تذكرت انتقاضة الشباب كالقطط حينما تسقط في بحيرة مليئة بالمياه، تلك الذكرى جعلتها تُقهقه لا إراديًا حتى قالت بسُخرية:

-كان منظرهم مسخرة وهُما عمالين يتنططو

شاركها فضل بالضحك وهو يتحدث بسُخرية عنهم لتستمر بعدها الأحاديث بينهما في تلك الأجواء المازحة والمرحة الخالية من البؤس والشقاء...

عِند إحدى المقاعد المستديرة كانت تجلس سما بجوار مُراد الذي يتحدث معها عن طفولته بابتسامة هادئة لم تفشل أبدًا بسحرها، فكانت تُمعن التحديق به وهو يقص عليها ما بقي من حكايته:

-المدير طبعًا معملش حاجة ... أصل أنا كُنت هادي ومش بتاع مشاكل ... عشان كدة استغرب لما عملت كدة

همهمت بتفهمٍ لحديثه ثم سألت بفضول:

-طب وباباك عمل إيه ؟ ... أكيد اتعصب

قهقه بخِفة وهو يتذكر ما حدث وقتها وكيف غضب منه والده عندما تشاجر مع إحدى زُملاءه وهو بعُمر المراهقة، أخبرها بعدها مُستذكرًا:

-تعصب عليا، وقعد فترة ميكلمنيش ... بس أنا صالحته واتصفينا

ما كادت تتحدث وتسأله المزيد عن حياته حتى وجدت هاتفه يصدح عاليًا ليقطع حديثهما الهاديء؛ أخرج مراد هاتفه ليجد اسم عُثمان يزين الشاشة، لهذا السبب آجاب على المكالمة بسرعة وداخله يشعر ببعض القلق الذي لا يعلم سببه...

-نعم يا عُثمان ... بابا كويس ؟

اتسعت حدقتاه بصدمة وهو يثب عن المقعد وضربات قلبه تنبض بسُرعة البرق، حتى أن صدمته انتقلت تلقائيًا إلى سما التي أخذت تتابع مكالمته بقلق حتى أنهاها في ذعر ...

-في إيه يا مُراد ؟

انتشل مراد سُترته بأطرافٍ مُرتجفة ولكنة متزعزعة جعلته يهتف بسرعة:

-بابا تِعب جامد ولازم أروحله ... إبقي طمنيني على النتيجة .. سلام

بصق تلك الكلمات ثم هرع بسُرعة أمام كلمات سما القلقة:

-طمّني على عمو..

لم تحصل على إجابة من مراد لأنه قد رحل، لكنها تعلم أن سؤالها قد وصل إلى مسامعه، فقلقها الآن قد أصبح الضِعف خاصة بعد أن أخبرها مراد بما حدث مع والده، فهي حقًا ستشعر بالضيق إذا حدث له شيئًا...

____

مرّت ساعاتٌ ثقيلة أشبه بصخور تتكالب على صدورهم بقسوة، فها قد أتت اللحظة المُنتظرة، اللحظة التي سيتحدد بها مصيرهم للمرة الثانية ... لحظة إعلان النتائج...

يقف المذيع أعلى المسرح يحمل بين يديه مُكبر الصوت ويهتف بعلو صوته أمام الجمهور الذي يقف أمامه بترقب:

-وبعد ما استمتعنا بعروض المتسابقين ... وصلنا للحظة إعلان النتائج ... اللحظة إللي هتختار فيها لجنة التحكيم أربع فرق من التمانية عشان يتأهلو للجايزة النهائية ... وطبعًا التلات مراكز الأولى هياخدو جايزة نقدية هتوصل من 75 ألف للمركز الأول ... 70 ألف للمركز التاني ... 65 ألف للمركز التالت...

ضمّت سما قبضتيها أمام فمها كي تدعي ربها بقرارة نفسها أن يمنحهم الفوز هذه المرة، تكاد تدمع عينيها من رهبة الموقف، ترتجف أطرافها بتوترٍ وقدماها تضربان على الأرض لعلها بتلك الطريقة تنتزع جُزءًا من توترها...

كانت بدور جوارها ويقين جوارها من الناحية الأخرى، وكلاهما يُربتان على ظهرها ويُطمئناها بالفوز وبأنها أدت ما بوّسعها، فدائمًا ما يقنع الإنسان ذاته أنه قادرًا على تحمل الخُسارة، لكنه ما إن يرى طيف الخُسارة أمامه حتى تتهاوى حصونه ويشعر وكأنه سيفقد حياته من شدة الإنهيار ... فلا تكذب على ذاتك عزيزي الإنسان، أنت لا تستطيع تحمل الخُسارة، ولا أحد يستطيع ذلك خاصة إذا كان مُعتادًا على النجاح ...

-والحاصل على المركز الرابع فريق .... براعم المُستقبل

هلل الجمهور بعد تلك الجُملة التي أصابت سما ببعض الرهبة، لكنها صبّرت نفسها بكونها قد تأهلت للمركز الثالث أو حتى الثاني ... أو ربما حالفها الحظ مجددًا وحصلت على المركز الأول...

كل تلك الظنون قد توقفت ما إن هتف المذيع بصوتٍ مُرتفع:

-والمركز التالت فريق ... فوق النجوم

ما إن أطلق تلك الجُملة حتى شهقت سما بصدمة كاد يتوقف قلبها إثرها، فهي لا تُصدق ما يُتلَّى على مسامعها، لا تُصدق أنها فازت بالمرحلة الثانية من تلك المسابقة ...

أخذت تقفز عاليًا ويقفز معها أعضاء الفريق بفرحة عارمة جعلتهم يتعانقون بحُبٍ ويلتفون حول نفسهم مع صياح سما غير المُصدق:

-إتأهـــلــنــا للنـــــهائـــي

وكما المرة السابقة صعدت فرقتهم خشبات المسرح ليتلقوا الجائزة النقدية والمعنوية ويلتقطوا العديد من الصور من قِبل الصحفيين والمصورين، فتلك المسابقة يتم إذاعتها على التلفاز....

ما إن انتهى هذا الإحتفال وبدأ الجميع بترك المكان تزامنًا مع حلول الليل وتشرُّب السماء بالظُلمة، تتحرك سما اتجاه السيارة بجوار سامح وبدور من الجهة الأخرى، كانت سما تتحدث معهما بلهفة وعدم تصديقٍ لما حدث، فقد بلغت سعادتها عِنان السماء في تلك اللحظة...

-صحيح إحنا المركز التالت ... بس مش مهم ... المهم إننا إتأهلنا للنهائي .. يعني ممكن نكسب المسابقة

قالتها بلهفة وابتسامة واسعة قابلها سامح بمثيلتها لتمُر بينهم فترة من الصمت قطعها سامح مُتلفتًا حوله بحيرة:

-هو مراد فين صحيح ؟؟ ... مشوفتوش يعني ساعة النتيجة

تذكرت سبب رحيل مُراد فقطبت حاجبيها بضيقٍ وهي تقول:

-أبوه تعبان فاضطر يستأذن ... فكرتني صحيح كنت عايزة أكلمه

أخرجت الهاتف من جعبتها وطفقت تحاول الإتصال بمُراد وهو لا يُجيب مكالمتها مما أزادها شعورًا بالقلق، فنادرًا ما يرفض مراد مكالماتها، وهذا يعني أنه يواجه إحدى المشكلات مما يجعل خوفها وقلقها يتصاعدان أكثر...

____

يتنفس الصُعداء بصدرٍ يعلو ويهبط تزامنًا مع أنفاسه المتلاحقة، فما يريده الآن هو الاطمئنان على والده والارتماء بأحضانه ليتأسف له عن تركه، يقسم أنه لم يكن يرغب بتركه في تلك الحالة، لولا إصرار والده الذي أجبره ألا يترك سما ويقف بجوارها، لما كان الآن بين أحضانه...

صعد درجات السُلم المتهالك بسُرعة البرق داعيًا في قرارة نفسه أن يجد والده ينتظره على فراشه ببسمته التي تُعطيه أملًا بتلك الحياة، لكن هذا القلق قد تبخر ما إن لمح أخواته الثلاثة يقفون على أعتاب حُجرة والده ويتخافتون بمُكرٍ بدى واضحًا على ثغورهم...

قطب حاجبيه بغيظٍ من وجودهم وما كاد يتحرك نحوهم حتى اعترض عُثمان طريقة متأسفًا:

-أنا آسف والله ... هما قالولي إن إنت قايلهم ييجو ... كمان هما ولاد الحَج فمعرفتش أقولهم إيه

كان مُراد قد أخبره ألا يسمح بأحدٍ أن يأتي المنزل في غيابه خاصة أولئك الثلاثة، لكن يبدو أنهم ضغطوا عليه حتى يقتحموا المنزل رغمًا عن أنفه، ربما أيضًا تحدثوا مع والدهم بكلماتٍ حادة جعلت صحته تتدهور أكثر...

تشبه بجمرة نارية وهو يُربت على كتِف عُثمان كي يُخبره بحدة ونظراتٍ نارية موجهة صوب من يُسموا أنفسهم أشقائه:

-إمشي إنت يا عُثمان..

أومأ عُثمان إيجابًا ليترك المنزل ويُغلق الباب وراءه، فما إن رحل حتى تحرك مراد اتجاه الحُجرة راميًا إياهم بنظراتٍ حاقدة يُخبرهم من خلالها أنه سيتحاسب معهم فيما بعد، فهو يريد فقط أن يطمئن على والده أولًا...

وطأت أقدامه الحُجرة ليرى والده ساكنًا على الفِراش مُتغيبًا عمَ يحدث حوله وجواره الطبيب يقوم بوضع الأجهزة بجواره، ثم يتفحص نبضاته، إقترب مراد أكثر رامقًا والده بخوفٍ يضرب دواخله ودموعٍ تأبى الانحدار وهو يراه بتلك الحالة...

-طمّني يا دكتور .. هو كويس ؟

سأل الطبيب بصوتٍ متقطع خشية من تدمير آماله بتلك الإجابة التي سيبصقها الطبيب...

-متقلقش يا أستاذ ... دي سكتة قلبية بسيطة ... إن شاء الله هيفوق منها، بس هنضطر نركبله هولتر " جهاز لقياس نبضات القلب " لغاية ما نتأكد إن نبضات قلبه انتظمت ... ألف سلامة عليه

أنهى الطبيب حديثه ببسمة مطمئنة أكد معها على الانتظام في أخذه للأدوية والتأكد من راحته الجُثمانية والمعنوية حتى لا تتدهور صحته أكثر، ودّعه مراد بعد أن أعطاه حفنة من الأموال وأكد على التزامه بالتعليمات حتى تتحسن حالة والده...

ما إن رحل الطبيب حتى عادت كُتلة الغضب تُسيطر عليه وبدأت شكوكه تُخبره أنهم السبب بتلك الحالة، فمرضه مباشرة بعد مجيئهم يؤكد تلك الشكوك أكثر...

وجد قدماه تدفعانه خارج الحُجرة صوب تجمع ثلاثتهم لينقض على سُلطان يمسكه من تلابيبه ويهتف بوجهه بنظراتٍ ساخطة وصوتٍ مُرتفع:

-عملتو فيه إيه ؟؟ ... قولتوله إيه وصله للحالة دي ؟؟

وقف كلٌ من بهاء ودمرداش بجوار مُراد يحاولان ابعاده عن سُلطان والذي كان أكبرهم وأشدهم صلابة وغُلظة، وبالطبع مُكرًا ودهاءًا، فكان يدفع مراد بعيدًا عنه ويُدافع عن نفسه:

-معملناش حاجة ... كنا عايزين حقنا منه ... وهو إللي مستحملش ووقع..

زادت كلماته من غضب مراد الذي انقض مجددًا على سُلطان يمسكه من تلابيبه ويهتف بصوتٍ كاد يمُزق حنجرته:

-إنتو كمان ليكو عين تطالبو بحقكم ...

تدخل بهاء ودمرداش في تلك اللحظة وأمسكا بكتفي مراد حتى أبعداه عن سُلطان الذي تلطخ وجهه بحُمرة دامية نتيجة الغضب من هجمات مراد، ومع هذا الغضب كان يوجد بعض الاستخفاف الذي جعله يقبض على فك مراد بقسوة كادت تتغلغل معه أظافره داخل جلده...

لازالت نظرات مُراد الحاقدة مصوبة نحو سُلطان الذي كان يهتف بوعيدٍ صارم:

-بقولك إيه ... أبوك كدة كدة هيخلُّص وهناخد حقنا منه

لم يتحمل مراد واستخدم ما لديه من قوة ليدفع شقيقاه عنه ويلكم سُلطان لكمة قوية جعلته يتحسس وجنته بألم، أمسكه مراد من تلابيبه ليهتف بنبرة حادة صاخبة أبرزت تبدُّل شخصيته على مرٌ السنوات، فلطالما كان الطفل الهاديء المسالم رغم تكالب الصِعاب عليه...

-أوعى تفتكر إني مراد بتاع زمان إللي كُنتو بتلطشو فيه ... عشان قسمًا عظمًا لو حد لمس شعرة من أبوية لكون مخلص عليكم واحد واحد

تدخل بهاء ودمرداش مجددًا وأمسكا بكتفي مُراد ليدفعانه بعيدًا عن سُلطان ثم يُلقيا به بقوة أدت إلى ارتطام جسده بالأرض وسقوطه على ظهره، فهم لم يتحملوا السماع لتهديداته...

كاد يثب مراد ويعاود الانقضاض عليهم لكن بهاء ودمرداش لم يتركوه وثبتوا جسده على أرض رغم مقاومته المستميتة، فكان الاثنان ضخما البنية يجلسان على ذراعيه حتى لا يستطيع التحرك عن الأرض ويبقى مستلقيًا على ظهره ونظراته النارية لا تزال تتابعهم بحِقدٍ دفينٍ تذكر معه تلك اللحظة التي قرر أخواته فيها أن يتركوه وحيدًا يُجاهد بالحياة كي يرعى والده المريض، رغم أن والده كان يمتلك ثروة كبيرة أخفاها عن والدتهم السارقة وقرر أن يبدأ من الصِفر مجددًا حتى لا ينفق من تلك الأموال ويتركها لأولاده بالمستقبل ... مسكين هذا الوالد ... لا يعلم أن ابناءه في المستقبل سيتعاركون من أجل الأموال ... وسيبقى هو بجواره حتى ولو لم يحصل على بضعة نقودٍ من تلك الثروة...

إقترب سُلطان نحوه بغلٍ دفينٍ ورغبة عارمة في الإنتقام لهذه اللكمة، فمن هذا الضعيف قليل الحيلة الذي يأتي ويضربه ويُهدده كذلك ؟ وقف قبالة مراد المُستلقي أرضًا يحاول الوثوب لكنه لا يستطيع، فالكثرة دائمًا ما تغلب الشجاعة، خاصة وهُم يفوقونه عُمرًا وضخامة...

رمقه سُلطان بازدراءٍ ليرفع قدمه بعدها ويضعها على صدر مُراد كي يلتصق جسده بالأرض كُليًا، وبغلٌه وغضبه العارم، أخذ يضغط بقدمه على صدر مُراد الذي تأوه بصمتٍ من الألم وهو يظن أن صدره سيتحطم من هذا الحِمل الثقيل، لم يكترث سُلطان لتأوهه وضغط أكثر بقدمه حتى خرجت تأوهات مراد التي حاول كبتها حتى بدأ وجهه بالإحمرار من شدة الألم، بل وحتى أنفاسه لم يعد قادرًا على أخذها...

-لما تيجي تتكلم مع الكبير ... تتكلم باحترام...

ضغط أكثر بقدمه بعد هذه الجُملة ليتأوه مراد في صمتٍ مجددًا ويحاول تحريك جسده بعيدًا لكن بهاء ودمرداش يُشددان على قبضتهما حتى يبقى جسده على الأرض...

-ولو فاكر إنك هتكبر علينا .... وهتتحدانا .... يبقى إنت غلطان ... عشان مفيش حد وقف قُصادي قبل كدة...

إنحنى بجذعه لتتقابل عينيه مع عيني مراد الحمراء وعروقه النافرة من شدة كبته للألم، بقي سُلطان يضغط على صدره وهو يبصق كلماته الأخيرة بوعيد:

-إللي إحنا عايزينه هيتنفذ .... برضاك ... أو غصبٍ عنك

أبعد قدمه عن صدره ليركله ركلة أخيرة قبل أن يتبعه دمرداش وبهاء ويتركا المنزل بأكمله...

سعل بقوة وهو يحاول الاعتدال بجلسته ويلتقط أنفاسه بصعوبة، وضع يده على صدره الذي آلمه بشدة لدرجة أنه أحس بعظامه تتهشم داخل أضلعه، بقي يلتقط أنفاسه ويسبُّهم بأفظع السُباب، فلطالما كانوا يضربونه في صِغره، لطالما يوقعونه بالمشاكل حتى ينال العِقاب بدلًا عنهم ... هو حقًا يمقتهم، بل يمقت حتى أنه له علاقة بهم...

استطاع الوثوب عن الأرض ولا تزال يده تُمسد على صدره الذي تكوّمت فوقه كدمة بنفسجية، تغاضى عن هذا الألم وهو يتحرك صوب حُجرة والده بخطى وئيدة أخفى معها عوالم الغضب وشعوره بالألم، فلا يجب أن يعلم والده ما حدث منذ قليل...

فتح يعقوب عينيه بخفوتٍ ليلقى مراد أمامه يرميه بنظراتٍ قلقة جثى معها على ركبتيه ليُحيط كف والده البارد بين كفيه الدافئة لعله يستمد الطاقة من تلك الكفوف التي لطالما مسدُّت على ظهره وواست جراحه، حقًا آراد الارتماء في أحضانه بتلك اللحظة، آراد البُكاء على صدره ومشاركته همومه، لكنه بقي صامدًا أمام شحوب وجه والده وصوته الخافت المُجهد:

-متزعلش من إخواتك يا مراد .... هما مش قصدهم يضايقوك

قالها بصوتٍ خافت متحشرج جعل دموعه تتهاوى على وجنتيه فقط لأنه ظن بأنه سيفقده، حقًا لن يتحمل هذا الشعور...

-أنا‌ا ... عارف إنهم هياخدو حقك من الورث ... عـ..عشان كدة عملتلك وديعة في البنك باسمك ... عشان .. تأمن مستقبلك

قطع مراد حديثه باعتراضٍ صادق تلألأت معه دموعه الواهنة:

-فلوس إيه يا بابا ... أنا فلوس الدنيا متساويش حاجة قُصاد إنك تبقى بخير

لم ينبس يعقوب ببنت شفة وبقي يُطالع ابنه بفخرٍ حتى نمت ابتسامة هادئة على ثغره قال معها:

-إنت الوحيد فيهم إللي شبهي ... عشان كدة عايزك تاخد بالك من نفسك ... العالم ده صعب أوي للي زيِنا

رمقه بتيهٍ من حديثه الذي اخترق نُياط قلبه، لكنه لا يُهم الآن، ما يُهم فقط أن يضحى سالمًا ويُعاود المُزاح معه كما السابق، لا أن يُخبره بتلك المواعظ التي تحمل لمحة الوداع والتي تُصيبه بالوجع أكثر...

-أنا عارف يا حَج ... بس ابنك دكر وبيواجه ... زيَك بالظبط

حاول بثه بعض الأمل بتلك الكلمات ويُخبره بأنه سيسترد صحته لأنه يتمتع بالصبر والمثابرة مثله بالضبط، وضع يعقوب يده على كتف مُراد بهوادة ليُربت عليه تربيتاتٍ هادئة أنزل بعدها يده والابتسامة الهادئة لا تزال على مُحياه حتى يطمئن مُراد بأنه على ما يُرام ... وهو حتى لا يعلم، هل بمقدوره مواصلة الحياة أم أنه سيترك مراد يُصارع وحده ؟...

____

أوشكت ساعة الصفر على المجيء لينتهي هذا اليوم الشاق من بدايته، فكان الجميع داخل المنزل فيما عدا سامح الذي رحل منذ بُرهة ليترك جدته تجلس على مقعدها الوثير المُتحرك تمارس هوايتها وهي الحياكة ...

أما عن سما فكانت تجلس على الأريكة تتصفح هاتفها والابتسامة لا تُفارق وجهها، فهي تتابع التعليقات أسفل ذاك المنشور الذي يعرض عرضهم ومِظهر الجماهير المتأثرة والذي بكى بعضهم، تحمل بين يديها الأخرى شطيرة من الجُبن تتناولها لتُصمت أصوات معدتها الجائعة جِراء هذا الإرهاق...

وكانت بدور تجلس بجوارها ومعها كتابًا مدرسيًا لتُساعد زكريا وسارة لتأدية فروضهما المدرسية لأن الغد هو بداية الأسبوع وبداية الأيام الدراسية، وكما العادة

كادت تُصاب بالجنون من زكريا وهي تقرأ له الأسئلة وتحاول استرجاع بعضًا مما درسه حتى يضحى مستعدًا لهذا الاختبار الصغير الذي ستُجريه إحدى المُعلمات...

-ها يا زيكا .... ماذا فعل محمد علي بعد أن استقل بمصر ؟

آجابها بسرعة وثقة كادت تجعلها تفقد صوابها:

-فِرح

كبتت شُحنة الغضب بداخلها وهي تهتف بسخرية:

-لا يا راجل...

أكد زكريا على إجابته بثقة:

-أيوة ما أكيد هيفرح بعد ما يستقل بمصر

لم تستطع التحمل أكثر فهتفت بوجهه:

-وحياة أمك !! ... وأنا مالي أنا ومال حالته

رفع زكريا يده نحوها حتى تتوقف عن الصياح وتواصل سؤاله باستثناء هذا السؤال الذي سيقرأه مجددًا:

-خلاص خلاص ... قولي سؤال تاني وأنا هجاوب عليه

تنهدت بدور بنفاد صبرٍ قبل أن تعاود التحديق بحفنة الأوراق التي معها ثم تقرأ سؤالًا آخرًا بصوتٍ مسموع:

-سبب سقوط دولة المماليك ؟

آجابها مجددًا بسرعة وكأنه يحفظ تلك الأسئلة عن ظهر قلب، رغم أنه يأتي بالإجابات من مُخيلته، أو من مجرة أخرى:

-لأنها مكانتش بتذاكر كويس

قبضت بدور على الأوراق وهي تهتف بنفاد صبرٍ:

-هي مين دي إللي مكانتش بتذاكر ؟

آجابها ببساطة وكأن إجابته منطقية:

-المماليك ... عشان كدة سقطت

صكت على أنيابها وهي تُلقي عليه الأوراق متفوّهة:

-تصدق بقى إنك هتبقى زي المماليك لو مذاكرتش الأسئلة .... هو دا إللي حافظ!!

التقطت منها الأوراق مُدافعًا عن ذاته:

-منا حاولت أحفظ يعني

رفعت حاجبيها بعدم تصديقٍ لحديثه، لذلك استدرجته بكلماتها:

-زيكا ... إنت كُنت بتذاكر امبارح ولا كنت بتتفرج على اليوتيوب ؟

زاغ ببصره بعيدًا عنها يحاول أن يُفكر في إجابة يقولها حتى أدلى إجابته بترددٍ وصِدق:

-بصراحة بصراحة .... كنت ... بتفرج على اليوتيوب ... بس والله كنت ناوي أذاكر

انفرجت شفتيها وهي تحاول استجماع ما بقي من صبرها كي تُخبره بهدوءٍ رغم الأعاصير داخلها، فلطالما أخبرته بالمذاكرة وهو يخدعها ويلهو من وراء ظهرها، وهذا ما يجعلها تكاد تهتف بوجهه وتُخبره أن مستقبله أهم من هذا الهُراء خاصة وهو بآخر عامٍ بالمرحلة الابتدائية ... والتي هي أشد صعوبة...

-إتفضل يا زيكا ذاكر الأسئلة ومتجيش غير لما تكون حافظهم

كان صوتها يحمل نفحاتٍ من الضيق خوفًا على مُستقبله، استشعر زكريا ضيقها فأراد تلطيف الأجواء وجعلها تبتسم، فرغم أنه مُشاكس لا يُحب الدراسة، إلى أنه يمتلك قلبًا رقيقًا يحرص على سعادة من حوله...

-طب خلاص متضايقيش..

هتفت بتهكمٍ وهي لا تنظر إليه:

-مش متضايقة

لم يُصدقها زكريا وعلِم أنها لا تزال غاضبة منه، فبدلًا من تنفيذ رغباتها وحِفظ تلك الأسئلة التي يعلم جيدًا أنه لن يحفظهم، فهو خلال ساعة سيخلد إلى النوم وسينسى تلك الكلمات...

-طب أقولِك نكتة ؟

قالها ببراءة لا تليق به أبدًا، فكانت نبرته الودودة دافعًا لبدور حتى تنتبه لحديثه وتهتف بنفاد صبر:

-إتفضل

-مرة واحد حط سُكر على ورقة الإمتحان ... عشان الأسئلة تبقى حلوة

قهقه بعد دُعابته ومدَّ يده ليضربها بيدها رغم عوالم الاشمئزاز المنطلية على وجه بدور، أما عن سما فقد استمعت إلى دعابته وإنفجرت بالضحك بعد أن أعجبتها تلك الدُعابة...

أمسكت بدور الوسادة بغيظٍ لتقذفها على زكريا هاتفة:

-إمشي يلا من هنا ... روح ذاكر الأسئلة وياريت متفتحش بوقِك تاني

استجاب زكريا لحديثها وجلس على الأرض أمامهما وبجواره سارة تُدوِّن بعض الكلمات داخل كتابها...

لم تتوقف سما عن الضحك حتى لاحظتها بدور وقذفتها بالوسادة متفوِّهة بتهكمٍ:

-بتضحكي على إيه إنتِ كمان...

استقبلت سما اصطدامها بالوسادة بمرحٍ حتى تلاشت ضحكاتها وبدأت تتحدث مع بدور بمرحٍ قطعته سارة بأسئلتها المُعتادة:

-بدور ... هو مفرد حشائش إيه ؟

تدخل زكريا ليُجيبها بثقة لا يعلم من أين أتى بها:

-حشيش

ما إن أدلى تلك الكلمة حتى قذفته بدور بالوسادة مُجددًا وقد طفح كيلها من إجاباته العجيبة، خاصة تلك الإجابة:

-حشيش في عينِك

أمسك زكريا بتلك الوسادة التي ألقيت عليه ليجد بدور تتجه برأسها نحو سارة كي تُجيبها:

-مفردها حشيشة يا سارة

علق زكريا على إجابتها بتذمر:

- مفرقتش يعني حشيشة من حشيش...

أسكتته بدور بنبرتها الحادة التي كانت تحمل بعضًا من حنانها ونفاد صبرها بالوقت ذاته:

-إنت تسكت خالص ومتجاوبش على أي أسئلة

أفأف زكريا بتذمرٍ وما كاد يُجيبها حتى استمعوا إلى صوت الباب يصدح عاليًا قاطعًا عليهم تلك الجلسة الهادئة المليئة بالعِراك والمُزاح...

بقي صوت الجرس يغزوا أركان المنزل ولا أحد منهم يُريد الحِراك، فقط يتبادلون النظرات في تيهٍ إلى أن أيقظتهم جدتهم بأمر:

-ما تقومو يا عيال تفتحو الباب

توترت بدور قليلًا من هذا الزائر فوّجهّت حديثها نحو زكريا بأمرٍ حمل القليل من قلقها:

-قوم يا زيكا إفتح الباب أحسن أنا بقلق من زوار مُنتصف الليل دول

تنهد زكريا قبل أن يثب من مضجعه بتذمرٍ لكنه استغل الأمر حتى يتهرب قليلًا من المُذاكرة ... خطا بخطواتٍ هادئة صوب الباب حتى فتحه لتتبدل عوالمه إلى الدهشة وهو يُطلق شهقة متفاجئة تبعها حديثه المُشتاق وغير المُصدق لما يراه أمامه:

-بـــابـــا... !!

الفصل التاسع عشر (جشع الأبناء)

"للمعاناة جانبها من الفرح، ولليأس نعومته، وللموت معنى"

____

كتلة من المشاعر المتناقضة تجتاح جسده في تلك اللحظة، فهو يشعر بالاشتياق ويرغب بضمه والارتماء بأحضانه مدى الحياة حتى لا يرحل مجددًا، فما إن رآه ماثلًا أمامه بابتسامته التي بدأ يتناساها من قلة رؤيتها، فهو لم يره منذ ثلاثة أعوامٍ متواصلة، وقبل تلك الأعوام لم يكن يراه سوى نادرًا ... يكتفي فقط بمحادثته على الهاتف رغم أن والدهم يُرسل إليهم النقود شهريًا...

-بابــا.. !!

هتف بتلك الجملة بقلبٍ يخفق من السعادة، حيث تبعها بانقضاضه على والده صالح الذي التقفه بين أضلعه ليُمسد على خُصلات شعره أثناء اطمئنانه عليه وعلى أشقائه ...

استمعت بدور إلى تلك الكلمة التي لم تهتف بها مُنذ فترة طويلة؛ وثبت عن مقعدها كما وثبت سما هي الآخرى لتتجه كلتاهما صوب الباب بفضول جامحٍ ليتفقدا من هذا الذي ينعته زكريا بوالده ... أيمكن أن ... لا لا .. هذا لا يُمكن، فوالدهم لم يأتي ذاك المنزل مُنذ أن انتقلا إليه، إذا ما سبب مجيئه الآن ؟؟

تلك الأسئلة كانت تتداخل بذهنها وهي تقترب بخطواتٍ متلجلجة قُرب الباب حتى وجدته بالفعل، وعلى عكس ردة فعل زكريا، كانت حالتها ساكنة خالية من المعالم، لا هي سعيدة، ولا حتى غاضبة، فقط الجمود هو ما كان يُلطخ ملامحها، فإذا انزاح هذا الجمود فسيحل محله الغضب العارم وستجد صُراخها يغمر أركان المنزل...

دلف صالح المنزل برفقة زكريا وأغلق الباب وراءه ليقترب بخطواتٍ هادئة صوِّب بدور التي ترمقه بإبهام، وضع يده على كتفها وأخذ يُربت عليها بحنانٍ تبعه بسؤالٍ:

-عاملة إيه يا بدور ؟؟..

تحلّت بالصمت لوهلة قبل أن تُجيبه بجمودٍ رغم اشتياقها له هو ووالدتها:

-الحمد لله

هكذا آجابت باختصارٍ قبل أن تتحرك من أمامه ببطء كادت معه تتجه إلى حُجرتها وتُغلق الباب عليها حتى لا يرى أحدهم تيهها وشعورها بالتناقض الشديد...

لم تكد تخطو خطوة حتى وجدوا الباب يصدح مجددًا فاتجه صالح كي يفتح الباب وينصدم من رؤية ابتسام زوجته التي انفصل عنها منذ فترة طويلة، فهي والدتهم أيضًا...

كانت ترميه بعوالم مُقتضبة وكأنها تعلم سبب مجيئه ولن تمهله هذه الفُرصة، فكانت تقول بتجهم:

-كويس إني لحقتك ... عشان أنا مش هسيبك تعمل إللي في دماغك

كبت شُحنة الغضب بداخله وهو يهتف بوجهها بحدة:

-بتعملي إيه هنا ؟

تجاهلت سؤاله واقتحمت المنزل متفوّهة:

-جيت أشوف ولادي ... وأظن ده من حقي

ما إن توقفت أقدامها نحو زكريا حتى مالت بجذعها نحوه لتبتسم له ابتسامة مشتاقة داعبت معها خصلات شعره وعانقته عناقًا قصيرة لتتجه بعدها صوب بدور التي كانت في حالة من التيه والعديد من الأسئلة تتداخل بذهنها...

تسآلت ابتسام بفضول:

-أومل يارا فين عايزة أسلم عليها ؟

آجابت بدور ببهوتٍ بدا واضحًا على صوتها:

-نايمة ... عندها جامعة بدري

وثبت زُهرة أمام هذا التجمع تُبادل حدقتيها بين هذين الزوجين بحيرة وداخلها العديد من الأسئلة مثلهم جميعًا، عانقها صالح بحبورٍ قبّل معه يدها رغم إعتراضها بسبب غضبها منه، فهي لا تزال تُعاتبه على تركه لأبناءه بتلك الطريقة...

-نعم يا صالح ... جاي ليه إنت وطليقتك ؟

هتفت زُهرة بذاك السؤال بنظراتٍ نارية أصابته ببعض الارتباك، أما عن ابتسام، فقد رسمت بسمة صفراء على ثغرها وهي تقترب نحو زُهرة تُحاول عناقها لكن زُهرة ابتعدت رافضة الاختلاط بها، فهي بالأساس كانت معارضة لهذه الزيجة .. فهي تعلم كم أن هذه السيدة مُستهترة ولا تتحمل المسئولية بُتاتًا....

لاحت بينهم بُرهة من الصمت وتبادل النظرات التي قطعها صالح مُشيرًا أمامه حتى يجلسوا ويتحدثوا بهدوءٍ عن سبب مجيئهم، فما هي إلا لحظات حتى اجتمعوا بالبهو بخلاف سما التي أخذت سارة الغافية إلى الفراش حتى تخلد إلى النوم وتترك تلك الأمور العائلية التي لا تعنيهما...

بدأ صالح الحديث ببعض التوتر الذي رمق معه أبناءه خاصة زكريا الذي بقي مُلتصقًا هو ووالدته حتى لا يتركاهم مجددًا، تنحنح صالح قبل أن يبدأ الحديث بجدية مُتلجلجة:

-أنااا .... جيت عشان أقول إني هسافر ... سفرية تبع الشُغل

عقبت جدته على حديثه بتهكم:

-وإيه الجديد ... ما إنت علطول تسافر تبع الشُغل

سرق نفسًا عميقًا قبل أن يُفجر قُنبلته التي أتى لتفجيرها:

-الجديد إني عايز ولادي معايا .... كفاية قُعادهم هنا_

تدخلت ابتسام كي تقطع حديثه باعتراضٍ وبعض الغضب:

-وأنا كمان مسافرة ألمانيا ... بابي عنده فيلا هناك ... وهنقعد فيها أنا والولاد ... وأظن هناك مُستقبلهم هيبقى أحسن

التفت صالح ليرمقها بنظرات متوعدة هتف معها بما يجيش به صدره:

-أنا مش هسمحلِك تاخديهم ... إنتِ متعرفيش تشيلي مسئولية نفسِك عشان تشيلي مسئوليتهم

ارتفع صوتها وهي ترد عليه بهجوم:

-يعني إنت إللي هتبقى فاضيلهم ... طب أنا على الأقل هخليهم عايشين في فيلا مش ناقصهم حاجة ... إنما إنت هتقعدهم فين ... في شقة أوضتين وصالة ؟

تقدم بجذعه وقد تفاقم غضبه في تلك اللحظة، ضرب على فخذه وهو يهتف بإصرار
:

-أنا ولادي مش هيبعدو عني ... ومش هيسافرو معاكي

تقدمت هي الأخرى حتى ترد عليه رغبة في الإنتصار بتلك المعركة التي يذهب ضحيتها أبناءهما، فكانا يُتابعا هذا الشِجار بوجومٍ وخفقان أفئدتهما يصدح بالأرجاء، خاصة مع كلمات والدتهما الصارمة:

-وأنا مش هسمحلك تاخدهم مني ... متنساش إن الحضانة معايا

-ومأخدتيهُمش ليه طالما الحضانة معاكي ... ولا هي حِجة تستخدميها وقت ما إنتِ عايزة

إرتفع صوته في تلك اللحظة حتى وثب عن المُقعد ليواجهها بنظرات مشتعله واجهته بمثيلها وكادت ترد عليه إلى أن زُهرة تدخلت بصرامة وصوتٍ يُعادل ارتفاع صوتهما:

-بس إنت وهي ... طالما إنتو في البيت يبقى تحترمو نفسكم وتتكلمو بهدوء ....

تنفس صالح الصُعداء وهو يُحاول التهدئة من روعه هاتفًا بنفاد صبرٍ ورغبة في إنهاء هذا النقاش:

-ماشي ... أنا هوريكي يا ابتسام مين إللي كلامه هيمشي في الآخر

هتف آخر جُملة بوعيدٍ وجهه نحو ابتسام ليترك بعدها المنزل متجاهلًا تهكماتها التي أطلقتها بصوتٍ مُرتفع:

-هتشوف يا ابن زُهرة إن أنا إللي كلامي هيمشي

بصقت تلك الكلمات لتهرع بعدها عن المنزل تاركة أبناءها يُتابعانها بضيقٍ ودموع مكبوتة مُحملة بالخُذلان، لمَ جاءا طالما كان هدفهما هو العِراك ؟ كان هذا السؤال يعبث بذهنها الشارد وجورحها المكبوتة، فقد آرادت الصُراخ بوجهيهما لكنها لم تستطع، لكنها تُريد الصُراخ الآن ... تريد الصُراخ بهم وبشدة، فهما لم يتوقفا عن الشِجار حينما كانا بمنزلٍ واحد ... ولم يتوقفا عن الشِجار حينما انفصلا، لا تعلم متى سيتوقفا، ولا تعلم متى ستبقى هي وأشقائها ضحية خلافاتهما...

كانت حالة زكريا لا تختلف عنها، بخِلاف أنه يشعر بالتيه الشديد، هل سيُسافر مع إحداهما ؟ ماذا إن تطوّر الأمر وقررت والدته أخذه بالقانون، فهو الوحيد الذي لا يمتلك حُرية الاختيار من بينهما، ماذا لو تم أخذه قِصرًا ليُسافر مع والدته ويترك شقيقاته هنا وحدهما ؟ لن يستطيع تحمل الوحدة في بلدة غريبة عنه...

تركت جدتهما تلك الجلسة بعد أن شعرت بارتفاع ضغطها ورغبتها الشديدة بالاستلقاء ونسيان هذا العِراك، لكنها قبل أن ترحل رمتهما بنظراتٍ مُطمئنة أرسلت لهما أنها لن تسمح بأخذهم وإبعادهم عنها، فهُم من تبقوا لها بتلك الحياة ولن تتحمل فُراقهم...

إقترب زكريا نحو شقيقته ليسألها بقلة حيلة حملت قلقه:

-هو إحنا هنسافر ؟

تنهدت بدور قبل أن تُربت على كتفه مُطمئنة إياه بصوتٍ حنونٍ واثق:

-لأ ... محدش فينا هيمشي من هنا..

هي لا تعلم حقًا إن كانت كلماتها صادقة أم لا، ما تعلمه فقط أنها لن تسمح لهما مجددًا بتدمير ما تبقى من حياتهما، خاصة زكريا الذي لم ينعم بحياة أسرية هادئة منذ أتى هذا العالم....

____

أشرقت شمس يومٍ جديد وكانت سما داخل المركز تتناقش مع يقين فيما ستفعله بآخر عرضٍ بتلك المُسابقة، فيجب أن تبذل قصارى جُهدها حتى تنتصر بتلك المعركة وتحصل على أكبر جائزة نقدية قد تُعادل الثلاثة مئة ألف جُنيه، أي بتلك الجائزة سيتوّسع مركزها وسيزداد شُهرة، لهذا ستنفق ما بدالها حتى يضحى العرض عظيمًا مؤثرًا كما جميع عروضهم...

تتفحص يقين الأوراق وتدوِّن الحسابات بينما كانت سما تعبث بهاتفها والقلق بادٍ على وجهها، كانت تقول يقين بعملية وهي تُحدق بالأوراق أمامها:

-كدة اللبس هيعمله بالميت انتاشر ألف جنيه ... ده غير الديكورات إللي هنحتاجها

إنتظرت إجابة سما لكنها تعجبت من صمتها وبوادر القلق التي لم تترك وجهها منذ أمسكت هذا الهاتف، دفعها فضولها وحيرتها لسؤالٍ:

-سما ... في إيه ؟

رفعت سما رأسها لترمق يقين بعوالم مضجرة آجابت معها بصدقٍ:

-مراد مش بيرد ... من ساعة المسابقة وهو مش بيرد عليا ... أنا خايفة أوي ليكون عمو يعقوب حصله حاجة

همهمت بتفهمٍ لقلقها، ولأنها تعلم الحالة الصحية لخالها إقتربت نحوها كي تُطمئنها:

-متقلقيش ... أنا روحتله واطمنت عليه الصُبح ... كان عنده أزمة قلبية بس الحمد لله عدا منها ولسة حطينله أجهزة لغاية ما يرجع زي الأول....

قطبت حاجبيها بضيقٍ وهي تسأل:

-طب هو ليه مش بيرد عليا ؟

أنكست يقين رأسها بتيهٍ لا تعلم كيف تُخبرها بهذا العِراك الذي وصل صديده إلى منزلها القابع بنفس البناية، فقد حذرها مُراد بمشاركة تلك الأسرار مع سما حتى لا يزداد قلقها ويجعلها تتشتت عن تنفيذ العرض، لهذا السبب حاولت التحجج بقولها:

-عادي .. هو مراد كدة ... لما بيكون متضايق، مبيبقاش عايز يكلم حد

ألحت عليها سما بإصرار:

-طب ما تخليني أشوفه ... بالله عليكي عايزة أطمّن على عمو يعقوب

ربتت يقين على كتفها لتُهديء من روعها وتحاول تنفيذ تحذيرات مُراد بألا تجعلها تأتي منزله حتى لا تتصادم مع أشقائه في أية لحظة، فهو لا يُريد لها الآذى، خاصة منهم، هو حتى لم يُخبرهم بعلاقته بها، وربما جعلهم يظنون أنه لا يزال أعذبًا، وهذا لأنه لا يُريدهم أن يضغطوا عليه بها، كما يتوقع منهم، فتلك الحركات الدنيئة لا تخرج سوى من أمثالهم...

-صدقيني مش هينفع ... بس اوعدِك هخلي مُراد يجيب عمو يعقوب لما يخف ويخليه ييجي المركز

أنهت حديثها بأسفٍ تبعته بابتسامة هادئة ربتت على فؤادها وجعلتها تطمئن قليلًا لتستطيع مباشرة أعمالها بجدٍ بذلت ما لديها من مجهود في تلك الترتيبات قبل أن تبدأ التدريبات التي عادة ما تبدأ بعد غروب الشمس ووقت عودة الطُلاب من مدارسهم...

____

طاولة مستديرة توسطت هذا المِقهى العصري الذي طغى عليه اللون البُني نظرًا لهذا الخشب الذي بُني به جميع الطاولات والمقاعد، فكان يوجد لمحة فيكتورية بهذا المقهى خاصة مع لوحات أعظم الأدباء الغرب وكلماتهم المشهورة التي لطخت الجُدران...

فنجان من القهوة الساخنة وُضع على تلك الطاولة وقبالته فنجانًا آخرًا لكن بخلاف وجود بعض الحليب ورسمة تُشبه الطاووس تُزين القهوة وتجعلها فاخرة، رفعت بدور هذا الفنجان لترتشف منه رشفة بسيطة وتضعه مجددًا على الطاولة وهي تستمع إلى سامح الذي ما إن علِم ما حدث البارحة حتى قرر أن يُلطف نيرانها ويحاول تهدئة تلك العِراكات التي نشبت داخلها، فكان يقول بإرشاد:

-طب ما يمكن فعلًا عايزين يأمنوا مستقبلكم ... هو صحيح الغُربة وحشة، بس أهو على الأقل تبقو معاهم

أدلى آخر جُملة من وراء قلبه لأنه لا يُريد افتراقها عنه مجددًا، لكنه كذلك لا يُريدها أن تقطع علاقتها مع والديها بسببه، فيكفي تلك المُدة الطويلة التي لم تراهما بها، وربما هذه فُرصة لتقضي معهما بعض الأيام ثم تعود مجددًا إلى موطنها، فهي ليست قاصرًا حتى تُرغم على البقاء معهما...

-مستقبلنا إيه بس ... أنا خلاص اتخرجت .. ويارا كمان قُدامها سنتين وتتخرج ... يعني مفضلش غير زيكا ... وبصراحة أنا قلقانة أوي عليه ... عشان لو استخدمو القانون هو الوحيد إللي هيتجر معاهم

إرتشف من فنجان قهوته ثم آعاده على الطاولة وهو يسألها:

-وهتعملي إيه ؟

تنهدت قبل أن تُجيبه بقلة حيلة:

-مش عارفة ... بجد زيكا صعبان عليا جدًا .. ملحقش_

بترت حديثها ما إن رفعت وجهها عن فنجان قهوتها لتتسع حدقتيها في صدمة ما إن رمقت هذا المنظر أمامها، فكان صوتها يخرج من جوفها بصدمة:

-زيكا!!

قطب حاجبيه بحيرة من تلك الكلمة التي أدلتها فجأة، فكان يسأل باقتضاب:

-ماله زيكا ... بتبصي على إيه ؟

وثبت بدور عن المقعد وهي تهتف وتُشير أمامها بعدم تصديق:

-زيكا ... زيكا هناك أهو

إزدادت حيرته أكثر وهو يسأل:

-إزاي ؟؟ ... مش المفروض يكون في المدرسة ؟

لم تُجبه وبقيت تتحرك أمامها ليتبعها سامح في وجوم قطعه ما إن تأكد من وجود زكريا بالفعل في هذا المُقهى، بل ويجلس كذلك مع إحدى الصبيان بعُمره وكلاهما يرتديان ثيابًا مدرسية ويحملان أذرع التحكم أمام تلك الشاشة العريضة التي تعرض إحدى ألعاب الفيديو الخاصة بكُرة القدم...

يُمعن التحديق بتلك الشاشة بتركيز شديدٍ لو استخدم بعضه بالمذاكرة لكان من النُجباء، انتهى تركيزه بهِتاف عالٍ جعله يرفع يده بانتصار:

-و جوووول ... الله عليا

أحس بقبضه تمسكه من تلابيبه من الخلف يليها صوتٌ يعرفه جيدًا ويتمنى ألا يضحى هو حتى لا ينكشف سره:

-لأ الله عليك فعلًا ... إنت بتعمل إيه هنا ؟

سأله سامح بحدة جعلت الألوان تتهرب من وجهه ليخفق قلبه بهلع ويبدأ بازدرداد ريقه مانعًا تلك القطرات المُتعرقة من التصبب على جبينه، التفت تدريجيًا خلفه ليلمح أمامه شقيقته ترمقه بنظراتٍ مُشتعلة وجوارها سامح يبدو عليه الاستعداد كي ينقض عليه ويدفعه بعيدًا عن هُنا...

تنحنح زكريا ليُجلي حنجرته وهو يُحاول الحديث ببلاهة:

- إإ ... أهلًا يا ساموحة

رماه بابتسامة بلهاء لم تُحرك بسامح قيد أنملة، فكان يُشير بإصبعه تارة على شاشة التلفاز وتارة على زكريا حتى يستمع إلى سؤاله:

-إيه ده !! ... إنت مش المفروض تبقى في المدرسة ؟

زاغ زكريا ببصره في عدة اتجاهات محاولًا العثور على كذبة يقولها في هذا المأزق، فكيف يُخبره أنه هرِب من المدرسة كي يلهو مع رفاقه بألعاب الفيديو، بل وكيف يُخبره أن هذه ليست أول مرة..

بقي يُتهته بالحديث حتى أردف أخيرًا رافعًا كلتا يديه حتى يستطيع التفسير:

-أنا هفهمك ... إنهاردة قالولنا إن في رحلة فجأة ... وأنا مكنتش عايز أروح الرحلة، فخليت الباص إللي هيوّديهم الرحلة يوقفني هنا عشان أكلمكم وأخليكم تاخدوني البيت ... بس منه لله بقى ... في واحد صاحبي قالي تعالى نلعب جيم لغاية ما إنتو تيجو ... فانا بقى وافقت وحصل إللي حصل

أنهى حديثه باستعطافٍ زائف لم ينجح بجعلهم يُصدقونه فكان يهتف سامح بسُخرية:

-لا يا شيخ!!

أومأ زكريا مؤكدًا على حديثه ليدفعه سامح بعيدًا عن المِقعد متفوّهًا:

-طب يلا يا حلو .. قدامي على المدرسة عشان نشوف الرحلة إللي جات فجأة دي

حاول زكريا التوّسل له لكنه لم يفلح بالطبع مما جعل الغضب يطغي على وجه عبده الذي يجلس بجواره يشاركه اللهو على ألعاب الفيديو، أمسك عبده برسغ سامح ليوقفه عما يفعله ويصوّب نحوه نظراتٍ نارية أردف معها بفظاظته المعهودة:

-جرا إيه يا با ... ما تبعد كدة عنه بدل ما أعملها معاك

أشاح بيده مُهددًا مع آخر جملة مما جعل سامح يرمقه بغيظٍ من وقاحته، فكيف يُرافق زكريا رفيقًا كهذا، مسكين هذا الذي يُدعى سامح، لا يعلم أن زكريا يُعادله فظاظة وربما مُكرًا أيضًا، لكنه فقط يظهر أمامهم بمظهر الملاك البريء...

دفع سامح يد عبده مستخفًا بلكنته التي لا تتناسب مع عُمره او حتى هيئته، فتلك اللكنة التي يتحدث بها لا يستخدمها سوى المجرمين:

-إلعب بعيد يا حبيبي وخليك في حالك

تلك الجُملة آثارت الوحش الكامن بداخل عبده وجعلت عينيه تتوّسعان ويديه توضع داخل سرواله المدرسي الذي يخفي بداخله خنجره الذي يُلازمه دائمًا، وما فاجأة سامح أكثر هو عندما رفع عبده هذا السلاح الأبيض أمامه ليهتف بعدها بتهديد:

-إبعد عنه بقولك ... متخلنيش ألعبلك على ملامح وشك

ازدرد سامح ريقه برٌعب حتى تدخلت بدور كي تنقذ الموقف وتتوّسل لهذا الوحش الكاسر قبل أن يأذيهم، لكنها كذلك لم تُغطي غضبها وهي تقول:

-إنت بتعمل إيه ؟ ... وإزاي معاك سلاح في سنك ده ؟

رد عليها عبده بفظاظته المعهودة:

-بتدخلي ليه يا مُزة إنتِ كمان ؟

تدخل زكريا هنا حتى لا يتمادى عبده أكثر من اللازم:

-إركن إنت يا عبده دا حوار عائلي

وافق عبده على مضضٍ ليضع سلاحه الأبيض داخل سرواله مجددًا ويُربت على كتِف زكريا متفوهًا:

-ماشي يا نجم ... عشان خاطرك بس

كبت سامح شُعلة الغضب بداخله وهو يدفع زكريا أمامه مجددًا:

-يلا يا زيكا...

نفذ زكريا تعليماته عنوة رغم توّسلاته التي لم تتوقف، فما كاد يخطو خطوة واحدة حتى فاجأهم شهاب الذي كان يُشاركهم ولكن بطريقته المليئة بالكوارث...

انتفض جسد سامح هو وبدور ما إن استشعرا صوت قُنبلة تدوي من خلفهم مباشرة تبعها دخانٍ كثيف صاحبه قهقهة شامتة وأصابع مُشارة عليهما، فكان هذا هو شهاب بعد أن أفزعهم بتلك الصواريخ التي أطلقها عليهما إحتفالًا بمجيئهما، فهو على استعدادٍ لتدمير هذا المقهى بإحدى مقالبه وكانت هذه فقط البداية...

أمسك سامح تلابيب شهاب هادرًا بوجهه بحدةٍ وغضب:

-إنت مين يلا ؟

آجابه زكريا بدلًا من شهاب الذي لم يتوقف عن القهقهة:

-دا شهاب ... معانا في الشلة بردو

انتبه سامح لحديثه مما دفعه لسؤال:

-إنت شلتك كُلها بايظة ؟

أتته الإجابة هذه المرة من حمزة الذي كان مستلقيًا على الأريكة يُتابع ما يحدث أمامه ببرودٍ ويتجرع من عصير البُرتقال الذي ابتاعه، فكان يُجيب على سؤال سامح ببساطة حملت بعضًا من برآته:

-لأ يا عمو أنا مش بايظ ... أصل أنا رجلي اتكسرت الشهر إللي فات ... بس لما فكيت الجبس ... مامي قالتلي إن أنا اتصلحت

رماه سامح بنظراتٍ بلهاء ظن معها أن هذا الصغير يمزح، لذلك آشار عليه متسآلًا:

-دا مين ابن الظريفة ده كمان ؟

آجابه زكريا مجددًا بصدقٍ:

-دا حمزة ... معانا بردو ... بس معتقدش إنه كان بيهزر

تجاهل سامح أصدقاءه غريبي الأطوار وبقي يدفع زكريا من تلابيبه متوّعدًا له بصوتٍ غاضب:

-بقى إنت تزوّغ من المدرسة في ستة ابتدائي !! ... دا أنا معملتهاش

حاول زكريا الهرب من حصاره بقوله متذمرًا:

-استنى بس .... والله كدة مينفعش ... أنا طفل وعندي حقوق

زادت كلماته من غضب سامح فأخذ يدفعه نحو السيارة متفوّهًا:

-طب امشي يا أبو الحقوق ... قال وإحنا إللي عمالين نتناقش في مستقبلك

رفع زكريا من صوته وهتف بتذمرٍ بعد أن ضاق ذرعًا من تلك المعاملة، التي يستحقها لكنه لا يعترف بذلك:

-على فكرة كدة مينفعش ... أنا هشتكي عليهم للجنة حقوق الطفل...

لا يزال سامح يتجاهل تذمره ويدفعه نحو السيارة حتى استقلها عنوة واستقلت بدور بجوار سامح وداخلها تتوّعد لزكريا، وتُخبره بنظراتها أن ما حدث سيتلقى عليه عقابًا وخيمًا...

أنفاسٌ هادئة تخرج من جوفه بهدوءٍ رغم النيران المتأججة بفؤاده، فرؤيته لوالده بتلك الحالة مع تلك الخلافات التي بينه بين أشقائه، تجعل الحِمل يزداد أكثر على كاهله، هو حقًا لا يعلم كيف يواجههم وحده، فلطالما كان الضعيف من بينهم، بل حتى هم يفوقونه عُمرًا وصلابة، لكن هذا لا يُهم، عليه مواجهتهم حتى ولو كان وحيدًا، فلا يجب أن يُشرك أي شخصٍ في مشكلاته الشخصية، لقد عاش طوال حياته يعتمد على نفسه بحلِ مشكلاته، فلا يمتلك أصدقاء ولا حتى أقارب، لا يوجد بحياته سوى يقين، التي بالطبع لن يُشركها بخِلاف كهذا، وسما التي يسعى جاهدًا حتى لا تعلم ما يمُر به كي لا تتشتت عن تحقيق أحلامها، فلا ذنب لها بتعقداته من الأساس...

نفض تلك الأفكار عن رأسه بتنهيدة حارة خرجت من جوفه تبعها بإحاطة رأسه بين كفيه محاولًا بشتى الطُرق أن يُحافظ على هدوءه وصبره حتى تتحسن حالة والده...

قطع غُمرة صمته صوت الجرس الذي صدح عاليًا وجعله يترك قوقعته كي يفتح الباب بوهنٍ وملامح ذابلة...

-ساعة عشان تفتح ... دا إنت حتى مش بترد على التليفون

قالتها يقين وهي تقتحم المنزل أمام مراد الذي يُتابعها بخمول ويُغلق الباب وراءها، فجميع من يقطن تلك البناية يعلم أنها ابنة عمته وشقيقته بالرضاعة، أي لا ضير بدلوفها المنزل والاطمئنان على خالها...

ارتمت على أريكة البهو متنهدة بإرهاق نجم عن صعودها الدرج وهرولتها بين الحافلات قبل أن تأتي هنا...

-مالك بقى ... كل ده عشان خالو ؟ ... مش الدكتور قالك إنه هيبقى كويس ... بعدين دي مش أول مرة تجيله أزمة قلبية

تهاوى على المِقعد المجاور للأريكة ولازالت ملامحه باهتة تحمل حِملًا ثقيلًا لا يعلم متى ينزاح عن كاهله، فكانت إجابته باهتة لا تحمل أية مشاعر:

-بس أول مرة يكونو هُما موجودين

كانت نبرته خافتة أصابتها ببعض القلق؛ لذلك تقدمت بجذعها للأمام كي تسأل:

-هُما لسة بييجو ؟

أومأ رأسه دلالة على الإيجاب مما أزادها شعورًا بالقلق، لكنها رغم ذلك حاولت طمأنته بقولها:

-فُكك منهم ... هيعملو إيه يعني ؟ ... أكيد مش هيقتلو أبوهم

نمت قهقهة ساخرة متألمة عقب حديثها والتي تبعها بقولٍ:

-إنت متعرفيهومش ... دول ممكن يبيعو بعض عشان القِرش

حدقت بصميم عينيه بإصرارٍ حمل ثقتها ورغبتها بطمأنته:

-ولو ... إنت أكيد مش هتسيبهم ... وأنا كمان هفضل جنبك ... وهقول لسما كمان_

قطع حديثها بصرامة:

-لأ ... إياكي تجبلها سيرة ... هي فيها إللي مكفيها ... وياريت إنتِ كمان متدخليش ... أنا مش عايزكم تتأذو... مش عايز حد يتدخل في مشاكلي

فهمت رغبته بإلقاء الحِمل على ذاته كما يفعل دائمًا، فهي تعلم طبعه جيدًا، دائمًا ما يتحمل وحده حتى باتت قواه ضعيفة من كثرة التحمل، ولا تعلم كيف تُخبره أن يطلب المُساعدة وهذا أكثر ما يمقته، يمقت أن يظهر أمام الجميع كعاجزًا، يكفي شعوره بالعجز حينما هجره أشقائه، يكفي توّسله لوالدته حتى تتركهم بالمنزل ولا تتخلّى عنهم ... سئِم حقًا من طلب المساعدة والتوّسل من الجميع، لهذا السبب أخذ عهدًا على نفسه بأن يحل مُشكلاته وحيدًا، فلا أحد يستحق أن يتوّسل لأجله...

____

فتحت الباب بهدوءٍ وبأناملها المُجعدة التي أعربت عن حياتها الطويلة واعتيادها على تلك الصِعاب التي تُغرق الجميع...

تناقض وجهها ما بين الضيق والغضب وكذلك الاشتياق والحُب، فلا تعلم أتضمه لكنفها كما كانت تفعل سابقًا، أم تُعاتبه على هذه الغيبة، حقًا لا تعلم ماذا تقول لقرة عينها الواثب أمامها ينتظر إذنها لدلوف المنزل..

وعلى عكس ما تكنيه بداخلها من اشتياقٍ وحُبٍ لفلذة كبدها، وجدت نفسها تترك الباب وتدعه لدلوف المنزل دون أن تنبس ببنت شفة، فكأن صمتها هو علامة على غضبها المُترصب على كل إنشٍ بها...

وطأت أقدام صالح المنزل الذي ترعرع بداخله وشهد معه العديد من الذكريات، فلا يزال يتذكر والدته وهي تُذاكر له هو وشقيقه كي يستعدا للإمتحان، لا يزال يتذكر عراكه مع والدته حتى يتناول طعامه، بل وحتى يتذكر اللحظة التي يأتي بها والده من العمل ومعه حقائب مُحملة بالحلوة ليُفرقها عليه وعلى شقيقه ممدوح الذي توٌفي مؤخرًا...

جلس على الأريكة بعد أن تفحص المنزل مُسترجعًا ذكرياته المُحببة قبل أن تأتي والدته زُهرة لتجلس قبالته بوجومٍ يُلطخ ملامحها، انتهت من بؤرة صمتها بسؤالٍ خرج من جوفها حادًا:

-نعم يا صالح ... عايز إيه ؟ ... ولادك مش موجودين

تقدم صالح بجذعه ليهتف بعينين تشخصان بخاصتي والدته بحبورٍ واشتياق:

-أنا مش جاي عشانهم...

-أومل جاي ليه ؟

سألته مجددًا ليسرق تنهيدات متتالية قبل أن يتشدق ببعض الارتباك:

-أنا عايز أتكلم معاكي يا أمي ... عايز أعرف إنتِ بتعامليني كدة ليه ؟ ... ليه مأخدتنيش في حُضنِك لما شوفتيني ؟ ... ليه مقولتليش إني وحشتِك ؟... أنا كنت مستني الحُضن ده لما آجي هنا

كادت تتهاوى حصونها لكنها حافظت على ثباتها وهي تهتف بجمودٍ رغم فؤادها المُعذب:

-إنت إللي قررت تمشي بمزاجك يا صالح ... وياريتك هاجرت وخدت ولادك معاك بدل ما هُما نسيو اسمك... لأ ... إنت موجود ومش بتيجي بحجة الشُغل إللي مش بيخلص

إعترضها صالح مُدافعًا عن ذاته:

-أنا كنت بأمنلهم مستقبلهم ... بشتغل ليل نهار عشان أعيشهم أحسن مني_

قطعت حديثه بصوتٍ قد إرتفع إلى درجة أقرب إلى الجِدال:

-ولادك مش عايزين فلوسك يا صالح ... ولادك عايزينك إنت

أنكس رأسه لأسفل متحلٌيًا بالصمت ولا يجد من الكلمات ما يقولها، فقط يستمع إلى حديث والدته الذي انقلب إلى الإرشاد في حين غُمرة، فكانت تحني جذعها قليلًا وتُحدق بعينيه وهي تحادثه بعِتابٍ حمل شيئًا من حنانها:

-هو ده إللي علمتهولك يا صالح ؟ ... أنا قولتلك تسيب ولادك وتروح تشتغل ليل نهار ؟ ... مش كفاية إني وافقت على جوازتِك من إللي ما تتسمى دي ... وأنا قولتلك أكتر من مرة إنها مش هتعرف تشيل مسئوليتك ومسئولية عيالكم ... والنتيجة إيه ... إنتو الاتنين راميين ولادكم وولا بتسألو فيهم... فرقت إنت إيه عنها ها ... فرقت إيه، ما إنتو الاتنين مش عارفين تشيلو المسئولية

لاحت بوادر الغضب عليه ما إن شبهته والدته بتلك التي كان يُحبها يومًا، إلا أنه الآن يمقتها، يمقت استهتارها وبذخها، يمقت لا مبالاتها، هي حتى لا تُرتقى لتُصبح والدة ... فلطالما تشاجر معها ثم تصالحا حتى أنجبا زكريا، فمُنذ إنجابه وبلوغه ثلاثة أعوام وشجارتهما تزداد يومًا تلو الآخر، كلاهما يضعا عبء التربية على الآخر، وفي النهاية يُلقيا بأبنائهما عند جدته حتى ترعاهم طوال اليوم، إلى أن امتدت هذه الأيام إلى مدى الحياة...

-أنا لا يُمكن أبقى زيها ... على الأقل أنا ببعت فلوس كل شهر وبتصل أطمّن عليهم لما أبقى فاضي

علقت على حديثه بصدقٍ حمل القليل من استنكارها:

-ما هي كمان كانت بتبعت هدايا ... وساعات بتتصل زيَك بالظبط ...

صمت بُرهة عن الحديث ولم يكن يعلم بما يُجيب، فهو لا يعلم أن ابتسام تتصل بهم كما يفعل، فقد ظنَّ أنها لا تُريدهم بحياتها، لكن اتضح أن كلاهما يُشبهان بعضهما، كلاهما لا يهتما برعايتهم على قدر ما يهتما بالأموال التي سيمنحوها لهم...

-اسمع يا صالح ... لازم تفوق قبل فوات الآوان ... ولازم تعرف إن الفلوس مش مهمة ومش أهم من ولادك ... إللي إنت بتعمله ده غلط

ترك شُرزمة تفكيره بكلماتٍ حادة أصرَّت على قراره:

-لأ يا ماما ... الفلوس كل حاجة .. الفلوس دي هي إللي وديتهم أحسن مدارس ... هي إللي بتأكلهم وتشربهم وتأمنلهم مُستقبلهم ... أنا لا يُمكن أسيب الشُغل، لا يُمكن أسيب إللي عملته طول السنين إللي فاتت..

وثب عن المقعد كي ينهي الحديث بصرامة:

-وأنا هاخدهم معايا إيطاليا ... عشان متقوليش إني مش عايزهم في حياتي ... لأني بعمل كل ده عشانهم

بصق تلك الكلمات بصورة حادة أمام وجه والدته التي كانت تُحدق به بنظرات مُشتعلة تُريد أن تصفعه كي يتوقف عن الحديث، لكنها اكتفت بإلقاء كلمتها الأخيرة قبل أن يفتح صالح باب المنزل ويرحل:

-ماشي يا صالح ... إبقى قابلني لو نفذت إللي بتقوله...

تجاهل صالح تلك الكلمات وهرع من المنزل عازمًا على تنفيذ قراره وإقناع أبناءه بالسفر معه، حتى ولو وقفت ابتسام عائقًا أمام هذا القرار...

____

تلطخت السماء بُعتمة الليل وكانت الأجواء ساكنة فيما عدا هذا المنزل الذي لم يخلو من الضجيج، فها هُم يجتمعون بالبهو مُجددًا ليتناقشوا بتلك المُعضلة عازمين على

إيجاد الحل، فكان يجلس صالح على حافة الأريكة وعلى الحافة الأخرى تجلس ابتسام وبينهما زكريا، أما قبالتهما فكانت تجلس جدتهم وجوارها بدور من جهة ويارا من الجهة الأخرى، بينما تجلس سما على إحدى المقاعد وعلى ركبتيها تجلس سارة لعدم وجود مقاعد كافية..

كان جميعهم يترقبون ما سينتهي عليه هذا العِراك الذي أخذ صورة هادئة احترامًا لزُهرة، فكانت ابتسام تتحدث أولًا تحاول إقناعهم بقرارها:

-هما هييجو معايا ألمانيا ... بدور ممكن تعمل master هناك وتشتغل براحتها ... كمان زكريا أحسنله يكمل تعليمه هناك هو ويارا

إعترض صالح حديثها ببعض الحدة:

-ومالها يعني إيطاليا ... ما ممكن يعملو كدة هناك ... وإللي إنتِ عايزة تحرميني منهم ؟

وجه نظراته الغاضبة صوبها فردت عليه بنفس تلك النظرات المعارضة لحديثه:

-وأنا احرمهم منك ليه ؟... أنا عايزة أوفرلهم مُستقبل يليق بهم

اندفع بحديثه مرة واحدة أمام وجهها:

-يعني أنا إللي مش هاممني مستقبلهم ... ما أنا بردو بعمل كدة عشانهم

إحتدت هي الأخرى وهي تواجه حديثه الحاد بقولها:

-بس ألمانيا أحسن من إيطاليا ... دا غير إن جولي وصحابي هناك ... يعني مش هيبقو لوحدهم

رفع حاجبيه بتهكمٍ من حديثها ليردف بعدها:

-أااه ... جولي وصحابك ... وعشان كدة بقى عايزة تروحي هناك ... عشان تتصرمحي إنتِ وصحباتِك_

قطعت حديثه بغضبٍ جام:

-الكلام ده مش حقيقي ... أنا فعلًا عايزة مصلحتهم

ضاق ذرعًا من ادعاءها المسئولية، وهذا ما جعله يثب عن الأريكة ليواجهها بسُخط وسبابة اتهامٍ مصوٌبة عليها:

-كفاية كدب بقى ... تلاقيكي عايزة تتمنظري قُدام صحباتك وتقوللهم بُصو عيالي وثمرة تربيتي ... وإنتِ أصلًا هتسبيهم لوحدهم زي ما كُنتِ بتعملي زمان

وثبت هي الآخرى لترد على نبرته الهجومية أمام نظرات الجميع التي ترمقهم في صمتٍ وقلق...

-دا على أساس إن إنت إللي كُنت بتقعد معاهم ... إحنا مكناش بنشوفك غير وقت النوم ... ويدوبك بتيجي على السرير وتمشي الصُبح بدري وساعات تبات برة

أطبق على شفتيه بحنقٍ ما إن تعالت أصواتهما أمام والدته التي تترقب لهما في صمتٍ تنتظر ما سينتهي عليه هذا العِراك..

ضم صالح قبضته في الهواء ليكبت شُحنة غضبه ويواصل الحديث أمامها بصرامة:

-خلاصة القول ... ولادي هيعيشو معايا في إيطاليا ... حتى لو إنتِ مش موافقة

ربطت ذراعيها وهي تهتف بوجهه:

-مش بمزاجك يا صالح ... ومتنساش إن حضانة زكريا معايا ... يعني ممكن بالقانون أحرمِك منه

ارتعدت فرائس زكريا ما إن استمع إلى تلك الجملة وأحس بأن مخاوفه ستتحقق وسيفترق عن أشقائه، خاصة بعد أن وجد والده يهتف بنبرة هجومية حادة:

-إبقي قابليني لو عملتي إللي في دماغِك ... عشان ولادي مش هيعيشو غير معايا

ما كادت تُجيبه ابتسام بتلك النبرة المرتفعة حتى وجدا بدور تثب من مقعدها بعد أن فاض كيلها وأخذت تصرخ بوجهيهما بما يجيش به صدرها:

-كفـــاية بقى ... كفايــــة..

تنفست الصُعداء بوجه أحمرٍ كالدماء من صرختها الحادة، لم تتوقف عند هذا الحد وطفقت تصرخ بوجهيهما بطريقة فاجأت جميع الجالسين:

-إنتو على أي أساس بتتخانقو علينا ؟ .... وهو إنتو تعرفو حاجة عننا أصل ؟... تعرفو أنا عندي كام سنة ؟... تعرفو زكريا في سنة كام ؟ ... تعرفو يارا في كلية إيه ؟

آشارت على أشقائها مع كلماتها التي تخرج مع أنفاسها المتصاعدة الغاضبة، فهي الآن كالقنبلة التي انفجرت بوجوههم...

-قاعدين تتخانقو علينا ولا كأننا مُهمين بالنسبالكم ... كُنتو فين وأنا في ثانوية عامة مستنية حد يواسيني ولا يقف جنبي ... كنتو فين لما زكريا بيتعب وبفضل طول الليل جنبه عشان محدش فيكم بيبقى موجود ... كنتو فين لما يارا بتعمل مشكلة في المدرسة وأنا إللي بروح أكلم المدرسين بدالكم هي وزكريا ؟؟ .... رودو عليا

صدرها يعلو ويهبط مع كلماتها الحادة الأشبه بالخناجر التي تطعن في صدورهم، فصياحها قد صمّهم عن الجدال وجعلهم يرمقونها بتيهٍ لا يعلمون الإجابة، فحديثها صادقُ مئة بالمئة، لطالما لم تشعر بوجودهما في حياتها، لطالما عانت بسبب جدالاتهما اللامتناهية حتى فاض بها الكيل ولم تعد تتحمل...

انهمرت دموعها على وجنتيها وهي تواصل الحديث بصوتٍ مبحوح بسبب حنجرتها التي تمزقت من الصُراخ:

-زكريا وهو صُغير كان بيقولي يا ماما ... عارفين يعني إيه ؟ ... عارفين يعني إيه نكون عايشين زي الأيتام وأهلنا لسة عايشين ؟...

قهقهت بسُخرية وتألمٍ عقب حديثها الذي واصلته بين دموعها:

-ولا هتعرفو منين ؟ ... واحدة كل همها الخروج والفُسح والتاني كل همه الشُغل وبس ... ولا كأننا موجودين ... طب خلفتونا ليه من الأول طالما إنتو مش عايزنا ؟ ... خلفتونا عشان ترمونا للجيران ؟ ولا عشان تسيبونا عند تيتا وترمولنا كام مليم كل شهر...

وثبت سما من مقعدها لتُحاول تهدئتها؛ وضعت يدها على كتف بدور كي تنصت إلى صوتها القلق من نبرة بدور التي لأول مرة تجدها بهذه الحالة..

-بدور .. خلاص إهدي

ترقرقت دموعها أكثر وهي تدفع سما بتروٍ عنها كي تُخبر والديها آخر كلماتها بصوتٍ مرتفع رغم هوادتها، فهي تُريد أن تثبت لهما أنها لم تعد تحتاجهما، لم تعد بحاجة إلى والدين لا يكترثان لأجلهما...

-إحنا مش هنمشي من هنا ... مش هنسافر مكان ونفضل فيه لوحدنا ... وبالنسبة لزكريا ... فمحدش فيكم هياخده ... وأنا إللي هقفلكم المرادي

ألقت تلك الكلمات أمامهما لتهرع بعدها نحو الحُجرة صافعة الباب وراءها تاركة الجميع في حالة من الصنم، وبعض الندم، فهما من أوصلاها لتلك الحالة...

وثبت زُهرة بعدها لترمق كليهما بنظراتٍ حاقدة عاتبتهما على ما حدث:

-أديكم سمعتو بودانكم ... ولادكم مش هيتحركو من هنا ... عشان أنا مش هسمح لكم تدمروهم أكتر من كدة

تنهد صالح بخيبة أملٍ ترك بعدها المنزل وتبعته ابتسام بعد أن فشل كليهما بهذا العِراك، فقد انتصر طَرف ثالث كانوا يتوقعون أنه دُمية يُحركونها وفقًا لأهوائهما، لكن اتضح أن تلك الدمية تحوّلت إلى اسدٍ كبير لديه سُلطة وعلى استعدادٍ للانقضاض على من يقترب من مملكته...

ما إن تركا المنزل حتى لاحت عوالم الضيق وخيبة الأمل على وجه يارا التي ظنُّت لوهلة أن والديها سيعودا ويضماهم لكنفهما، لكن يبدو أن ظنونها لن تتحقق، ستظل بذرة الخُذلان تُزرع بداخلها بسببهما، وسيظل شعورها بالنقص والغيرة ممن حولها ينمو طالما لا أحد يهتم لأجلها، بالأخص والديها، فهما سبب كل هذا...

ضمُتها زُهرة لصدغها بمواساة وبقيت تُمسد على خُصلات شعرها الناعمة ويارا مستكينة ترتمي برأسها على صدر جدتها لعلها تمنع تلك الدمعة من الانحدار...

أما عن زكريا فكانت الدموع تُغرق وجهه خشية من تنفيذ أية من تلك القرارات، فسماعه لوالدته وهي تقول أنها ستُفرقه عنهم يجعل القلق يُفتك به، بل ويجعله ينخرط بالبكاء كلما فكُر بأنه الوحيد من ليست له ملكة الإختيار...

دلفت بدور حُجرتها لتصفع الباب وراءها صفعة جعلت الأرض ترتج بعدها، استلقت على الفراش تستند بظهرها على الحائط لتضم ركبتيها نحو صدرها وتدفن وجهها حتى لا يرتفع صوت شهقاتها...

أتت سما في تلك اللحظة لتجلس بجوارها على الفِراش وتُحيطها بذراعها لعلها تواسي بعض جروحها، أخذت تهمس بأذنها بصوتها الحانِ:

-متعيطيش يا بدور ... والله ما حد يستاهل تعيطي عشانه

رفعت رأسها قليلًا وبدأت تُكفكف دموعها متفوٌهة بحسرة:

-وأنا إللي قولت هيتغيرو وهيسألو علينا ... طلعت مُغفلة .. محدش فيهم هيتغير ... هيفضلو يبُوصو لمصلحتهم وبس

بقيت تُمسد على ظهرها حتى أتى زكريا في تلك اللحظة بأعين حمراء من شدة البكاء ودموع لا يزال أثرها على وجنتيه الصغيرة، جلس بجوار بدور على الفراش ليُخبرها بصوتٍ أجشٍ به بعض الخوف:

-هما هياخدوني من هنا ؟

رفعت بدور ذراعها لتُقربه نحوها وتُحيط رقبته بحنانٍ بالغٍ هتفت معه بإصرار:

-محدش هياخدك صدقني ... مش هخلي حد يبعدك عننا

وٌد لو يُصدق حديثها ويطمئن، لكن الخوف لا يزال يلازمه، الخوف من أن يبتعد عنهم، لن يتحمل فراقهم أبدًا، لكن لا يوجد أمامه سوى تصديقها والاحتماء بهم ... حتى ولو كان من يحتمي منهم هُم في الحقيقة والديه...

إزدادت عُتمة الليل وكان ثلاثتهم يصعدون درجات السُلم عازمين على إنهاء ما أتوا من أجله بدمٍ بارد، فلا يهمهم صلة رحم ولا حتى هذه الروح البرئية التي لطالما ضحت من أجلهم، ما يهمهم فقط هو المال، فهم يركضون وراءه ويُقدمون له التضحيات كأنهم يعبدونه، بل هم بالفعل يعبدونه...

توقف سُلطان أمام الباب وما كاد يدق الجرس حتى استمع إلى صوت بهاء الذي بدا مُترددًا مما سيقبلوا عليه:

-يا سُلطان ... أنا حاسس إن إللي بنعمله ده غلط ... أصل ده في الأول وفي الآخر أبونا

رماه سُلطان بنظراتٍ قاسية لا تعلم شيئًا عن الرحمة:

-مش إنت قعدت تقولي زهقت من تنضيف الحمامات وعايز أقب على وش الدنيا ؟ ... جاي دلوقتي تحس على دمك!!

تهته بهاء قبل الحديث بنبرة متلجلجة:

-أصل كدة ممكن نروح في دوكا

وضع سُلطان يده على كتفه متفوهًا بطمأنينة:

-متقلقش ... كدة كدة أبوك رجله والقبر ... وإحنا كل إللي هنعمله، إننا هنديه حُقنة توقف نشاط القلب ... ويبقى قدام الناس مات بسكتة قلبية وإحنا ولا من شاف ولا من دري

تدخل دمرداش ليُعلق ببعض القلق:

-ومراد ؟ ... مش ممكن يشتكي علينا ؟

قهقه سُلطان باستخفافٍ قال بعده بثقة:

-ولا هيقدر يثبت علينا حاجة .. يلا بس ننجز عشان نمشي من هنا

التفت ليرمق الباب مُجددًا ما إن انتهى حديثهم الخافت الذي بالطبع لم يسمعه أحد، فجميع السكان ينامون في هذا الوقت المتأخر من اليوم، خاصة هذه السيدة العجوز التي تقطن بنفس الطابق الذي يقطن به مراد...

يجلس بشرودٍ أمام فِراش والده يكاد يغفو من شدة الإرهاق، فهو بالكاد ينام طيلة هذه الأيام، سيطر عليه النوم في تلك اللحظة ليتهاوى رأسه بثقلٍ على إحدى الجانبين وهو لا يزال يجلس برفقة والده ليُعطيه الأدوية إلى أن يطمئن لشفاءه...

انتفض جسده إثر جرس المنزل الذي أخذ يصدح بصورة تكرارية، سُرعان ما تجعد وجهه بغضبٍ واستعدادٍ لما هو قادم، فقد بات مُتربعًا داخل هذه الحُجرة يرفض

الرحيل منها وكأنه يقوم بحراستها من العدو، وفي حالته تتلخص كلمة عدوٍ في أشقائه...

بقي جالسًا مكانه يتجاهل صوت الجرس لعدم رغبته بمجيئهم، فهو متيقنٌ أنهم وراء هذا الباب، ولن يسمح لهم بدخول المنزل ونشر سُمهم في المكان، لهذا السبب سرق نفسًا عميقًا ليتحلّى بالصبر ويتجاهل هذا الإزعاج الناجم عن الجرس والذي بات يؤذي أذنيه، لكنه طالما لا يؤذي والده، إذا عليه التحمل...

ضرب يده على الباب بنفاد صبرٍ بعد أن مرّت ساعة كاملة وهم أمام الباب ينتظرون أن يتم فتحه، ولا يزال الباب مُغلقًا أمامهم مما أكد لهم أن مُراد لايزال يُهاجمهم ولايزال يُبعدهم باستماتة:

-بقى كدة ... أنا هوريك يا مُراد

هتف سُلطان بتلك الجُملة بتوّعدٍ ليبتعد بضع خطواتٍ عن المنزل مُخرجًا لإحدى أنواع مُعدات البناء ذات النصل الرفيع المُحدب، فكان يضع بحُسبانه أن مراد فد يفعل حركة كهذه، لهذا السبب أعد خُطته البديلة حتى ينتصر عليه بأي شكلٍ كان...

قرّب هذا النصل من فوهة الباب وبدأ يُدثرها تحت تساؤلات دمرداش الحائرة:

-إنت كنت هجام ولا إيه ؟

أسكته سُلطان بحدة وهو يواصل العبث بهذا النصل داخل الباب حتى أوشك على فتحه كما لو كان أتى للسرقة..

-إخرس إنت دلوقتي ... خلينا نشوف إللي جاي يتحدانا

نجح بفتح الباب بعد العديد من المحاولات التي أرهق بهم عينيه من شدة التحديق، كما أنه مرر النصل على المحابس حتى يفتحها ولا يبقى أمامهم عائقًا لاقتحام المنزل، فهذا ليست أول مرة يفتح بابًا بهذه الطريقة...

تحركوا بخطواتٍ رزينة داخل المنزل متجهين صوب حُجرة والدهم التي باتوا يعرفونها جيدًا، فكانت نظراتهم تشتعل غضبًا من ذاك الذي تجاهلهم وجعلهم ينتظرون طيلة هذه المدة...

انقبض قلبه ما إن استمع إلى أصواتهم تُصدر خارج المنزل، مما يعني أنهم نجحوا بالدخول .. لكن كيف ؟ لقد تعمَّد تغيير المحبس وإحكام الباب جيدًا، كيف استطاعوا الدخول بتلك الطريقة ؟ ... حسنًا لا تهم تلك الأسئلة الآن، فعليه صدُّهم كما يفعل كل مرة...

وثب أمام حافة الباب بسُرعة وما كاد يُغلقه حتى وجد سُلطان قبالته مباشرة يدفع الباب بقدمه رغم مقاومة مراد المستميتة...

-سايبنا ملطوعين برة ساعة ... دا بدل ما تستقبلنا في بيت أبونا

حاول مراد دفع الباب وهو يهتف بحنقٍ:

-دا مش بيت أبوكم ... ولو مخرجتوش من هنا هكلم البوليس

استطاع سُلطان دفع الباب ليفتحه بمساعدة من بهاء ودمرداش لتضحى قوتهم تعادل أضعاف قوة مراد، ومع ذلك لم يتزعزع مراد وبقي واثبًا أمامهم مانعًا إياهم بالإقتراب خطوة أخرى حتى ولو فقد حياته...

-تؤ تؤ تؤ ... هتكلم البوليس على إخواتك الكُبار!! ... هو ده إللي بابا رباك عليه ؟

قالها سُلطان باستهجانٍ آثار حنق مُراد وجعله يريد التعارك معه، لكنه يحاول الصمود كي لا يستيقظ والده وتزداد حالته سوءًا...

هتف بثباتٍ يُحسد عليه وهو يبادل نظراته بينهم باستحقار:

-أبوية رباني على إني أدافع عنه ... ومدخلش حرامية البيت

كان يقصد السُخرية من طريقة اقتحامهم للمنزل، لكن سُخريته لم تؤثر بهم قيد أنملة، حيث إقترب دمرداش نحوه هاتفًا بحدة وتسرعٍ لم يتفقوا عليه:

-إبعد عننا يا مراد خلينا نشوف أبوك مخبي الورث فين

قطب مُراد حاجبيه ليغرق وجهه ببحور الصدمة من هذا الحديث الذي يُلقى على مسامعه، فما كان خائفًا منه يحدث الآن، السر الذي أخفاه والده عنهم .. يبدو أنهم على عِلمٍ به وأتوا من أجله، وهذا ما كان يخشاه مُراد، فهو يعلم الآن أن النهاية لن تضحى هينة...

-إ.. إنت بتقول إيه ؟ ... ورث إيه ده إللي بتتكلم عنه ؟

آراد تكذيب حديثهم لربما هي مُجرد شكوكٍ ليس إلا، لكن ما حدث أنه وجد بُهاء يُخرج الهاتف من جعبته ويُفجر قُنبلته بلا رحمة:

-كفاية كدب يا مُراد ... إنت عارف موضوع الورث ... وخطيبتك هي إللي بعتتلنا وقالتلنا نيجي نصلح علاقتنا بيك عشانه ... بس يعيني ... شكلها متعرفش إللي فيها

كانت كلماته أشبه بالسكاكين التي تُمزق فؤاده بلا رحمة، خاصة وهو يرمق تلك الرسالة المُرسلة من البريد الإلكتروني الخاص بسما، لا يُصدق حتى أنها تفعل ذلك، لا يُصدق أنها من تسببت بتعريض حياة والده للخطر، يريد الصُراخ بوجهها في تلك اللحظة، فما يراه الآن يثبت أنها مثلهم ... لقد تخلت عنه مثلهم...

استجمع أنفاسه المتلاحقة قبل أن ينفجر من هوّل الصدمة، فقد تجمُعت الدموع داخل جفنيه وهو ينفي برأسه غير مُصدقًا لهذا الهُراء، خفق قلبه بهوادة وهو ينبس بين أنفاسه المُتهدجة ورغبته العارمة بأن يضحى هذا مُجرد كابوس..

-للـ... لأ .. مـ .. مستحيل ... ده .. ده مش هي .. إ .. إنتو كدابين

تقتطع صوته وتزايدت نبضات قلبه حتى شعر وكأن دموعه الساخنة ستُغرق وجهه، لكنه مع ذلك حافظ على صرامته ما إن وجد سُلطان أمامه يهتف بنفاد صبر:

-كدابين كدابين ... المهم إننا عايزين فلوسنا ... ولو مخلتناش ناخدها ... هناخدها غصب عنك

هنا ولم يعد يتحمل، فقد وصلت نيرانه إلى أعلى مستويات الإشتعال، بدأ صدره يعلو ويهبط لينقض على سُلطان مُجددًا كالمجنون، لكمه لكمة قوية جعلته يبصق الدماء من فمه، تحوّل وجهه إلى اللون الأحمر وهو يهتف بصُراخٍ كاد يُمزق حنجرته:

-محدش فيكم هيقرب منه

أمسكه من تلابيبه وبقي يُحدق به بنظرات مُشتعلة ويدفعه بعيدًا عن الحُجرة إلى أن ارتطم ظهره بجدار الرواق...

تدخل كلًا من بهاء ودمرداش ليمسكا بمُراد من كتفيه ويُبعدانه بجُهدٍ عن سلُطان الذي كان في أوج غضبه، فما إن أبعداه دمرداش وبهاء، حتى إقترب نحوه سُلطان بنظراتٍ منتقمة لتلك اللكمة والتي سدد له مثيلتها ليجعله يشعر بفكه الذي بدأ يتحرك من مكانه...

حاول مراد بكل ما لديه من قوة أن يبعدهم عنه لكنه لم يستطع، فقد كانوا يفوقونه عددًا وقوة، لكمه سُلطان لكمة أخرى أقوة من التي سبقتها، حتى أنها جعلته يبصق دماءًا ساخنة تقاطر بعضها على أرض الرواق وجعلته يستشعر طعم الدماء التي بدأت تنسل على شفتيه ...

لم يتوقف مُراد عن المقاومة وبقي يدفعهما بعيدًا عنه حتى استطاع أخيرًا التملص من قبضتهما واللِحاق بسُلطان الذي عاود اقتحام الحُجرة مجددًا، أمسكه مُراد من سترته وحاول إبعاده بقوة لكن بهاء ودمرداش لم يتركاه وشأنه وانقضا عليه مجددًا ليركله دمرداش بمعدته ركلة جعلته ينحني بجذعه ويتأوه من الألم، لكنه مع ذلك حاول الوثوب مجددًا ليلحقه بهاء بركلة أخرى أصابت فكه وجعلته يفقد توازنه من شدة الوجع...

كل هذا حدث على مرآى ومسمع يعقوب الذي فتح عينيه بوهنٍ ليرمق أبناءه يتكالبون على صغيره ويُسددون له اللكمات بلا رحمة، هذا لأنه فقط يحاول حمايته، كم أدرك

وقتها أن العالم قاسيًا لأمثاله، وحتى صغيره لم يسلم من بطش أشقائه وربما كذلك لن يسلم من بطش العالم...

إكتفى بالصُراخ ما إن نفدت طاقته وجثى بهاء على ظهره حتى يمنعه من الحِراك، فبقي وجهه مُلتحمًا بالأرض وحدقتيه يرفعانهما لأعلى مع رأسه حتى استطاع رؤية والده من بعيد بوجهه المليء بالدماء والجروح ... حاول مجددًا إبعادهم لكن يبدو أن لا حياة لمن تنادي، فقد كان دمرداش يمسك قدميه وبهاء يجلس على ظهره ويهتف بسُلطان:

-خلص بسُرعة يا سُلطان..

استجاب سُلطان لحديثه وأخرج إحدى الإبر ليملأها بنوع من الأدوية والتي بالطبع خطيرة على والدهم وحالته الصحية، ما إن رآى مراد هذا الإبرة حتى شعر وكأن قلبه سيهوي أرضًا؛ ارتجفت أطرافه وهو يصرخ بصوتٍ مُرتفع ودموع تنسل من عينيه بهوادة:

-لأ ..لا لااا ... إبعد عنه .. إبعد عنه...

كان يصرخ بتلك الكلمات وهو يحاول التحرر بلا فائدة، وصوت صُراخه يزداد ارتفاعه كلما إقترب سُلطان بتلك الإبرة نحو ذراع والده الساكن تمامًا يستقبل قدره بدموع مكبوتة ويده ترتفع لأعلى بهوادة يُشير بها نحو مُراد وكأنه يوّدعه، أو يُخبره أن يطمئن، فربما هذا قدره المحتوم ... وعليه أن يقبل به، حتى ولو كان قابض روحه هو أحد أبناءه...

رمق مراد تلك النظراتِ بعجزٍ ودموع تزداد انهمارًا حتى تحوّلت إلى بكاءٍ مرير، تحوّل صُراخه إلى التوُسل ما إن نفدت طاقته وآرادهم أن يتركوه وشأنه...

-أبوس إيدِك سيبه ... سيبه يا سُلطان وأنا هديك إللي إنت عايزه ... سُلطان أبوس إيدَك سيبه ... سلطـــان

صُرخ بآخر كلمة بين دموعه وشهقاته ووجهه الذي تحوّل إلى اللون الأحمر الذي اختلط مع دماء جروحه ومع عروقه النافرة، ورغم هذه التوّسلات ونبرته التي تُفطر القلب، لم تتحرك شعرة من جسد سُلطان وواصل التقدم نحو والده داثرًا نصل هذه الإبرة داخل الوريد الخاص بوالده، عازمًا على إنهاء حياته بدمٍ بارد ...

الفصل العشرون (فقدت وعيها)

"هناك دموعٌ تهبط على الأزهار فتُذبلها، وهناك دموع أخرى تهبط على الأزهار وتُنضجها ... فتشبث بتلك الدموع، ولا تجعل أحزانك تُسيطر على حياتك ... بل إجعلها سببًا في زيادة قوتكِ ومثابرتك"

____

صرخة مدوية هزّت أرجاء البناية ومن شدة قوتها أحس بروحه وهي تخرج من موضعها مع ذاك المشهد الذي يتمثل أمامه، والذي لن ينساه ما دام على قيد الحياة...

تحطمت أوداجه وخفت صوته وصراخه مرة واحدة لينخرط بدوامة من البُكاء المرير والدموع الساخنة التي تحرق وجنتيه، حاول الوثوب عن الأرض بأطرافٍ مُرتجفة وجسدٍ بالكاد يحمله، تحرك بخطواتٍ مُتهملة نحو والده الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة جِراء تلك الجُرعة التي لم يكن من المُفترض أن يأخذها، فما إن أدى سُلطان مهمته الشيطانية حتى ترك المنزل هو وأشقائه وبقي هو وحده يصارع لحظة الفُراق والندم يلتهم أحراشه...

وضع يده المُرتجفة على كف والده المُثلج الذي إجتمع مع شحوب وجهه بعد أن فارق الحياة، احتضن كفه وقرّبه نحو وجهه لتنهمر دموعه الساخنة على هذا الكف الحنون، كم شعر بالعجز في تلك اللحظة، فهو لم يستطع إنقاذه، لم يستطع إنقاذ من كان ينقذه دائمًا ... بل وحتى شاهدهم يقتلونه بدمٍ بارد وبلا رحمة...

خفق قلبه بسرعة وإزدادت دموعه وهو يهتف بخفوتٍ وهزيان متوّسلًا لوالده كيف يستيقظ، يتوُسل له كي يفتح عينيه كي يعده بأنه سيحميه منهم مجددًا، لا يُحب شعور القهر الذي يشعر به، ولا يتخيل حياته وحيدًا مجددًا...

انتهت توُسلاته بإطلاق صرخة أخرى وصل طنينها إلى جميع سُكان البناية، حتى أن الجيران اقتحموا المنزل بعد أن وجدوا الباب مواربًا، فقد تركه سُلطان وأشقائه بعد رحيلهم وبعد ارتكابهم لتلك الجريمة...

وجدوه يتوسّط الفراش مكامعًا لراحتي والده ودموعه تنسكب بغزارة رافضًا فكرة أنه ترك هذه الحياة، حتى أنه تجاهل جروح وجهه وجسده من شدة ما كانت جروحه الداخلية أشد قساوة ... بل هي حتى لا تُعادل تلك الجروح على وجهه....

آفاق من شروده على صوت القرآن الذي يغمر أركان المنزل، كان وجهه ذابلًا فاقدًا لمعاني الحياة وعيناه حمراء بدموعه الجافة التي انتهت، فكان كالصنم في مجلسه الذي يتمركز بإحدى الأركان ينظر أمامه بشرودٍ غارقًا بطيف ذكرياته ومعاناته التي تزيده ألمًا، فكان مُتغيبًا عن العالم في تلك اللحظة، حتى أنه رفض الحديث مع من أتى مراسم العَزاء، ورفض الاستماع لمواساتهم ... ولا يزال يرفض ما يحدث حوله....

على جهة أخرى، وفي ذاك المنزل الذي جمع العديد من الجيران وبعض الآقارب المتشحّين بالسواد وعلى وجههم الضيق الشديد، فجميعهم قد اتفقوا على أن المتوّفي شخصٌ جيدٌ له العديد من الأفضال على الجميع، وبعضهم كذلك يشفق على حالة مُراد داعيين الله أن تتحسن حالته النفسية مع مرور الوقت، خاصة بعد أن لاحظوا جروح وجهه والتي ظنوا أنها من إحدى الجدالات، فلم يتحدث مراد مع أي أحدٍ منذ ما حدث ... وصِدقًا، لا يُريد التحدث حتى...

لم يكتفي ثلاثتهم بإزهاق روحِ بريئة وتحطيم شخصٍ في رعيان شبابه، بل أنهم حتى يجلسون بمراسم العَزاء مطبقين للمثل الذي يقول أنهم قتلوا القتيل وساروا بجنازته، فها هُم بتخافتون عن مصالحهم كما يفعلوا دائمًا، حيث كان دمرداش يسأل بصوتٍ خافت:

-أنا هكلم المحامي أخليه يعجل إعلام الوراثة ... أنا خلاص عايز أمشي من هنا

ربت سُلطان على كتفه حتى يهدأ ولا يُثير الشكوك من حولهم:

-إهدى يا دمرداش ... استحمل شوية لأننا لو اتدخلنا هنشكك الناس فينا ... خلينا نشوف موضوع الورث ده كمان أسبوع ... أهو على الأقل يفتكرو إننا حزنا على موته شوية

تقدم بهاء بجذعه ليهتف بلهفة وصوتٍ خافت:

-أنا عِرفت إن الورث حوالي 700 ألف جنيه ... الفلوس دي لو اتقسمٌت علينا إحنا التلاتة كل واحد هياخدله بالميت 230 ألف

عقب دمرداش باستفهام:

-طب ومُراد ؟ ... هنعمل فيه إيه ؟

طمأنه سُلطان بمُكر:

-سيبك منه ... هو أساسًا مش فارق معاه الفلوس ... كفاية الشقة إللي أبوك كتبهاله باسمه

لم يكد ينهي جُملته حتى التقطتهم نظرات نارية تصوُب نحوهم كالسهام المارقة، فكان يقف مراد قبالتهم بتلك النظرات الحاقدة يوِّد تحطيمهم والفتك بهم في أي لحظة، لكنه يعلم جيدًا أنه لن يقدر على المساس بهم خاصة أمام الجميع، لهذا السبب اكتفى بالهِتاف بوجههم بصوتٍ مُرتفعٍ صاخب:

-إطلعو برة

كانت نظراته متوعدة لكنها لم تُحرك بهم قيد أنملة، وثب سُلطان قبالته كي يهتف ببرودٍ يتماشى معه تمامًا:

-إيه يا مراد ... هتطردنا من عزا أبونا

آعاد مُراد جُملته بصوتٍ قد إرتفع أكثر:

-إطلــعو برة ... إطلـــعو برة....

تبع حديثه بانقضاضه على سلطان ليمسكه من سُترته ويدفعه خارج المنزل بقوة لا يعلم من أين أتى به، فقد سئِم دور الضعيف الذي دائمًا ما يتأذى من الجميع، بقي يدفع سُلطان خارج المنزل هو وأشقائه، لم يتوقف عن الصُراخ بوجههم بهستيرية...

-مجرميـن ... كلكو مجرمين ... مش عايز أشوفكم تـــاني...

بقي يهزي بتلك الكلمات وهو يدفعهم خارج المنزل حتى تجمع حوله الحضور وحاولوا منعه أمام مقاومة سُلطان وأشقائه ودفاعهم عن نفسهم...

-يا مُراد سيبهم يا حبيبي ... خليهم يحضرو عزا أبوهم

هتفت بها إحدى السيدات بعد أن أتت من داخل حُجرة المعيشة كما أتى جميع الحُضور من الرجال والنساء ليجتمعوا حول مراد الذي قد فقد صوابه ونقل صياحه على أخواته إلى صياحه على جميع الحضور...

-إطلعو كلكم برة ... مش عايز أشوف حتى هنا ... إطلـعو برة ...

بقي يصرخ بتلك الكلمات وهو يدفع من يقابله أمامه خارج المنزل بهستيرية ودموع تنهمر على وجنتيه، كان الجميع يُتابع هزيانه ويتركون المنزل ضاربين كفًا بالآخر داعيين بداخلهم أن يمهله الله الصبر والسكينة، فكانوا مشفقين على حالته دون أن يعلموا أنه شهِد مقتل والده بعينيه ولم يستطع مساعدته...

كانت تصعد الدرجات بثيابٍ سوداء وملامح باهتة خالية من مُستحضرات التجميل برفقة يقين التي أتت معها بوجه شاحبٍ ودموع جافة من كثرة البكاء، فما إن وصل لها خبر وفاة خالها حتى أخبرت سما التي أصرٌت على حضور مراسم العزاء لعلها تواسي مراد وتقف جواره كما يقف جوارها دائمًا...

لكن ما حدث، أنهما وجدا الجميع يهرع خارج المنزل وصوت مراد يصدح بهستيرية أصابتهما ببعض القلق، ومع ذلك واصلا السير داخل المنزل حتى اصطدمت يقين بوالدتها التي وجدتها أمامها تقص عليها ما حدث بحسرة لتجعل انقباضة تتكوٌن داخل قلب سما التي أسرعت خُطاها صوٌب المنزل قبل أن يتركه آخر المعازيم ويتم غلق الباب نهائيًا...

دفعت الباب بقدمها كي تدلف المنزل الذي أضحى خاليًا إلا من مراد الذي يُطلق شُعلات من اللهب من عينيه وتلك الكدمات أسفل عينيه وعلى فمه مما جعلها تزداد قلقًا عليه..

-مــ... مراد ... البقاء لله

قالتها بصوتٍ خافت متلجلج وأعين تفيض من الدمع على تلك الحالة التي وصل إليها، فالذي كانت تستمد منه القوة والصبر، أضحى الآن في حالة مزرية يحتاج لمن يستند عليه ويمده بالعون...

بقي يرمقها بنظرات متوُعدة انتهت بكلماته القاسية:

-جاية ليه ؟ ... أنا مش عايز حد هنا

تفهمت حالته وشعوره بالضياع، لذلك إقتربت نحوه خطوة واحدة تراجعها هو حتى لا ينقض عليها كالوحش الكاسر، فهو غاضب منها إلى درجة قد تجعله يُفتك بها وهو لا يرغب بذلك...

-أنا عارفة إن عمو كان كل حاجة بالنسبالك ... بس صدقني_

قطع حديثها بصُراخٍ بعد أن ضاق ذرعًا من الكُتمان:

-أنا مش عايز اسمع صوتِك ... إنتِ السبب في إللي حصل ... وجاية هنا بكل برود ولا كأنك عملتي حاجة

أحست وكأنها ستهوٌي على الأرض مع تلك الاتهامات الموجهة نحوها كالخناجر؛ ترقرقت دمعة من عينيها وهي تحاول الدفاع عن نفسها بصوتٍ خافت لا يُصدق أنه يتهمها تلك الاتهامات..

-أ.. أنا معملتش حاجة ... ومش عارفة إنت بتتكلم عن إيه

تقدم نحوها خطوة وكأنه على وشك الانقضاض عليها، بل كانت نظراته الحاقدة هي ما تنقض عليها وتُصيبها بالخُذلان والخوف خاصة مع نبرته الصارخة التي كادت تُمزق حنجرته:

-كفاية كدب بقى ... إنتِ إللي بعتلهم رسالة وقولتلهم على الورث ... إنتِ إللي خلتيهم يقتلو بابا

حسنًا هذا يكفي ... لم تعد تتحمل هذه الصدمات، عن أي رسائل يتحدث ؟ .. وهل والده قُتل بالفعل ؟

كادت تفقد صوابها من كثرة تلك الأسئلة التي تُهاجمها وتكاد تُفتك بعقلها، بقيت تنفي برأسها بدموعها المتكوّمة أسفل وجنتيها:

-أنا معملتش حاجة ... والله العظيم معرفش إنت بتتكلم عن إيه...

هدأت نبرته قليلًا لتتحوّل إلى أخرى حادة وعينيه شخصتا مباشرة بعينيها الباكية التي استقبلت نظراته وزادتها بكاءًا، فهي لم تتوقع أن يُصدق عليها مثل هذه الاتهامات، لا تعلم أن جميع الأدلة تُشير إلى كونها بالفعل قد أذنبت..

-أنا مش عايز اسمع تبريرات ... ومش عايز أشوفِك في حياتي تاني ... أنا غلطان من الأول إني عرفت واحدة زيِك

بصق تلك الكلمات القاسية أمامها ليبتعد عنها بضعة خطوات هاتفًا آخر كلماته بصُراخ جحيمي إرتجت الجُدران إثره مع إبهامه الذي يُشير نحو الباب:

-إطلعي برة

ابتلعت غصة مريرة تكوّنت داخل صدرها وهي تستجب لحديثه رغم الحروق الناشبة بصدرها وشعور الخُذلان الذي يضربها بالسوط بلا رحمة، لكنها قبل أن تترك المنزل نزعت الخاتم الذي يُحيط بإصبعها لتضعه على الطاولة مُلقية آخر كلماتها بصوتٍ متحشرج:

-إنت حُر يا مراد ... عايز تصدق الكلام ده ... براحتك ... بس أنا معملتش حاجة ... وأسفة عشان سببتلك إزعاج في حياتك

أنهت حديثها بوضعها للخاتم على الطاولة ثم تركها المنزل ليتحرك مُراد وراءها ويصفع الباب صفعة قوية كادت تُدمر الباب معها، تهدمت حصونه في تلك اللحظة، فما إن صفع الباب حتى وجد قدميه تهويان على الأرض ليسقط على ركبتيه تاركًا المجال لدموعه بالإنهمار وصوته الذي خفُت بشكلٍ واضحٍ يجعله يهتف بهزيانٍ وصوتٍ مبحوح:

-كلكم كدابين ... كلكم كدابين...

تنفس الصُعداء مع كلماته المتقطعة ولهيثه الذي نجم عن صراخه الحاد، فهذه الكلمات ذكرته بآلامه وتعرضه للخُذلان للمرة التي لا يعلم عددها، تلك هي اللحظة التي تهدمت فيها حصونه، وشعر أنه فقد الجميع ... بل فقد كل شيء...

تركت المنزل بدموع مُنهمرة لا تُصدق هذه الاتهامات، لا تُصدق أنه من الممُكن أن يُصدق عليها شيئًا كهذا، فتحت جوالها لتتأكد من حديثه رغم الغضب الذي تكنيه ناحيته، لكن غضبها قد تلاشي ما إن تأكدت بالفعل من شكوكه ... فهي ترى أمامها بعض الرسائل التي تم إرسالها من حسابها الشخصي ... تلك الرسائل التي أخبرت أشقائه عن الورث ... بل وحثتهم كذلك على المجيء!!

لاح عليها بوادر الغضب مما جعل أنفاسها تتصاعد مع تلك النيران المُجحفة التي بدأت تنطلق من أذنيها، فمن الذي أرسل تلك الرسائل ؟ .. من الذي يُريد الإيقاع بينهما للمرة الثانية ؟ ... توقفت عند تلك النقطة، لتتذكر لوهلة من يُريد أن تتدمر حياتها الشخصية ... من جعلها تترك فريقها لأنه يحقد عليها، من يُعاملها أسوء معاملها لأنها المتفوقة دائمًا...

قبضت على هاتفها بقوة وداخلها يغلي من الغضب عازمة على تلقين من تسبب بهذا درسًا قاسيًا...

———————————————————

تتمد بظهرها على الفراش ومعها الهاتف تتحدث من خلاله بفخرٍ كما لو أنها حازت على إحدى الجوائز، والحقيقة أنها بالفعل حازت على جائزة ... جائزة الحقد والضغينة، فكانت تقول بين قهقهاتها الماكرة:

-لا طبعًا إنتِ فاكراني إيه ... أنا بعت الرسايل من حسابها عشان يفتكر إنهم منها ....

داعبت خُصلات شعرها وهي تواصل الحديث بثقة:

-أنا متأكدة أصلًا إنهم هيسيبو بعض بعد العملة دي ... عشان أنا قولتلك قبل كدة إنهم مش هيكملو

قهقهت قهقهة ماكرة أقرب إلى الرقيعة التي تتناسب مع تباهيها الدائم، انتهت من تلك القهقهة بحديث بدأ يقتحم حيز الجدية:

-بقولك إيه راندا ... إبعتيلي محاضرة إنهاردة عشان مروتحش الجامعة .... لا أنا كويسة أنا بس حاسة إن عندي صُداع هيموتني من الصُبح ... ماشي حبيبتي

قطبت حاجبيها ببعض الألم الذي وضعت معه يدها على جبهتها إثر هذا الصُداع الذي بات يُلازمها منذ عدة أيام، كانت تُجاهد لتواصل تلك المكالمة وتستمع إلى حديث صديقتها التي كانت تُخبرها عما حدث اليوم بالجامعة، لكن فجأة..

أحسّت بتوّعك معدتها وغثيانٍ يجعلها ترغب بالتقيؤ، جاهدت لتكبت هذا الألم لكنها لم تستطع، لذلك أنهت المكالمة بقولها:

-راندا أنا هقفل دلوقتي ... سلام

أغلقت المكالمة بسرعة لتتجه فورًا إلى المرحاض وتُفرغ ما بمعدتها نازحة هذه الخُصلات التي تتمرد على عينيها وتقترب من جوفها الذي أخرج ما بمعدتها حتى كادت تبصق الدماء مع تقيؤها...

رفعت وجهها عن المرحاض بلهيثٍ وحُبيباتٍ من العرق قد انسابت على جبينها وجعلت خُصلات شعرها تلتصق بوجنتها وتُصيبها بالتقزز، أحسُّت بخواء معدتها وهي تثب بعيدًا عن المُرحاض تُطالع وجهها الشاحب الذي فقد جميع ألوانه بالمرآة، فهي لا تعلم ما يحدث معها بالأيام السابقة، أضحت تتقيأ بكثرة وتشعر بالغثيان دائمًا، ناهيك عن هذا الصُداع الذي يُفتك برأسها والدوار الذي دائمًا ما تشعر به، حتى أنها بادت تتناسى العديد من الأشياء بالفترة الأخيرة ... حقًا لا تعلم ما يحدث معها، وكلما إزداد جهلها إزداد معه خوفها...

هرعت من المرحاض ما إن استمعت إلى صوت الباب الذي يتم فتحه، فما إن فتحت باب المرحاض حتى قابلت هذه النظرات المتوّعدة الخاصة بسما والتي قابلتها هي بجمودٍ ولا مبالاة، حتى أنها تجاهلتها وقررت المضي قِدمًا لولا يد سما التي تمسكت برسغها مع كلماتها التي بصقتها دفعة واحدة:

-إنتِ إللي عملتي كدة صح ؟ ... إنتِ إللي بعتلهم الرسايل ؟

صرخت بآخر كلماتها وهي تُظهر الهاتف الخاص بها أمام يارا التي تطالع ما يحدث ببرودٍ تامٍ ورغبة بتكذيب حديثها...

-رسايل إيه دي ؟ .. إنتِ أكيد فاهمة غلط

نفت سما بصُراخ أتت بدور على إثره من حُجرتها، ولو كانت جدتهما هنا، لما أتت هي الآخرى، لكنها خارج المنزل رفقة سامح لأمور خاصة بمعاشها...

-لأ مش فاهمة غلط ... أنا طول الوقت كنت بحطلِك مليون حجة عشان أبررلِك إللي بتعمليه ... لكن دلوقتي مش هحط ... عشان إنتِ دمرتيلي حياتي ... ودمرتي حياة أكتر حد كان بيساعدني .... وطول السنين إللي فاتت كنتِ بتعامليني أسوأ معاملة وأنا حاطة جذمة في بُقي وساكتة عشان خاطر اختِك .... لكن خلاص ... أنا زهقت منِك

تنفست الصُعداء بعد صراخها الذي أوقد نيران القلق داخل بدور التي تقدمت نحوهما توجه سؤالها نحو يارا داعية بقرارة نفسها ألا تضحى شكوكها صحيحة، ألا تضحى

يارا سببًا بوفاة يعقوب وتفرق هذين القلبين، فإن كان هذا حقيقيًا، لا تعلم وقتها ما الذي ستفلعه مع شقيقتها...

-هو إيه إللي بيحصل ؟ ... رسايل إيه دي إللي إنتِ بعتيها ؟... إنطقي يا يارا

تحلّت يارا بالصمت أمام اتهاماتهما ولازالت نظرات الحقد تلوح على وجهها حتى آجابت سما نيابة عنها بنبرة صاخبة:

-بعتت رسايل لإخوات مراد وهي عارفة إنهم ممكن يأذوه ... إدتلهم فرصة عشان ييجو ويقتلو عمو يعقوب ... عارفة يعني إيه يقتلوه ؟؟ ... عارفة يعني إيه تدمري نفسية واحد ملوش ذنب في إللي بيحصله ؟

انهمرت دموعها المكبوتة وتحشرج صوتها وهي تُشير على يارا هاتفة بحسرة:

-الراجل مات بسببِك ... إنتِ إزاي جالِك قلب تعملي كدة ... كل ده عشان تفرقينا ؟ ... عشان تفرقينا تموتي واحد بريء ... ليه ؟ ... للدرجادي بتكرهيني ؟ .... للدرجادي مش عايزاني أفرح ولو للحظة

أنهت الحديث بدموع تخرج من عينيها كشلالات، أما عن بدور فكانت تتابع ما يحدث في صدمة، لا تُصدق ما يُتلى على مسامعها، ولا تُصدق أن شقيقتها قد تفعل ذلك، وجهُت حديثها نحو يارا متمنية أن يضحى هذا سوء تفاهم، وأن تضحى بالفعل بريئة، رغم أنها تعلم أنها تمقت سما لسببٍ لا تعلمه حتى الآن...

-إنتِ عملتي كدة ؟ ... رُدي عليا ؟ ... إنتِ إللي كُنتِ عايزة تفرقيهم ... يا يارا رُدي

صرخت بآخر كلماتها مما جعل يارا تترك قوقعة صمتها وتنفجر بوجهيهما:

-أيوة أنا .... أنا إللي بعتلهم الرسايل، وأيوة كُنت عايزة أفرقهم... عشان أنا مش طايقاها_

لم تكد تُكمل حديثها حتى تلقط صفعة قوية على وجنتها من سما التي طفح كيلها ولم تعد تتحمل الإنصات إلى مُبرراتٍ أخرى، تحركت خطوة نحو يارا التي تتحسس وجنتها موضع الصفعة التي جعلت وجنتها حمراء، رمقتها سما بحقدٍ وهي تُدلي كلماتها بإصرارٍ حمل إحساسها بالقهر:

-وأنا مش هقعد في البيت ده تاني ... طالما وجودي تقيل أوي على قلبكم

بصقت تلك الكلمات ثم هرعت إلى حُجرتها تُخرج حقيبة سفرها لتُلقيها على الفراش وتبدأ بوضع ملابسها داخلها، فكانت تلتقط الملابس بعشوائية من الخُزانة وتضعها داخل الحقيبة بسُرعة دون حتى أن تطويها، فهي تُريد الرحيل بسرعة ولا تقدر البقاء هنا أمامها، لا تعلم حتى كيف ستنظر إلى وجهها مجددًا...

-هتروحي فين ؟

سألتها بدور بدموعها المُنهمرة حسرة على ما حدث، فكانت تُجيبها سما بجمودٍ رغم النيران المُتدفقة داخلها:

-هروح أعيش مع سامح ... مش هقدر أعيش هنا أكتر من كدة

-طب وسارة ؟

سألتها برجاءٍ وأملٍ للعثور على أية حُجة تُبقيها بجوارها، فكانت إجابة سما جامدة أصابتها بخيبة أمل:

-كام يوم وهنيجي ناخدها تعيش معانا..

أدلت تلك الجُملة وهي تُغلق حقيبة سفرها وتضعها على الأرض استعدادًا للرحيل، استعدادًا لترك هذا المنزل الذي حمل معه العديد من الذكريات، منها السعيدة ومنها الأليمة، لكن بالأونة الأخيرة، سيطرت الذكريات الأليمة على السعيدة مما جعلها ترغب بالهرب من هنا، ترغب بالهرب من تلك الحياة الصعبة...

-طب وأنا ؟

سألتها بدور للمرة الثانية ما إن تحركت سما بالحقيبة ووثبت على أعتاب باب الحُجرة ترمق نظرات بدور المليئة بالحُزن، فهي قد اعتادت عليها، ولا تتخيل أن تبقى بالحُجرة وحدها بعد أن كانت تتحدث معها ليل نهار، من سيُثرثر معها قبل النوم ؟ من سيُشاكسها ويمرح معها بالحُجرة ؟ ... شريط من الذكريات يمرٌ أمام عينيها يُذكرها بتلك الأيام المُحببة التي لا تُريدها أن تُنسى...

ربتت سما على كتفها هاتفة بطمأنينة ونبرة خافتة مبحوحة:

-أنا أكيد هاجي تاني كزيارة .. وبعدين أنا هشوفِك في المركز علطول ...

رمتها ببسمة هادئة رغم آلامها ورغبتها بالبُكاء والصُراخ، كبتت تلك المشاعر داخلها وهي تجر حقيبة سفرها وتهرع من المنزل على أمل ألا تبيت بداخله مجددًا، فقط تُريد أن تبقى وحدها، بعيدًا عن كُل هذا...

انهمرت دموعها وهي تنسل الدرجات مُتذكرة ما حدث معها وتلك الكلمات القاسية التي تلقتها من مراد بسبب تلك التي تحقد على حياتها حتى دمرٌتها كُليًا...

أغلق سامح باب سيارته بعد أن هرعت جدته وتشبثت بذراعه حتى تصعد الدرجات رفقته، فكانت تتكيء عليه وتتحرك معه خطوات هادئة قطعتها سما التي تهرول نحوهما بدموعها المنهمرة مما جعل سامح يرمقها بذعرٍ وقلقٍ سأل معه:

-في إيه يا سما ؟

لم تُجيبه بجوفها ووجدت نفسها ترتمي بأحضانه بشهقاتها التي جعلت جدتها تتابعها بحاجبين مُقطبين وحسرة على تلك الحالة التي لا تعلم سببها، فكانت جدتها تمُسد على خُصلات شعرها الرطبة ورأسها الساخن إثر بكاءها المرير...

-إيه يا حبيبتي مالِك ؟...

لم تقطع سما بكاءها وبقيت تتحدث بهذيانٍ وصوتٍ مبحوح:

-أنا عايزة أمشي من هنا ... خُدني معاك يا سامح

حادثته برجاء وصوتٍ يجعل الحجارة تنفطر، كان يشعر بالتيه ولا يعلم ماذا يفعل، فهو يُريد أن يعلم سبب بكاءها ويعلم جيدًا عجزها عن الحديث بتلك الحالة، لهذا السبب أخرج مُفتاح سيارته من جيبه وأعطاه لها متفوّهًا:

-إدخلي طيب استنيني في العربية ... هطلّع زوزو وأجيلِك

أخذت منه المفتاح وهرولت بحقيبتها صوّب السيارة متجاهلة نظرات جدتها التي تبادلت مع نظرات سامح لتُخبره أن يفهم ما يحدث معها ويُخبرها فيما بعد .. فبالطبع هُناك مُشكلة كبيرة تواجهها...

ما إن دلفت السيارة حتى بدأت تستعيد أنفاسها وتحاول كبح دموعها التي أهلكت عينيها، رفعت رأسها لأعلى لترمق سطح السيارة وتحاول نسيان تلك الغُمة التي تؤرقها، فما هي إلا لحظاتٍ حتى أحسّت بباب السيارة يتم فتحه ويليه صوت سامح الذي ينفطر من القلق لأجلها:

-مالِك يا سما ؟ ... بتعيطي ليه ؟

لم تستطع الحديث لأنها تُجاهد حتى تكبت دموعها ولا تعاود البكاء وهي تتذكر ما حدث، فهي ستظل تُحاسب نفسها لأن تلك العلاقة التي جمعتها بمُراد أدت إلى وفاة والده بسبب أعينٍ حاقدة تترصد لها، لا تعلم كيف ستواصل حياتها بهذا الذنب، لكنها متيقنة أن علاقتهما لن تعود كما كانت ... بل لن تعود أبدًا...

-اتخانقتي مع مُراد ؟

سألها سامح باستنتاج ما إن لمح أصابعها وعدم وجود خاتم الخُطبة، فربما هذه الدموع سببها جدالًا كبيرًا حدث بينهما، لكن ما علاقة هذا الجدال بتركها للمنزل ؟ هذا ما لا يعرفه ويريد أن يعرفه بفارغ الصبر...

-عايزة أروح عند ماما وبابا ... وديني عندهم..

خرجت من قوقعة صمتها بتلك الكلمات الواهنة التي جعلته يُلبي رغبتها ويتحرك بسيارته في صمتٍ نحو المدافن، لعل وجودها بجوار والديها قد يُهديء القليل من روعها ... ويمدُّها ببعض الطاقة...

____

لم تهدأ نيران الغضب حتى بعد أن تركت سما المنزل، فما إن تركته حتى بدأ جدالًا آخرًا، هذه المرة بدأته بدور التي اتجهت صوِّب يارا رامية إياها بنظراتٍ معاتبة تحمل تلالًا من الحنق، فلا يجب أن تتركها دون أن تحاسبها على ما فعلت...

تعالت أصواتهما تزامنًا مع دلوف جدتهما المنزل وشعورها بأن المنزل الذي ظلُّت تبنيه لأعوام يتدمر بين ليلة وضحاها، فجميع المُشكلات تسقط على رأسها في يومٍ واحد لا يزال ببدايته....

-إنتِ إزاي تعملي كدة !! ... إنتِ إيه ؟ ... مش هتتعدلي أبدًا

صرخت بدور بتلك الكلمات وهي تدفع يارا بحنقٍ آرادت معه أن تصفعها مجددًا، لكن يارا لم تعد تتحمل الصمت أكثر وإنفجرت بوجهها مرة واحدة:

-أيوة مش هتعدل ... عشان إنتو السبب .... إنتو إللي مفيش حد فيكم بيهتم بيا ... محدش فيكم عايزني ... كله سما سما سما ... وكأن مفيش غيرها...

حاولت تنظيم أنفاسها بعد هذا الصُراخ التي جرح حنجرتها، لكن في أقل من لحظة هدأت نبرتها ليتحوَّل وجهها إلى اللون الاحمر مع بعض الدموع لتي تلألأت على وجنتيها، فكانت تهتف بما يجيش به صدرها أمام بدور التي تتابعها في صمتٍ وتستقبل العِتاب على أمل أن ترد عليه وتثبت العكس...

-وحتى إنتِ ... بتقعدي معاها وتعتبريها أختِك ... مع إن أنا إللي المفروض تعملي معايا كدة

إزدادت دموعها أكثر وبدأت أنفاسها تتهدج ودوارٌ شديد عاود مداهمتها عازمًا على الفتك بها في تلك اللحظة، لكنها جاهدت وتحمّلت هذا الدوار والصداع الذي لم يتركها كي تبصق آخر كلماتها بصعوبة بالغة:

-وكمان ... كمان...

لم تستطع التفوّه بأكثر من هذا، لأن غمامة سوداء تكوّمت أمام عينيها وجسدها تحوّل إلى مادة رخوة لم يعد يتحملها، بقيت تُجاهد حتى تلتقط أنفاسها حتى....

صوت ارتطام قوي على الأرض إثر سقوطها على الأرض فاقدة للوعي، فكان آخر ما تراه هو نظرات بدور المذعورة وصياحها المستنجد:

-يـــارا.... !!

الفصل الحادي والعشرون (اللاستعداد للعرض الأخير)

"نحن لا نألف الظلام ... بل نعتاده"

____

الوحدة ... تلك الكلمة المكونة من بضع حروفٍ فقط تحمل تأثيرًا جثيمًا على صاحبها، تجعله ضائعًا في متاهات الحياة، ضعيفًا أمام القدر .. بل حتى عاجزًا عن الإختيار، حتى ينتهي به الأمر غارقًا في تلك الآهات ... فلا أحد ينجده، ولا أحد يُشاركه الحِمل الذي على أكتافه، والأصعب من هذا أنه لا يشعر بتلك الوحدة إلا عندما يُدرك كم أنه بحاجة للجميع...

تغلغلت يدها بين الرمال الرطبة التي أنبتت بعض الأزهار الحزينة، فهذه الأزهار لم تُنمى بالمياه، بل نمت بدموع متألمة على هذا الفقيد، دموع ساخنة أذرفت أمام تلك الصخرة التي نُقش عليها اسمين توّفيا بنفس اليوم، شخصين لو عاد بهم الزمن لمَ احتضنوهما وبقيا بين صدريهما يحتميا بهما من هذا العالم القاسي..

كفكفت دمعة حارقة تمردت على وجنتها الشاحبة والتي تزداد شحوبًا كلما حدقت بهاتين الصخرتين، رفعت يدها بوهنٍ لتتحس صخرة نُقش عليها اسم والدتها سُهير، فكانت أصابعها مبللة ترتجف كما يرتجف قلبها حُزنًا، مررت تلك الأصابع الواهنة عِند الصخرة الأخرى لتتحسسها لبضعة ثوانٍ أنهتهم بإعادة يدها مجددًا تزامنًا مع كلماتها المتقطعة التي خرجت بين شهقاتها...

-أنا أسفة يا ماما ... أنا حاولت ... والله حاولت أحقق حلمي ... وحاولت أصبر ... بس خلاص مش قادرة ... عايزاكم جنبي ... عايزة أترمي في حُضنكم ...

لم تعد تتحمل الصمود عقب هذه الجملة التي جعلتها تنخرط ببكاءٍ مريرٍ حمل ما يجيش به قلبها الواهن، كان يُراقبها سامح الواثب خلفها يرفع يده داعيًا لكليهما بالرحمة، فلطالما كانا خير أبوين لهم، فدائمًا ما يُشجعونهم ويلبون رغباتهم بصدرٍ رحبٍ حتى ولو تعرضت حياتهم للأذى...

ركع على ركُبتيه خلفها ليضع يده الحنونة على ظهرها مُربتًا عليها تربيتاتٍ هادئة حاول معها التهدئة من روعها قبل أن تنفجر عينيها من كثرة البُكاء، فدموعها كادت تجعل قلبه يتمزق إلى عدة أشطار...

-كملي يا سما ... كملي طريقِك ... وأوعي تستسلمي

كانت كلماته مشجعة لكنها لم تؤثر بها كما تفعل دائمًا، فقد وصلت إلى مرحلة تشعر بها أنها تدمرت، وأنها مجرد فاشلة لن تُحقق أية إنجازات، حركت رأسها نفيًا وهي تقول بين دمعاتها:

-مش قادرة ... مش قادرة أكمل لوحدي ... حتى إللي كان دايمًا جنبي مبقاش موجود

ضمها أكثر ناحيته كي تستمع إلى أحاديثه الهادئة والتي مدُتها ببعض الطاقة:

-بس إحنا موجودين ... أنا وبدور ويقين ... وكلنا ... كلنا هنساعدِك ... المهم تقومي وتشتغلي على آخر عرض ... وصدقيني هتوّصلي ... طالما إنتِ صبرتي كل ده ... يبقى هتعرفي تصبري للنهاية

توقفت دموعها عن الإنهمار لتبقى في حالة من الصمت الطويل بعد أن اخترقت كلماته عقلها وجعلتها تُفكر مجددًا بإعادة الكرة، فما الحياة سوى عدة محاولات مستميتة نهايتها النجاح...

قطع حديثه صوت الهاتف الذي أخذ يصدح بجيبه؛ وثب عن الأرض ليضع يده بجعبته ويُجيب عن تلك المكالمة التي وردت من جدته، وضع الهاتف على أذنه ليهتف بصوتٍ قلقٍ أخفاه بالهدوء لكنه تحوّل فيما بعد إلى الصدمة...

____

جُدرانٌ بيضاء غمرت أركان هذه الحُجرة التي تبعث انقباضة في القلوب، وعلى هذا الفِراش الصغير الذي يتوّسط الحُجرة، تقبع يارا بعد أن فاقت من إغماءها ووجدت

نفسها داخل تلك الحُجرة وهناك شيءٌ موّصل بوريدها ربما هو إحدى المحاليل، كانت أنفاسها متسارعة وكتلة من القلق تجتاحها وهي تطالع الطبيب بثوبه الأبيض وهدوءه الذي كاد يُصيبها بالجنون، فكيف يضحى بهذا الهدوء وهو يُخبر المريض بأنه سيموت بعد لحظات ؟.. !

-أنا آسف بس ... الأنسة يارا محتاجة تتحجز في المُستشفى

ما إن بصق تلك الكلمات حتى انتشر التوتر والقلق بينهن، فكانت تسأل بدور بذعرٍ حاولت أن تُحافظ معه على ثباتها:

-فـ ... في إيه يا دكتور ... يارا المفروض تتحجز ليه ؟

بادل نظراته بين بدور وجدتها ثم يارا التي كادت دموعها تُذرف من القلق...

-للأسف الأنسة يارا ... عندها لوكيميا ... وفي مرحلة متوسطة ... يعني لو زادت ممكن ... يبقى في خطرعلى حياتها

تلاحقت أنفاسها حتى اخترقت مسامعهم، تمردت بعض الدموع الحارقة على وجنتيها، مع تلك الكلمات التي يبصقها الطبيب بلا رحمة، هل يُخبرها للتو بأنها مريضة ؟ هل يُخبرها أنها مُعرضة للوفاة ؟ ... لكنها لا تُريد أن تموت الآن، لا يزال أمامها حياة طويلة لتحياها، لايزال هناك العديد من الأشياء التي لم تُجربها بعد، كيف ستُزهق روحها قبل كل هذا ؟ كيف ؟

والأصعب من الموت، هو معرفة المرء بأنه سيموت، فبمجرد سماعه لتلك الجُملة وهو يتخذ حالة الوفاة تلقائيًا، يحيا وكأنه كالميت، كما لو أن تلك الجملة سُمًا قتله قبل أوانه...

-يعني إيه يا دكتور .. يـ... يعني أنا ... أنا هموت

هتفت بتلك الكلمات بصوتٍ متقطع ودموع تنهمر على وجنتها تجعل من يراها يرغب بالبكاء، أما عن الطبيب، فلم يُعطيها إجابة صريحة، فقد إتخذ من الصمت إجابة إلى أن هتف بصوتٍ واهنٍ به بعض التردد والرغبة بطمئنتها:

-إن شاء الله لأ ... هو بس هتتحجزي هنا شوية، لغاية ما ربنا يتم شفاءِك

استأذن بعد تلك الكلمات وهرع من الحُجرة بسرعة وكأنه أدلى تلك الكلمات من وراء ظهره، وهذا ما استشعرته يارا التي واصلت بكاءها بحسرة على حالها، فاتضح أن هذا الصُداع الذي كان يُلازمها هو نتاج هذا المرض اللعين الذي سيُفتك بجسدها عاجلًا أم آجلًا..

إقتربت نحوها بدور بدموع مكبوتة حاولت كبحها حتى لا تُصيب شقيقتها بالذعر، إقتربت جدتهما كذلك ووثبت بجوار يارا من الجهة الأخرى تحاول مواساتها بكلماتٍ حنونة رغم أنها كذلك تكاد تبكي حسرة على حفيدتها التي لن تتحمل مثل هذا البلاء..

-متخافيش يا حبيبتي ... إن شاء الله تخفي بالسلامة_

لم تتحمل يارا هذه المواساة التي تُذكرها بأنها عاجزة، وبأنها تحتاجهم، فهي تمقتهم ولا تُريد رؤية أيًا منهم، بل حتى ظنُّت أنهم يشمتون بها بسبب ما فعلته، ربما حتى سعيدون لأنهم سيتخلصوا منها ... هذا ما كان يجول بخاطرها دون أن تعلم حقيقة مشاعرهم، فهي لا تعلم كم يُحبونها ويكاد القلق يُفتك بهم منذ أن وصلهم خبرٌ كهذا...

-سيبوني لوحدي ... إطلــعو وسيبوني لوحدي

صرخت بتلك الكلمات وهي تُشير إلى باب الحُجرة حتى استجابت جدتها لحديثها وهرعت هي وبدور خارج الحُجرة ليتركاها وحدها لعلها تتقبل هذا البلاء وتجد طريقة للصمود...

فما إن بقت وحيدة بالحُجرة حتى أنكست رأسها لتتساقط دموعها على فخذها كما الأمطار السحيقة، تذكرت أنها تضع الهاتف بجعبتها فأخذت تُفتش به داعيةً أن يبقى

معها لأنها تحتاجه بشدة، فلا شيء يؤنس وحدتها سوى ذاك الهاتف الذي ملأها حِقدًا وجعلها تبتعد عمن تستحق البقاء معهم...

عبثت بالهاتف بيدها المبتلة إثر دموعها حتى أخرجت إحدى الأرقام كي تتصل به فورًا، وضعت الهاتف على أذنيها هاتفة بصوتٍ أجش:

-تـ ..تيمور .. تيمور تعالى بُسرعة

آجابها تيمور صديقها بل وعشيقها أيضًا من الجهة الأخرى التي يبدو وكأنها إحدى المطاعم الفاخرة، رسم على وجهه الذعر وهو يسأل:

-مالِك يا يارا ... بتعيطي ليه ؟

إزدادت شهقاتها وكأنه ذكرها بمعاناتها، لكنها لن تُخبره بالطبع عبر مكالمة هاتفية، لذلك أردفت برجاء:

-عايزاك تيجي ... أنا محتجاك يا تيمور

لم يبدو عليه القلق بعد كلماتها على الرغم من صوت البكاء الذي اخترق الهاتف، إكتفى بإخبارها موافقًا بصوتٍ هاديء:

-ماشي يا حبيبتي .... إديني مسافة السكة وأكون عندِك

أغلق الهاتف بعد تلك الكلمات ليضعه مجددًا داخل جيبه بلا اكتراث، أتاه صوتًا ناعمًا جواره كان يهتف بتدللٍ:

-هي عايزة إيه ؟

ما إن استمع إلى هذا الصوت حتى تناسى فورًا تلك المكالمة التي لا تعنيه والتفت نحو هذا الصوت الذي كان يخص راندا...

نعم .. أقرب أصدقائها، والتي تجلس بجواره الآن داخل إحدى المطاعم الراقية، وتجلس بالقُرب منه وكأنها على وشك ضمه، أما عن تيمور فكان يرميها بابتسامة متغزلة قال معها:

-ولا حاجة ... سيبِك منها وخليكي معايا

آحاطها بذراعه الذي مسّد على كتفها العاري بنشوة أحبتها ولم تخجل منها أبدًا، حتى أنها كانت تتحدث معه بنفس تلك الابتسامة المتغزلة غير عابئة بأن ما تفعله منافٍ لعاداتنا وتقاليدنا، والأهم من ذلك أنها تطعن صديقتها من وراء ظهرها...

____

ما إن تركت الحُجرة حتى ارتمت على المقاعد القريبة بالرواق، إنفجرت كالقُنبلة الموقوتة بتلك اللحظة، فأخذت دموعها تنهمر وتنهمر وكأن سدها المنيع قد تهدم بعد أن كان يمنع فياضاناتٍ كفيلة بإغراق دولة بأكملها، أنكست رأسها لأسفل لتُحيطها بيديها لعلها تمنع الجميع من رؤية وجهها الأحمر وعينيها المنتفختان...

هرولت سما نحوها في تلك اللحظة لتجلس قبالتها تحاول الاطمئنان عليها، فرغم أنها تمقت يارا، إلى أنها لا تتمنى لها الأذية أبدًا...

هرع سامح نحو جدته ليجلس بجوارها ويحاول الاطمئنان على الأوضاع، بينما بقيت سما بجوار بدور تُمسد على ظهرها لعلها تُخفف من دموعها وتفهم منها ما حدث، فقد أخبروهم فقط أنهم بالمشفى من أجل يارا التي فقدت وعيها...

-إيه إللي حصل ؟ ... هي يارا كويسة ؟

سألتها سما بذعرٍ لتزداد حدة دموعها وهي تُجيب بصدقٍ بين شهقاتها:

-لأ ... مش كويسة .. مش كويسة ... عندها سرطان ... وهتتحجز في المستشفى

آحاطت وجهها مجددًا بيديها وأخذت تهتف بعجز:

-أنا مش عارفة أعمل إيه ؟ ... خايفة عليها أوي

تعالى صوت بكاءها فضمتها سما نحوها بقلبٍ ينفطر على تلك المصائب التي تتكالب عليهم، ألا يكفيهم ما حدث حتى تأتي تلك الضائقة وتزيدهم عذابًا...

-إن شاء الله هتخف وتبقى كويسة ... متعمليش في نفسِك كدة

هدأت وتيرة بكاءها لترفع رأسها لأعلى هادرة بندمٍ بدأ يزورها ويجعلها تعتقد أن مرض شقيقتها يقع على عاتقها:

-يارتني خليتها تسافر ... كانت على الأقل اتعالجت في ألمانيا...

أنكست رأسها لأسفل وهي تواصل حديثها النادم **:**

-هقول لماما وبابا إيه لما يتصلو ؟... أكيد هيشمتو فيا ويقولولي مش كنتو سافرتو معانا ؟ ... أنا بجد مش عارفة هعمل إيه ؟...

إزدادت تيهًا وخوفًا بعد تلك الكلمات مما جعل سما تزيد من تربيتاتها على ظهرها وتحاول مواساتها وطمأنتها بكل ما أوتيت من قوة:

-إحنا كلنا هنبقى معاها ... ولو على الفلوس فمتقلقيش، أنا محوِّشة من المسابقة وممكن أديكم إللي معايا ... بس هي إن شاء الله هتخف ... خليكي متمسكة بالأمل ده ... وإياكي تستسلمي

وكأنها نقلت أحاديث سامح لها، فهي التي دائمًا ما تتلقى الدعم من الجميع، أصبحت الآن تساعدهم وتدعمهم على الرغم من أنها لازالت تحتاج هذا الدعم، فجميعهم يحتاجون الدعم من بعضهم، فهُم عائلة واحدة، ويجب أن يقفوا رفقة بعضهم في مواجهة هذه الشدائد والآفات...

تحلّت بالصمت لوهلة أمام كلماتها الداعمة والتي لا تعلم كيف ترد عليها، فهي تشعر بالحرج مما فعلته شقيقتها بها، لذلك أزاحت بعض دمعاتها كي تهتف باعتذار:

-أنا أسفة ... أسفة على إللي عملته يارا ... أنا السبب في كل ده أصلًا ... كنت فاكرة إني هعوٌضهم عن ماما وبابا ... بس طلعت فاشلة .. ومقدرتش أعوٌضهم .. لا هي .. ولا زكريا

نزلت دموعها النادمة هذه المرة والتي ذكرٌتها بما يحدث في حياتها والذي رُبما هي سببه، صحيح أن انفصال أبويها وتركهم بتلك الطريقة ليس ذنبها، إلى أنها تعاتب نفسها لأنها لم تستطع رعايتهما جيدًا، بل جعلت كلٌ منهما يشعر بالنقص بطريقة مُختلفة...

زادت سما من تربيتاتها متفوٌهة باعتراضٍ لحديثها:

-إنتِ ملكيش ذنب يا بدور ... وعُمر ما هيكون ليكي ذنب .. إنتِ عملتي إللي عليكي وزيادة ... وصدقيني الأيام هتثبت إنك عرفتي تاخدي بالِك منهم وتعوٌضيهم

انتهت أحاديثهما عند هذه النُقطة لترتمي بدور بأحضان سما التي بقيت تُمسد على ظهرها كما لو كانت طفلتها الصغيرة، ففي ظل تلك العقبات، يجب أن يبقيا رفقة بعضهما، مهما حاولت الأيام التفرقة بينهما....

____

يقولون أن الأيام تُداوي الجروح، لكن الحقيقة أن الجروح لا تتداوي، بل إنها مع الوقت يزداد وجعها حتى تترك ندبة تظل مع الإنسان مدى حياته كي تُذكره بتلك الآلام التي بقيت عالقة بين أفنان عقله...

لكنهم الآن وبعد مرور أربعة أشهرٍ متتالية انتهى معها فصل الشتاء وبدأ الربيع يخترق الأجواء بأزهاره المُتفتحة ونسماته العليلة، ها هُم يجلسون على طاولة البهو تُذاكر لهم بدور حتى ينتهوا من تأدية فروضهم المدرسية، ورغم ما تحمله من قلقٍ وحُزنٍ على شقيقتها، إلى أنها جاهدت حتى تخفي هذا الحُزن وتظهر بصورة طبيعية أمام زكريا وسارة اللذان يتمنيان أن تُشفى يارا وتعود إلى المنزل سالمة...

توّسعت حدقتيها وهي تحمل كتابه المدرسي وتقرأ ما كتبه والذي بالطبع سيُصيبها بالجنون ككل مرة، فكانت تهتف بصوتٍ مُرتفع:

-إيه ده !! ... بيقولك علامة الجزم إيه .. تكتبله أديداس!!

اعتدل زكريا بجلسته ليهتف مبررًا ومتفاجئًا بالوقت ذاته:

-إيه ده !! ... هي جَزم !! ... أنا افتكرتها جِذم وكتبت علامة الجذمة بتاعتي

كبتت شعلة الغضب بداخلها وهي تتنهد بنفاد صبرٍ وتواصل قراءة إجاباته حتى توقفت عِند إجابة أخرى غريبة الأطوار جعلتها تهتف بنفاد صبر:

-وإيه ده كمان ؟ .... بيقولك متى يحدث التصحر ؟ ... كاتبله قبل الصيام!!

أرخى زكريا ظهره للوراء وهو يُجيبها بثقة:

-أيوة ما أنا بتسحر قبل الصيام..

هوّت بالكتاب على الطاولة وهي تهتف بوجهه وقد فقدت وقتها كل ذرة من صبرها:

-يا بني تصحر إللي بالصاد مش إللي بالسين

مررت الكتاب نحوه كي تُخبره بأمرٍ:

-خُد ... حلٌ الأسئلة تاني

أفأف زكريا بتذمرٍ لكنه أخذ الكتاب عازمًا على الإنتهاء من هذا الفرض المدرسي بسرعة حتى ينعم ببعض الراحة...

ما كادت بدور تلتقط أنفاسها حتى اخترقت سارة سكينتها بأسئلتها التي لا تنتهي:

-بدور ... هو إللي اخترع المسدس ... كان عايز يقتل مين ؟

حقًا لا تعلم من أين أتت بهذا السؤال، بل من أين تأتي بتلك الأسئلة التي دائمًا ما تقطعها من هدوءها، فكانت ترمق سارة بنظراتٍ مستفهمة قالت معها بنفاد صبر:

-وأنا إش عرفني يا سارة ... بعدين الأسئلة دي من المنهج ؟

نفت سارة برأسها فواصلت بدور الحديث بتقرير:

-يبقى ركزي في إللي إنتِ فيه ونبقي نشوف إجابات الأسئلة دي بعدين

همهمت سارة بموافقة وما كادت تستجيب لحديثها حتى سألت مجددًا:

-طب ممكن اسأل سؤال تاني ؟

تنهدت بدور بنفادٍ صبرٍ أدلت معه كلماتها:

-إسألي يا أخرِت صبري

تقدمت سارة بجذعها وهي تسأل بلهفة:

-هو مش الساحرة إللي في كرتون سندريلا ... لما إدتلها الهدوم ..قالتلها إن كل حاجة هتختفي بعد الساعة اتناشر ؟

أومأت بدور رأسها إيجابًا فأسرعت سارة بمواصلة سؤالها بالغ الأهمية بالنسبة لها:

-طب إزاي الجذمة بتاعت سندريلا إللي وقعت منها ... مختافتش مع الهدوم ؟

زاغت ببصرها في عدة اتجاهاتٍ بحثًا عن إجابة لهذا السؤال الذي لا تعلم كيف تُجيبه، خرجت من بؤرة صمتها بقولها:

-معرفش يا سارة ... بعدين ده كارتون، فأي حاجة فيه عادي

لاحت خيبة الأمل على وجه سارة التي عادت مجددًا إلى كتابها تواصل فروضها وداخلها يكوّن المزيد من الأسئلة، فتلك الإجابة لم ترضي فضولها وعليها أن تعثر على الإجابة الصائبة...

مررٌ زكريا كتابها نحو بدور متفوّهًا:

-بدور ... بُصي كدة

حدقت بدور بكتابه الخالِ من الإجابات وهذا ما جعلها تشعر ببعض الغضب وهي تقول:

-فين الإجابات ؟

آعاد زكريا الكتاب نحوه مُصححًا ما ظنته بفخرٍ لا تعلم سببه:

-إجابات إيه .. أنا بوٌريكي الشنب إللي عملته لنجيب محفوظ

كادت تنفجر بوجهه في تلك اللحظة، بل إنها هتفت بوجهه مرة واحدة:

-شنب !! ... سايبلي الواجب وعمال ترسملي في شنب!!

ما كاد يُجيبها زكريا حتى تدخلت سارة بالحديث بإلحاحٍ بدا واضحًا على كلماتها:

-بدور ... أنا عايزة أروح ليارا

تدخل زكريا بالحديث متناسيًا ذاك العِراك الذي كان على وشك النشوب، بل متجاهلًا فروضه المدرسية التي من المُفترض أن ينهيها اليوم، فكان يلح هو الآخر على بدور حتى تُنفذ طلباتهما:

-وأنا كمان عايز أروح ليارا

سرعان ما بدأ كلاهما يلُّحان بهذا الطلب وبدور بينهما تكاد تنفجر من الصُداع من أصواتهما مما جعلها تهتف بنفاد صبر:

-خــلاص ماشي ... إدخلو إلبسو وهنروح كلنا سوا...

ـــ

تُحرك أصابعها النحيلة على جوالها الذي يعرض صورًا تجعلها تبكي حسرة، فمن ظنُّتهن أصدقائها يتركونها هكذا دون حتى أن يطمئنوا عليها، ومن ظنته عشيقها، لم يتحدث معها منذ عِلِم بمرضها، وكأنها ستصُيبهم بالعدوة إذا تحدثوا معها...

ما كان يُعرض أمامها هو صوٌر من ظنُتها صديقتها بجوار من كان عشيقها، لكنه اليوم يطعنها بظهرها وعلى وشك الإقتران بصديقتها، هو حتى لم يطلب منها الزواج، كيف يتخلّى عنها بهذه البساطة ؟؟ كيف يُخبرها أنها حياته ثم يأتي في لحظة ضعفها ويتركها كما لو أنها خُردة بالية لا تعني له شيئًا...

أغلقت هاتفها بحسرة لتُلقيه بعيدًا عنها كي لا تفتحه مجددًا، فما كان مصدر سعادتها سابقًا، أضحى اليوم سببًا بتعاستها وزيادتها ألمًا...

حاولت الوثوب عن فراشها ما إن شعرت بوعكة بمعدتها جعلتها تهرع للمرحاض المُلحق بالحجرة القابعة داخل المشفى...

أفرغت ما بمعدتها حتى كادت تبصق الدماء، فمعدتها خاوية لا يوجد بها ما تُفرغه حتى تتقيأ، رفعت رأسها بإرهاقٍ واضح اتجهت بعده صوٌب المرآة لتغمر وجهها بالمياه الفاترة، ما إن قابل وجهها المرآة حتى بدأت تتحسسه بحسرة على حالتها، تتحسس صلعتها البارزة بعد أن فقدت شعرها، تتحسس عينيها الذابلة ووجهها الأصفر النحيل كما جسدها بالضبط، فقد أصبحت بالأيام السابقة كهيكلٍ عظمي يُجاهد للصمود، لكنها حقًا لن تستطع الصمود أكثر، فكلما طالعت حالتها الهذيلة، كلما

إنفجرت دموعها وبدأت بالبكاء، تبكي على جمالها الذي لطالما اهتمت به حتى يُسرق منها بتلك الطريقة...

كم كانت نادمة في هذا الوقت على الطعام الذي نفرت منه خوفًا من زيادة وزنها، فهي الآن لا تستطيع تناول الطعام سوى بعد أن تتقيأ أضعافه، وبعد أن كانت تُمارس الرياضة من أجل رشاقتها، أضحت اليوم بالكاد تتحرك من فراشها...

كبتت دموعها الجافة وهي تعود إلى فراشها لترتخي برأسها للوراء استعدادًا لهذه الوحدة التي بدأت تألفها بالأونة الأخيرة، فلا يأتي أحدهم لزيارتها سوى الأقلة، ومن ظنتهم يهتمون لأجلها، لم يأتي أي منهم، ولو لزيارة واحدة، وكأن العالم جميعه إجتمع ضدها...

قطع وصلة إنعزالها صوت الباب الذي يتم فتحه بهدوءٍ آشار إليها أن هناك من أتى لزيارتها وتأنيسها بتلك الوحدة؛ اعتدلت بجلستها لتُطالع هذا الذي لم تتوقع يومًا أن يهتم لأجلها، من كانت تنفر منه وتُعامله أسوأ معاملة على الرغم من أنه لم يسبها ولو لمرة...

وضع بجوارها باقة من الورود الحمراء التي غمر رحيقها أركان الحُجرة، جلس بجوارها على إحدى المقاعد يُطالعها ببسمته الودودة التي تُعطيها أملًا بالشفاء، هذه ليست أول مرة يأتي لزيارتها، فمنذ أن تم إحتجازها بتلك المشفى لأربع أشهرٍ متواصلة وهو يأتي لزيارتها ومعه شتى أنواع الهدايا البسيطة والكلمات المُحفزة، حتى أنه يقرأ لها بعض القصص أحيانًا...

-شُكرًا يا يونس

خرجت منها تلك الكلمات بعد أن التقطت منه الأزهار، لكن الحقيقة أنها لم تكن تتشكره على هذه الهدية، بل كانت تتشكره على زياراته الدائمة منذ أن علِم أقرانها وزُملاءها بالجامعة بمرضها، فلم يأتي أحدهم لزيارتها سواه فقط...

-العفو ... أحسن دلوقتي ؟

قالها ببسمة هادئة وقبعته البيضاء التي كان يرتديها والتي كانت تتماشى مع كنزته الزرقاء وسرواله الأسود...

أنكست رأسها لأسفل بعد سؤاله الذي لا تجد له إجابة، فهي ليست بخير، وكلما مرٌت الأيام، زاد شعورها بالعجز والضعف، إكتفت بتحريك رأسها نفيًا وتحسسها لخُصلات شعرها التي فقدتها بحسرة، وكأنها بتلك الحركة تُخبره كم المعاناة التي تعيشها منذ لاحقها هذا المرض الخبيث...

-كل حاجة هتعدي ... وهترجعي زي الأول

عارضت حديثه بحسرة على حالها:

-بس شعري ... مش هيرجع .... وشكلي بقى وحش

زادت بسمته اطمئنانًا وهو يُجيبها:

-لأ ..شكلِك حلو ... ومحدش هيقولِك عكس كدة ... حتى بُصي

وضع يده على قُبعته البيضاء لينزعها ويظهر أسفلها صلعته البارزة، والتي بالطبع هو سببها، لكنه سعيدٌ من هذا القرار الذي إتخذه، قرارٌ أن يبقى جوارها ولا يتركها وحدها...

-أنا كمان بقيت زيِك ... عشان متحسيش إنِك لوحدِك

قالها برضا وسعادة جعلتها تزداد خجلًا، فهي تتذكر خُصلاته الكثيفة الناعمة ولا تتوقع أن يفعل شيئًا كهذا من أجلها!!

كم كانت تلوم نفسها في هذا الوقت، تُريد أن تسب ذاتها على تلك المعاملة السيئة التي كانت تُعامله بها في الأيام السابقة، فهو حقًا إنسانٌ جيد، بل حتى أفضل من جميع رفاقها...

-أ...أنا ..مش .. عارفة أقولك إيه ؟ ... إنت ليه عملت كدة ؟ ... وليه بتعمل كدة معايا ؟... أنا عُمري ما كنت بعاملك بطريقة كويسة ... إنت المفروض تكون بتكرهني

أنهت حديثها بقهرٍ ورأسٍ أنكستها لأسفل، لا تريد أن تلقى نظراته المُشفقة، فهي لا تعلم أنه يُحبها، بل ويهيم بها حتى، تعتقد فقط أنه يشفق على حالها، خاصة بعد أن علِم أن لا أحد يزورها سوى آقاربها وهو...

-أنا عُمري ما كرهتِك وعُمري ما هكرهِك ... عشان أنا متأكد إن إنت من جواكي كويسة ... بس عايزة تخبي حقيقتِك عن الناس عشان تبقي زيُهم

لا تعلم لمَ كلماته الحنونة آصابت صميم قلبها وجعلتها تبتسم ابتسامة هادئة حجبت آلامها، بل وحديثه معها يوميًا يجعلها تبتسم وتستعيد أملها بالشفاء، ولا تجد كلماتٍ تُعرب من خلالهم عن سعادتها بوجوده في حياتها...

يسري العمل على قدمٍ وساقٍ في هذا المركز، فالعرض الأخير أمامه فقط ثلاثة أيام، أي بضع ساعاتٍ تفصلهم عن اللحظات الأخيرة من تلك المسابقة والتي سيتحدد بها مصيرهم، فأما تندثر فرقتهم، أم تصعد إلى السماء بعد أن يحصلوا على هذا المبلغ الطائل وينتشر اسمهم بالصُحف والمجلات، فقط إذا فازوا بتلك المسابقة...

كانت يقين داخل المخزن الذي أعيد ترميمه بعد الحريق وأصبح أكبر وأنظف من ذي قبل، صحيح أنهم أنفقوا عليه العديد من الأموال، إلا أنهم لم ينفقوها هباءًا، بل حتى وضعوا نظام حماية بالخارج حتى لا يحدث كما المرة السابقة ويقوم أي لصٍ حاقدٍ بإشعاله...

يقف فضل بجوارها بعد أن سرق بضع ساعاتٍ من عمله حتى يراها قبل أن يُعاود الذهاب إلى الجامعة مُجددًا، فما إن وجدها تعمل داخل المخزن وتقوم بتجهيز مُعدات الديكور حتى اتجه فورًا ليُساعدها بطلي إحدى اللائحات التي سيتم استخدامها للعرض، فكان يتحدث معها وهو مُنهمك بالطلي ويقول:

-كتب الكتاب هيبقى بعد المسابقة علطول ... ومنغير جدال .. إحنا استنينا كتير

كانت كلماته صارمة وكأنه سيُجبرها على الزواج، فهي من كانت تتحجج في كل مرة بسبب مرضها الذي لم تُعالجه حتى، فقط تذهب إلى العديد من الأطباء وتتناول العديد من الأدوية وتُجري العديد من الإشاعات التي لا غاية منها، فلا زالت تفتقد الإحساس بالألم، ولازالت تُعاني بسبب هذا المرض ... هذا ما جعلها تهتف بخفوتٍ حاولت معه التحجج للمرة المئة..

-طب ما .. نخليها بعد عيد الأضحى...

رفض اقتراحها بنبرة قاطعة:

-مش هنأجل أكتر من كدة ... هو بعد المسابقة يإما هتجوزِك غصب عنِك ... بعدين ليه كل شوية نأجل ؟؟

أنهى حديثه باستفهامٍ لرغبته الشديدة بمعرفة الحقيقة، أيمكن أنها لا تُريد الزواج منه ؟ أيُمكن أنها لا تثق به حتى الآن ؟ لكن كيف ؟ هي أخبرته أنها لا تطمئن لأحدٍ سواه ؟ فلما التردد في قرارٍ كهذا ؟

-ما هو .. ماهو..

قالتها بترددٍ ولم تكن تعلم ما تقول، فهي لا ترغب بإخباره سبب عدم رغبتها بالزواج حتى لا يتكرر حوارهما الدائم، والذي لا يتمحور سوى عن مرضها اللعين...

-خايفة ؟ ... لسة خايفة من المرض إياه ؟

سألها باستنتاجٍ ليجدها في حالة من الصمت الطويل مما أكد له استنتاجه ومخاوفها، بالطبع هي لا تزال تخشى انتقال هذا المرض لأبناءها بالمستقبل، تخشى أن يُعانوا مثلها...

سرق نفسًا عميقًا وهو يترك الفُرشاة موضعها ويوجه بصره نحوها محاولًا طمأنتها بصوته الحنون:

-هو إحنا مش قولنا مش هنخاف بعد كدة ؟... مش قولنا إننا هنواجه ؟

تنهدت بعُمق لتجُيبه بخوفٍ أكدت معه على تلك الوعود التي تعاهدا عليها:

-عارفة ... بس غصب عني ... حاسة إن العلاج مش جايب نتيجة، ولو مجابش يبقى مش هيجيب مع ولادنا في المستقبل

حدّق بمُنتصف عينيها ليُخبرها بأمل:

-هيجيب ... صدقيني هيجيب

أومأت رأسها إيماءة بسيطة تُمني نفسها بتلك الكلمات التي تُصدقهم أو تقنع نفسها أنها تُصدقهم، فهي لم تُقابل بحياتها شخصًا بهذا المرض وتعافى منه، بل لم تُقابل أي أحدهم بهذا المرض من الأساس، فمن بين جميع الأمراض على الأرض، كان أندرهم وأصعبهم من نصيبها ... يا لحظها الرائع!!

عادت من صمتها إلى أرض الواقع والتفتت لتواصل عملها كما التفت فضل هو الآخر، لكن في أقل من لحظة... سقط هذا اللوح الذي يقومان بطلاءه على الأرض ... بل وسقط على قدم يقين مباشرة... !!

صرخة قصيرة أطلقتها عقب وقوع هذا اللوح على قدمها ... لكن لحظة .. هل قولت صرخة ؟ هل حقًا أحست باصطدام اللوح بقدمها ؟

خفق قلبها بسرعة بعد ما حدث، فكانت عكس الجميع في تلك المواقف، لم تكن تشعر بالألم على قدر ما شعرت بالسعادة لشعورها الطفيف بهذا الألم، سُرعان ما اتسعت بسمتها مع قلبها الذي طفق يضرب بلهفة كما كان فضل يُتابعها بذهول، فهذه أول مرة يستمع إلى صرخة متألمة منها، وعلى عكس الجميع أيضًا، لم يكن خائفًا عليها ... بل كان سعيدًا مثلها، بل وأكثر منها حتى...

-أ..أنا .. أنا حسيت ... أنا اتوّجعت يا فضل

هتفت بتلك الجملة بسعادة وفاهٍ مفتوح من تلك المفاجأة السارة، فكأنها بالضبط حازت على جائزة عالمية، وضعت يديها على فمها تُغطي فاهها المفتوح لتبدأ بعدها القفز بسعادة قالت معها بغير تصديق:

-أنا حسيت ... أنا حسيـت

أطلقت صرخة سعيدة من جوفها وعاودت القفز بغير تصديق، فالعلاج قد أتى ثماره أخيرًا، بدأ هذا المرض اللعين بالتحرر من جسدها وتركها وشأنها، حقًا لم تكن تُصدق ما يحدث، حتى أنها من كثرة سعادتها وجدت نفسها تُعانق فضل بسعادة وهو مكانه مستكينًا لا يعلم ماذا تفعل، بل ويشعر ببعض السعادة من أجلها، وبعض الحرج مما تفعله...

ما هي إلا لحظات حتى عادت إلى أرض الواقع وانتفض جسدها وهي تبتعد عن فضل وقطراتٌ من العرق تتصبب على جبينها، فما الذي فعلتيه أيتها الحمقاء ؟

تصبب العرق على جبينها تزامنًا مع تلك السخونة التي اجتاحت جسدها وأنفاسها التي بدأت تتلاحق مع نظراتها التي تزيغ بها في كل مكانٍ بعيدًا عنه، خفق قلبها من شدة الحرج وقررت الهرب فورًا بقولها:

-إ... أنااا ... هروح لسما

هرولت فورًا بعد تلك الجُملة وتركته يُطالعها بابتسامة ساخرة ضرب معها كفًا بالآخر بسبب هذه المجنونة، مسد على رقبته بقلبٍ يضرب من السعادة، بل من السعادة والخجل أيضًا...

مع مرور تلك الأيام، قررت أن تستبدل أحزانها بضروبٍ من العزيمة، فلا أحد سيتدخل بحياتها مجددًا، لا أحد سيُضعف عزيمتها مهما كان هذا الشخص، فهي الآن

فقدت ضِلعًا، لكنها اكتسبت مكانه عدة ضلوع تستطيع الاستناد عليهم ومواصلة طريقها حتى تصل إلى خط النهاية....

تتحرك بأقدامٍ واثقة أمام أعضاء فريقها الذين يقفون بصفٍ واحد مرتديين ملابس رياضية استعدادًا للتمرن على العرض وإعادته للمرة المئة، فيجب أن يضحى هذا العرض من أقوة عروضهم وأكثرهم تأثيرًا، أن يضحى عرضًا باهرًا تتحاكى به أفواه الجميع...

-إحنا تعبنا أوي الفترة إللي فاتت ... بس تعبنا ده هييجي بفايدة في الآخر...

توقفت عن السير لترمق جميع الأعضاء وتهتف بآخر ما لديها بثقة وعزيمة:

-العرض إللي جاي هيبقى أهم عرض نعمله ... عشان كدة لازم نستعد كويس....

الفصل الثاني والعشرون (عودة الحبيب)

"تُشبه حياتنا ثمرة الفاكهة، فلطالما كانت حلوة المذاق ويُعيقها البذور... لكنك إذا انتفعت بتلك البذور .. فستُنبت منها ثمارًا عديدة"

أقدام صغيرة تتحرك على هذه الملآة لتنضدم إلى باقي أعضاء جسده الصغير الواهن المتقوقع على إحدى جوانب الفراش، يضم رُكبتيه نحو صدغه كالجنين في بطن أمه، فلو كانت أمامه الفرصة للعودة إلى ذلك الجنين لما تردد لحظة، على الأقل لن تسحقه الحياة كما تفعل الآن، فلمَ عليه أن يواجه هذه الحياة الصعبة وهو لا يزال في نعومة أظافره ؟

رفع رأسه بعيدًا عن ركبتيه تزامنًا مع تغلغل هذا الصوت الرقيق طيات عقله المُنهك، وُضعت يدٌ حنونة على ظهره تبعها صوتٌ هاديء يُشبه الدواء الذي يُداوي الآفات...

-مالك يا حبيبي ... قاعد كدة ليه ؟

لم ينبس الصغير ببنت شفة وبقي في حالة من الصمت يرفع معها رأسه لأعلى ببطء، فما إن رآه والده الماكث بجواره حتى ازداد ذعرًا، فهناك كدمة بنفسجية تتكوّم أسفل عينيه الصغيرة وتجتمع مع جرحِ طفيفٍ على شفتيه الوردية؛ قطب والده حاجبيه بغضب أردف معه مستنتجًا:

-إيه ده ؟! ... هُما إللي عملو فيك كدة ؟

أبعد الصغير وجهه عن والده ليُخرج تنهيدة حارقة تبعها بحديثٍ مُحملٍ بالقهر:

-عشان إنت عاقبتهم بسببي

أطبق الوالد على شفتيه بغضب مما فعلوه بصغيره، فكان يثب عن الفراش متفوهًا بصرامة:

-أنا هوريهم إزاي يمدُّو إيدهم عليك

تشبث الصغير بذراع والده حتى لا يتحرك من جواره، فكان يتشدق بتوّسل وأعين تحمل الرجاء:

-خليك جنبي ... مش عايزهم يزعقولك

جذب الوالد ذراعه بعيدًا عن الصغير وهو يهتف بنيرانٍ تشتعل بسببهم:

-محدش هيعملي حاجة

كاد يثب عن الفراش مجددًا لولا يد الصغير التي تشبثت به مع كلماته التي ازدادت رجاءًا:

-يا بابا خليك جنبي ... أنا مش عايز أقعد لوحدي

كادت الدموع تنبثق مع كلماته مما جعل والده يحاول إخماد ثورته ويجلس بجوار صغيره الذي لطالما يمده بالآمان، رسم بسمة هادئة على ثغره وهو يُربت على ظهر صغيره بحنانٍ جارف، فكأنه بتلك التربيتة يُخبره أنه سيظل جواره مدى الحياة...

-طيب ... هفضل معاك ... بس متزعلش

أومأ الصغير ببراءة فتابع والده ببسمته الهادئة والمتلهفة:

-بُص بقى أنا جبتلك إيه ؟

أحنى جذعه لأسفل ليجلب شيئًا ما كان قد أدثره داخل حقيبة ورقية وأتى بها داخل الحُجرة دون أن ينتبه له الصغير، فما إن وضع يده داخل الحقيبة حتى أخرج منها لعبة تحمل شكل مروحية تُشبه تلك التي يتم استخدامها في المعارك، فكانت متوّسطة الحجم وهناك حبل يقبع أسفلها إذا قام بجذبه ستلتف أجنحة المروحية وحدها..

أمسكت أنامله الصغيرة بتلك اللُعبة التي جعلته يُطلق شهقة متفاجئة وسعيدة، فهذه اللعبة كان لديه شبيهتها قبل أن تتحطم على أيديهم، أيديهم التي دائمًا ما تُعنفه وتُدمر أغراضه فقط للهو والمزاح...

-واو ..دي حلوة أوي

قالها الصغير بحماسٍ وسعادة تبعها الوالد بتحذير:

-خلّي بالك منها وخبيها عشان محدش يكسرها

أومأ الصغير إيجابًا ولا يزال يتحسس تلك اللعبة ببسمة واسعة تبعها بانقضاضه على والده ليُعانقه بحرارة قال معها ممتنًا:

-شكرًا يا بابا

ابتسم والده وهو يبادله العِناق بحُبٌ ثم يلهو معه بتلك اللعبة وغيرها من الألعاب التي دائمًا ما يُشاركه اللعب بها...

عاد من تلك الذِكرى المُحببة لقلبه وإذا أنه يجلس على فِراشٍ وثير وبيده تلك المروحية التي أضحت في حالة مزرية الآن، فأضحت مليئة بالأتربة ومروحيتها فقدت جناحيها، ومع ذلك لا يزال يُخبئها ويحتفظ بها كما أخبره والده...

تلألأت دمعة من عينيه فجففها بسرعة ليضع المروحية جانبًا ويبقى على الفراش كالجنين كما كان يفعل بصغره، أضحت حالته مزرية بعد مرور أربعة أشهرٍ على تلك الواقعة، أربعة أشهر تغيب فيهم عن العالم وبقي قعيدًا في تلك الحُجرة ينتظر الموت، فلا زالت نظرات والده الأخيرة عالقة بذهنه وترفض أن تتركه وشأنه، لا يزال شعوره بالعجز يُعذبه ويجعله مستسلمًا أمام هذه الحياة، لم يعد قادرًا على الصبر ولم يعد قادرًا على المثابرة كما كان سابقًا ... فقط البكاء والتحسر هو ما يفعله في تلك الأيام...

إختفت الألوان من وجهه وأضحى شاحبًا لا يرتدي سوى الأسود الذي تناسب مع جسده الهزيل الذي فقد العديد من الكيلوغرامات، بدأ جرس المنزل يصدح عاليًا وهو لا يتحرك من مكانه، وكأنه صمٌ أذنيه عن هذا الجرس ولا يرغب بزيارة أحد..

استمع إلى صوت الباب الذي يتم فتحه وأقدام تتحرك داخل المنزل لا يكترث لها بتاتًا، فحتى وإن كان لصًا، فلن يجد شيئًا بهذا المنزل، لا يوجد أموال ولا يوجد سوى فتاتٌ من الطعام الذي أرسلته عمته وكانت تلح عليه بتناوله...

دلفت يقين المنزل لتجده قابعًا في تلك الحُجرة التي كان يبيت فيه والده قبل وفاته، لم تختلف حالته عن آخر مرة رآته بها، بل لم تختلف حتى منذ وفاة والده وربما ازدادت سوءًا...

إرتمت جواره على الفراش بملامح قلقة هتفت معها:

-وبعدين يا مُراد ... دا لولا إني أخدت المفتاح من البواب مكناش هنعرف نوّصلك

كانت تتحدث عنها وعن والدتها التي أخذت مفتاح منزله حتى تزوره وتطمئن عليه متى تشاء وكأنه ولدها، فهو بالفعل أصبح كذلك بعد أن قامت برضاعته منذ أن رفضت والدته الحقيقية تأدية هذه المهمة...

-مُراد ... رُد عليا

بقي في حالة من الشرود يُحدق أمامه كالصنم وكأنها لا تتحدث، لم تتركه وشأنه وبقيت جالسة بجواره لفترة من الوقت تنتظر أن يخرج من قوقعة صمته ويبدأ الحديث معها، وما إن طالت فترة الصمت حتى تنهدت بضيقٍ كادت تنهض معه عن الفراش، لكنها وجدته يقول بصوتٍ خافتٍ به أطنانٌ من الألم:

-مكنِتش عايزاني...

عادت إلى مجلسها لتنتبه إلى حديثه الذي أكمله بنفس تلك النبرة:

-ماما مكنِتش عايزاني، وحاولت تسقط الحمل كتير ... بس بابا مكنش عايزها تسقط .... ولما خلفتني ... عُمرها ما إعتبرتني ابنها، كانت شايفاني غلطة ... بس هو ... هو إللي شالني وهو إللي سماني...

ترقرقت دماعته الواهنة على وجنتيه مع ابتسامة موجوعة امتزجت مع أحاديثه:

-كان دايمًا يقولي إن أنا أقرب واحد ليه ... وإنه هيفضل جنبي ... حـ..حتى لما كانو بيضربوني ... هو إللي كان بيجبلي حقي

تهدجت أنفاسه وبدأ حديثه يتقطع مما جعل قلبها ينفطر والدموع تتكوّم على وجنتيها، زادت دموعه وهو يواصل الحديث بنبرة قد ارتفعت أكثر:

-طول الوقت كان شايل همي أنا وإخواتي ... طول الوقت بيضحّي عشانا ... وفي الآخر ... في الآخر اتقتل على إيديهم

تصاعدت أنفاسه أكثر حتى امتزج صوته ببعض طفرات الغضب أثناء التفاته نحو يقين التي تتابعه بأعينٍ حمراء متضايقة...

-عملهم إيه عشان يعملو فيه كدة ؟ .... عمل إيه هو عشان ... عشان كُلهم يكونو عايزين يموتوه ؟؟ ... ده حتى عُمره ما آذى حد، حتى الحيوانات ... كان بيساعد الناس الفقيرة، وكان بيساعد ناس كتير ... بس مفيش حد كان بيساعده...

آعاد رأسه بين ركبتيه ليهتف بدموع حارقة أشبه بشُعلاتٍ من اللهب امتزجت بصوته الخافت:

-أنا كمان معرفتش أساعده ... معرفتش أحميه منهم

وضعت يدها على ظهره الساخن لعلها تُهديء القليل من نيران قلبه، فكانت تُربت عليه وتقول باعتراضٍ على حمله ذنب وفاة خالها على عاتقه:

-إنت عملت إللي عليك وزيادة ... وصدقني مينفعش تفضل حابس نفسك هنا طول العُمر ... إنت لسة قُدامك العُمر طويل

إنفجر بوجهها بعد تلك الكلمات التي جعلته يُخرج ما بداخله:

-أنا مش عايز أعيش تاني ... مش قادر أشيله من دماغي ... مش قادر أنسى نظرته ليا قبل ما يموت ... قبل ما هُما يقتلوه ... خلاص زهقت ... زهقت من دور الضحية إللي أنا عايشة ... زهقت من إني أبقى الضعيف إللي كل الناس بتستغله

حاولت نفي حديثه بصدقٍ نابعٍ من فؤادها:

-والله مفيش حد بيستغلك ... بعدين ... إنت الوحيد إللي كنت بتقول نستحمل ونكمل وننسى ... ليه مش بتنفذ النصايح إللي بتديهالنا .. ده حتى سما_

قطع حديثها قبل أن تُكمله وتُذكره بما لا يرغب بتذكره أبدًا، فهو لا يزال يُحملها ذنب ما حدث رغم أن يقين متيقنة تمامًا أنها لا دخل لها...

-متجِبيش سيرتها ... أنا مش عايز أعرف حاجة عنها ... ومش عايز أفضل في البلد دي ... مش هفضل في مكان محدش فيه بيقدرني ولا كان بيقدر أبوية

لاحت الصدمة على وجهها بعد حديثه الذي يُخبرها بطريقة ما أنه سيرحل للأبد، فكانت تسأله بغير تصديق:

-هتروح فين ؟

آجابها بوهنٍ مُدليًا قراره الصارم:

-هسافر ... ومش هاجي تاني

تهدجت أنفاسها وكانت على وشك البُكاء وهي تسأل:

-طب وإحنا ؟ ... أنا وماما ... وسما ؟

تنهد بنفادٍ صبرٍ يرغب معه بإنهاء الحديث والذي بالفعل أنهاه بقطعٍ:

-هبقى أجلكم زيارة ... وقولتلك مش عايز اسمع اسمها تاني

تحوَّل ضيقها إلى الغضب فجأة بسبب حديثه بتلك الطريقة عن صديقتها؛ أنهت معه الحديث وهي تثب عن الفراش عازمة على الرحيل:

-ماشي يا مُراد ... سافر براحتك ... بس لآخر مرة هقولك ... سما ملهاش دعوة باللي حصل

بصقت تلك الكلمات بطريقة حادة تبعتها بالرحيل من المنزل تاركة إياه يعود إلى عزلته حتى استرخى على الفراش تاركًا للنوم مساحته حتى يسرقه من تلك الآلام لبضع ساعات...

____

تستند بظهرها على الفراش ومعها تلك الوردة الحمراء التي انتشلتها من باقة الزهور، فتلك الوردة تُذكرها بهذه الساعات القليلة التي بقتها معه وأعطتها المزيد من الأمل في هذه الحياة...

شقت الابتسامة ثغرها وهي تتذكر كلماته المشجعة وخُصلات شعره التي ضحى بهم من أجلها، مجرد التفكير في هذا يجعل سعادتها تتضاعف أكثر، فعلى الرغم من كونه نحيف الجسد لا يمتلك جسدًا رياضيًا كالذي يمتلكه تيمور، إلى أن بسمته الهادئة تجعلها تُرفرف كالفراشات، كلماته الرخيمة تجعلها تُحلق في السماء، حتى مرحه ودعاباته تجعلها تُقهقه من صميم قلبها...

أرخت رأسها للوراء لتغتابها عينيه العسلية وبشرته التي تميل إلى البياض، لم تتفرس في عينيه من قبل، فهذه أول مرة تكتشف أنه يمتلك عينان بهما سحُر رائع، حتى بسمته التي تُظهر أسنانه البيضاء تمتلك من هذا السحر أطنانًا...

آعادت رأسها مكانها لتتلاشى بسمتها فجأة ما إن انتبهت إلى تلك الأفكار، فهي الآن داخل المشفى وحياتها ليست مستقرة، فما الذي تُفكرين به يا فتاة ؟ بدلًا من الدعاء وطلب السماح من ربكِ تُفكرين بعينيه العسلية!!

وضعت الوردة الحمراء أعلى الطاولة لتعاود لمحات العبوس زيارتها، لكنها هذه المرة استطاعت كبح دموعها وانتشلت المصحف الخاص بها والذي كان يحمل اللون الوردي، فهذا المُصحف قد ابتاعه يونس من أجلها وأخبرها أن تقرأ بضع صفحاته إذا اغتابها أي شعور بالضيق، حتى أنه كان يُعلمها كيفية قرآته بصورة صحيحة وأحيانًا يقرأ من أجلها بصوته العذب...

فتحت إحدى الصفحات وطفقت تقرأ منه بخشوع تامٍ جعلها تتناسى أحزانها وتُمعن التركيز بتلك الكلمات التي تُضفي الهدوء داخلها، وأثناء قرآتها إذا أنها تجد باب الحُجرة يتم فتحه ليدلف منه كلًا من زكريا وسارة ومعهما حقائب ورقية تحمل نوعًا من الهدايا، فهم يعلمون أنها ممنوعة من الحلوة بسبب هذا الورد الذي يتكاثر بسبب السُكر، لهذا السبب ينتقون لها الهدايا بعناية على أمل أن تجد ما يُحفزها على الصبر والمواصلة...

إرتمت سارة عليها من جهة وزكريا من الجهة الأخرى وكلاهما يطمئنان عليها بمرحٍ جعلها تبتسم تلقائيًا، فهي لم تكن تعلم أن الحديث مع هذين الشقيين يجعلها بهذه السعادة...

بعد القليل من اللحظات، إنفتح الباب مجددًا لتدلف من خلاله جدتها وبدور وكذلك سامح الذي أتى ليطمئن عليها ومعه هدية صغيرة تحتوي على نوع من المجوهرات، التف جميعهم حولها وطفقوا يطمئنون عليها وهي تتابعهم بابتساماتٍ هادئة قطعها دخول سما ببطيء شديد ونظراتٍ تحاول تجنب يارا قدر الإمكان، فهذه أول مرة تأتي لزيارتها، ولم تكن ترغب بالمجيء لولا إلحاحهم عليها، ففي نهاية المطاف يجب أن تطمئن على المريض حتى وإن كانت علاقتهما سيئة، فهي ابنة عمها في النهاية...

تقدمت نحوها بخطواتٍ هادئة حتى توقفت أمام يارا مباشرة تحادثها بصوتٍ باهتٍ يخلو من المعاني:

-ألف سلامة عليكي

بصقت تلك الجملة أمام يارا التي تتابعها ببهوتٍ وبعض الندم، فكانت سما على وشك الرحيل لولا يارا التي استوقفتها:

-سما..

التفتت سما نحوها لتجد عوالم الندم تُغرقها وهي تردف باعتذار:

-أنااا ... أسفة .. أنا أسفة

كان الاعتذار ثقيلًا عليها، فهذه أول مرة تقوم فيها بالاعتذار لأحدهم رغم آذيتها للعديد من الأشخاص، لكنها أخذت عهدًا على نفسها بأن تتغيِّر، فقد عاقبها الله بأسوأ الطُرق، جعل هذا المرض الخبيث يتسلل إليها ويجعلها تعاني يوميًا بسبب هذه الأدوية التي أفقدتها رونقها وجمالها ... أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تُجاهد نفسها وتواصل بندم:

-أنا معرفش عملت كدة ليه ... ومعرفش كنت بعمل معاكي كدة ليه ... إنتِ أحسن مني في كل حاجة، حتى البالية ... كنتِ أحسن واحدة فينا ... وأنا اشتركت عشان أثبتلِك العكس ... بس بردو فضلتي أحسن مني ... حتى مامتِك وباباكِ كانو بيحبوكي ..... وأنا محدش فيهم كان بيحبني...

تنهدت كي تكبت دمعاتها وتُنهي الحديث بقولها:

-أنا بجد عايزاكي تسامحيني ... وأنا والله هتغير ... هتغيَر معاكم كلكم، بس مش عايزة حد يتضايق مني

تبادلت النظرات بينهم في ذهول مما يحدث، هل تعتذر يارا بالفعل ؟ بعد كل هذا ؟!

كانت أكثرهم تيَهًا هي سما، فهي لم تكن تعلم ماذا تفعل، أتنهرها مجددًا وتصرُ على مقاطعتها ؟ أم توافق على مسامحتها وتضرب كبرياءها وكرامتها عِرض الحائط، فما فعلته لم يكن هينًا بالمرة...

إرتمت على مقعدٍ قريبٍ تطالع نظرات يارا المتوّسلة التي بدت أكثر إشفاقًا مع مرضها وهزالة جسدها، سرقت نفسًا عميقًا قبل أن تهتف بصوتٍ خافتٍ وكأن الأحاديث تخرج من جوفها بصعوبة:

-مسمحاكي يا يارا ... لأنِك وإنتِ بتأذيني علمتيني درس مهم ... علمتيني الصبر، وإني أكمل مهما كانت الظروف ... ده غير إن بعملتِك إللي طلعتني من الفريق ... خلتني أعمل فريق تاني ... وأعرف أحقق حلمي إللي بجد ... عشان كدة مسمحاكي

لم تُصدق حديثها الذي يُلقى على مسامعها، فكانت ترغب بالتحليق عاليًا والسعادة تغمرها، لكنها مع ذلك انتابتها بعض الشكوك التي جعلتها تسأل:

-طب ومُراد ؟

أخفضت حدقاتها لأسفل وهي تهتف بحسرة وبعض الألم الدفين والذي إجتمع مع الرضا مع مرور الأيام:

-لو مكتوبلنا نكمل ... هنكمل

أنكست يارا رأسها ولم تكن تعلم ما تقول، فهي تشعر بالسعادة بعد أن سامحتها وأرضت ضميرها وتشعر بالندم أيضًا مما فعلته بهذا المسكين، وهذه المشاعر المُختلطة جعلتها تغرق في صمتٍ دام طويلًا حتى قطعته بدور بمرحٍ لطفت معه الآجواء:

-إحنا جايين نقلبها نكد ولا إيه ؟ ..

التفت الأعين نحوها فكان سامح يسألها باستفسار:

-أومل عايزانا نعمل إيه ؟

أتاه الرد هذه المرة من زكريا الذي رفع يده لأعلى وأخذ يهتف بلهفة:

-تعالو نغني

تبعته سارة بموافقة ولهفة قالت معها:

-أيوة أنا كمان عايزة أغني .. نغني كلنا سوا

انتشرت الابتسامات بينهم استحسانًا لهذا القرار الذي سيسرقهم من تلك اللحظة الحزينة، فكانت تقول بدور باقتراح:

-إيه رأيكم نغني الأغنية إللي كنا بنغنيها زمان ؟

وافق زكريا وسارة على حديثها بحماس بينما إكتفى البقية بالإيماءة برأسهم حتى بدأت بدور الغناء بسعادة تذكرت معها أيام الطفولة البريئة:

-أبو زعيزع قوم صلي ... دا إنت في ريح المتوِّلي ... خلِّي مراتك زعزوعة ... تلحق تطبخ وتقلِّي...

شاركها الجميع الغناء بعد هذا المقطع وانتشرت بعدها التصفيقات مع مقاطع تلك الأغنية الطفولية المرحة، فحتى جدتهم شاركتهم الغناء بسعادة على وجهها من رؤيتها لهذا المنظر، منظر أحفادها وهم يمرحون سويًا متناسيين تلك الآلام التي تتكالب عليهم، فقط السعادة والابتسامات هي ما تحتل وجوههم مما أكد ليارا أن من ظنَّتهم عالة عليها، أصبحوا هم مصدر سعادتها...

بقي يومٌ واحد فقط على العرض، فتلك الساعات القليلة تمّر كالسلحفاة في بُطئها وثِقلها، وكلما مرٌت زادت معها مشاعر القلق والرهبة، فغدًا سيتحدد مصيرهم، غدًا سيضحى أهم يومٍ بحياتهم...

لهذا السبب كانوا يجتمعون داخل حُجرة التدريبات بعد أن طالت مدة التدريب لأربع ساعاتٍ متواصلة، لهذا السبب شعر الأطفال بالإرهاق فكافأتهم سما بشراءها للعديد

من الشطائر والعصائر وتفريقها بينهم ليضحى الجميع يتناول تلك الشطائر ويتسامر في فترة الراحة قبل أن يعاودوا التدريبات مجددًا حتى يضحوا على أتم استعدادٍ للعرض بالغد...

تجلس سما بإحدى الأركان ومعها واحد من الشطائر التي ابتاعتهم، تحمل بين يديها الهاتف الخاص بها، ولم تتناول من شطيرتها ولو قضمة، فهي تُحدق بالهاتف بحسرة خاصة تلك الصوّر التي تجمعها بمُراد، صحيح أنها أوهمت الجميع بنسيانه، إلى أن قلبها لا يزال يُرغمها على التفكير به وبشهامته وخصاله الحسنة، حقًا تشعر بالضيق لأجله خاصة بعد أن علِمت تدهوّر حالته من يقين...

تكاد تُصاب بالجنون لأنها تريد الاطمئنان عليه ولا تعلم كيف، فهو سينهرها ولن يسمح برؤيتها والاستماع لتبريراتها، كذلك هي لن تُخبره أن يارا هي من أرسلت تلك الرسائل، لهذا السبب كبتت حُزنها وحسرتها داخل قلبها وعزِمت على نسيانه والسؤال عنه من بعيد كي تطمئن عليه، لا تعلم إذا كانت ستعود علاقتهما كما كانت، أم أن القدر لا يُريدهما أن يجتمعا...

قطعت يقين شرودها بإحاطتها بذراعها لتلتقط عينيها تلك الصور التي أغلقتهم سما فورًا، لكنها أغلقتهم بعد أن شاهدتهم يقين وأدركت ما تُفكر به وما يجعلها بتلك الحالة ...

-لسة بتفكري فيه ؟

سألتها يقين كي تستدرجها لكن سما حاولت إخفاء الأمر بقولها متهتهة:

-لأ ... أنا كنت بس ... بتفرج على الصوّر ... عادي يعني

لم تُصدق يقين أي من حديثها فأخذت تواصل حديثها لعلها تُطمئنها:

-متقلقيش عليه .... هو شوية وهيرجع زي الأول ... هو بس محتاج شوية وقت

إدعُت سما اللامبالاة رغم أنها سعيدة من تلك الأحاديث، سعيدة لأنه بخيرٍ وبصحة جيدة:

-هو حُر ... أنا أساسًا مليش دعوة

ضمتها يقين نحوها أكثر وهي تهتف:

-هعمل نفسي مصدقاكي ... بس عايزة أقولِك إني هفضل جنبِك ... حتى لو مراد مش موجود

اتسعت بسمة سما وهي تجاريها الحديث بقولها الممتن:

-أنا عارفة ... دا أنا بشكر مراد أساسًا عشان عرفني على واحدة زيِك

ابتعدت عنها يقين ببسمتها التي تحوّلت للفخر، فصحيح أن مراد هو من جمع شملهما، إلى أنها اعتبرت سما كشقيقتها بل وأكثر، حتى أن سما ظنُّت لوهلة أن يقين ستُصدق مثل تلك الأكاذيب عليها، لكنها تفاجأت بيقين التي أخبرتها أنها واثقة من أنها لم تفعل هذا، ولا يُمكن أن تفعله، فهي تتحدث معها دائمًا وإذا كانت ستقبل على شيءٍ كهذا فبالطبع ستستشيرها أولًا...

كم كانت توّد أن يُصدقها مراد مثلما تُصدقها يقين، لكنه حتى يرفض الاستماع إليها، ربما لأن وجعه جثيم وجرحه غائر، فما عاناه ليس سهلًا، لذلك ستترك للأيام تثبت له برائتها، وبأنها لا تزال تكني له بعض المشاعر التي تُجاهد قلبها حتى تطردهم مجددًا حتى يأتي هو، وحتى إن لم يأتي، ستواصل طريقها حتى النهاية....

____

إرتفعت قهقهاتها حتى وصل صديدها إلى عِنان السماء، فكانت تجلس على مقعدها المُتحرك بجسدها الهزيل ووجها الشاحب رغم ابتساماتها وقهقهاتها المرتفعة، فكان يونس خلفها يحُرك مقعدها بسرعةٍ بالغة بين هذه الأزهار التي لفحت نسماتها الهادئة وجهها وغمرتها سعادة واستمتاعًا بتلك اللحظة البسيطة.

كان يُشاركها يونس الضحك بسعادة حتى كادت أنفاسها تتقطع من كثرة الضحك، هذا ما جعله يتوقف ويبدأ تحريكها بتروٍ ما إن خفتت ضحكاتها وبقيت ابتسامتها وكلماتها الممتنة لما يفعله معها، فهي لم تضحك هكذا منذ فترة طويلة...

-يونس بقولك إيه ؟

قطعت وصلة المرح بتلك الجملة الجادة والتي جعلته ينتبه لحديثها الذي كان:

-هو إنت معاك عربية ؟

قطب حاجبيها بحيرة من سؤالها الذي آجابه بصدق:

-أه ... إنتِ عايزة تروحي في حتة ؟

أومأت رأسها بسرعة هادرة بثقة:

-أيوة ... عايزة أروح مشوار مهم....

____

يتحرك جسده بخمولٍ داخل تلك الحُجرة خاصة الخِزانة التي ينتشل منها ملابسه ويضعها داخل حقيبة سفره التي تفترش فراشه، فكان يضعها بعوالم باهتة وحركاتٍ بطيئة كأنه مُرغمٌ على السفر، فهو بالفعل مُرغم، يريد الابتعاد، وفي الوقت ذاته يرغب بالبقاء، لكنه إذا بقي هنا أكثر من هذا، فستتدهور حالته، سيزداد اشتياقه لوالده وتذكره لما حدث، فهو يُريد النسيان بأي شكلٍ وبأية طريقة، حتى لو اضطر على الرحيل للأبد....

قطع وصلة تفكيره صوت الباب الذي دوّى صديده بالأرجاء؛ ترك ما يفعله ليذهب بخطى وئيدة صوّب الباب الذي لا يعلم حتى من وراءه، بل ولا يكترث حتى لمعرفته.

ما إن فتح الباب حتى وجد أمامه فتاة نحيلة الجسد يبدو عليها الإعياء، وبجوارها يقف شابٌ يماثلها بالعُمر بخلاف كونه بصحة جيدة، لم يكن يعلم من هذين الشخصين لذلك وقف أمام الباب يُطالعهما بنظراتٍ مبهمة قطعتها يارا التي أردفت ببعض التردد:

-أستاذ مراد .... ممكن نتكلم شوية ؟

لاح الرجاء على صوتها بالنهاية مما جعله يبتعد عن الباب سامحًا لهما بالدلوف دون أن ينبس ببنت شفة.

وطأت أقدامها الباب لترمق المنزل البسيط الذي غمرته غمامة من الكآبة، فكانت الأتربة في كل مكانٍ تجتمع مع أثاثٍ مُهترىء غير مُرتبٍ بالمرة، فكأن هذا المنزل لم يُنظف منذ قرون.

جلست على المقعد وجوارها يونس وقبالتهما مراد لايزال يُطالعهما بحيرة ينتظر أن يبدأا الحديث، فبعد بُرهة من الصمت حمحمت يارا قبل أن تبدأ بتوتر:

-أنااا ... يارا .. قريبة سما

بترت حديثها هنا لترمق نظراته التي تحوّلت للغضب وكأنه على وشك طردهما من المنزل، لكنه حافظ على ثباته وهو يقول:

-نعم يا أنسة يارا ... جايين ليه ؟

بدا صوته حادًا على الرغم من التهذيب الذي حاول التحلّي به أمامهما، أما عن يارا فكانت في قمة روعها بتلك اللحظة، فهي على وشك تفجير قُنبلة لا تعلم عاقبتها، لكنها متيقنة أن العاقبة لن تضحى هينة، لهذا السبب طلبت من يونس رفقتها في هذا الأمر.

-أنا جاية أقول إن ... سما بريئة ... مش هي إللي بعتت الرسايل

كبت شحنة الغضب بداخله عن طريق تنهيدة عميقة حملت معها نفاد صبره، فلمَ الجميع يُخبره بهذه الكلمات التي لن يُصدقها بتاتًا، فهو رآى الدليل بعينيه.

-لو جاية تقوليلي الكلمتين دول وعايزاني أصدق يبقى أحسنلك تتفضلي من غير مطرود

كانت كلماته حادة لم تجعلها تتزعزع، بل على العكس تمامًا، جعلتها تتحلّى بالعزيمة وهي تهتف:

-لأ ... أنا مش جاية أحاول أخليك تصدقها ... أنا جاية أقولك إن هي فعلًا مبعتتش الرسايل ... لأن إللي بعتها يبقى...

توقفت عن الحديث لتوّجه نظرة عابرة صوّب يونس الذي أخذ يُشجعها للمواصلة، فهي قد أخبرته بتلك الجريمة التي ارتكبتها قبل أن تأتي هنا، فوافق على المجيء معها لحمايتها وتشجيعها، فما تفعله هو الصواب.

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تعاود التحديق بمُراد متجنبة لنظراته الحادة كي تتحدث بصدق:

-أنا ... أنا إللي بعت الرسايل ... وبعتهم من حساب سما .. عشان تفتكر إن هي

تدفقت النيران بعروقه بعد هذه الجملة، تحوّل وجهه إلى اللون الأحمر وكان على وشك لكمها والإطاحة بها خارج المنزل، فكيف تُخبره بكل وقاحة أنها من فعلت هذا ؟ بل ولمَ تُرسل تلك الرسائل وتُدمر حياته من الأساس ؟ من هي حتى تفعل ذلك ؟

كل تلك الأسئلة كانت تدور حول رأسه إلى أن وثب عن مقعده هادرًا بحنق:

-إنتِ بتقولي إيه ؟ ... إنتِ إزاي بالبجاحة دي ؟

صرخ مع آخر كلماته وكان على وشك الانقضاض عليها لولا يونس الذي وثب هو كذلك وحاول تهدئته:

-يا أستاذ مراد ممكن تهدا ؟

دفعه مُراد بعيدًا وواصل صراخه بوجه يارا التي كادت تذرف الدموع من عينيها، فكان يصيح بهما بقوله:

-إبعد عني ...

وجه نظراته القاسية نحو يارا مع كلماته الأشد قساوة:

-عملتي كدة ليه ؟ ... عايزة مني إيه ؟ ... هو أنا أعرفِك عشان تعملي كدة ؟

تنفس الصُعداء بعد حديثه وكانت قد انهمرت دموعها في تلك اللحظة، فلم تعد قادرة على الحديث، ولم تعد قادرة على مواجهة ذنوبها، اتضح أن تصليح الأخطاء أصعب بكثيرٍ من ارتكابها...

-أنا عملت كدة عشان أأذيها هي مش إنت ... ومهما بررتلك إللي عملته مش هتغفلري، وليك حق تعمل إللي إنت عايزه فيا ... بس مهما عملت مش هيبقى أسوأ من العِقاب إللي اتعاقبته

رفعت وجهها نحوه ليرى دموعها المنهمرة وعينيها التي أضحت حمراء كالدماء، وضعت يدها على شعرها المُستعار لتُزيله وتجعله يرى صلعتها التي تبعتها بحديثٍ مؤلم:

-أنا عندي لوكيميا ... وبين الحياة والموت ... وصدقني أنا اتعاقبت بما فيه الكفاية .. وخسرت كل حاجة

لم تُمحى بوادر الغضب من عينيه على الرغم من حديثها المتألم، فكانت نظراته تخترقها وهو يهتف بلا إكتراثٍ وغضب:

-وإنتِ بقى جاية هنا ليه ... فاكراني هسامحِك ؟

نفت برأسها وهي تواصل الحديث بثباتٍ جاهدت حتى تتحلّى به:

-لأ ... أنا جاية عشان أقولك إن أنا المذنبة ... مش سما ... وأوعدك إنك مش هتشوف وشي تاني ... حتى لو كملتو مع بعض

وثبت عن المقعد بإرهاقٍ جعلها تكاد تفقد توازنها لولا يد يونس التي استندت عليها حتى استطاعت الاستقامة بوقفتها وإخباره بتقريرٍ وصوتٍ خاتف:

-يلا يا يونس

استجاب لحديثها وبقي يتحرك بجوارها حتى الباب كي يرحلا عن المنزل بعد أن أدت مُهمتها، تركته وحيدًا بالمنزل يُفكر بحديثها وحديثهم جميعًا، فالجميع يُخبره أنها بريئة، وهو يريد تصديق ذلك، يريد التحدث معها وتشجيعها كما السابق، لكن لا يعلم أنها ستسمح له بذلك، ولا يعلم ما يخبئه القدر لهما، ما يعلمه فقط أنه يريد التحدث معها بأي شكلٍ كان....

———————————————————

إنتهى هذا اليوم بصعابه ومشاقه ليبدأ يومٌ آخر تزداد فيه الصعوبات والتحديات، فهو اليوم المُنتظر عليهم جميعًا، اليوم الذي ستتوّج به إنجازاتهم ومجهوداتهم طوال الفترة السابقة ... يوم المسابقة والمرحلة الأخيرة..

سادت حالة الهرج والمرج في هذا المكان، فعلى عكس بقية أيام المسابقة، كان هذا اليوم هو الأكثر تميزًا، فكانت الباحة مُزينة بالعديد من البالونات والأزهار البيضاء، ناهيك عن الصحفيين والمصورين المنتشرين بشتى البقاع، كما كان عدد الجمهور أضعاف العدد عن جميع المراحل، فكان على المسرح إحدى المطربين المشهورين يحمل مُكبر الصوت ويُغني وسط هِتاف الجمهور وتهليلهم، فاليوم سيضحى أكبر احتفالًا تشهده هذه المنطقة...

كانت سما بجوار فريقها خلف الكواليس، فكان بعضهم يرتدي ثياب الطبيب وبعضهم يرتدي شرطي والعديد من الوظائف التي تم تقسيم ملابسها بينهم بخلاف صبيٍ واحد يرتدي ملابس طبيعية لكنها تُساعده على الرقص بأريحية، فكان هذا الطفل هو مُدثر، أحد أهم أعضاء الفريق وأول من أتى من الفتيان، بل هو أمهر الفتيان حتى، أما بقية

أعضاء الفريق فكانت ملابسهم لا تختلف راحة عن ملابس مُدثر، فجميعها ثيابًا رياضية تأخذ شكل العديد من الوظائف، وهذا ما سيجعل عرضهم مميزًا ومؤثرًا ككل مرة...

تجمع الفريق في إحدى البِقاع يُشاهدون غناء المُطرب وبعضهم يلتقط العديد من الصور له، فهم يقفون خلف المسرح مما يسنح لهم الرؤية عن قُرب، أما عن بدور فكانت تتحدث بجوار سامح الذي أتى معهم هو وفضل الذي كان يقف مع يقين يتحدثان بمرحٍ ويلتقطان العديد من الصور...

اتجهت إحدى العاملات نحو سما تُربت عليها بإصبعها حتى تنتبه سما وتستدير نحوها، فكانت الفتاة تهتف بصوتٍ بدا خافتًا من إرتفاع أصوات الموسيقى:

-كابتن سما .. في حد عايزِك برة

قطبت سما حاجبيها بحيرة سألت معها:

-مين إللي عايزني ؟

لوٌت شفتيها بجهلٍ قالت معه:

-معرفش .. بس هو مستنيكي على البوابة

إزدادت حيرة سما لكنها اتبعت الفتاة نحو البوابة حيث هذا المجهول الذي يُريدها، فما إن وقفت أمام البوابة حتى تحوٌلت حيرتها إلى الذهول لتتسع حدقتيها هادرة ببعض الدهشة:

-مُراد....!!

الفصل الثالث والعشرون (النتيجة النهائية)

"تذكر أن الضيوف الثقيلة لا تبيت بالمنزل ... وكذلك الصِعاب ... فتحمَّلها حتى ترحل"

____

يقف أمامها كالصنم شاردًا في معاني وجهها الذي اشتاقه، لم يكن يعلم أن الاشتياق يجعله مُعذبًا في ديجور عقله، فلا يجد للسعادة طريق ولا الابتسامة تزوره، فقط وجه شاحب خالٍ من المعالم على عكس ما يدور بداخله، فلطالما كانت الفتاة الأولى بحياته، وأكثر فتاة طموحة قابلها، لكن لمَ بُني هذا الحاجز بينهما ؟ لمَ هناك شيءُ ما يمنعه من التقرب منها مجددًا ؟

-عاملة إيه ؟

قالها بصوتٍ خافتٍ ما إن ظهرت قبالته بعد فترة طويلة من الصمت وتبادل النظرات، فهو يرى دموعها المكبوتة ورغبتها بالحديث لكن لسانها المُنعقد يمنعها، حتى أن نظراتها تحاول تجنب خاصته حتى لا تتذكر الماضي، وتتذكر ما فعله معها، وكيف أنه لا يُصدقها مهما أثبتت برائتها...

-نعم يا مُراد

خرجت من صمتها بتلك الكلمات الجافة رغبة بمعرفة سبب مجيئه، فكان ينكس رأسه لأسفل برهة من الوقت قبل أن يتقدم نحوها ويهتف باعتذار وصوتٍ متقطع:

-أنااا .... جاي أقولِك آسف ... مكنتش عارف الحقيقة

لاح الانكسار على صوتها وهي تقول:

-بعد إيه ؟... بعد ما هزقتني وقولتلي مش عايز أشوف وشِك تاني ؟

إرتفع صوتها مع آخر كلماتها مما جعله يتنهد تنهيدة عميقة تبعها بقولٍ نادمٍ:

-عارف إنك مش هتسامحيني ... وأنا أصلًا مش جاي عشان كدة

إزداد الفضول على وجهها وهي تسأل:

-أومل جاي ليه ؟

-جاي أشكرِك ... أشكرِك إنك علمتيني أمشي ورا حلمي، ومخليش حد يوقفني

صمت بُرهة عن الحديث أمام علامات الاستفهام التي تُحيط بوجهها، فلمَ يتشكرها ؟ ولمَ يتحدث بتلك الطريقة التي تُصيبها ببعض القلق؟

حدق بمُنتصف عينيها وهو يواصل حديثه بثباتٍ رغم الغصة المتكومة على صدره:

-أنا هسافر ... ومش هاجي هنا تاني ... غير نادرًا ... وجيت عشان أوّدعِك ... وأقولِك إنك أكتر بنت موهوبة شوفتها في حياتي، وإن شاء الله تنجحي وتكسبي في المسابقة

تجحرت دموعها بعد كلماته المؤّدعة، هل هذا يعني أنه سيرحل ؟ هل سيتركها للأبد ؟ فقد ظنُّت لوهلة أنه سيطلب سماحها ويعود إليها كما يحدث بالأساطير ... لكن يبدو أن الأساطير لن تتحقق أبدًا.

-إنت هتمشي ؟

سألته بين دموعها المتحجرة لتجده يوميء برأسه إيجابًا رغم الحروق بصدره، فهو حقًا لا يُريد أن يتركها، لكنه لن يستطيع البقاء هنا، وخاصة وهو يعلم أن من تسبب في هذا من آقاربها، وهو لن يغفر لابنة عمها ولن يجعلها تقطع علاقتها بها، ولا يجب حتى أن يبقى في مكانٍ تعرض فيه للظُلم هو ووالده، عليه أن يبدأ من جديد، عليه أن يُرمم أحزانه ببدء حياةٍ جديدة مع أشخاصٍ جُدد، ومن أجل تلك الحياة، عليه أن يقوم ببعض التضحيات كانت هذه أصعبهم وأكثرهم ألمًا...

-أيوة .. همشي ... وبتمنالِك حياة سعيدة

جاهدت حتى ترد عليه بثباتٍ دون أن تنفجر بالبكاء:

-وإنت كمان

ابتسم لها ابتسامة هادئة وهو يلوّح لها للمرة الأخيرة، فكان هذا آخر لقاءٍ بينهما، آخر لقاءٍ بين اثنين جاهدا بهذه الحياة حتى اتضح أن جهادهما جعلهما يبتعدا عن بعضهما بعضًا، لكن ربما هذا الفُراق مُفيد لأجلهما، ربما تضحى حياتهما الجديدة أفضل...

رحل مُراد من أمامها وتركها وحيدة تُطلق العِنان لدمعاتها بأن تفرّ على وجنتها مُذكرة إياها بتلك الذكريات التي جمّعت بينهما، ذكريات لم ولن تنساها أبدًا، فكيف تنسى أول من دق قلبها لأجله ؟ لا تعلم حتى كيف ستتعلق بشخصٍ غيره، لكن هذه هي الحياة، تُرغمك على اختياراتٍ عليك الموافقة بها والتأقلم معها رغمًا عن أنفِك...

كفكفت دموعها الحارقة وبقيت واثبة مكانها تُطالع طيفه من بعيدٍ وترغب قدماها بالركض وراءه والتوُسل إليه بالبقاء، لكن كرامتها تمنعها من ذلك وتُرغمها على الصبر والمواصلة إلى أن انتهى بها الأمر هكذا، وحيدة شاردة...

استشعرت أصوات أقدامٍ تهرول نحوها بسرعة مما جعلها تُكفكف ما تبقى من دموعها وتحاول التحلُي بالثبات أمام بدور التي ظهرت من خلفها وعلى ملامحها علامات الذعر:

-إلحقي يا سما ... والد مُدثر جيه ومُصر ياخده من المسابقة

انتقل هذا الذعر إلى سما التي فغرت فاهها متفوّهة:

-إزاي الكلام ده ؟ .. هو فين ؟

جذبتها بدور من ذراعها حتى تهرول وراءها إلى داخل باحة المسابقة حيث تجد أمامها رجلٌ يبدو بمُقتبل الأربعين من عُمره يجذب ذراع مُدثِّر بقسوة ويهتف بوجهه بغضب:

-أنا مش قولتلك مفيش رقص تاني ... بتروح حفلات ومسابقات من ورايا!

ترقرقت بعض دمعاته على وجنتيه الصغيرة وهو يحاول جذب ذراعه بعيدًا عن والده متفوّهًا بتوّسل:

-سبني يا بابا ... سبني

لم يكترث له والده وواصل جذبه بقسوة حتى يرحل عن تلك المسابقة ولا يُمارس تلك الرياضة أبدًا، فهو يُريده أن يبقى فتًا صلبًا يُمارس الرياضات العنيفة والتي تليق بالرجال، ليست هذه الرياضة التي تُقلل من مكانتهم المرموقة، فكيف يضحى حفيد أشهر رجال الأعمال راقصًا ؟.. !

قطعت سما سيره مانعة إياه من التقدم خطوة أخرى وهي تهتف بصرامة:

-مينفعش حضرتك إللي بتعمله ده ؟ ... سيب الولد في حاله

حاول إزاحتها من أمامه بقوله الحاد:

-خليكي في حالِك يا ست إنتِ ومتدخليش بيني وبين ابني

واصل جذب مُدثر الذي كان يبكي متوّسلًا:

-يا بابا بقى أنا بحب الرياضة دي ... سبني بقى

لم تتزعزع سما وبقيت واثبة أمامه متفوّهة بصرامة وبعض الإرشاد:

-حضرتك إللي بتعمله ده غلط ... لازم تدي لإبنك حرية الإختيار، خصوصًا إنه مش بيعمل حاجة غلط ... إحنا العروض بتاعتنا هادفة ومُحترمة ... وابن حضرتك موهوب بجد

تنهد والده بنفادٍ صبرٍ وبعض الغضب الذي لم ينزاح عن وجهه وهو يهتف:

-وأنا ابني مش هيبقى رقاص على آخر الزمن

حاولت إقناعه لآخر مرة بحديثها:

-طب ممكن حضرتك تتفرج عليه في العرض وبعد كدة تحكم براحتك ... هو العرض ده بس، ولو إنت شايف إن مكانه مش هنا إبقى خُده براحتك

أنهت حديثها بتوّسلٍ ونبرة مستعطفة جعلته يترك ذراع مُدثر ويرمقها بنظراتٍ متوّعدة قال معها:

-ماشي .. العرض ده بس

إبتعد عن أنظارهم تاركًا ابنه بمعالم باكية أمام سما التي ربتت على ذراعه تحاول التهدئة من روعه وتحثه على العودة إلى زملاءه آملة أن يعدل والده عن قراره ويسمح له بممارسة الرياضة التي يهواها...

مرٌت بضع ساعات وأتت تلك اللحظة المنتظرة، فها هي تقف أمام فريقها للمرة الأخيرة قبل أن يصعدوا خشبات المسرح ويؤدوا عرضهم، تقف أمامهم بنظراتٍ مُشجعة لم تُمحى عن وجهها وهو تقول:

-ده مش آخر عرض هنعمله، ولا آخر مسابقة هندخلها ... عشان كدة مش عايزاكم تقلقو ... إعملو إللي عليكم، وإللي اتدربنا عليه كويس، وخليكم فاكرين إني هفضل

أشجعكم ... يلا إطلعو المسرح، وإنسو إن في ناس بتتفرج عليكم .... طلعو كل إللي عندكم

أنهت حديثها بابتسامة واثقة ملئتهم تشجيعًا وأملًا، فكان المذيع يقف على خشبات المسرح يهتف من مكبر الصوت:

-والآن مع فرقة ... فوق النجوم...

____

-يلا يا تيتا العرض هيبدأ

هتفت يارا بتلك الجملة وهي تحمل وعاءًا من البوشار وتتحرك به داخل بهو المنزل حيث يجلس كلًا من يونس وشقيقته فرح التي أحضرها معه بعد أن أصرّت عليه يارا كي يُشاهدا العرض الخاص بسما والذي سيتم إذاعته بالتلفاز.

لا تزال يارا بحالتها المرضية وصلعتها البارزة ووجهها النحيل لكنها تركت المشفى اليوم، فهذا أول يومٍ ستقضيه بالمنزل وتواصل علاجها يوميًا حتى يتم شفاءها تمامًا، وعلى عكس جميع المرات، كان الحماس يُغرقها استعدادًا لمشاهدة هذا العرض وتشجيع سما كي تنل الجائزة الكُبرى...

هرعت جدتها من الداخل لتجلس بجوارها على الأريكة وجوارهما فرح التي يجاورها يونس على إحدى المقاعد، فما هي إلا لحظاتٌ قصيرة حتى بدأ العرض وبدأت سهرتهم المُحببة لقلوبهم...

____

بدأ العرض بهدوءٍ ككل مرة، فكان مُدثر يرتدي ثيابًا عادية ويقف داخل حُجرة نوم تم إعدادها خصيصًا من أجله، كان يرقص بانسيابية داخل هذه الحُجرة مع تلك الموسيقى الهادئة التي أبرزت حالة الشرود التي تغتابه، فكان يدور حول الحجرة ويمسك كُتبه المدرسية التي ألقاها بنهاية العرض ما إن سيطر عليه البؤس.

اقتحمت جودي العرض بملابس تُشبه ملابس الجنيات، فكانت تُمارس بعض حركات الباليه إلى أن وثبت أمامه ما إن لاحظت شروده، آشارت له بأن يتبعها وهي لا تزال تُمارس حركات الباليه إلى أن تغير الأثاث بعد أن أظلمت القاعة لبضع ثوانٍ..

عادت الأضواء مجددًا مع صوت أغنية صخبة وغُرفة تُشبه غرفة العمليات بإحدى المشفيات، فكان الأطفال يؤدون عرضهم بثيابٍ طبية وحركاتٍ متناغمة أدوها ببراعة كما تدربوا عليها، تحرك مُدثر بينهم ليُشارك حركاتهم الراقصة إلى أن اقتحم المسرح بعض الفتيان برجال الشُرطة، وبعضهم يجر عربة خشبية تُشبه عربات الشُرطة..

سرعان ما تبدلت الموسيقى إلى أخرى صارمة بعض الشيء جعلت الأطفال يرقصون بتقاسيم وجهٍ تبدو قاسية لكن حركاتهم أثبتت عكس ذلك، فكان يُشاركهم مدثر بعض الحركات ويلتف بينهم بمهارة، وما هي إلا بضع لحظات حتى أتت رجال الإطفاء وكذلك المعلمون والمهندسون، فكان العرض يتحدث عن تحقيق الأحلام، وكيف يضحى الطفل مُشتتًا قبل أن يصل إلى الحُلم الذي يتمناه، ومع انتهاء العرض، كانت الفرقة بأكملها وبجميع الوظائف التي يرتدونها يقفون فوق المسرح يؤدون رقصاتٍ متناغمة ومن بينهم مُدثر الذي تركوا له مساحة لتأدية بعض الحركات الماهرة وتارة يقف على ظهر إحداهم حتى يقفز من تلك المسافة العالية مؤديًا بعض الحركات في الهواء بمهارة...

انتهى العرض بالطفلة جودي وهي تتحرك داخل الحُجرة التي عادت من جديد، يتحرك مُدثر وراءها يشاهد حركاتها الناعمة الهادئة والتي آشارت بعدها نحو مكتبه ليجلس مُدثر عليه ويُمثل بأنه ينغمش بالمذاكرة بلهفة حتى يُحقق تلك الأحلام التي أظهرتهم الجنية أمامه، فما أظهرته يجعله يواصل مذاكرته بجدٍ كي يُحقق أحلامه...

تعالت تصفيقات الجمهور بعد إنتهاء العرض ووثب بعضهم عن مقاعدهم يُهللون ويُشجعون تلك الفرقة التي دائمًا ما تبهرهم بعروضها الهادفة، أما عن والد مُدثر، فكان يُتابع صغيره بتيهٍ وذهولٍ جعله يُصفق وهو جالس موضعه، فهو لا يُصدق أن صغيره بهذه المهارة، وداخل المنزل كانت تتعالى التصفيقات والصيحات من يارا التي كانت مُنبهرة بالعرض ولا تشعر بالغيرة ككل مرة، فهي قد تلقت درسًا جعلها تُركز مع ما تمتلكه بحياتها فقط وتُشجع الآخرين حتى يرزقها الله في حياتها ولا

يجعلها تُقابل المهالك، كذلك جدتها ويونس وشقيقته كانوا يهتفون بسعادة وأيديهم تُصفق بتشجيع....

تجمع الأطفال حول سما التي طفقت تُهلل بسعادة وتضرب كفها بكفوفهم بمرحِ شجعتهم معها وأثنت على عرضهم بشدة، فكانت الأطفال تلهث من الإرهاق لكن حديث سما المُشجع أنساهم هذا الإرهاق وجعلهم يبتسمون لها بحرارة وداخلهم يضرب من القلق للمعركة الأخيرة، والتي ستبدأ بعد عدة ساعات، فهناك مُطرب آخرٌ سيصعد على المسرح ويُطرب الجماهير قبل إعلان النتائج...

يستند بظهره على الحائط أثناء تأدية المُطرب لأغنيته، يطالع بدور بين الفينة والأخرى يحاول أن يفتح معها الحديث حتى يصل إلى مبتغاه، فهو لن يتحمل الإنتظار أكثر من هذا، يقسم أنه سيخطفها ويُرغمها على البقاء معه إذا حاولت رفضه مجددًا، فقد مرّ أكثر من عامٍ على انفصالها من مُعتصم، لمَ تتمسك بعنادها وتُخبره أنها لاتزال تحاول التعافي ؟

كانت الأغنية هادئة بها لمحة من الحُزن لكنها تجعل أجسادهم يتمايلون معها بهدوء وبعضهم يلتقط صورًا لهذا المُطرب الذي ليس مشهورًا لكنه يمتلك صوتًا رائعًا يؤهله إلى الغناء فوق خشبات المسرح.

-خليني في حُضنك يا حبيبي ... في حُضنك بهدا وبرتاح...

كان يُتابع ابتسامتها الهادئة مع تمايلاتها البسيطة مع تلك الأغنية التي تتابعها، آرادها أن تنتبه إليه لذلك حاول بدء الحديث معها بقوله:

-حلوة الأغنية مش كدة ؟

بدأ الحديث بتلك الجُملة محاولًا اجتذابها نحوه، فكانت تُحدق هي بالمُطرب مبتسمة بهدوءٍ آجابت معه بهمهمة:

-حلوة أوي ... أنا أساسًا بحب الأغنية دي

اتسعت ابتسامته ما إن وجد طريقة يفتتح معها موضوعهما، بقي لبُرهة قصيرة في حالة من الصمت قبل أن يُقابل وجهها ويسألها بتلاعب:

-طب مش حابة تخلي كلمات الأغنية حقيقية ؟

قطبت حاجبيها بغرابة ما إن انتبهت إلى سؤاله؛ التفت نحوه كي تسأله بحيرة:

-يعني إيه ؟

أخذ نفسًا عميقًا وأطلقه ليضع يده بجيبه مُخرجًا لعُلبة حمراء من القطيفة يمدها أمامها ليركع على رُكبتيه كما يرى بالأفلام ويرفع العُلبة نحوها بعد أن فتحها وظهر داخلها خاتمٌ رقيقٌ منمقٍ بحُبيباتٍ من الألماظ، واصل حديثه بلوعة ونعومة أصابت صميم قلبها:

-يعني كفاية فُراق لحد كدة .... كفاية نلعب على بعض ... أنا عايزِك في حُضني، ومش عايزِك مُجرد صديقة

تصاعدت ضربات قلبها وبدأ وجهها يتصبب عرقًا خاصة مع نظرات الجميع التي بدأت تتطلع نحوهما وكأنهما يصوُران مشهدًا رومانسيًا، اختتمت هذه النظرات بهِتاف فضل الذي كان يُشجع سامح على تلك الحركة كما تفعل يقين وسما بالضبط، فكانت جميع الأعين تُطالع ردة فعل بدور التي توّردت وجنتيها في خجلٍ وأخذت تهتف بصوتٍ هامسٍ متذمر:

-بتعمل إيه يا سامح ؟

بقي ثابتًا مكانه يرفع الخاتم أمامها هادرًا بإصرار:

-بعمل إللي لازم يتعمل من زمان ... بطلب إيدِك

أنهى الحديث بابتسامة واسعة زادتها خجلًا وجعلتها تهتف باعتراض:

-أيوة بس_

قطع حديثها هذه المرة ببعض التهديد الزائف:

-لأ بقى .. إنتِ هتوافقي يعني هتوافقي .. وإلا هروح أخطفِك وأتجوزِك غصبٍ عنِك ...

اتسعت حدقتيها بذهولٍ من تغيُّر نبرته المفاجئة مما جعلها تقول:

-هو تهديد ولا إيه ؟

آجابها سامح بصدقٍ:

-أه تهديد ... منا مش هسيبِك إنهاردة

أخذت نفسًا عميقًا أمام نظراته المؤترة التي جعلتها تتحلّى بالصمت لفترة حتى تدخلت سما بالحديث هاتفة:

-يلا بقى وافقي

شجعها البقية وألحوا عليها وكذلك نظرات سامح وابتسامته الساحرة جعلتها ترتبك أكثر ولا تدري ماذا تفعل، فكأنها علِقت ولن تتحرر دون الموافقة..

-لا بقولِك إيه .. انا صحتي على قدي، مش هقدر أقف الوقفة دي كتير

كان حديثه مازحًا جعلها تبتسم رغمًا عنها ولا تزال تستمع إلى تشجيعات الجميع مما جعلها تومىء برأسها إيجابًا وتهتف بخجل:

-مــ... موافقة

نثرت تلك الكلمة البسيطة سحرها على وجهه وجعلته يكاد يُهلل من السعادة، فما إن أدلت موافقتها حتى وثب عن الأرض يُقرّب منها الخاتم حتى ترتديه بين أصابعها تزامنًا مع تصفيق الجميع وتهليلهم بسبب هذه السعادة التي توّجت هذا اليوم الحافل...

لم تكن ساعات الإنتظار هذه تُصيبها بالرهبة، فإحساس الفخر يطغوا عليها ويُبدد قلقها، فحتى وإن لم تفز بتلك الجائزة، فهي قد فازت بجائزة أكبر، فازت بعائلتها وفريقها الذي يزداد مهارة، بل فازت حتى بذاتها، أدركت أن ما ظنّته مستحيلًا، أتى هذا اليوم الذي يثبت لها أن لا وجود للمستحيل، ولا وجود للمُعجزات... الإنجازات هي فقط ما توجد، وهي فقط ما نتشبث بها...

تجمع الأطفال حولها في حلقة قبل إعلان النتائج بدقائق، فكانت تتوسط هي تلك الحلقة وتبادل نظراتها بينهم حتى ينصتوا إلى حديثها جيدًا:

-ده آخر عرض لينا في المسابقة دي ... وأنا عايزة أقولكم إني فخورة بيكم ... إحنا في وقت قُصير قدرنا نحقق إنجاز كبير...

أخذت نفسًا عميقًا ثم أطلقته لتواصل حديثها بفخرٍ وابتسامة هادئة:

-عشان كدة عايزاكم تعرفو .. إن حتى لو مكسبناش الجايزة، أنا هفضل فخورة بيكم ... وهفضل أقولكم إن إنتو أحسن فريق درّبتو

اتسعت بسماتهم بسعادة شقت وجوههم، فكانوا يتبادلون النظرات حتى قطعتها جودي بصدق:

-وحضرتك أحسن كابتن في الدنيا

قالتها ببراءة جعلت بسمة سما تتسع أكثر خاصة وهي ترى الجميع يؤيد حديث جودي ويؤكد أنها أفضل مُدربة أتت عليهم، فجميعهم أثنى على تعاملها الهاديء مع الجميع

وحرصها على تلقينهم جيدًا، فلم تكن تعاملهم على إنهم مجرد أطفالٍ تقوم بتدريبهم، بل كانت تعتبرهم أشقائها بل وأبناءها حتى...

عانقتها جودي بحُبٍ وامتنانٍ بالغ جعل رفيقاتها يفعلن مثلها ويُعانقن سما بحبورٍ وترحيب بذلك، فما إن إبتعدوا عنها حتى اخترق أذنيها صوت سامح الذي كان يهتف بفخرٍ ويد توضع على كتفها بحنان:

-ماما وبابا فخورين بيكي

انتبهت سما لحديثه الذي جعلها تكاد تبكي، فبالطبع والداها كانا سيفخران من رؤيتهما لها في وضع كهذا، يظهر عرضها على التلفاز والجميع يُشاهده ويستمتع به، لا توجد من الكلمات ما توصف سعادتها الآن، فصحيح أنها لم تصل إلى خط النهاية بعد، إلى أنها حققت الكثير والكثير من الإنجازات..

-أنا عايزة أشكركم كلكم ... إنت وبدور ويقين وفضل وسارة وزكريا ... ومراد ... أنا من غيركم مكنتش هوَّصل للي وصلتله ... بجد ربنا يخليكم ليا

أنهت حديثها بامتنانٍ على الرغم من نبرتها الخافتة التي قالت بها اسم مُراد، فكم كانت تتمنى وجوده في تلك اللحظة حتى تتشكره على ما فعله، فهو من وضعها على بداية الطريق، وجميعهم من ساعدوها على المواصلة...

ضمها سامح ناحيته بابتسامة واسعة فغرت فاهه ردًا على امتنانها، قرر بعدها خِتام حديثه باطمئنانٍ يمدُّها ببعض الصبر ويُشجعها:

-مفيش داعي تشكري حد فينا ... إحنا يدوبك حطيناكي على الطريق .. وإنتِ إللي كملتي بمجهودِك ... وصدقيني إن شاء الله هتكسبي المسابقة ... وكل الناس هتعرف فرقتِك ... عشان إنتِ تستاهلي كل حاجة

كانت تلك الكلمات أشبه بالرمال التي أطفأت نيران قلبها المشتعلة وجعلتها أكثر صبرًا وهدوءًا لاستقبال النتيجة النهائية، وعلى الرغم من هدوءها، إلى أن بداخلها

كانت تتمنى الفوز بتلك الجائزة حتى يسطع اسمها في السماء وتشتهر فرقتها بين الجميع، لا تعلم وقتها كيف ستضحى سعادتها...

____

ترك الجميع ما يفعله وهدأت القاعة استعدادًا لاستقبال آخر فعاليات تلك المسابقة، بل وأكثر الفعاليات صعوبة على الجميع خاصة المشتركون بالمسابقة، فهي تلك اللحظة التي وثب بها المذيع أعلى المسرح استعدادًا لإعلان النتائج..

تقف سما أمام المسرح مباشرة تُغطي فمها بيديها وخفقات قلبها ترتفع مع مرور الثوانِ، كما كان أعضاء فريقها يقفون خلفها لا تختلف حالتهم عن حالتها، فالجميع يدعو بقرارة نفسه ويقرأ الآيات القرآنية على أمل ألا تخيب آمالهم، فكان صوت المذيع يخترق آذانهم ويُصيبهم بالرهبة أثناء قوله...

-والآن ... بعد ما فرقنا أدت عروضها ... جات اللحظة إللي كلنا بنستناها ... لحظة .... إعلان النتيجة

هلل الجميع بحماسٍ ليواصل المذيع بعدها:

-وإللي هيكسب من الأربع فرق ... فريق واحد بس ... وهياخد جايزة مالية 300 ألف جنيه مع تعاقد دائم مع المؤسسة عشان تموّلهم حفلاتهم وتنشر اسمهم .... وإللي كسب معانا في المسابقة فريق....

الفصل الرابع والعشرون (النهاية)

"تذكر أن لا وجود للخُسارة، فما تفقده في هذه الحياة ... تحصل مكانه على شيْ آخر"

____

لحظات من الترقب والانتظار غمرت هذه الثوانِ القليلة التي تسبق إعلان النتائج، فكانت خفقات أفئدتهم تصدح بالأرجاء تاركة المجال لأفكارهم السلبية باحتلال الساحة ومحاولة أقلمتهم على الخُسارة، فكلما اعتاد المرء على الخسارة قلّ شعوره بالضيق نحوها، وهذا ما يريدونه قبل أن يفقدوا صوابهم من شدة الرهبة...

تضرب بقدميها على الأرض بسبب جسدها الذي لم يتوقف عن الارتجاف وهمساتها التي لم تتوقف عن ذكر ربها والدعاء من أجل الفوز، فهي لم تقطع كل تلك المسافة وتتخطى هذه العقبات حتى تجد الخُسارة، كم تتمنى الفوز بتلك الجائزة، كم تتمنى أن يصدح اسم فريقها في كل مكان، كانت هذه كذلك رغبة أعضاء الفريق، فجميعهم يُطيلون الدعاء بصوتٍ خافتٍ ترقبوا معه صوت المذيع وهو يقول:

-وإللي كسب معانا المسابقة فريق...

تصاعدت ألسنة التوتر بداخلهم وتهدجت أنفاسهم حتى هتف المذيع بصوتٍ مُرتفع:

-الفراشـــات

تبع حديثه صوت التهليلات والتصفيقات الحارة من هذا الفريق الذي نال الجائزة وصعد خشبات المسرح كي يتلقفها...

أما بالنسبة لهم، فما إن أدلًى المذيع بتلك النتيجة وقد تحوّلت ملامحهم إلى العبوس، فكانت تنكس رأسها بخذي ودموع تكاد تتقاطر مع عينيها، أطلقت تنهيدة عميقة حمٌلت ضيقها وهي تهتف بخفوت:

-خسرنا..

كم هي صعبة هذه الكلمة، فبعد أن اعتادت النجاح، أتت تلك الكلمة البسيطة لتزيدها شعورًا بالإحباط والضيق، فكأن ما بنته طوال هذه الفترة يسقط هباءًا في أقل من لحظة...

آحاطها سامح بذراعه محاولًا مواساتها قدر الإمكان:

-مش مُهم يا سما ... إنتِ عملتي إللي عليكي

تدخلت يقين بالحديث لتواسيها ببعض الحدة والغضب من تلك النتيجة غير العادلة:

-إنتِ أحسن منهم بكتير .... هما تلاقيهم دافعين عشان ياخدو الجايزة

أخذت نفسًا عميقًا ثم أطلقته محاولةً تناسي ضيقها بقولها:

-أنا مش عايزة الجايزة ... أنا بس ... كان نفسي أبقى مشهورة

لم تمهلهم فرصة للحديث والتفتت وراءها حيث يقف فريقها في حالةٍ من الحُزن لم تختلف عن حالتها، فكانت تُشير إليهم هادرة بتقريرٍ يحمل انكسارها:

-يلا يا جماعة عشان نمشي

استجاب أعضاء الفريق لحديثها وطفقوا يتحركون وراءها بأكتافٍ متهدلة ورغبة عارمة بالبكاء، فها قد انتهى طريقهم بهذا المكان، ولم يُحققوا ما أتوا من أجله، كم هو صعب هذا الشعور، فبعد هذه المجهودات الهائلة تكون الخُسارة هي النتيجة، هذا ليس عادلًا بالمرة، لكنه القدر ... فدائمًا ما يأتي القدر ليُفاجئنا بقرارته التي ليست عادلة...

تحركوا جميعهم بخُطى رتيبة نحو البوابة على أمل أن تضحى النتيجة خاطئة ويتضح أنهم الفائزون بتلك المسابقة، لكن مع الأسف، كانت النتيجة صحيحة، وكان هذا الفريق فائز يقف على خشبات المسرح ليأخذ الجائزة ويلتقط العديد من الصوٌر...

جاهدت سما حتى تمنع دمعاتها من الهطول وتواصل طريقها بصبرٍ وعزيمة، فلن تصل إلى الراحة ما دامت تحاول، ستتعرض للمكسب والخُسارة طالما تُريد تحقيق أحلامها...

-كابتن سما...

استوقفها هذا النداء ليجعلها تلتفت وراء ظهرها لتجد رجلٌ يبدو بأواخر العِقد الثالث من العُمر، يرتدي بزة فاخرة تبدو باهظة الثمن، كما أن خُصلات شعره المُصففة بعناية أكدت لها أنها تقف أمام رجلٍ من عائلة ثرية...

رماها بابتسامة ودودة قبل أن يردف مُعرفًا نفسه:

-أنا رجل الأعمال ... عزام زُهدي

أومأت رأسها بهدوءٍ ولا تزال علامات الإبهام على وجهها كما كان سامح ويقين مثلها، فمن هذا الغريب وما الذي يُريده من سما ؟ تلك الأسئلة كانت تدور حول ذهنهم حتى اختصر عليهم المسافات بقوله:

-أنا حقيقي مبهور بالعروض بتاعتكم ... ومستعد أموٌلكم العروض وأوٌفرلكم أماكن تعملو فيها الاستعراضات

تبادلت النظرات بينهم في حيرة تزداد أكثر كلما تحدث هذا الرجل، فبعد فترة من الصمت أردفت سما بتساؤلٍ:

-أيوة .. يعني حضرتِك عايز مني إيه دلوقتي ؟

اتسعت بسمة عزام متفوٌهًا وهو يُخرج إحدى البطاقات من جيبه:

-عايزكم تشرفوني في الشركة ... ونبقى نتفق على كل حاجة ... وأتمنى توافقو على العرض بتاعي ... أنا كل هدفي إني أوٌصل عروضكم لكل مكان_

قطع حديثه صوتٌ بدور التي تهرول نحوهم حتى توقفت قبالة سما ترفع أمامها الهاتف هادرة بصوتٍ يشوبه اللهيث مع قطرات العرق المُتصببة من جبينها وكأنها كانت تركض في سباق، كانت تهتف بحماسٍ بالغٍ ونبرة مندفعة غير مُصدقة:

-إلحقي يا سما ... العرض بتاكم اتصور وجاب خمسة مليون مشاهدة في ساعتين بس

فغرت سما فاهها وهي تنتشل الهاتف من بين أصابع بدور وتشاهد عرضها الذي يحظى على العديد من التعليقات الإيجابية والجميع يقوم بنشره مادحين بهذه الفرقة الموهوبة وقائدتهم البارعة في تلقينهم...

صدى صوت خفقات قلبها في كل مكان مع ابتسامتها التي بدأت تتسع رويدًا، فكم هذه الحياة غريبة، اللحظة التي تظن بها أنك فقدت كل شيء، هي نفسها اللحظة التي تنتصر بها وتحظى على العديد من الأشياء...

ما هي إلا لحظاتٍ حتى وجدت سربًا من الصحفيين ينقضون عليهم محاولين الحديث مع سما التي تعالت نبضات قلبها وظنُّت أنها ستهوي على الأرض من السعادة، فكانت إحدى الصحفيات تُمرر نحوها المُسجل وتسألها:

-ممكن تقوليلنا فكرة العرض جاتلِك إزاي ؟

وصوت صحفي آخر يتدخل ليسألها:

-إزاي قدرتي تعملي عرض عظيم زي ده بفرقة لسة مبتدئة ؟

وهكذا توالت الأسئلة على رأسها حتى تشتت عقلها ولم تعد قادرة على الإجابة، بل لم تعد قادرة على الحديث حتى، وكأنها داخل حُلمٍ رائع لا توّد الإفاقة منه، ها هي ترى حُلمها يتحقق أمام عينيها، يتحقق بعد هذه العقبات وهذه التعثرات ... فلا شيء بهذه الحياة مستحيلًا، ولا شيء يصعب تحقيقه...

———————————————————

بعد مرور عامين ونصف...

ظلام حالك يطغي على هذه الحُجرة البسيطة، حُجرة ترعرت بداخلها وشهدت العديد من ذكرياتها الرائعة، فهي تلك الحُجرة التي وُلدت داخلها وعاشت بها مع والديها اللذان تفتقدهما كثيرًا، تتمنى لو تراهما مجددًا حتى تقص عليهما حكايتها...

وطالما أنهما لن يعودا مجددًا، إذا ستُسجل تلك الأحداث لعل قصتها تُصبح عبرة لكلٍ من ظنٌ أن النجاح ضربًا من الخرافة...

حركت أصابعها نحو المصباح حتى تفتحه ثم تنتشل دفترها أزرق اللون لتفتحه على صفحة بعينها، الصفحة التي توقفت بها حكايتها رغم أن هناك المزيد عليها أن تسرده، حركت أصابعها مجددًا لتنتشل إحدى الأقلام عازمة على إنهاء تلك الحكاية ووضع النقاط الأخيرة...

وضعت نصل القلم الرفيع على الورقة البيضاء وباشرت بكتابة....

لم أكن أعلم أن اليوم الذي سأخط فيه نهاية حكايتي قد آن أوانه، فتلك الأيام القليلة التي مرٌت علي جعلتني أكثر صلابة، أكثر سعيًا وراء النجاح، تغيرت لدرجة تجعلني لا أصدق أن هذه أنا، وكأن روحًا استحوٌذت على جسدي وجعلتني هكذا...

حدثت عدة تطوٌراتٍ بتلك الأيام القليلة، أصبح فريقي يجوب المُدن ويؤدي عروضًا ساحرة، حتى أن المركز أصبح متطوٌرًا وأضحى يحتوي على العديد من المُدربين الماهرين، جميعهم تحت قيادتي أنا، فأنا بالأساس مالكة هذا المركز وأنا من شهدت هذه الأهوال حتى يصدح اسمه في الأرجاء...

فبعد أن قابلت رجل الأعمال هذا، أخذت الخطوة وقبِلت عرضه؛ ومنذ تلك اللحظة وهو يموٌل عروضنا التي حظينا من خلالها على العديد من الأموال، تلك الأموال تم الانتفاع بها من أجل توٌسعات المركز...

أصبح العبء كبيرًا علي لكنني أتحمله ولا أزال أتحمله بسعادة حتى هذه اللحظة، فكأن جسدي اعتاد الجد والاجتهاد، فالمحافظة على النجاح أصعب بكثيرٍ من تحقيقه ...

أما بالنسبة لعائلتي العزيزة، فهي كذلك قد شهِدت العديد من التغيُرات، كانت أولهم بدور، حيث تم عقد قرانها مع شقيقي بالعام الماضي، وأصبحت تقطن معنا بالمنزل هي وسارة كذلك، أما زكريا، فبقي مع جدتي هو ويارا، بل أضحت كذلك حُبلة وبشهرها الخامس...

كان الحال سيانٍ بالنسبة ليقين، فهي كذلك قد تزوجت بعد المسابقة بومينٍ فقط، وهي الآن قد أنجبت مولودها الأول واسمته تميم، وكانت دائمًا ما تقول أنه تميمة حظها وسعادتها بالعالم، فعلى الرغم من أنه لايزال رضيعًا بشهره الثامن، إلى أن ابتسامته البريئة تجعلك تُحلق في السماء، وعينيه الكاحلة تجعلك تُمعن التحديق بها وبجمالها، ربما أيضًا ورث قِصر القامة عن والده، فحجمه لا يكاد يصل إلى الذراع...

كانت أكثرنا تطوُرًا في تلك الأيام هي يارا، فهي بعد أن أخذت جرعاتها الكيمياوية بدأ شعرها يعود إلى طوله مجددًا، فهو الآن يصل إلى آخر رأسها لكنه جذابٌ ويليق عليها، كما أنها اتخذت شعارًا بالحياة يجعلها لا تكترث للجميع، فقط نفسها ومن يهتمون لأجلها، وبعد انقطاع عن الجامعة لمدة عامٍ كامل، ها هي تواصل دراستها الآن بمساعدة من يونس الذي لم يتخلّى عنها ولو لمرة على الرغم من أنه أنهى الجامعة وبدأ العمل بإحدى الشركات الناشئة...

أتسآل كيف ستنتهي علاقتهما ؟ فهما يُشكلانِ ثنائيًا رائعًا، فبقاءه معها بدُل من شخصيتها مئة وثمانون درجة، جعلها أكثر لُطفًا وجعلها تتقرب من خالقها حتى أخذت الخطوة وارتدت حِجابًا يُغطي خُصلات شعرها القصيرة، صحيح أنهما لا يزالا مجرد أصدقاء إلى أنني أخشى أن علاقتهما ستنتهي مثلما انتهت علاقتنا أنا ومُراد...

وبالحديث عن مُراد، فأنا لا أجد من الكلمات ما أكتبها، فمُنذ آخر مقابلة بيننا وأنا لم آراه مجددًا، بل ولم أسأل يقين عنه حتى، فكأنني أحاول طرده عن عقلي ومواصلة طريقي بسلام دون أية تشتتات، وربما هو أيضًا يسعى للشيء ذاته، فجميعنا يسعى

لحياةٍ هادئة رغم أن الهدوء لايتوافق مع الحياة بتاتًا، فدائمًا ما نجد الصراعات، ودائمًا ما نسعى لتجنبها....

أتى يومٌ جديد على تلك العائلة، وكان هذا اليوم من الأيام المميزة، فالجميع يجتمع بمنزلٍ واحد يُشاركون حدثًا جليلًا لأول مرة يشهدونه، فكانت تجلس جدتهم على الأريكة تُقطع الفاكهة وجوارها بدور ببطنها المُنتفخة وفمها الذي لم يتوقف عن تناول قطع التفاح من جدتها، كان سامح بجوارها يحمل جهاز التحكم ويُشيره على التلفاز بحثًا عن إحدى القنوات، أما عن زكريا فكان بجوار سارة على الأرض بعد أن أصبح الآن مراهقًا بالرابعة عشر من عُمره، فكانوا يتناقشون باسم المولود الذي لا يعلموا حتى الآن جنسه، فهما قد اتفقا على أن يجعلوها مفاجآة...

-لو جيه ولد سميه غنوج ... عشان ولاده يقولوله يا بابا غنوج

أنهى حديثه بمزاحٍ جعلها تدفعه ناهرة إياه:

-أنا إيه إللي خلاني أتناقش مع واحد زيَك أنا عايزة أعرف

تدخلت سارة بالحديث باقتراحٍ:

-لا لأ ... سميه علي ... عشان الناس تقولِك يا أم علي

دفعتها بدور مجددًا هادرة بنفاد صبر:

-إبعدي يا بت إنتِ وهو متخولنيش أطلع هرمونات الحمل عليكم ... سامح هو إللي هيختار الاسم .. مش كدة يا سامح

وجهت الحديث نحو سامح لتجده يردف بابتسامة واسعة وفخرٍ من قراره:

-أنا خلاص اخترت الاسم ... لو بنت، هتبقى سماح، ولو ولد هيبقى سميح ... عشان تمشي مع سامح

كبتت شعلة الغيظ بداخلها وهي تهتف باستنتاجٍ وبالقُرب من سامح:

-أه ... إنت قعدت اتناقشت معاهم قبل ما تطلع بالاسمين دول صح ؟ أنا قولت بردو العيال دي بتعدي ... كفاية زيكا

فغر زكريا فاهه بعد أن ذكُرت اسمه، فكان يُشير على نفسه متفوّهًا بتذمر إنقلب إلى الفخر في النهاية:

-أنا؟ !!... ده أنا حتى كنت هقولِك إني خلاص حددت حلمي وهبقى ظابط

رفع سامح حاجبيه بغير تصديقٍ سأل معه:

-لا يا راجل ... وهتبقى ظابط إيه بقى ... جيش ولا شُرطة

آجابه زكريا بفخرٍ وثقة:

-ظابط إيقاع .. أصل حاسس إني بحب المزيكا

ضربت بدور جبهتها بنفادٍ صبرٍ من هذا الذي يُكذب اعتقاداتها دائمًا، فهو لم يتغير طوال هذه السنوات، وربما لن يتغير مدى الحياة..

ما كادت تُبدي رأيها بحديثه حتى تدخلت سارة متسآلة كالعادة:

-يا بدور ... هي الناس قبل ما تخترع الأرقام ... كانو بيعدٌو إزاي ؟

انتبهت لسؤالها الذي بالطبع لا تعلم إجابته، فكيف تعلم هي بتلك المعلومات، لكنها قبل أن تتهرب منها ككل مرة، وجدت صوت الباب يصدح مُعلنًا عن وجود أحد الزوّار ...

وثب سامح من مقعده ليفتح لذاك الزائر الذي لم يكن سوى، فضل ويقين..

-أهلًا بالحبايب

هتف بها فضل وهو يفرد ذراعيه ليضمه ضمة أخوية تبعها بابتسامة واسعة على ثغره، أما عن يقين فاكتفت بالترحيب بسامح من بعيد ثم دلفت المنزل برضيعها الذي تحمله بين يديها...

-بقولك إيه يا سامح ... مش واخد بالك من حاجة ؟

قالها فضل وهو يُهندم قميصه بثقة أمام سامح الذي يُطالعه بحيرة ويحاول الإجابة على سؤاله:

-إيه ... جِبت قميص جديد .. بس أنا حاسس إني شوفت القميص ده عليك قبل كدة

نفى فضل حديثه بقوله:

-لا يا عم .. قميص إيه ... ركز شوية

عدُّل مجددًا من هنداب نفسه حتى إزدادت حيرة سامح وهو يسأل:

-إيه يعني ... غيَرت تسريحة شعرك ؟

زفر فضل الهواء من فمه بنفاد صبر أدلى معه الإجابة:

-يعني إنت مش واخد بالك من الُربع سنتي إللي طوّلته ؟

ضرب الأرض بقدمه وهو يهتف بتذمر:

-يا خسارة العُقلة إللي بعملها كل يوم

خرجت قهقهة ساخرة من جوف سامح وهو يُحيطه بذراعه جاذبًا إياه داخل المنزل، فصديقه لا يزال قصيرًا نحيلًا لم يتغير أبدًا، ولا يستطيع حتى أن يضحى أكثر طولًا ...

-تعالى يا فضل جوة عشان البرنامج...

استجاب فضل لحديثه وطفق يتحرك حيث البهو وحيث يجلس بقيتهم فيما عدا يارا التي كانت تجلس في ركنٍ قريبٍ أمام طاولة عريضة وضع عليها كُتبها الدراسية، فهي بآخر عامٍ بالجامعة وعليها أن تجتهد حتى يتم تخرجها...

يجلس يونس جوارها يحاول جاهدًا أن يُبسط لها الأمور خاصة بعد أن لاح على وجهها علامات اليأس وجعلها تهتف:

-مش فاهمة حاجة ... شكلي مش هعرف أتخرج السنادي

أنهت الحديث وهي تضع يدها على رأسها بضيق، فالمعلومات لا تثبت برأسها، فكأن ورمها يمنعها مجددًا من الإحتفاظ بالمعلومات على الرغم من أن الأعراض تلاشت تمامًا، وأضحت تظن أنها خالية من الأورام لكنها لا تزال تتلقى العلاج حتى تُجري التحليلات...

أمسك يونس إحدى الأوراق وعدّل من وضع نظارته أثناء قوله مُشجعًا:

-لو فضلتي تقولي كدة مش هتعرفي تكملي .... لازم تقتنعي عقلِك إنك تقدري

تنهدت بعُمقٍ وهي تُفكر بكلماته وتجذب إحدى الأوراق كي تقرأهم مجددًا، ابتسم يونس ابتسامة هادئة شجعتها خاصة وهو ينتشل المزيد من الأوراق كي يبدأ قرآتهم لها...

لفت انتباهه إحدى التحليلات المتدثرة بين أوراق المذاكرة؛ انتشل هذه التحليلات راميًا إياها بنظراتٍ مستفهمة، فهي لم تُخبر أحدًا أن نتيجة التحليلات قد ظهرت اليوم ولا يعلم إن كانت ستُخبرهم أم لا..

-دي التحاليل ! ... ليه مقولتيش إنِك هتاخديها انهاردة ؟

زاغت ببصرها بعيدًا عن عينيه وهي تُجيبه بقلق:

-عشان خايفة ... خايفة أفتحها ويطلع لسة عندي المرض ده ... أنا بجد مش عايزة الأيام إللي فاتت دي تتكرر تاني

كادت الدموع تُذرف من عينيها لكنه طمأنها بحديثه الهاديء:

-متقلقيش ... إن شاء الله هتبقى كويسة

لم تنبس ببنت شفة وبقيت كالصنم تطالعه يفتح هذه التحليلات وقلبها يخفق بهلع حتى كاد ينشطر إلى نصفين...

مرر عينيه على تلك الأوراق لبُرهة من الوقت كانت بالنسبة لها دهورًا، فكلما طال صمته طال معه قلقها وهلعها، هي لا ترغب بتلك الأيام أن تتكرر، لن تتحمل المزيد من العذاب مجددًا، فحتمًا حياتها ستنفد إذا بقي هذا الورم بجسدها..

-في إيه يا يونس ؟... التحليلات فيها حاجة ؟

قالتها بقلبٍ يخفق اضطرابًا ولم تجد منه سوى الصمت، الصمت الذي كان مُهلكًا بالنسبة لها..

ارتجفت أطرافها أكثر لكنها لم ترتجف لفترة طويلة، فسُرعان ما وجدته يرفع وجهه نحوها بابتسامة لامعة تُزين ثغره، وضربات قلبه السعيد تصل حتى مسامعها، فكان يهتف بصوتٍ غير مُصدق:

-سلبي ... التحليل سلبي...

إزدادت ضربات قلبها وهي تهتف بغير تصديق:

-يــ... يعني إيه ؟... يعني إيه سلبي ؟

فكأن عقلها توقف عن التفكير بتلك اللحظة، فلم تعد قادرة على استيعاب الكلمات وترجمتها ترجمة صحيحة، أما عن يونس، فكانت لهفته تتفاقم وهو يقول بصوتٍ ارتفع عن ما بدأ الحديث :

-التحليل سلبي ... يعني خلاص ... مبقتيش عيانة

تصاعدت أنفاسها وخفق قلبها بشدة حتى كادت تهوي من السعادة، وجدت يدها تنتشل منه التحاليل وتتفحصها بعينيها وكأنها لا تُصدق حديثه، إزدادت سعادتها أكثر وهي تهتف بغير تصديق:

-أنا خفيت ... أنا خفيــت..

تركت مقعدها بسُرعة لتهرول نحوهم هادرة بسعادة وحماس:

-بدور .. أنا خفيت يا بدور، أنا خفيت يا تيتا .. مبقاش عندي سرطان

شهق الجميع في دهشة وسعادة لأجلها حتى وثبت يقين أولًا تبادلها العناق كما فعل زكريا وسارة كذلك، أخذ الجميع يُهلل في سعادة ويُهنئها من صميم قلبهم، فهُم حقًا يهتمون لأجلها عكس ما كانت تتوقعه بالأيام السابقة...

بعد فترة من التهنئات جذبها زكريا هي ويونس حتى يجلسا بجوارهم تزامنًا مع حديث سامح:

-يلا يا جدعان بقى البرنامج هيبدأ...

اعتدل الجميع بجلستهم وقام سامح برفع صوت التلفاز حتى يصل إلى مسامع الجميع، ما كادوا ينغمسون في تلك الأجواء الدافئة حتى قطعهم صوت رنين الباب مجددًا، هذه المرة تبادلوا النظرات في حيرة، فهم لا ينتظرون ضيفًا آخرًا...

-مين إللي جاي ده كمان ؟

ٍسألتها بدور بحيرة فآجابها زكريا وهو يثب عن الأرض:

-أنا هروح أفتح

اتجه نحو الباب كي يفتحه ويُطلق شهقة مدوية نجمت عن تفاجئه:

-بابـــا!!

انقض على والده ليأخذه في عناقٍ دافيء جعل صالح يبتسم ويُبادله العناق، فهو قد أتى للتو من سفره وقرر أن يستقر مع عائلته التي افتقدها مُنفذًا نصيحة والدته التي أخبرته أن عائلته أثمن من أي كنزٍ على هذه الدُنيا..

إبتعد عنه زكريا وجذبه داخل المنزل وهو لا يزال يهتف مُنبهًا الجميع بمجيء والده، ما إن وثب صالح أمامهم حتى تركت يارا مقعدها وارتمت بأحضانه التي اشتاقتها بينما كانت بدور تُطالعه بعوالم باهتة وكأنها لا تُرحب بمجيئه..

أدرك صالح هذا فورًا ووثب قبالتها مباشرة هادرًا بأسفٍ حمل بعض المرح:

-أنا خلاص قررت أفضل هنا ... ومش هبعد تاني ... وإن شاء الله ربنا يقدرني وأعوُضكم عن الأيام إللي فاتت ... بس يا ترا لسة في مكان ليا ولا لأ ؟

رمقته والدته بنظراتٍ فخورة قالت معها:

-في مكان طبعًا ... ده بيتك وهيفضل بيتك طالما إنت عايز تفضل معانا

بادلها صالح بابتسامة هادئة إزدادت معها ابتسامات زكريا ويارا بينما بدأت الابتسامة الهادئة تشق ثغر بور بسعادة لهذا القرار، فأخيرًا ستسنح لها الفُرصة برؤية والدها مجددًا، صحيح أنها لا تزال تحمل بعض الضغينة اتجاهه، إلى أنها متيقنة أن الأيام ستمحي تلك الضغائن وتُعيد أسرتهما البسيطة، حتى ولو لم تأتي والدتهم...

قطع صالح وصلة الصمت هذه بقوله:

-طب إيه .. .مفيش مكان فاضي ؟

ما إن أدلى هذا السؤال حتى جذبه زكريا ليجلس بينهم على الأرض فوق مجموعة من الوسادات، فما هي إلى بُرهة قصيرة حتى بدأ هذا البرنامج وفغرت أفواههم بابتساماتٍ عِدة وهُم يشاهدون سما تُزين شاشة التلفاز هي وفرقتها التي أدت إحدى العروض المهمة...

تجلس على مقعدٍ مريحٍ أمامها المذيعة مباشرة وجوارها يجلس أعضاء فريقها مرتديين ملابس أنيقة تتناسب مع ما يحدث، فهم الآن أمام عددٍ من الجمهور لا بأس به وكاميراتٌ تُسجل ما يحدث وتعرضه مباشرة على التلفاز...

تصل سعادتها إلى السُحب في تلك اللحظة، فهي لا تُصدق أنها تُحقق للمرة الثانية إحدى أحلامها التي ظنُّتها مستحيلة، فمنذ أن تلقت تلك المكالمة التي تُخبرها بأنها ستظهر على التلفاز وهي تكاد تطير من السعادة هي وأعضاء فريقها..

تبتسم المذيعة أمامها وهي تسألها ببعض التحضر:

-الجمهور كان مبهور جدًا بآخر عرض عملتوه ... فممكن نعرف إزاي فرقة مبتدئة تقدر توصل للإنجازاتٍ دي في وقت قُصير كدة ؟

توترت قليلًا قبل الإجابة، فتلك الأجواء تُصيبها ببعض الرهبة، فأي خطأ قد يُصدر من جوفها الآن سيُعد بمثابة حبل المشنقة، فلا يتوقف الجميع عن التعليق على الآخرين، حتى ولو كانوا يحملون جميع الخِصال الحسنة، فالنقد غريزة في الجميع، وهناك أفواه لا تعلم معنى النقد ونجدها تلقي كلماتٍ بزيئة أمام من تنتقده ظانة بأنها بتلك الطريقة ستجعل مساره يعتدل، لكنها لا تعلم أنها تهدمه بتلك الطريقة...

حاولت المحافظة على ثباتها وهي تدلي الإجابة بتهذيب:

-الحقيقة مفيش حاجة أخدت وقت قُصير ... أنا عملت الفرقة دي من أربع سنين ... أربع سنين مدوقتش فيهم طعم الراحة، كنت شغالة ليل نهار ... وأوقات كتير كُنت عايزة استسلم ... بس لولا وجودهم جنبي مكنش زماني وصلت لده كله

سألتها المذيعة بفضول:

-وجود مين ؟

سرقت سما نفسًا عميقًا قبل أن تتحدث أمام الكاميرا مباشرة عبر مكبر الصوت الصغير الذي يتشابك مع ملابسها:

-وجود أهلي ... تيتا وأخوية وولاد عمي كلهم ... وصاحبتي يقين وجوزها وابن خالها، وطبعًا أعضاء فرقة فوق النجوم ... كلهم ساعدوني ... كلهم كان ليهم فضل في إني آجي البرنامج ده وأوصل للي أنا وصلتله...

كان يُتابعها بابتسامة هادئة انعكست على شاشة هاتفه الذي يعرض صورتها داخل هذا البرنامج، كان يجلس بجوار نافذة زجاجية عريضة يظهر من خلالها بُرج إيفل مع الشمس الساطعة التي غمرت أركان المنزل لتُظهر إشراقة وجهه ولحيته التي أزالها مع مرور تلك الأيام...

يشاهدها ببسمة فخرٍ على ثغره يتمنى من قلبه أن تواصل طريقها دون أن تتعثر أبدًا، وسعيدٌ أيضًا أنها حققت هذه الإنجازات ولم تتأثر بعدم وجوده بحياتها...

على جهة أخرى وداخل هذا المنزل الدافيء، كان الجميع يُصفق بسعادة بعد أن ذكرت اسمهم وكم أنها تتشكرهم، كان من المُفترض أن تضحى سارة بينهم، إلى أنها تركت الفريق من فترة قصيرة بعد أن ألح عليها بيشوي بالعودة مجددًا، لهذا السبب قررت أن تترك فرقة شقيقتها على أن تعاود معاونتها إذا احتاجت لذلك، ما إن انتهت تصفيقاتهم حتى أردف زكريا بمشاكسة:

-شايفة بتقول علينا كلام حلو إزاي ... مش إنتِ ... في الرايحة وفي الجاية تقوليلي إنت فاقد وبلوة سودة ... دا أنا هربي ابنِك لما ييجي لغاية ما يبقى زيي ومتعرفيش تعايريني بعد كدة

فغرت فاهها بغيظٍ من حديثه الذي جعلها تهتف بمعارضة:

-دا في عينِك .. أنا عُمري ما هخلي ابني يبقى زيَك

سخر زكريا من حديثها بقوله:

-كلهم بيقولو كدة وبيطلع زيي في الآخر

إزداد غضبها بعد حديثه وظنُّت بالفعل أن ابنها أو ابنتها سيضحيان مثله، فإذا تحققت تلك الشكوك فحتمًا ستفقد صوابها، فهي بالكاد تتحمله وتتحمل مشاكساته، إرتفع صوتها وهي تقول بمعارضة:

-لأ مش هيحصل

ربطت ذراعها تزامنًا مع كلماتها التي قطبت معهم حاجبيها بغضب، لاحظ سامح غضبها فآحاطها بذراعه نافيًا حديث زكريا الذي استمع إليه:

-سيبِك منه يا حبيبتي ... ابننا هيطلع يا شبهي يا شبهِك

لم تُصدقه بدور وكأن هرمونات حملها تجعلها أكثر غضبًا وتقلبًا في المِزاج:

-طب إفرض بقى شبه زيكا ... والله العظيم لو كان شبه لارميه قُدام باب جامع ... أنا صحتي على قدي ومش هستحمل أكتر من زيكا

قهقه بسُخرية على حديثها وحاول بعدها تلطيف الأجواء بنبرة حانية متغزلة:

-مش هيحصل متخافيش ... وفُكي التكشيرة دي واضحكي بقى مش عايزين الواد ولا البت يبقو عصبيين

عاندت بدور وآبت فك ذراعيها وهي تقول:

-لأ مش هضحك

دفعها دفعة هادئة أردف معها بابتسامة متغزلة:

-طب اضحكي وأنا هجبلِك كنافة

شقت البسمة ثغرها عقب كلماته التي ذكرٌتها بالماضي وجعلتها تهتف:

-إنت لسة فاكر ؟

أكد سامح على حديثه بعد أن وجد ابتسامتها تُزين ثغرها:

-وأنا أقدر أنسى حاجة زي دي .. دا إنتِ_

كاد يواصل تغزلاته بها لكن زكريا تدخل بحديثهما قاطعًا عليهما تلك اللحظة الهائمة بتذمرٍ ونفاد صبر:

-ما خلاص يا عم الرومانسي .. ناقص تقولُها هنُط في الشلال عشان خاطر عينيكي

تلاشت عوالم الهيام عن وجه سامح وهو يبتعد عن بدور ليوجه نظراته الحانقة صوٌب زكريا الذي دفع رأسه دفعة بسيطة تبعها بحديثٍ حانق:

-خليك في حالِك إنت كمان ... مش كفاية إن إنت إللي معصبٌها

التفت زكريا نحوه بتذمرٍ قال معه:

-وأنا مالي يعني ... أنا بقولها الحقيقة

ما كاد يرد عليه سامح وتتعالى أصواتهما في جِدالٍ حتى قطعتهما يارا بنفاد صبر:

-اسكتو بقى خلونا نعرف نسمع

أصمتهم صوتها وعاودوا مشاهدة التلفاز حيث تظهر سما أمام المذيعة تتحدث معها في تلك المقابلة التي ستنتهي بإحدى عروضها المشهورة، فكانت المذيعة تُنهي معها الحوار بسؤالها:

-وفي نهاية حلقتنا إنهاردة أتمنى إنك توٌجهي رسالة لكل الشباب إللي عندهم أحلام ونفسهم يحققوها بس مش عارفين بسبب الصعوبات

اتسعت بسمة سما وهي تلتفت نحو إحدى الكاميرات هادرة بثقة اتخذتها بعد مُدة من جلوسها على ذاك المقعد:

-أحب أقولهم يكملو طريقهم وينسو إن في حاجة اسمها صعوبات ... عشان إحنا نقدر على كل حاجة، حتى لو كان حلمنا شِبه مستحيل ... طالما عندنا عزيمة وإرادة، يبقى مفيش حاجة اسمها مستحيل....

أنهت حديثها بثقة تبعها صوت تصفيق الجمهور وانتهاء هذه الفقرة، بل وانتهاء البرنامج بأكمله بعد هذه الكلمات المُحفزة التي أنهت معهم الحوار، فهي الآن قدوة لكلٍ من لديه أحلام يسعى لتحقيقه ولا يجد المُحفز والداعم لذلك، فحتى وإن كان الفرد وحيدًا، هذا ليس سببًا يوٌقفه عن الطموح، فتحقيق الأحلام لا يتطلب وجود أشخاصٍ داعمة، فقط يتطلب العزيمة والمثابرة....

ألقت القلم على الطاولة بعد أن دوٌنت تلك الكلمات مُتذكرة ما حدث بهذا اليوم، اتسعت بسمتها بهدوءٍ وهي تتذكر بقية حكايتها وتمسك القلم مجددًا حتى تكتب....

انتهت حكايتي هنا، ربما لم تنتهي بزفافٍ ورقصٍ وغناء، لكنها انتهت كما أريدها أن تنتهي بالضبط، انتهت بعد أن خطوّت بأقدامي خط النهاية، لأكتشف بعدها أن ما بعد النهاية أصعب بكثيرٍ من الطريق نفسه، لكني في جميع الأحوال اعتبرت هذه نهاية حكايتي التي سأخطها بهذا القلم...

كم أتوق شوقًا لمقابلة والداي، فقط أريد إخبارهما أن ابنتكما التي ظننتماها صغيرة، ها هي اليوم تظهرعلى التلفاز ويُشاهدها الجميع، ها هي تقف بكل فخرٍ واعتزازٍ بهما، فإن كانا قد رحلا عن هذا العالم، إلى أنهما لم يتركا فؤادي أبدًا، سأظل أشعر بهما وأتأملهما في السماء لآخر يومٍ بحياتي، فلطالما كانت تُشجعني والدتي على ممارسة هواياتي، لطالما يسهر والدي بجواري حتى يُزيح عن قلبي طفرات اليأس التي تداهمني مساء كل يوم، فأنا بفضلهما أعلم كيف أتخطى الصِعاب وأواصل بجدٍ دون كللٍ أو ملل، أريد فقط مقابلتهما حتى أخبرهما جملة واحدة ألا وهي " شكرًا لكما... "

توقف قلبي عن الخفقان ما إن انتهت تلك الحلقة، أجلس في هذا التوقيت بين أعضاء فريقي اللذين أضحوا جزءًا من عائلتي، فبفضل مجهوداتهم العظيمة أصبحت في هذه المكانة، وعلى الرغم من صِغر سِنهم، إلى أن موهبتهم تفوقهم أعمارًا، وأنا حقًا ممتنة لتلقيني لتلك الفرقة المميزة...

بدأ الأطفال بالرحيل واحدًا تلو الآخر بعد أن صافحونني بابتساماتهم الواسعة، لا أزال أفكر بحياتي وتلك السلالام التي صعدتها حتى وصلت إلى هذا اليوم، ولا زلت حتى الآن أفكر في القادم، أفكر وأفكر حتى قطعني صوتٌ ودود اخترق صميم عقلي:

-حضرتِك الأنسة سما ؟

انتبهت إلى ذاك الصوت وإذا أنني أجد رجلًا يبدو بأواخر العشرين، لكن بسمته الهادئة ولحيته البسيطة أعطته جاذبية جعلتني أمعن التحديق به وبعينيه الداكنة، فكان التوتر بادٍ على وجهي وأنا أوميء برأسي إيجابًا حتى حادثني بامتنانٍ آشار معه على جودي_ إحدى أهم أعضاء الفريق_

-أنا إبراهيم ... عم جودي ... وبصراحة جودي مش بتبطل كلام عنِك ... لدرجة إنها خلتني أعوز أشوفِك وأشكرِك بنفسي

حسنًا ... يبدو أن الحكاية لم تنتهي بعد، فنظراته الهادئة واطراءته جعلتني أبتسم رغمًا عني، جعلتني أتأكد أن للحكاية بقية، فالطموح لا ينتهي، والأحلام لا تتوقف، وأنا على استعدادٍ لصعود سُلم المجد مجددًا، حتى أحلق فوق السحاب ... عفوًا، أقصد ... فوق النجوم....

(تمت بحمد الله)